

ISSN 1818-9849



الجمعية العلمية لكليات الآداب



اتحاد الجامعات العربية

مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب

مجلة علمية نصف سنوية محكمة

تصدر عن الجمعية العلمية لكليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات
العربية

1433هـ/2012م

العدد الأول ب

المجلد التاسع

© جميع الحقوق محفوظة للجمعية العلمية لكليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2012

لا يجوز نشر أي جزء من هذه المجلة أو اقتباسه دون الحصول على
موافقة خطية مسبقة من رئيس التحرير

الآراء الواردة في هذه المجلة لا تعبر بالضرورة عن رأي
هيئة التحرير أو سياسة الجمعية العلمية لكليات الآداب

تنفيذ وإخراج: مجدي الشناق

هيئة التحرير

رئيس التحرير

محمد خالد العجلوني، الأمين العام للجمعية العلمية لكليات الآداب، عميد كلية الآداب، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

سكرتير التحرير

أميرة علي الحواري، الجمعية العلمية لكليات الآداب، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

الأعضاء

- أ.د. عبدالله عنبر، عميد كلية الآداب، الجامعة الأردنية.
- أ.د. محمد ربيع، عميد كلية الآداب، جامعة جرش.
- أ.د. محمد العناني، عميد كلية الآداب، جامعة البترا.
- أ.د. محمد محافظة، عميد كلية الآداب، الجامعة الهاشمية.
- أ.د. عبد الحميد غنيم، عميد كلية الآداب، جامعة الزرقاء.
- د. محمد عبيد الله، عميد كلية الآداب، جامعة فيلادلفيا.
- د. محمد الدروبي، عميد كلية الآداب، جامعة آل البيت.

اللجنة الاستشارية

- أ.د. ميمونه خليفة الصباح، جامعة الكويت، الكويت.
- أ.د. رامي محمد الله، جامعة النجاح، فلسطين.
- أ.د. عبد الله النبهان، جامعة البعث، سوريا.
- أ.د. يوسف عبد الله، جامعة صنعاء، اليمن.
- أ.د. علي فهمي، رئيس مجمع اللغة العربية، ليبيا.
- أ.د. خليل جهج، الجامعة اللبنانية، لبنان.
- أ.د. فؤاد شهاب، البحرين.
- أ.د. محمد الهدلق، السعودية.
- أ.د. عادل الطويسي، الأردن.
- أ.د. حسنين ربيع، قطر.
- أ.د. عز الدين الأمين عبد الرحمن، السودان.
- أ.د. عبد الحميد جكون، الجزائر.
- أ.د. سامي عبد الحميد محمود، الشارقة.
- أ.د. موسى جواد الموسوي، جامعة بغداد، العراق.

مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب

مجلة علمية نصف سنوية محكمة

القواعد الناظمة للمجلة

- مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب مجلة علمية نصف سنوية محكمة معتمدة تصدر عن الجمعية العلمية لكليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية.
- يقدم البحث للنشر باللغة العربية مع ملخص له باللغة الانجليزية، ويجوز أن يقدم بإحدى اللغتين الإنجليزية أو الفرنسية أو أية لغة أجنبية أخرى تتيسر طباعتها بموافقة هيئة التحرير مع تقديم ملخص له باللغة العربية.
- تنشر المجلة البحوث العلمية التي تتوافر فيها الأصالة والمنهجية العلمية والإحاطة والاستقصاء، والتي تراعى فيها الإشارات الدقيقة إلى المصادر والمراجع، ولم تقدم للنشر في أي مكان آخر، ويجوز نشر نقد متخصص أو مراجعة لأحد المؤلفات العلمية الصادرة في الوطن العربي أو خارجه بالإضافة لنشر تقارير عن الندوات والمؤتمرات التخصصية العربية والعالمية، وتعد البحوث التي تقبل للنشر بحوثاً معتمدة لأغراض الترقية.
- تعنى المجلة بنشر البحوث العلمية المقدمة إليها في مجالات الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية والخدمة الاجتماعية والصحافة والإعلام.
- أن يكون البحث مرقوناً على الحاسوب وبمسافة مزدوجة بين السطور، وتقدم أربع نسخ منه مع قرص مرن قياس 3.5 انش، متوافق مع أنظمة (Ms Word) IBM.
- أن لا يزيد عدد صفحات البحث بما فيها الأشكال والرسوم والجداول والملاحق على ثلاثين صفحة.
- تعرض البحوث المقدمة للنشر في المجلة حال قبولها مبدئياً على محكمين اثنين في الأقل من ذوي الاختصاص، يتم اختيارهما بسرية مطلقة من رئيس التحرير.
- تحتفظ المجلة بحقوقها في الطلب من المؤلف أن يحذف أو يعيد صياغة بحثه أو أي جزء منه بما يتناسب وسياستها في النشر.
- تنتقل حقوق طبع البحث ونشره إلى المجلة عند إخطار صاحب البحث بقبول بحثه للنشر .
- لا تدفع المجلة مكافأة عن البحوث التي تنشر فيها.
- تهدي المجلة لمؤلف البحث بعد نشره نسخة العدد الذي نشر فيه.

- ترسل البحوث على العنوان التالي: -

الأستاذ الدكتور أمين عام الجمعية العلمية لكليات الآداب،

رئيس تحرير مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب

كلية الآداب - جامعة اليرموك، اربد، الأردن

هاتف: 00962 2 7211111

فاكس: 00962 2 7211137

البريد الإلكتروني: e-mail: saufa@yu.edu.jo

الموقع الإلكتروني: website: http://saufa.yu.edu.jo

التوثيق

ترقم الإحالات في متن البحث بطريقة متسلسلة، بين قوسين صغيرين^(١)

وتكون هوامش الإحالة إلى المصادر والمراجع في نهاية البحث على النحو التالي، في حالة أن يكون المصدر أو المرجع كتاباً:

إسم المؤلف كاملاً: المصدر أو المرجع، عدد الأجزاء، مكان النشر، الناشر، السنة، الصفحة.

ضيف، شوقي: العصر العباسي الأول، مصر، دار المعارف، 1966، ص24.

وفي حال الرجوع إلى الدوريات أو المجلات تكون الإحالة إليها على النحو التالي:

إسم المؤلف كاملاً: عنوان البحث، إسم الدورية أو المجلة، المجلد، العدد، السنة، الصفحة.

مثال:

سعيدان، أحمد سليم: "حول تعريب العلوم"، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، المجلد الأول، العدد الثاني، تموز 1978، ص101.

وتثبت في آخر البحث قائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمدها الباحث في بحثه حسب التسلسل الألف باني لاسم المؤلف العائلي، بحيث تذكر المراجع العربية أولاً ثم تليها المراجع الأجنبية.

الاشتراك في المجلة

الاشتراك السنوي للأفراد: ثلاثة دنانير داخل الأردن وسبعة دولارات أمريكية أو ما يعادلها خارج الأردن وللمؤسسات خمسة دنانير داخل الأردن وعشرة دولارات أمريكية أو ما يعادلها خارج الأردن.

محتويات العدد

البحوث باللغة العربية

237	* العراق والأزمة الاقتصادية العالمية 1929-1933 قراءة وثائقية في تقارير الملك فيصل الأول وياسين الهاشمي إسماعيل نوري الربيعي
255	* عامل التقريب في النحو الكوفي خالد المساعفة
281	* التحليل الجغرافي للمعطيات الطبيعية المحددة لحالة الغطاء النباتي في حوض وادي وهيدة- جنوب الأردن علي حمدي أبوسليم
319	* الزمن في المقامة الأصفهانية محمد علي ابنيان، سهيل محمد خصاونة وعلي صالح بن تميم
335	* النهضة العربية: دراسة في القومية العربية من خلال جريدة القبلة (1334-1343هـ) (1916-1924م) أحمد جوارنة وجبر محمد الخطيب
359	* واقع التمكين الأسري في المناهج التعليمية في الأردن أحلام محمود مطالقة
379	* ريف القدس وحكام اللواء في القرن السابع عشر الميلادي إبراهيم حسني ربايعه
415	* البنيوية التكوينية وإشكالية المصطلح في القراءات النقدية المعاصرة نورالدين صدار
431	* واقع العلاقات التركية الدولية: المحددات والتوجهات (2002-2010) محمد المقداد
471	* المظاهر البراغماتية والعقدية في سياسات الإخوان المسلمين في الأردن خالد الدباس

<p style="text-align: center;">Association of Arab Universities Journal for Arts A Biannual Refereed Academic Journal Published at Yarmouk University, Irbid, Jordan by the Society of Arab Universities Faculties of Arts, Members of AARU.</p>	<p style="text-align: center;">مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب مجلة علمية نصف سنوية محكمة تصدر في جامعة اليرموك، إربد، الأردن، عن جمعية كليات الآداب في الجامعات أعضاء اتحاد الجامعات العربية.</p>
<p>Subscription Form</p>	<p style="text-align: right;">أرجب الاشتراك بالمجلة لمدة <input type="checkbox"/> سنة واحدة <input type="checkbox"/> سنتان <input type="checkbox"/> ثلاث سنوات</p>
<p>Name: الاسم: Address: العنوان: P.O. Box: ص.ب.: City & Postal Code: المدينة والرمز البريدي: Country: الدولة: Phone: هاتف: Fax: فاكس: E-mail: البريد الإلكتروني: No. of Copies: عدد النسخ: Payment: طريقة الدفع: Signature: التوقيع: ترسل الشيكات المصرفية مدفوعة لصالح "جمعية كليات الآداب، كلية الآداب، جامعة اليرموك، إربد، الأردن." Cheques should be paid to The Society of Arab Universities Faculties of Arts, Faculty of Arts, Yarmouk University, Irbid, Jordan.</p>	<p>I would like to subscribe to the Journal For <input type="checkbox"/> One Year <input type="checkbox"/> Two Years <input type="checkbox"/> Three Years</p> <p>أسعار الاشتراك السنوي داخل الأردن Outside Jordan Inside Jordan 7 دولار أمريكي 3 دينار US \$ 7 JD 3.00 Individuals 10 دولار أمريكي 5 دينار US \$ 10 JD 5 Institutions</p> <p>سعر النسخة الواحدة (دينار أردني) One Issue Price Standard Price JD 2.000 دينار 2.000 Students ID 1.300 خصم 40% للكليات ومراكز البيع 40% Discount for Bookshops</p>
<p>Correspondence</p>	<p>المراسلات</p>
<p>Subscriptions and Sales:</p>	<p>الأستاذ الدكتور أمين عام جمعية كليات الآداب. رئيس تحرير "مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب" كلية الآداب - جامعة اليرموك، إربد، الأردن. هاتف: 00962 2 7211111 فرعي 3555 فاكس: 00962 2 7211137</p>

العراق والأزمة الاقتصادية العالمية 1929-1933

قراءة وثائقية في تقارير الملك فيصل الأول وياسين الهاشمي

إسماعيل نوري الربيعي*

ملخص

في أعقاب المضاربات المالية التي غطت سوق المال الأمريكي، برزت أحوال الانهيار، بعد أن بلغت أسعار الأسهم مستويات غير مسبوقة، إلى الحد الذي توقفت فيه عمليات البيع والشراء، لينتج عن ذلك الشلل التام الذي نال من الاقتصاد الأمريكي، لا سيما في أعقاب الخميس الأسود 24 أكتوبر / تشرين الأول 1929، والعواقب التي تمثلت في البطالة التي شملت 25% من اليد العاملة الأمريكية، وتسلسل ذلك إلى البلدان المرتبطة باقتصاديات السوق. ولم يطل الأمر حتى كان العراق قد شهد الآثار لتلك الأزمة، وفي هذا عمدت الحكومة إلى تشكيل لجنة برئاسة إرنست داوسون Ernest Dowson للتحقيق في مشكلة الإقطاع الزراعي عام 1929، كل هذا بالإضافة إلى استقدام الخبير المالي والاقتصادي هلتون يونغ Hilton Young عام 1930، من أجل دراسة الأوضاع ووضع تقرير يمكن من خلاله التصدي لآثار الأزمة.

يبرز التناغم في المتابعة من قبل الملك فيصل الأول وياسين الهاشمي، في طريقة الرؤية والنظر إلى الأسباب والعوامل التي جعلت من آثار الأزمة وقد برزت ملامحها على الواقع العراقي، وهذا ما يكشف عنه القراءة التاريخية للتقارير التي وضعت من قبلهما، للوقوف على الأسباب ووضع المعالجات.

كان مجلس الوزراء قد أقر سفر الملك فيصل الأول إلى أوروبا لغرض إجراء الفحوصات الطبية التي أقرتها اللجنة الطبية الخاصة. وقد تم سفره في 23 حزيران عام 1930. والواقع أن السفارة هذه لم تخل من مناورة سياسية، تتمثل في تقديم الدعم والمشورة إلى نوري السعيد الذي حزم حقائبه إلى لندن في شهر تموز من ذات العام لتوقيع معاهدة 1930 العراقية - البريطانية⁽¹⁾ ولم يحصر الملك نشاطه في اتجاه واحد، بل عمد إلى إتمام جولته في فرنسا وألمانيا وإيطاليا⁽²⁾.

وكان للآثار التي خلفتها الأزمة الاقتصادية العالمية انعكاسها الواضح على أغلب بلدان العالم، وعلى درجة التخصيص، البلدان التي تعتمد الاقتصاد الحر.

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2012.

* قسم التاريخ الحديث والمعاصر، الجامعة الأهلية، المنامة، مملكة البحرين.

ونتيجة لتبعية الاقتصاد العراقي لهذه الأسواق، لاسيما الأوروبية منها، ركز الملك فيصل على اللقاء بخبراء الاقتصاد والمال في تلك البلدان للخروج برؤية واضحة لحجم آثار هذه الأزمة ومتعلقاتها بالعراق. وجمع ما يمكن الحصول عليه من الأفكار الناجعة والعملية، لجعل البلاد في منأى عن الأزمات التي من الممكن أن تبرز. ولقد توضّح للملك من خلال جولاته الشخصية، الأسلوب الذي اعتمده تلك البلدان، حيث تلخص في الاعتماد على الإمكانيات الذاتية، وغلق المنافذ في وجه البضائع الأجنبية، مع ازدياد التنافس الدولي الذي تلخص في محاولات السيطرة على أسواق جديدة في سبيل إغراقها بالبضائع. من دون الأخذ بنظر الاعتبار، حجم الأسواق وسعتها وحاجاتها الأساسية في التبادل البضائعي، فلقد كان للكساد الذي عم أسواق البلدان الصناعية، وازدياد أفواج العاطلين، أثر في جعل تلك البلدان في سعير من التنافس لا يهدأ. وهو يلخص الوضع الاقتصادي العالمي حيث يقول: (لا ريب في أن السياسة الاقتصادية الدولية الحاضرة، لا ترمي إلى التعاون وفتح الباب لتبادل الحاجيات كما يشاع في الأندية السياسية والاقتصادية، بل على العكس من ذلك، إنها تسعى لإيجاد أسواق متعددة لكل أمة وحكومة سوق يختص بها)⁽³⁾.

مواجهة البلدان الصناعية

لقد كان من الجلي، اتجاه البلدان الصناعية الكبرى، للخروج من ضائقتها الاقتصادية، نحو البلدان الفقيرة في بناها الارتكازية والمتخلفة في اقتصادياتها. مستغلة حاجة تلك البلدان إلى البضائع الأساسية التي تسد طلبها. وقد وضحت الصورة بشكل أدق حين بدأت الشركات الرأسمالية الكبرى في بيع امتيازاتها الصناعية لدى البلدان الأقل نمواً في هذا المجال. حتى غدت ظاهرة انتشار المصانع التكميلية في بلدان العالم الثالث ومنها البلدان الآسيوية وأمريكا اللاتينية بشكلها الواسع. حتى أن الملك فيصل يصف هذا الانتشار الهائل لانتقال رأس المال الغربي نحو تلك الأقطار بـ (الغارة) وأن الغزو الذي تتعرض إليه أسواق تلك البلدان لا يختلف بأي حال من الأحوال عن (القواعد العسكرية) ويخلص إلى نتيجة مفادها: - ((وفي النتيجة لا فرق بين قواعد الغزو الصناعية وبين القواعد العسكرية التي تتخذها الأمم عادة للاستيلاء على ممالك غيرها، إذ إن القصد في كلتا الحالتين هو السيطرة المالية، سواء كان ذلك الاستيلاء العسكري أو التجاري))⁽⁴⁾.

تعرضت السوق العالمية إلى حالة الكساد، بعد أن زاد العرض بشكل كبير على حساب الطلب. وكان للتطور التكنولوجي الذي عم خطوط الإنتاج الزراعي والصناعي، وتطور الخبرة الفنية والتوسع في استخدام الفنون التقنية، الأثر البالغ في زيادة الإنتاج، ما وسم السياسة العامة لهذه البلدان، بالتوفير والحماس نحو الحصول على مستعمرات، ليتسنى الحصول على المواد

الأولية اللازمة لإتمام العمليات الصناعية القائمة لديها. إضافة إلى محاولة ضمان أسواق جديدة يمكن لها تصريف بضائعها في أسواقها، وتحت وطأة ظروف كهذه تعرضت البلدان التي يعتمد دخلها القومي على إنتاج المواد الأولية إلى الاضطراب، بحكم تداخل العمليات التجارية واعتمادها على أسواق البلدان الرأسمالية التي تقوم بالشراء منها. إلا أن الأزمة وعسر الأوضاع الاقتصادية جعلتا الفعاليات الاقتصادية بشكل عام، لا تفي بسداد كلفة الإنتاج، بالإضافة إلى الرسوم التي تتطلبها العمليات التجارية. مع استمرار عمليات الاستيراد، مما أدى إلى خلل فاضح في الميزان التجاري ونكسة خطيرة في ميزان المدفوعات⁽⁵⁾.

الآثار المستقبلية

كانت الاتصالات التي أجراها الملك فيصل مع خبراء الاقتصاد على درجة عالية من الدقة والموضوعية، فقد وضع ملاحظات في العام 1930. وتنبأ باستمرار الأزمة الاقتصادية، وسريان آثارها إلى ثلاث سنوات قادمة. وبالفعل استمرت حتى عام 1933. وقد ربط جميع المهتمين بين الأزمة العالمية ونهاية الحرب العالمية الأولى، حيث اعتبروها، إحدى نتائج التطور الاقتصادي والاجتماعي على الرغم من مرور فترة أحد عشر عاما، هي الفاصل الزمني بين نهاية الحرب عام 1918 وظهور الأزمة عام 1929. وقد أدى التنافس العظيم الذي أقدمت عليه الدول الصناعية وتوسيع مجالات استثمار المال والأراضي بشكل واسع دون الأخذ بنظر الاعتبار سعة الأسواق لاستقبال البضائع، إلى تراكم البضائع في مخازنها ومناطق الشحن. وبالفعل، كان المنتجون تحت وطأة آثار الحرب، حيث عانى الجميع من زيادة أسعار البضائع خلال سنوات الحرب، مما جعلهم يتجهون بكل ثقلهم نحو زيادة الإنتاج لتحقيق أعلى نصيب من الأرباح. ولا يمكن تحت أي حال من الأحوال حصر أسباب الأزمة الاقتصادية العالمية بالتنافس الذي حصل بين البلدان الصناعية، بل تدخل عوامل دولية أخرى فيها. فعلى سبيل المثال كان لتبني الاتحاد السوفيتي، أسلوب الإنتاج المغلق، أثره الواضح، في حرمان السوق العالمي، من مستهلك له ثقله، يضاف إلى ذلك إقدام السوفيت على غزو السوق العالمي بالبضائع وهو ما زاد من تأجيج حدة الأوضاع واضطرابها⁽⁶⁾.

ولا يمكن إغفال إسهام التطورات التي بلغتها بلدان أخرى في مجال التنافس على تسويق بضائعها، وتحويل دخلها القومي من الاستيراد إلى التصدير، في تفاقم حالة الكساد. ومن هنا يشير الملك فيصل الأول إلى ضرورة تنظيم (خططهم ويوحدوا جهودهم بمساعدة الحكومة سواء من وجهة التشريع أو من وجهة الإسعاف والتنفيذ لإنقاذ البلاد من الكارثة العظمى بكل ما لديهم من الحزم وهذا السبيل وحده هو الذي يكفل لنا مركزا اقتصاديا قويا بين الشعوب ويحقق آمالنا وأمانينا المقبلة)⁽⁷⁾.

مشكلات الدولة الجديدة

لم تكن الظروف التي أحاطت بتأسيس الدولة العراقية، نموذجية، أو إن الأمر قد تم من دون مشاق ومصاعب فلم يظهر كيان الدولة إلا بعد مخاض عسير سبقته ثورة وطنية عمت البلاد بأسرها، وساهمت فيها القوى الشعبية جميعها، فكانت بناء معقدا على الصعيد التاريخي، حيث راحت المزيد من القوى تطالب بحصتها في طريقة النظر إلى السلطة السياسية. فكان لا بد من مؤسسات وأجهزة إدارية تؤمن الحاجات الأساسية للشعب. وكان هذا المدخل التقليدي، لهيمنة الروتين والبيروقراطية وتنامي دور النخبة السياسية الحاكمة المدعومة من قبل القوى الدولية الكبرى صاحبة النفوذ (بريطانيا). والملك في تقريره لا يذيع سرا حين يقول صراحة: (لقد أخذت الحكومة العراقية في نظرها هذه الناحية⁽⁸⁾ بعين الاعتبار وقامت بتشكيلاتها منذ بداية تأسيسها لأن أسس الحكومة وضعت بصورة مستعجلة ومؤقتة)⁽⁹⁾ من هذا التصور يقترح الملك إناطة دور أوسع للجهاز الحكومي في متابعة شؤون الزراعة، فيرى أن على الحكومة أن تقدم على شراء المحاصيل من الفلاحين مع التركيز على محافظة⁽¹⁰⁾ واحدة لمتابعة شؤون تطوير المنتجات الزراعية، وبالتالي تعميم التجربة في حالة نجاحها. ويركز بصورة خاصة على محاصيل محددة لها أثرها في التصدير مثل الحنطة والرز والكتان. مع وجوب العناية بالبضاعة المصدرة من حيث جودة النوعية وخلوها من المواد الغريبة والشوائب. ولا يفوته التأكيد على ضرورة الاستفادة القصوى من الحاصلات الزراعية في توطيد دعائم الصناعات الاستخراجية، فيحث على الاستفادة من الأبحاث التي تجريها مصلحة الأبحاث في مديرية الزراعة مع التأكيد على التوسع في مجال صناعة السكر من التمور أو قصب السكر وصناعة الكحول والعمور⁽¹¹⁾. وكان الملك يؤمن إيمانا مطلقا بأن هذا التصور سيكون مجرد حبر على ورق، إن لم يظهر للعيان التأزر والتعاون بين الفلاحين والحكومة⁽¹²⁾. والواقع أن اهتمامه بالزراعة وتطويرها لم يكن مرحليا، بل جاء نتيجة وعي كامل لحقيقة اعتماد الاقتصاد العراقي على قطاع الزراعة. وبيّيم الدكتور عبد المجيد كامل التكريتي علاقة الملك فيصل بهذا القطاع بالمحدودية على اعتبار أنه، (لم يكن بوسع أن يتخطى العلاقات الإقطاعية السائدة في الريف إلا في حدود ضيقة، فيما كان يعتمد كل تطور زراعي حقيقي على التصدي لتلك العلاقات قبل كل شيء. ثم أن البريطانيين أنفسهم لم يروا من مصلحتهم أن تمتد يد التغيير الجذري إلى الهيكل الاجتماعي القائم الذي رأوا فيه ضمانا لعرش الملك فيصل في الوقت ذاته)⁽¹³⁾.

التجارب الخارجية والمعالجات

كان للزيارة التي قام بها الملك إلى بعض البلدان الأوربية، أثرها الواضح في تعميق بعض وجهات النظر لديه، فهو في معرض تقييمه لمسألة ملكية الأراضي، نراه معجبا أيما أعجاب بالأسلوب الذي اتخذته إيطاليا. ويرى في مسألة نظام الأراضي حسم ثلاث نقاط رئيسية مثلها في تحديد الملكية وإصدار قانون واجبات حقوق الزراع والعمل وفق أسلوب التحكيم الإجباري. على حساب الأخذ بنظر الاعتبار نصوص العقود المبرمة بين الفلاحين ومالكي الأرض⁽¹⁴⁾ مع دراسة كافية للتباين الحاصل بين العقود التي يبرمها أصحاب (اللزمة) أو أصحاب المضخات مع الفلاحين. كان رأي الملك في الارتقاء بشؤون الزراعة وتشجيعها يمر عبر النظر في ضريبة الأرض وخفضها إلى أقل قدر ممكن أو العمل إلى إلغائها مؤقتا إلى حين انتهاء أسباب الأزمة الاقتصادية العالمية. وتشجيع أصحاب الأراضي الذين يستخدمون المضخات عن طريق تقديم الإعفاءات وخفض أسعار النفط. وفق ذات السياق أكد أن على الحكومة أن تراعي مربي المواشي من خلال تخفيض الضرائب عليهم. والعناية بتوفير الحاجات الأساسية لهم. والقضية الأساس التي شغلت تفكيره تمثلت في مسألة تنظيم الري، حيث لم يستطع أن يخفي إعجابه بالتجربة المصرية في هذا المجال واستغلال مواردها المائية إلى الحد الأقصى. إلا أن برنامجه الذي وضعه حول تنظيم السدود والجداول والقناطر والمنازل والذي وضع له سقفا زمنيا تراوح بما لا يقل عن خمسين عاماً⁽¹⁵⁾، مثل بجلاء حجم الفاقة والفقر اللذين كانا يعتريان الخزينة العراقية.

صناعة العراق

كانت وجهة نظر الملك حول الصناعة في العراق واقعية إلى حد بعيد، فلقد كان واعيا لحقيقة قلة المعامل وشحة رؤوس الأموال الوطنية حيث يقول: (فتأسيس⁽¹⁶⁾ المعامل وتنشيطها يتوقف على مساعدة الحكومة لها وحمايتها لمدة معينة من المزاحمة الأجنبية. وذلك بفرض ضرائب عالية على الوارد الأجنبي من الجهة الواحدة ومن الأخرى أن تشتري الحكومة حاجياتها من تلك المعامل ترجيحاً على الغير)⁽¹⁷⁾. والواقع أن المعامل الرئيسية في العراق خلال العام 1930 لم تكن تتجاوز الثلاثة وهي معمل فتاح باشا لصناعة الأقمشة في الكاظمية ومعمل الدباغة والصابون. ولم تكن هذه المعامل بالصورة المتكاملة، بل كانت بحاجة إلى الكوادر الفنية والخبرات إضافة إلى قلة إنتاجيتها. ولا بد من الإشارة هنا، إلى أن واقع الصناعة في العراق لم يقتصر على هذه المعامل بل كان نظام الإنتاج الحرفي واسعاً، يشمل الحياة الصناعية بشكل عام، حيث تنتشر الورش الصناعية في مناطق واسعة من القطر. على الرغم من الخلل الذي تعرضت له بنية الإنتاج الحرفي وقطاع الحرفيين بحكم التطورات الاقتصادية التي ظهرت في العراق نتيجة لارتباطه بحركة الاقتصاد العالمي. وتعرض الإنتاج الصناعي المحلي لمنافسة شديدة من قبل البضائع المستوردة

المصنعة في بلدان لها قدرات تقنية عالية. وبذلك انحسرت أنشطة الصناعات الحرفية، إلا أنها ظلت ماثلة للعيان بحكم فقر البنية الصناعية العراقية. وكان الملك ينظر بعين التقدير والإعجاب إلى نشاط الجارتين الشرقية والشمالية (إيران وتركيا) وجهودهما الحثيثة في تأسيس المصانع وجهودهما الدائبة في دعم الرأسمال الوطني، من خلال مساهمة الدولة في هذا القطاع⁽¹⁸⁾.

مستقبل النفط العراقي

وضع الملك آمالا كبيرة على النفط العراقي، الذي اعتبره المورد الذي يجب أن يستثمر بدقة، وأن يعنى بدراسة أهميته بحكمة والابتعاد عن المبالغة، واضعاً هدفاً محدداً له، مكرساً في أن يكون في خدمة البلاد، بالاستفادة من موارده المالية في تنمية القطاعات الاقتصادية الرئيسية (الصناعة والزراعة)، لم يغيب عن الملك حجم الخطر المحدق بالبلاد وأطماع القوى الكبرى الطامحة في الحصول على موطن قدم ونفوذ، للسيطرة على هذا المعدن الثمين، الذي يدخل كعامل أساسي في تسيير دفة الماكينة الصناعية ولم يستطع الملك فيحصل أن يكتفم غيظه وتبرمه من الامتياز الذي حصلت عليه شركات النفط الأجنبية، حيث استغلت بريطانيا المفاوضات حول ولاية الموصل مع الجانب التركي، كورقة ضغط للحصول على الامتياز بأبخس الأثمان. وهو يقيم الأوضاع بقوله: (أتمنى أن تسفر المذكرات الجارية⁽¹⁹⁾). عن نتيجة مرضية كما أمكن لتعديل الحيف الذي لحق بنا في الظروف الحرجة التي كان فيها الوطن و النفط الوطن في خطر⁽²⁰⁾.

مثلت خطوط السكك الحديدية، أهمية استثنائية في آراء الملك فيصل الأول حول النهوض بالواقع الاقتصادي للعراق، ومن بين طرق سكك الحديد الخارجية والداخلية، ركز على خط سكة حديد بغداد - حيفا، الذي اعتبره المنفذ الذي سيطر بالعراق على البحر، إضافة إلى الانخفاض الذي سيعم أثمان نقل البضائع بحكم انتظام سير النقل، وسيكون واسطة ربط شاملة بالمنطقة، بالإضافة إلى اختصار عامل الزمن لمدة ساعات، بعد أن كان لعدة أيام⁽²¹⁾. وكان يحذوه الأمل في أن يبدأ العمل في خلال فترة قريبة، لشدة إيمانه بالفوائد التي من الممكن أن يقدمها ذلك الخط في نمو التجارة العراقية.

الحلول المقترحة

لم يغيب عن فكر الملك أن يكون تقريره عاما وشاملا، فقد كانت اتصالاته بخبراء المال والاقتصاد إلى درجة من العمق بحيث وضع الكلف التخمينية لكل مشروع.

جدول يبين المشاريع وكلفتها التخمينية حسب تقرير الملك فيصل الأول عام 1930

المشروع	الكلفة التخمينية
الطرق والمواصلات	100 لك روبية ^(*)
خزان الحبانية	80 لك روبية
سدة الكوت ونهر الفرات	200 لك روبية
مبالغ دعم الصناعة والزراعة	40 لك روبية
خزان عقرقوف وأبو غريب ويرجع عليهما خزان قزلباط (السعدية)	100 لك روبية

*. اللك: يساوي مائة ألف روبية، ويعادل 6666 باون، ويعادل 32443 دولار.

وقد كان التقدير لا يتجاوز الخمسمائة لك روبية وضع لها سقفا زمنيا قدر بعشر سنوات، وضع لكل سنة خمسين لك روبية. مضيها لها مبلغ مائتين وخمسين لك، للإنفاق على المباني الحكومية في العاصمة وإصلاح الأنهر وكريها في البصرة وتوسيع شبكات الري، وعلى هذا تكون الحسبة بما لا يتجاوز مبلغ سبعمائة وخمسين لك روبية. وقد وضع الملك هذه التخمينات بكل ثقة، آخذا بنظر الاعتبار الموارد المالية، التي ستدخل الخزينة العراقية عن طريق إنتاج النفط وتسويقه خلال السنوات الأربع القادمة، أي في العام 1934. وكان المبلغ المقدر عن واردات النفط بما يتراوح بين 500 ألف إلى 600 ألف جنيه⁽²²⁾.

اقترح الملك تأسيس (المجلس الاقتصادي الأعلى) تناط به مهام دراسة المشاريع الصناعية والزراعية والتجارية المقترح تأسيسها مع دراسة الواقع الاقتصادي العام للقطر ووضع الدراسات والمقترحات والحلول لما يعترض القطاعات الاقتصادية ويحد من تقدمها ونشاطها. ويكون المجلس برئاسة الملك أو ينوب عنه رئيس الوزراء ومن عضوية وزير المالية والأشغال والري، وستة أعضاء: تاجر واحد، وممثل عن البيوت المالية، واثنين من ملاكي الأراضي، واثنين من الصناعيين. ويكون اجتماع المجلس شهريا⁽²³⁾.

ياسين الهاشمي والأزمة الاقتصادية العالمية

لم تتوقف اهتمامات ياسين الهاشمي⁽²⁴⁾، على مجال السياسة فقط، بقدر ما كانت روح المبادرة لديه حاضرة بشكل دائم، ولنا في ذلك أن نستذكر قضية الدين العثماني، والتي عبر الهاشمي فيها، عن شجاعة نادرة في تبني الرأي الذي وضعه أمامه المستر فرنن Fernen مستشار وزارة المالية، بعد أن عجز الآخرون عن الأخذ، بالفكرة المدهشة والقاضية، بشراء سندات الدين العثماني، بأسعار مخفضة. مما أتاح للدولة العراقية أن تتخلص من دين كبير، كان يثقل على كاهل الخزينة، ويجعلها عاجزة عن الإيفاء بالتزاماتها الواسعة المترتبة في مسؤوليتها، وقد أخذ الاهتمام

بالزراعة ورعاية شؤونها وتنظيم أمورها منه كل مأخذ، حتى إنه أسهم مساهمة مباشرة وفعلية في وضع اللمسات القانونية والاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية لقانون حقوق وواجبات الزراع⁽²⁵⁾. وقد تجلت حصافته الاقتصادية وسعة إدراكه فيها، حتى تولى الرد على تقرير الخبير الحالي الإنكليزي هلتن يانك، حول أوضاع العراق المالية، واضعا أمام ذلك الخبير ذي الصيت الذائع، الحرج والبراهين العلمية، حتى إنه في الكثير من النقاط التي أدرجها في معرض رده، وضعه في موقف لا يحسد عليه⁽²⁶⁾.

خلال وزارة ناجي السويدي "18 تشرين الثاني 1929 - 9 آذار 1930" كلف الهاشمي بوزارة المالية. حيث طلب منه، وضع منهاج اقتصادي لتسير عليه الحكومة، لاسيما وان البلاد كانت تعاني من تفاقم آثار الأزمة الاقتصادية التي شملت العالم بأسره⁽²⁷⁾. وقد نال المنهاج اهتماما واسعا من لدن جهات عديدة، كان في مقدمتها الملك فيصل الأول الذي أعجب أيما إعجاب بالمنهاج، وانهاه بالثناء والمديح على ياسين الهاشمي حيث وصفه بـ "صاحب الدماغ الجبار"⁽²⁸⁾ واحتفت الأوساط الوطنية والمهتمين بشؤون العراق بالمنهاج، حين تعرضت له العديد من الصحف المحلية والعربية والبريطانية بالدراسة والتحميص وتبيان الأثر البالغ الذي سيحدثه، إذا رأى النور. ومن الشخصيات التي اهتمت بمنهاج الهاشمي الاقتصادي، الشخصية الوطنية المصرية طلعت حرب، باني نهضة مصر الاقتصادية والصناعية⁽²⁹⁾.

منهاج ياسين الهاشمي

يستهل الهاشمي منهاجه بالمدح والثناء على قانون تشويق الزراع لاستخدام المضخات الذي شرعته الحكومة العراقية عام 1926. ويعدد المنافع التي قدمها للمزارعين من حيث تقليل الضرائب وتنظيم أمورهم على أسس ثابتة. بحيث يستطيع الزراع أن يحتسبوا حصة الحكومة من الإنتاج الزراعي. وقد استبشر كثيرا بأسلوب اعتماد المضخات في الري، الذي عقد عليه الآمال الكبيرة في توسيع المساحات الزراعية واستغلال أراض جديدة واستصلاحها. والارتقاء بأوضاع المزارعين المالية، على اعتبار التطورات المتوقعة التي ستشهدتها بنية الإنتاج الزراعي السيجي. لقد كان للوعي القائم بأحادية الدخل القومي للاقتصاد العراقي المنحصر في قطاع الزراعة، أن زاد التأكيد على تطوير وتوسيع ورعاية هذا القطاع، ذي التأثير الحيوي في مجريات شؤون التجارة، لاسيما الخارجية منها وتنشيط حركة التصدير. مما يرتبط بخلق نوع من التوافق في الميزان التجاري الذي يعاني من زيادة المستورد على حساب الصادر. بالإضافة إلى المواد المالية التي يمكن الحصول عليها من ذلك القطاع الهام والحيوي. والهاشمي يشير بوضوح إلى انعدام موارد أخرى تسهم في دعم الخزينة العراقية وتوفر لها موارد مالية، فالمملكة العراقية تعاني من تخلف

واضح في الصناعة، وهي بحكم موقعها القاري "الداخلي" لا يمكن لها أن تعتمد على النشاط التجاري في الموانئ أو النقل البحري. ولا هي تمتلك موارد كافية للنهوض والتوسع في مجال الأنشطة السياحية⁽³⁰⁾.

برزت آثار الأزمة الاقتصادية على التجارة العراقية بصورة مفاجئة، فخلال شهر آب عام 1929 توقفت حركة تصدير البضائع العراقية. حتى أن صادرات العام 1928 مقارنة مع الأشهر المحتسبة كانت أفضل بكثير من عام بداية الأزمة، والواقع أن سعة الصادرات في ذلك العام ارتبطت بشكل مباشر بتحسّن الإنتاج الزراعي، مما كان له أبلغ الأثر في تنشيط التجارة واستقرار أسعار الغلال مما مكن السوق العراقية من الإيفاء بالتزاماتها إزاء الطلبات الخارجية. وقد ساد الحذر والقلق الشديد لدى الإدارة الحكومية في حال تحسّن الإنتاج الزراعي وزيادته، وكان مرد هذه الحالة الغربية، جراء الكساد الذي تعرضت له المنتجات العراقية، وبقائها في المخازن دون تصريف. وقد وعى الهاشمي ملاسبات هذه الحالة مبكراً، حتى إنه أشار إليها في تقريره حيث يقول: "فواجب الحكومة هو أن تتخذ الحيطة للأمور قبل وقوعها ولو كان احتمال حدوثها صعباً وقد يجوز أن الأخطار لا تقع"⁽³¹⁾، ولكن إهمال العلامات التي تنذر بالوقوع ليس من شأن الوزارات المتبصرة"⁽³²⁾. وعلى هذا يشير الهاشمي إلى تدعيم الميزانية عن طريق التقنين في المصروفات. والاعتماد على الكادر الوطني لإشغال الوظائف في الدولة مشيراً إلى الخلل الذي يحدثه استخدام الموظفين الأجانب حيث لا هم لهم سوى خدمة مصالح بلادهم، بالإضافة إلى حصولهم على أجور من الأجدى لو كانت تصرف للمواطنين العراقيين والعملية هذه تكبد خزينة الحكومة مبالغ طائلة " تذهب هدراً، بحكم خروج هذه الأموال إلى بلدان الموظفين الأصلية، بهذا يعاني القطر من نقص في العملات المتداولة. والهاشمي يتوجه بتركيزه نحو مسألة الإنتاج وتقويته وتحسينه والبحث عن أسواق لتصريفه، مؤكداً على أهمية توسيع حركة الادخار للحصول على موارد مالية، يمكن من خلالها دعم حركة القطاعات الاقتصادية في القطر، إضافة إلى النهوض بأعمال الإدارة الحكومية. وتحقيق شيء من الاعتدال في الميزان التجاري. الذي يعاني من ارتفاع قيمة المستوردات على حساب الصادرات. كان من الطبيعي أن يتجه العراق بحكم اعتماد دخله القومي على الزراعة، نحو استيراد المواد الأكثر حاجة للقيام بالأعمال وعلى درجة الخصوص المواد الصناعية، ولكن من غير المنطقي، أن يتجه المستورد العراقي، نحو جلب مواد تنتج في القطر وعلى درجة عالية من الجودة تفوق مثيلاتها المستوردة. فعلى سبيل المثال، بلغت قيمة ما استورد من حنطة ورز هندي خلال موسم 1928 - 1929 حوالي سبعة ونصف لك روبية. في حين أن الرز العراقي أجود بكثير من الرز الهندي. بالإضافة إلى الإهمال الذي تعرضت له الحنطة المحلية والمنتجة من البذور الأسترالية. ولم يغفل الهاشمي عن الإشارة إلى ظاهرة استيراد المواد الغذائية من دول الجوار على الرغم من توفر البديل في السوق العراقية.⁽³³⁾

المؤثرات الاجتماعية

والهاشمي في منواجه يشير إلى التحول الذي شهدته بنية المجتمع العراقي والاتجاه نحو إبراز ملامح جمالية في البناء والمعيشة، بحيث يتوقف إزاء الخسائر التي يتكبدها القطر نتيجة لاستيراد كميات كبيرة من الأسمت الأجنبي للتوسع في استخدامه في مجال الترميمات والتشكيلات التي تتطلبها تكوينات البناء الحديث. وهو لا يخفي تبرمه من الإهمال الذي تتعرض له تجارة الأخشاب التي تذخر بها المناطق الشمالية في العراق والإحجام عن تنفيذ بعض الأعمال الإنشائية في تأسيس الدور مثل الديكورات وأطر الشبائيك من تلك المادة ويعرج على المصاريف الكبيرة التي تتكبدها الخزينة، على شكل مصاريف تدفع من أجل الحصول على الملابس اللازمة للجيش والشرطة والسجون، فعلى سبيل المثال بلغت تلك المصاريف عام 1928 ما يربو على 1,639,559 روبية، في الوقت الذي كان من الممكن، أن تذخر هذه الأموال فيما لو قامت صناعة محلية تهتم بالنسيج، وسد الحاجة منها. والأمر هذا يشمل دباغة الجلود. وهي وسيلة يمكن من خلالها توسيع مجالات العمل وفرص تشغيل أوسع قطاع من اليد العاملة⁽³⁴⁾.

ويوضح بشكل مباشر، التقصير الذي وقعت فيه الحكومة، في مجال الاهتمام بتطوير العملية الإنتاجية والعمل على تحسينها. فيستدل على ذلك بالصعوبات التي اكتنفت إصدار قانون تشجيع الصناعات. والعثرات التي رافقت ظهوره ويضع بعض التصورات حول النهوض بقطاع الزراعة عن طريق، وضع قانون لحقوق وواجبات الزراع⁽³⁵⁾، وهذا برأيه سيؤدي إلى تمكن الحكومة من فرض رقابتها المباشرة على شؤون الزراعة، وتوظيف رؤوس الأموال بشكل دقيق في هذا القطاع. بالإضافة إلى تحديد أوقات العمل بالنسبة للفلاحين. وبالتالي تمكن الحكومة من تقديم خدماتها إلى هذه الفئة، مثل تطوير الواقع الصحي والمعاشي لهم. ولا يفوته أن يؤكد على ضرورة دعم أساليب التنشيط وتطبيق القوانين من خلال قيام الموظفين بتطبيق القوانين بشكل دقيق، مع منحهم حرية أوسع في تفسير بنودها. ويخلص إلى القول " ((ومن رأبي أن الاهتمام بتنشيط أمور الزراعة أسمى من الاهتمام بجباية الواردات))"⁽³⁶⁾. وعلى هذا يقترح وضع تشريع يقضي بتخليص المنتجات الزراعية من الشوائب والمواد الغريبة عن طريق تقسيم الحاصل إلى ثلاثة أشكال، الأول البذور والثاني الحبوب الجاهزة للتصدير درجة أولى والثالث حبوب جاهزة للتصدير درجة ثانية. ولتطبيق هذا التشريع يرى فرض عقوبات صارمة على التجار الذين يعمدون إلى الغش، مع توفير مناطق خاصة في الموانئ لتنظيف المنتجات المعدة للتصدير بأجور مخفضة. مع ضرورة الاهتمام بنوع الحاصل الزراعي، وذلك باستخدام البذور المحسنة، ويرى أن أفضل وسيلة لبلوغ هذا الهدف يتم عن طريق التعاقد مع بعض المزارعين ودائرة الزراعة، ليتسنى للجهات المسؤولة مراقبة النتائج. والتي في ضوءها يتم تعميم التجربة على المناطق المتخصصة بزراعة نوع معين من

الحاصلات. وينحى في تقييم أوضاع المزارعين والفلاحين وبإشارته إلى الضرائب والرسوم التي تستوفيهها الحكومة بصورة غير مباشرة، فهناك ضريبة الدلالية الأرضية (وهي القيمة المالية المفروضة على البضاعة التي يتم تخزينها في الميناء) ورسوم الميناء. وتارة تكون تلك الضرائب تحت مسوغات متباينة تتبع التجار المسؤولين عن تسويق الحاصل. فتبرز ضرائب مثل البياعة (المناداة على البضاعة) والوقافة (الحراس القائمون على حماية البضاعة). مما يكبد المزارع مبالغ كبيرة، تثقل على كاهله، وتجعله يئن تحت وطأة العوز والحاجة، مما يؤثر بشكل كبير على النشاط الإنتاجي للفلاح. والهاشمي يخلص هنا إلى رأي مفاده "فيتحتّم على الحكومة ألا تجعل هذه الرسوم والضرائب موردا للربح، بل تنظمها بصورة تتناسب مع الكلفة التي تقوم بها الحكومة حفظا للنظام ولتسهيل المسير"⁽³⁷⁾.

المشكلات الزراعية

واجه الفلاحون أصحاب البساتين مشكلة التباين في مقدار الضريبة على الإنتاج الزراعي وتنوعها بين التخمين والذرعة (قياس مساحة الأرض استنادا إلى مقياس الذراع) والالتزام، والهاشمي لا يكتفم إعجابه بالخطوات التي أقدمت عليها الجهات الإدارية واعتماد الضريبة على أساس المساحة أو الوحدة الزراعية. إلا أنه يطالب الجهاز الحكومي المسؤول بضرورة تخفيض الضرائب، بسبب ارتفاع تكاليف الزراعة وهبوط الأسعار بشكل ملحوظ بسبب الكساد الذي تعرضت له السوق العالمية. ولا يخفي الهاشمي قيمة "قانون نسبة حصة الحكومة" وأهميته في خفض الضريبة على قطاع الزراعة، إلا أنه يطالب بإجراء أكثر عملية، وذلك لعدم انتظام تحصيل الحكومة لضريبة الأراضي الأميرية، وارتباط الجباية بمستوى نفوذ السلطات الحكومية وتوطد مركزها في أي منطقة زراعية⁽³⁸⁾.

معالجة الضرائب

كان لارتفاع نسبة الضريبة التي تحسمها الحكومة من قيمة الإنتاج أثرها الواضح، في عزوف أصحاب الرأسمال عن استثمار أموالهم في قطاع الزراعة. وهي تحدد وفقاً لأسلوب الري المعتمد حيث تبلغ حصة الحكومة في مناطق السيح (الري الذي يعتمد على مياه الأنهار) 24% في 12% في مناطق السقي. وبمقارنة هذه النسبة مع ما تستوفيه الحكومة الفرنسية والبالغة 7% فإن الفرق يبدو واضحا، إذا ما أخذ بنظر الاعتبار، تقدم الخبرة التقنية والفنية في مجال الإنتاج الزراعي، واستيعاب السوق العالمية لنشاطها الإنتاجي، بالإضافة إلى المناخ النموذجي الذي يساهم إلى درجة عالية في ارتفاع نسب الإنتاج. مع اتساع قدرة الاستهلاك بالنسبة للحاصلات الزراعية⁽³⁹⁾ وعلى هذا يقترح الهاشمي تخفيض نسبة الحكومة من قيمة الإنتاج الزراعي وفق طريقة الري على

الأساس التالي 7% بالنسبة لأراضي السقي و16% لأراضي السيح و10% لأراضي الديم⁽⁴⁰⁾. وهو ينطلق في تقييم الأمور، وفقا لوجهة نظر واقعية، حيث يشير صراحة إلى فقر الخزينة وعجزها عن توفير الأموال اللازمة لاستصلاح الأراضي، إلا أن خفض نسبة الحكومة يحتل أهمية خاصة، لأنه يصب في مجال تشجيع الإنتاج الزراعي ومؤازرة العاملين في هذا القطاع. وعلى الرغم من الاقتراحات والتصورات الموضوعية التي يحفل بها المنهاج الذي رفعه الهاشمي إلى الوزارة كمنهاج عمل لمواجهة الأزمة الاقتصادية التي شملت القطر، إلا أنه ينتصر لصالح ملاكي الأراضي على حساب الفلاحين. حيث يقول: "إن الصعوبات العديدة التي يجابهها الزراع بسبب فقدان الوسائل القانونية لإجبار الفلاحين على العمل المنتظم الذي لا يقل عن أربع ساعات ولا يزيد على ستِ بهمة ونشاط وفقدان وسائل المراقبة والتأديب لما يتركبونه من الأفعال"⁽⁴¹⁾، والواقع أن وجهة النظر هذه، تأتي منسجمة مع تطلعات الهاشمي في قطاع الزراعة، حيث امتلك أراضي واسعة واتجه نحو تشجيع استخدام المضخات في سقي أراضيه الزراعية، وعلى هذا نراه ينطلق في تقييم العلاقة بين الملاك والفلاح من تجربة شخصية، وعلى هذا نراه يؤكد على أن المشتغلين في الزراعة بحاجة إلى مساعدات مالية من لدن الحكومة، ويقترح تأسيس البنك الزراعي⁽⁴²⁾، لدعم المستثمرين وتشجيعهم لولوج هذا الميدان عن طريق تقديم السلف المالية لهم.

المعاهدات التجارية

ويؤكد الهاشمي على ضرورة ربط العراق بمعاهدات تجارية مع البلدان التي تستورد البضائع العراقية لمحا إلى ارتفاع نسبة ضريبة الإدخال على بضائع القطر بشكل سافر فعلى سبيل المثال تبلغ نسبة الضريبة على السيارات الأمريكية 20% في حين أن نسبة الضريبة على التمور العراقية في الولايات المتحدة تبلغ 35%، وهو يشدد على ضرورة عقد المعاهدات التجارية، ليسري التوافق والتوازن في مجال العلاقات التجارية بين العراق والبلدان الأخرى التي يتعامل معها. أما عن الصناعة، فكان يطمح أن ترقى الصناعة الوطنية إلى الحد الذي تتمكن فيه من سد حاجات البلاد الأساسية، ليتخلص القطر من الاعتماد على المنافذ الخارجية والتي كثيرا ما تستخدم هذا الأمر، كورقة للضغط والابتزاز السياسية. ويلخص رؤياه في مجال تنشيط الصناعة حيث يقول: "إن الصناعات الهامة التي يجب أن تنال التشجيع من الحكومة حسب ما أرى هي صناعة النسيج والدباغة والسكر والاسمنت والحريير والورق والجنفاص (الخيش الذي يدخل في صناعة أكياس التخزين)، وهناك طريقتان لأجل تنشيط هذه البضائع، الأولى طريقة التسهيل والثانية طريقة المساعدة، أما طريقة التسهيل فهي تتضمن مثلا إعطاء أراضٍ بلا بدل، وعدم فرض ضريبة ما على المواد الابتدائية التي يؤتى بها وتخفيض أجور النقل عليها، ورفع جميع الرسوم والضرائب والتكليفات سواء كانت حكومية أو للبلدية عن منتجات هذه الصناعات لمدد طويلة. أما طريقة

المساعدة فهي تتضمن، فتح مساعدات مالية إلى الصناعات⁽⁴³⁾. ويؤكد في ختام تقريره أن الدعم المالي فيما لو قدم من قبل الحكومة لتشجيع الصناعة، فإنه لا يرقى أبداً إلى الأموال التي تتكبدها الحكومة لاستيراد البضائع من الخارج سنوياً⁽⁴⁴⁾.

بقي منهاج ياسين الهاشمي الذي قدمته وزارة ناجي السويدي، حبرا على ورق، ولم يكن هذا الإهمال نابعا من تقاعس الوزارة، بل نتيجة لاصطدامه بعقبات، كان أبرزها، عسر الحالة الاقتصادية وعجز الميزانية عن النهوض بأي مشروع، إضافة إلى شح الرأسمال الوطني، والتخلف والفقر الذين كانا يطبعان الحياة الاقتصادية والسياسية بشكل عام، فلم يكن يوجد في العراق إبان تلك الحقبة الكادر المؤهل للنهوض والتقدم. ولا بد من الإشارة هنا إلى تغلغل النفوذ الأجنبي، ممثلاً بالانتداب البريطاني، الذي كان ينظر إلى المملكة العراقية كمنطقة نفوذ ومساحة لتوطيد المصالح، فكان عسيرا على المندوب السامي البريطاني، أن ينظر بعين القبول إلى إصرار وزارة السويدي على تسريح الموظفين الأجانب من مؤسسات الحكومة أو حسم مسألة السكك الحديدية أو تسجيل أراضي الميناء لصالح الحكومة العراقية. أو إنهاء قضية الشيخين⁽⁴⁵⁾. لقد لخص الهاشمي القضية حين وقف خطيباً في مجلس النواب العراقي خلال جلسة 13 آذار 1930، أي بعد تقديم استقالة الوزارة بأربعة أيام قائلًا، "دخلنا لنعمل، على أساس توفير في نفقات الدولة لإيجاد بعض النفقات اللازمة للقيام ببعض المشاريع المفيدة. ولم تمض فترة إلا وجوبها بالرفض"⁽⁴⁶⁾.

بعد سبعة عشر يوماً من تقديم الهاشمي استقالته من منصب وزير المالية، أقدم نوري السعيد رئيس الوزارة اللاحقة لوزارة ناجي السويدي، على ترشيح ياسين الهاشمي لذي وزير المالية كرئيس اللجنة الأخصائية لمعالجة الحالة الاقتصادية⁽⁴⁷⁾، وكان يرى ضرورة أخذ رأي الهاشمي فيما يتعلق بأمر السلطات التي تمنح إلى اللجنة عند قيامها بمهمتها⁽⁴⁸⁾. فكان هذا الأمر دليلاً على كفاءة رجل، ما انفك يوماً عن تقديم عصارة عقله وفكره من أجل وطنه، ولكن هل أراد السعيد أن يمتص نقمة المعارضة، جراء سوء الأوضاع الاقتصادية وترديها، من خلال إناطة المسؤولية لرجل يحتل مكانة بارزة ورفيعة في قلوب وأفئدة الناقلين على سياسة رئيس الوزراء. أم إن ثقته المطلقة بكفاءة الهاشمي، جعلته يتخذ هكذا قرار، بعد أن عجزت بيده الوسيلة لمواجهة أعباء الأزمة وضائقها.

الخاتمة

تكشف القراءة عن طبيعة توجهات الملك فيصل الأول حول طبيعة الأزمة الاقتصادية، ومدى تأثيرها على الواقع الاقتصادي العراقي. عبر ترصده لجملة من العوامل الرئيسية. تلك التي يحددها في؛ النفوذ الذي تحصلت عليه النخبة السياسية، والتي راحت تعمل في سبيل تكريس نفوذها وسيطرتها على مرافق الحياة الاقتصادية، هذا بالإضافة إلى تنامي أعراض البيروقراطية والروتين الإداري، حيث العقبات التي تقف في وجه التغيير والتطوير. ولم يغفل الملك عن أهمية الدور الذي يجب أن تضطلع به الدولة، في سبيل النهوض بواقع الفلاحين، وأهمية السعي الجاد والدؤوب نحو تحسين المحصول الزراعي، مع العناية بالبضاعة المصدرة، وهذا لن يتم إلا من خلال التوجه نحو الدعم والرعاية لمصلحة الأبحاث الزراعية، والسعي الحثيث نحو تطوير بعض الصناعات المرتبطة بالإنتاج الزراعي، باعتبار اعتماد اقتصاديات العراق على القطاع الزراعي بشكل رئيس.

يتزامن البرنامج الإصلاحية الذي عرضه ياسين الهاشمي حول الطريقة الممكنة لمواجهة تأثيرات الأزمة الاقتصادية العالمية على العراق، مع تقرير الملك فيصل الأول، عبر التوكيد على أهمية القطاع الزراعي والسعي نحو تنشيط التصدير للمنتجات الزراعية. ولا يغفل الهاشمي عن الأثر الذي تلعبه السياسة الحكومية في تقنين المصروفات، والتي تتمثل في خفض التكاليف، لا سيما على صعيد إلال الكادر الوطني بدلا من الموظفين الأجانب، الذين يكبدون ميزانية الدولة، مرتبات عالية. والحرص على توجيه الأنظار إلى أهمية البضاعة المحلية ونبذ روح الاستهلاك، مع ضرورة توسيع دور الدولة الرقابي على القطاع الزراعي.

Iraq and the Global Economic Crisis Years of 1929-1933 Study in the Reports of King Faisal I and Yassin Al-Hashemi

Ismail Noori Mseer, *College of Arts, Science and Education, Ahlia University, Kingdom of Bahrain.*

Abstract

After the financial Speculation, which covered the U.S.A capital market, the collapse emerged after the prices of shares reached unprecedented levels. To the extent that it stopped selling and purchasing operations. As a result the Great Depression effected the U.S. economy, especially after Black Thursday, 24 October 1929. And the consequences in the form of unemployment, which included 25% of the American's labor.

Did not take long until Iraq had witnessed the effects of that crisis. The Iraqi government hired Ernest Dowson to investigate the problem of agrarian feudalism in 1929, and the financial and economic expert Hilton young in 1930 to study and reported the situation which could deal with the effects of the crisis.

Highlights the consistency in the follow-up by king Faisal I and Yaseen AL-Hashemi in the way of vision and attention to the causes and factors that have made the effects of the crisis features have emerged on the Iraqi reality. That what shown by the reading of the historical reports that have written by them to discuss the reason and the solutions.

وقبل في 2009/5/4

قدم البحث للنشر في 2009/2/11

الهوامش:

1. عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، دار الشؤون الثقافية، بغداد 1988، ط 7 ج 3، ص 21.
2. أتم الملك فيصل الأول جولته الأوربية في الأول من تشرين الأول 1930، وكانت قضية افتتاح المجلس النيابي من أهم الأسباب التي دعت له لقطع الجولة، عبد الرزاق الحسني، المصدر نفسه، ص 74.
3. دار الكتب والوثائق، المكتبة الوطنية، ملفات البلاط الملكي، الملفة 1412 / 311 و 3 ص 4، ملحوظات وضعها الملك فيصل الأول حول الأزمة الاقتصادية عام 1930. سنرمز إلى الدار في الهوامش المقبلة د. ك. و.

4. د. ك. و، ملفات البلاط الملكي، الملفة 311/1412 و3ص5.
5. د. ك. و، ملفات البلاط الملكي، الملفة 311/1412 و3ص6.
6. د. ك. و، ملفات البلاط الملكي، الملفة 311/1412 و3ص7.
7. د. ك. و، ملفات البلاط الملكي، الملفة 311/1412 و3ص8.
8. يعني بهذا تنظيم الإدارة ومتابعتها بصورة مستمرة.
9. د. ك. و، ملفات البلاط الملكي، الملفة 311/1412 و3ص9.
10. كانت تدعى متصرفية.
11. د. محمد سلمان حسن، التطور الاقتصادي في العراق، المكتبة العصرية، بيروت 1965، ج 1 ص179.
12. علاء جاسم محمد، الملك فيصل الأول، ودوره السياسي، مكتبة اليقظة العربية، بغداد 1989، ص230.
13. عبد المجيد كامل التكريتي، الملك فيصل الأول ودوره في تأسيس الدولة العراقية الحديثة، دار الشؤون الثقافية، بغداد 1991، ص293.
14. د. ك. و، ملفات البلاط الملكي، الملفة 311/1412 و3ص16، ملكية الأراضي.
15. د. ك. و، ملفات البلاط الملكي، الملفة 311/1412 و3ص18، الري.
16. حذفنا كلمة (هذه) من النص الأصلي لضرورات توافق العبارة.
17. د. ك. و، ملفات البلاط الملكي، الملفة 311/1412 و3ص20.
18. عبد الرزاق الحسني، المصدر السابق، ص322.
19. المقصود بها المفاوضات حول عقد معاهدة 1930 بين العراق وبريطانيا.
20. د. ك. و، ملفات البلاط الملكي، الملفة 311/1412 و3ص21.
21. د. ك. و، ملفات البلاط الملكي، الملفة 311/1412 و3ص23.
22. د. ك. و، ملفات البلاط الملكي، الملفة 311/1412 و3ص24.
23. د. ك. و، ملفات البلاط الملكي، الملفة 311/1412 و3ص25.
24. وهو ياسين حلمي، بن السيد سلمان بن صالح بن أحمد بن علي بن محمد، ولد جده في مدينة الموصل، حيث انتقل بعائلته إلى مدينة بغداد عام 1772. وكان والده مختار محلة البارودية في منطقة الميدان في بغداد. وكان بالإضافة إلى عمله ضامنا لبساتين محمد فاضل باشا الداغستاني، في العام 1899 دخل ياسين المدرسة الرشدية العسكرية في بغداد وبعدها انتقل إلى الكلية العسكرية في إستانبول، حيث تخرج برتبة ملازم ثان عام 1902، وقد برزت صفات النباهة والذكاء وقوة الشخصية وسعة الإدراك لديه وهو ما يزال طالبا في تلك الكلية. كانت ولادته في العام 1884، وكان

لنشأته العربية وتربيته المؤكدة على الأخلاق والرجولة، أن غرست في نفسه المشاعر القومية، والفخر بمحتد النسب، فكان من أوائل العاملين والمساهمين في بث الشعور القومي وإعلاء شأن العربوية والعرب لاسيما وأنه كان يعيش ويشكل مباشر التعصب الذي كان يبديه الأتراك إزاء القوميات الأخرى المنضوية تحت لواء الإمبراطورية العثمانية. فكانت عروبه مخاض تجربة قاسية، وكان لمناداته بإعلاء شأن قوميته، فرضا خلقه الجور والتعصب من قبل القوى الأجنبية، وعلى هذا بقي، الهاشمي رافضا لكل أشكال الوجود الأجنبي، فكان المعارض "القوي الشكيمة" كما يصفه توفيق السويدي، للوجود البريطاني في العراق.

عاد إلى بغداد في العام 1922 حيث عين متصرفا للمنتفك، وفي ذات العام استوزره عبد المحسن السعدون لوزارة الأشغال والمواصلات.

وقد شغل عدة مناصب منها وزيرا للمالية في العديد من الوزارات، وشكل وزارتين الأولى 2 آب 1924 - 21 حزيران 1925 أما الثانية في 17 آذار 1935 - 29 تشرين الثاني 1936 " والتي انتهت بقيام انقلاب بكر صدقي. وتوفي في دمشق ودفن فيها، في 21 كانون الثاني 1937. ولمزيد من التفاصيل، انظر، توفيق السويدي، وجوه عراقية عبر التاريخ، دار رياض الريس، لندن 1987، ص ص 71 - 74. أيضا، العراق في الوثائق البريطانية سنة 1936، ترجمة وتحرير، نجدة فتحي صفوة، مركز دراسات الخليج العربي، البصرة 1983، ص ص 78 - 79. أيضا، حازم المفتي، العراق بين عهدين ياسين الهاشمي وبكر صدقي، مكتبة اليقظة العربية، بغداد 1990، ص ص 8-19.

25. توفيق السويدي، وجوه عراقية، المصدر السابق، ص 78.

26. حوى هذا القانون العديد من الهفوات، وكان أبرزها، أنه جعل من الفلاح تابعا للأرض مذكرا بنظام القنانة الذي كان يسود أوروبا في العصور الوسطى. وعلى الرغم من تحفظاتنا العديدة على هذا القانون. إلا أن الأمر إذا ما أخذ بصورة كلية، فإنما يعبر عن الاتجاهات والمفاهيم التي استوعبها الهاشمي، طيلة تجربته السياسية والعسكرية. فكان تعبيراً عن توجه ضبطي، الغاية منه، العمل على إبقاء الفلاح في أرضه، ونحن هنا لا نبرر، بقدر ما نحاول أن نضع بعض التصورات التي كانت راسخة لدى هذا الزعيم الوطني. ومدى تأثير الروح العسكرية، لاسيما وأن نشأته العملية كانت على أساس عسكري "خريج الكلية العسكرية في أستانبول".

27. حازم المفتي، العراق بين عهدين، المصدر السابق، ص 28.

28. المقصود بها الأزمة الاقتصادية العالمية 1929 - 1933.

29. سامي عبد الحافظ القيسي، ياسين الهاشمي ودوره في السياسة العراقية، مطبعة العاني، بغداد 1976 ج 2 ص 94.

30. حازم المفتي، المصدر السابق، ص 29.

31. دار الكتب والوثائق، المكتبة الوطنية، بغداد، ملفات البلاط الملكي، الملف 311/1412 و 14 ص 89. تقرير وزير المالية ياسين الهاشمي إلى رئيس الوزراء ناجي السويدي، 25 تشرين الثاني 1929، الموضوع، تقرير عن الحالة الاقتصادية العامة.

32. أسقطنا من النص عبارة "ما شرح في هذا التقرير".
33. د. ك. و، ملفات البلاط الملكي، الملفة 1412، و 14 ص 91.
34. د. ك. و، ملفات البلاط الملكي، الملفة 311/1412 و 14 ص 92.
35. د. ك. و، ملفات البلاط الملكي، الملفة 311/1412 و 14 ص 93.
36. صدر هذا القانون عام 1933، يراجع الهامش رقم 3.
37. د. ك. و، ملفات البلاط الملكي، الملفة 311/1412 و 14 ص 94.
38. د. ك. و، ملفات البلاط الملكي، الملفة 311/1412 و 14 ص 95.
39. د. ك. و، ملفات البلاط الملكي، الملفة 311/1412 و 14 ص 96.
40. د. ك. و، ملفات البلاط الملكي، الملفة 311/1412 و 14 ص 97.
41. الديم: الري اعتمادا على سقوط الأمطار.
42. د. ك. و، ملفات البلاط الملكي، الملفة 311/1412 و 14 ص 98.
43. تأسيس البنك الزراعي عام 1936.
44. د. ك. و، ملفات البلاط الملكي، الملفة 311/1412 و 14 ص 99.
45. د. ك. و، ملفات البلاط الملكي، الملفة 311/1412 و 14 ص 100.
46. قضية الشيخين: هما شيخا المحمرة والكويت اللذان كانا يملكان بساتينا للتمور في البصرة، ونتيجة لعلاقتهما بالجانب البريطاني، فإن دار الاعتماد البريطاني، بقيت تماطل وتسوف في مسألة إنهاء الإعفاء من الضريبة على بساتينها.
47. محاضر مجلس النواب 1929 - 1930، ص ص 406 - 407. نقلا عن، عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، دار الشؤون الثقافية، بغداد 1988، ج 2 ص ص 324 - 325.
48. د. ك. و، ملفات البلاط الملكي، الملفة 311/1412 و 8 ص 58، ديوان مجلس الوزراء، بغداد في 26 آذار سنة 1930 رقم 998، إلى معالي وزير المالية، التوقيع نوري السعيد، رئيس الوزراء.

عامل التقريب في النحو الكوفي

خالد المساعفة*

ملخص

ذكر بعض القدماء والمحدثين أن التقريب: مصطلح وسم الكوفيون به اسم الإشارة الذي يعمل عمل (كان) وأخواتها؛ لاحتياجه إلى اسم مرفوع به، وخبر منصوب.

ويرى ثعلب أن سيوبه لا يعرف هذا العامل النحوي، وينسب إلى الكوفيين - كالكسائي والفراء - اختراع هذا العامل، بيد أن ما في كتاب: (معاني القرآن) للفراء لا يتفق مع ما نسب إلى الفراء من إعماله للتقريب عمل (كان) وأخواتها، مثلما لا نجد فيه أي خلاف أو اتفاق بين الفراء والكسائي في مسائل عامل التقريب على ما يذكر ثعلب وبعض النحاة المتأخرين.

ويخلص البحث إلى أن ما نسب إلى الكوفيين ليس دقيقاً على إطلاقه، وإنما يحتاج إلى رجوع النظر والتبصر قبل التعميم وإطلاق الأحكام؛ إذ لا يأخذ الكوفيون كلهم بالتقريب على خلاف ما يذكره بعض القدماء والمحدثين، زيادة على أن من أخذ به من الكوفيين لم يتعهد بالبيان الكافي، من جهة الأسباب الداعية إلى قياسه على (كان) وأخواتها) والمواضع التي لا يعد فيها اسم الإشارة تقريباً.

مقدمة البحث:

يطالع مصطلح التقريب في بعض المؤلفات اللغوية الكوفية التي وصلت إلينا، إذ يذكره الفراء في مواضع متفرقة من كتابه: معاني القرآن، ولكن منهج درسه لديه لا يجزم بأن التقريب مما يلحق ب: (كان) وأخواتها، بل ما يفهم من الأمثلة التي عدّها من التقريب هو اشتغاله بتعليل نصب الأسماء بعد اسم الإشارة في جمل من نمط: ما كان من السباع غير مخوف فهذا الأسد مخوفاً، وهذا القمر نوراً، فهو يقبس نصب (مخوفاً ونوراً) على المنصوب بعد (كان) ومرفوعها، وفي ضوء هذا القياس يُسمّى الفراء اسم الإشارة تقريباً.⁽¹⁾

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2012.

* قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الحسين بن طلال، معان، الأردن.

وفي مجالسِ ثعلبٍ ينحو التَّقريبُ نحوَ الإعمالِ والإلحاقِ ب: (كان) وأخواتها، بإصرارِ ثعلبٍ على أنَّ الكسائيَّ قد سمعَ ذلكَ الإعمالَ من العربِ، وأنَّ الفراءَ يتَّفَقُ معه في إعماله وكثيرٍ من مسائلهِ المختلفةِ.⁽²⁾

من الواضح أنَّ ما أشاعه ثعلبٌ من أمرِ هذا العاملِ لا يرتقي إلى القبولِ المطلقِ، وإنَّ عدَّ الكوفيينَ أصحابَ التَّقريبِ المؤسَّسينَ له. ففي بعضِ مصادرِ النحوِ الكوفيِ إغفالُ لذكرِ هذا العاملِ، أو نجدُ ذكراً له دون إشارةٍ إلى إعماله، فأبو جعفر محمد بن سعدان الكوفيُّ الضرير (ت 231هـ) لا يذكرُ هذا العاملَ في كتابه: (مختصر النحو) على الرَّغمِ من أخذِهِ النحوَ عن شيوخِ المدرسةِ الكوفيةِ، والروايةِ عنهم، وفي مقدِّمةِ هؤلاءِ الكسائيِّ⁽³⁾. وابنُ الأنباريُّ لا يذكرُ التَّقريبَ في كتابه المسمَّى: (شرح القوائد السبع الطوال الجاهليات) وفي تفسيرِ الطبريِّ إشارةً ضمنيةً إلى أنَّ بعضَ الكوفيين لا يعدُّون التَّقريبَ عاملاً نحويًّا، مثلَ (كان وأخواتها) في مواضعٍ هي من التَّقريبِ العاملِ عند الكوفيين⁽⁴⁾. وبهذا يتَّفَقون مع البصريين الذين لم تعرفْ مؤلفاتهم النحويةَ المتقدِّمةَ والمتأخِّرةَ شيئاً عن هذا العاملِ، سوى أنَّه من عواملِ الكوفيين. وقد نجدُ شيئاً يسيراً من نقدهِ، وعدمِ القبولِ به في مؤلِّفِ ابنِ عصفور المسمَّى: (شرح جمل الزجاجي)⁽⁵⁾ وقريبٌ من ذلكِ نهجُ بعضِ المحدثين الذين انتقدوا هذا العاملَ، وإنَّ كُنَّا لا ننفي عن بعضِ القدماءِ والمحدثين غيرَ قليلٍ من الاضطرابِ، والاستقراءِ الناقصِ في درُسهِم هذه المسألة؛ ولهذا يأملُ البحثُ أن يصلَ إلى ما يكشفُ حقيقةَ الرأيِ الكوفيِّ في التَّقريبِ، بالاستقراءِ الدقيقِ للنصوصِ النحويةِ القديمةِ.

المبحث الأول: رأي الكوفيين في التَّقريب

ثمة كتابان لا يستغني عنهما الناظرُ في نحوِ علماءِ الكوفةِ، وهما: مجالسُ ثعلبِ، ومعاني الفراءِ، ففي هذين الكتابين - على وجه الخصوص - تظهر حقيقةُ الرأيِ الكوفيِّ في كثيرٍ من مسائلِ النحوِ واللغةِ، لما أُودِعَ فيهما من آراءِ المتقدمين من الكوفيين، ولا يعنى ذلك التقليلُ من شأنِ بعضِ المظانِّ التي تشاركِ الكتابين السابقين عنايةً بنحوِ الكوفيين، بل لأنَّ ما في معاني الفراءِ، ومجالسِ ثعلبِ صار متكاملاً لهذه المظانِّ في التنظيرِ لهذا المذهبِ النحويِّ.

يقتضي منهجُ البحثِ أن نبدأ بمعاني الفراءِ وفاقاً للمنهجِ التاريخيِّ، إلا أنَّ البدايةَ ستكونُ مع كتابِ مجالسِ ثعلبِ؛ لأنَّ رأيَ الفراءِ في المجالسِ يختلفُ عن رأيه في: (معاني القرآن) والأمرُ الثاني أنَّ إثباتَ عملِ التَّقريبِ لدى الفراءِ يحتاجُ إلى فضلِ مُناقشةٍ وبيان. ويجب التنبُّه على أنَّ الفراءَ لم يذكر في كتابه: معاني القرآن، أيَّ رأيٍ للكسائيِّ أو للكوفيين الذين عاصروه في موضوع التَّقريبِ.

1. مجالس ثعلب

- نستطيع حصر رأي الكوفيين في التقريب الوارد في مجالس ثعلب بالمسائل الآتية:
1. أول من عدَّ التقريب عاملاً مثل (كان) الكسائي؛ لقول ثعلب: "وقال الكسائي: سمعتُ العرب تقول: هذا زيدٌ إيَّاهُ بعينه فجعله مثلَ كان." (6)
 2. أن الكسائي والفراء -أيضاً- يسميان (هذا) في جملة: هذا زيدُ القائم، تقريباً، والسبب في هذه التسمية هو: "قربُ الفعل به" كما يذكر ثعلب. (7) ونحن نعلم أن مصطلح: (الفعل) مما يطلقه الكوفيون على مسمياتٍ مختلفة، وليس له من دلالةٍ - هنا- سوى دلالته على الخبر النحوي: (القائم)، فالفراءُ يسمي الخبرَ فعلاً في أكثر من موضع. (8)
 3. والجملة السابقة وهي: (هذا زيدُ القائم). تبيّن اتفاقُ الفراءِ والكسائيِّ على جواز المجيءِ بخبرِ التقريب معرفةً، وإن لم يذكرْ ثعلبُ هذا بصريح العبارة، بل نصَّ عليه أبو حيان الأندلسي. (9)
 4. لا يجيز الكسائيُّ والفراءُ أن يفصلَ بين اسم التقريب وخبره بالعماد - ضمير الفصل لدى البصريين - وإن ورد ذلك الفصل في قراءة ابن جُوَيَّة: (أظهر) بالنصب في قوله تعالى: ﴿هُؤَلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ هود / 78 والسبب في امتناع الفصل يلخصه قولُ ثعلب: "من قبل أن العمادُ جوابٌ والتقريب جوابٌ فلا يجتمعان." وقد خطأ ثعلبُ سيبويه في توجيهه نصب (أظهر) على الحال، بذهابه إلى نصبها على أنها خبرٌ للتقريب، يقول: "قال سيبويه: احتبى ابنُ جُوَيَّة في اللحنِ في قوله: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ لأنه يذهب - يعني سيبويه- إلى أنه حال. قال: والحال لا يدخل عليه العماد، وذهب أهل الكوفة، الكسائيُّ والفراءُ إلى أن العماد لا يدخلُ مع هذا؛ لأنه تقريب." (10)
 5. لم يذكر ثعلبُ خلافاً بين الكسائي والفراء في جواز توسيط الخبر بين التقريب واسمه، ولكنَّ أبا حيان الأندلسي ذكر جوازَ ذلك التوسيطِ عند الكسائي، وامتناعه عند الفراء. (11)
 6. يرى ثعلبُ أن سيبويه لا يعرف التقريبَ العامل مثل: (كان) وأخواتها. (12)
 7. يقسم ثعلبُ اسمَ الإشارة على: مثالٍ وتشبيهٍ وتقريبٍ. والمثال والتشبيه لا يعملان مثل التقريب على ما يظهر من قوله: "وإذا قلت: هذا كزيدٍ قائماً، فهو حال، كأنك قلت: هذا زيدٌ قائماً." (13) وفي هذه الجملة يعدُّ اسم الإشارة مثلاً؛ لاحتمال دلالة هذا الاسم على التشبيه وغيره، فأصل هذه الجملة لديه هو: هذا زيدٌ، فهي تحتمل معنى: هذا الشخصُ شخصُ زيد، ومعنى: هذا الشخصُ كزيد. واللافت أن ثعلباً ذكر بعد قوله: "كأنك قلت:

هذا زيد قائماً". عبارة: "ولكنك قد قربته" مما يؤكد عدم تنبيهه على افتقار معنى التقريب إلى التوضيح والبيان.

وأما اسم الإشارة الدال على التشبيه فيقصد به الذي لا يحتمل غير التشبيه وهذا النمط -أيضاً- لا يعد تقريباً عاملاً، لقول ثعلب: "وتكون تشبيهاً في: كزيد هذا منطلق، وكزيد قائم، وهذا يجري مجرى الخبر".⁽¹⁴⁾

8. يبين ثعلب خبر التقريب المنسوب عندما يفصل بين التقريب وبين (ها) التنبيه بالمكني - أو ضمير الفصل في اصطلاحات البصريين- في جملة من نمط: ها أنا ذا قائماً. ويذكر -بعد ذلك- أن الخبر يُحذف لمعاينة الإنسان، وشاهده على ذلك، بيتُ عنتره الذي يهجو به عمارة بن زياد: (15)

أحولي تنفضُ استك مذروئها لتقتلني بها أنا ذا عمارا

والظاهر أن ثعلباً يقصد بالمعاينة وضوح الخبر المحذوف، وإمكان تقديره؛ لقوله: "فحذف الخبر كأنه قال: ها أنا ذا حاضرٌ أو في هذا المكان".⁽¹⁶⁾ ويبدو أن إثبات محقق كتاب: (مجالس ثعلب) لكلمة (حاضر) بالرفع من غير النسخة الأصل التي اعتمد عليها في التحقيق ليس وجهاً؛ لأن ثعلباً قد قصد حذف خبر التقريب العامل، فالوجه أن تكون الكلمة مضبوطة بالنصب، وإن ذكر المحقق الفاضل في هامشه ما نصه: "في الأصل: حاضر بالنصب، والوجه الرفع".⁽¹⁷⁾

9. يذكر ثعلبُ جملاً مختلفةً جاء فيها اسمُ الإشارة تقريبياً؛ إما لأنه متبوع باسم معرفة، لا ثاني له في الوجود، نحو: هذا القمرُ منيراً، وهذه الشمسُ طالعة، أو لأنه مما يصح فيه أن يُحذف التقريب أو يُثبت، نحو: مَنْ كان من الناس سعيداً فهذا الصيادُ شقيماً، إذ يصح أن يُقال: فالصيادُ شقي.⁽¹⁸⁾

ملحوظات على الآراء السابقة

يُلاحظ أن اسم الإشارة لا يكون تقريباً عاملاً مثل (كان وأخواتها) إلا إذا دل على المُشار إليه القريب في أصل استعماله، وأتبع باسم معرفة مرفوع بالتقريب، وبعده خبرٌ منصوب به، بشرط أن يكون الاسمُ المعرفة ليس تابعاً لاسم الإشارة، حين يكون هذا الاسمُ لا ثاني له في الوجود، أو حين يفصل بين التقريب و(ها) التنبيه بضمير الفصل، في سياقات تركيبية يصح فيها الاستغناء عن التقريب. ولكن ما خلصنا إليه من توضيح للتقريب لدى الكسائي والفراء وثعلب لا يبين العلة الحقيقية في إلحاق اسم الإشارة الجامد أو التقريب بأفعال أثبت الاستقراء نقص دلالتها على

الحدث الذي يجب أن تشتمل عليه في صيغتها الصُرفية، أو أنها ناقصة لعدم استغنائها بمرفوعها عن منصوبها. (19) ومن ثم فإننا لا نجد في رأيهم ما يشير إلى موضع اسم الإشارة أو التقريب من الإعراب، وهذا المأخذ ذكره ابنُ عصفور، وأثبتته في القابل من البحث.

والاستقراء أثبت - أيضاً - أن أسماء الإشارة تُقسَم في ضوء دلالتها على المشار إليه من ناحية قربه أو بعده أو توسطه بين القرب والبعد، (20) لا أن تكون دلالة التقريب مكتسبةً من "قرب وقوع الخبر." كما يذكر ثعلب.

وثمةَ غموضٌ وردَ في تعليل امتناع الفصل بضمير الفصل بين اسم التقريب وخبره من جهة كون التقريب جواباً، وضمير الفصل جواباً فلا يجتمعان. فالظاهر أنه يمكن حمل معنى أن يكون ضميرُ الفصل جواباً على جواز إعرابه خبراً للمبتدأ، والخبر هو نوع من الجواب عنه، وأما أن يكون التقريب نفسه جواباً فذلك مما يحتاج إلى فصل استقراء، فالملاحظ أن الجملة التي تشتمل على التقريب واسمه وخبره تقع - في كثير من استعمالاتها اللغوية - جواباً عن سؤالٍ منكرٍ أو شكٍّ، أو ما يتنزل منزلة الشكِّ أو المنكر، والدليل على ذلك بعضُ الأمثلة التي ذكرها ثعلب، مثل: كيف أخاف الظلمَ وهذا الخليفةُ قائماً، ومن كان من الناس سعيداً فهذا الصيادُ شقيماً. (21)

2. معاني القرآن

نكرت - من قبل - أن رأي الفراء في (مجالس ثعلب) يختلف عن رأيه في كتابه (معاني القرآن) وأن الفراء لم يذكر للكسائي وللكوفيين الذين سبقوه، أو عاصروه أي رأي في التقريب، وليبيان حقيقة ما أراد الفراء من مسألة التقريب؛ قسمت الأمثلة الواردة في كتابه على الأضرِب الآتية: (22)

أ. أمثلة التقريب المقيس على (كان وأخواتها):

1. ما كان من السباع غيرَ مخوفٍ فهذا الأسدُ مخوفاً.

2. هذه الشمسُ ضياءً للعباد، وهذا القمرُ نوراً.

3. ﴿هَاتَتْهُمُ هَوَالٍ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ﴾ النساء/109.

ب. الأمثلة التي حُذِفَ منها التقريب:

1. ما لا يضرُّ من السباعِ فالأسدُ ضاراً.

ج. ما لا يقاسُ على (كان وأخواتها) من أسماء الإشارة الدالة على التقريب:

1. هذا الحمارُ فارَةٌ.
2. تقول: قد قدمَ فلانٌ، فيقولُ السامعُ: قد بلغنا ذلك، أو: قد بلغنا هذا الخبرُ.
3. هذا هو، وهذان هما.

د. ما يُنصب على الحال بعد أسماء الإشارة:

1. ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى﴾ البقرة/2

في الأمثلة (أ) يوجب الفراءُ نصب الأسماءِ: (مخوفاً وضياءً ونوراً) تأسيساً على أنه لا يمكن إعرابِ الأسماءِ المرفوعةِ قبلها المشتملةِ على (أل) نعتاً لاسم الإشارة، فالمتكلمُ يقصدُ من المثال الأول أن يُخبرَ عن الأسودِ كلِّها بالخوفِ من طريق الإخبارِ عن واحدٍ منها، وفي المثال الثاني إخبارٌ عن واحدٍ لا نظيرَ له، وهو (القمر والشمس) وفي الآية الكريمة الواردة في المثال الثالث يذكر الفراءُ مسألة الفصل بين التقريب و(ها) التنبيه بالمكنيِّ أو ضمير الفصل. (23) وفي هذه الأمثلة يصرِّحُ الفراءُ بأنَّ اسمَ الإشارةِ تقريبٌ مقيسُ على (كان) ولكنَّ هذا القياسُ يتناولُ -فيما نرى- مسألةً دقيقةً في الفكر النحوي القديم على اختلاف مذاهبه، وهي موجبُ نصبِ الأسماءِ الواردة في الأمثلة التي سبقت. ولم تكن غايةَ الفراءِ أن يقيسَ التقريب على (كان) بإلحاقه بها من جهة احتياجه إلى اسم مرفوع به، وخبر منصوب به، والدليل على ذلك حديثه عن المثال الأول بقوله: "وأما معنى التقريب فهذا أول ما أخبركم عنه، فلم يجدوا بُدأً من أن يرفعوا (هذا) بالأسد، وخبره مُنتظرٌ، فلما شغل (الأسد) بمرفاعه (هذا) نصب فعله الذي كان يرافعه لخلوته، ومثله: واللّه غفور رحيم فإذا أدخلت عليه (كان) ارتفع بها، والخبرُ منتظرٌ يتمُّ به الكلامُ فنصبته لخلوته." (24)

مما لا يمكن إنكاره -هنا- أنَّ الفراءَ يصرِّحُ برفع اسم الإشارة (هذا) بالأسد في مثاله: فهذا الأسدُ مخوفاً، والعكسُ صحيح، والمعروف أن الفراءَ والكوفيين يجعلون من (الترافع) عاملاً نحويّاً يفسرون به رفع المبتدأ والخبر. (25) ونخلص من ذلك إلى أنَّ جملة: هذا الأسدُ، من نمط الجملة الاسمية دون شك في ذلك، ولا معنى للتعميم الذي ذكره ابنُ عصفور في حديثه عن إعمال الكوفيين للتقريب بقوله: "وهذا الذي ذهبوا إليه -يعني الكوفيين- فاسد؛ لأن (هذا) اسمٌ فلا بد أن يكون له موضع من الإعراب، وعلى مذهبهم لا موضع له من الإعراب." (26) فالفراءُ يبنصُّ على إعرابه مبتدأً مرفوعاً بالخبر. والفرق بين اسم (كان) والمرفوع بعد التقريب، أن (كان) ترفع هذا الاسم، ولا مجال للترافع بينهما؛ لاستحالة إعراب (كان) مبتدأً، ومن ذلك نخلصُ إلى أنَّ الفراءَ لا

يقيس إعمال (التقريب) على (كان)، بل ما نرجّحه من القياس الذي أرادَهُ هو القياس الذي يفسّر به تحوّل ما كان خبراً مرفوعاً إلى اسم منصوب قبل دخول التقريب و(كان) على المثالين: الأسد مخوّفٌ، واللّه غفورٌ رحيمٌ. فما يوجبُ نصب (مخوفٌ) خلوتُهُ من مرفاع له على ما يذكر الفراء، وكذا الحال في موجب نصب خبر (كان) بعد دخولها على المبتدأ والخبر؛ لأن ما كان خبراً يفتقرُ إلى مرفاعه بعد صيرورة هذا المرفاع اسماً لكان نفسها، ومن ثم يُنصب الخبر على خلوه من مرفاع له.

وهذا الفرقُ الدقيقُ بين موجب نصب الأسماء وعاملِ النصب نفسه قد يكون السببُ الذي دفع ثعلباً والنحاة المتأخرين إلى القول بأن الفراء ممن يرى أن التقريب ملحقٌ بـ: (كان) وأخواتها في العمل.

ولعلّ ما يزيدنا تمسكاً بما خلصنا إليه من رأي الفراء وتفريقه بين موجب النصب والعامل فيه مقارنةً رأيه بنصوص من كتاب سيبويه تشابه أمثلة التقريب التي ذكرها الفراء، فقد ذكر سيبويه موجب نصب الحال في الأمثلة: هذا عبدُ الله منطلقاً، وجاء عبدُ الله راكباً، إذ يحولُ (عبدُ الله) في المثالين بين (هذا ومنطلقاً) وبين (جاء وراكباً) وهو ما يسوّغُ نصبَ الحالِ بعد تمام العلاقة الإسنادية من المبتدأ والخبر، والفعلِ والفاعلِ، وهذا لا يمنعُ نصبَ الحال بما تضمنه اسمُ الإشارة من معنى التنبيه في المثال الأول، مثلما تنصب الحال في المثال الثاني بالفعل: جاء. (27) والملحوظ - بعد ذلك- أنّ الفراء يسمي الاسمَ المنصوبَ في أمثلة التقريب (أ) الخبرَ، وقد ذكرتُ أنّ هذا المصطلحَ ممّا وسم به الكوفيون مسمياتٍ مختلفةً، بيد أن دلالته في استعمال الفراء تنحصرُ في إطلاقه على الاسم الذي نصب بعد (المرفاعة) التي بينها، فإن كنا قد ذكرنا أنّ هذا المنصوبَ ليس خبراً للتقريب لدى الفراء، فهل يجوزُ لنا أن نسميه حالاً أو شبيهاً بالحال كما يذكر بعضُ المحدثين الذين خصّصنا آراءهم بإفراء مستقل في الآتي من البحث؟

والظاهر أنّ ذلك غيرُ وارد؛ لأنّ الفراء يصرّحُ بجواز نصب (هدى) على القطع في الآية الكريمة الواردة في أمثلة (د) والقطعُ مصطلح يستعمله الكوفيون للدلالة به على الحال، زيادةً على مصطلحات: الخارج والخروج والإخراج. (28) وفي ذلك إشارة واضحة إلى الفرق بين المنصوب بعد التقريب والمنصوب بعد اسم الإشارة الدال على المشار إليه البعيد الذي يسميه الفراء قطعاً وهو الحال عند البصريين.

ولعل من الجائز لنا أن نصلّح على تسمية المنصوب في جملة التقريب: الخبر المنصوب بعد (المرفاعة) والعامل فيه التقريب نفسه، مثل أي اسم جامد ينصبُ اسماً آخر، نحو نصب التمييز بالمُميّز في قولنا: عندي عشرون درهماً، لا أن يكون التقريب ناصباً له بسبب إلحاقه بـ:

(كان) وأخواتها، وبذلك يمكن أن نُجملَ معنى التقريب المقيس على (كان) وأخواتها عند الفراء بأنه: اسمُ الإشارةِ المبتدأُ الدالُّ على المشارِ إليه القريب المتبوعُ بخبرٍ له، وبعد الخبرِ اسمُ منصوب يُسمى الخبرَ المنصوبَ بعد المرافعة. ويجب أن يُقيدَ إجمالُ هذا المعنى بالشروط التي يجبُ توافرها في مكوثاتِ جملة التقريب مثل: أن يكون الإخبار عن المرفوع بعد التقريب إخباراً عن جميع أفراد جنسه، أو أن يكون هذا المرفوعُ لا ثاني له في الوجود، أو أن يُفصل بين التقريب و(ها) التنبيه بضمير الفصل، على أن يصحَّ حذفُ التقريب وإبقاؤه كالمثال الذي ذكره الفراء في (ب).

وقد لا يكونُ اسمُ الإشارةِ تقريباً مقيساً على (كان وأخواتها)، بل يُعربُ وفاقاً للاحتياج إليه، وما ورد في أمثلة الطائفة: (ج) يوضح هذا الاحتياج والإعراب.

لماذا اختلف رأي الفراء في التقريب عما نسب إليه؟

إذا صحَّ ما خلصنا إليه من رأي الفراء، فإن جملةً من الأسباب قد تكون وراءَ اختلافِ رأيه عما نسبَ إليه ثعلبٌ والنحاة المتأخرون، أجمالها بالآتي:

1. قياسُ الفراءِ نصبِ الأسماءِ بعد خلوها من مرافع لها في جمل التقريب على خبر (كان) وأخواتها) المنصوبِ بعد خلوه من مرافعه.
2. تنظيرُ الفراءِ للتقريب بما لا يقطع بحقيقة مراده على نحوٍ واضح.
3. قد يكون الصِّراعُ على الدرسِ النحوي واللغوي في بغداد بين الكوفيين والبصريين دافعاً لثعلبٍ وغيره من الكوفيين إلى اختراعِ عواملٍ ومصطلحاتٍ جديدةٍ يخالفون بها البصريين، ويقولُ في هذا الأمر جعفر عابنة: "وكان النحاة الكوفيون أجراً النحاة الذين حاولوا مخالفة المصطلحات البصرية... فكأنهم رأوا أن اكتمال مذهبهم النحوي لا يتم إلا بإيجاد مصطلحات مقابلة لما وصلهم من مصطلحات البصريين، من ذلك أنهم، أسموا أسماء الإشارةِ التقريب." (29)

وقبل الانتهاء من هذا المبحثِ يتوجب علينا التنبيهُ على مسألتين من بقية رأي الكوفيين في عامل التقريب، إحداهما: أن ما يذكره ثعلبٌ وبعض النحاة المتأخرين والمحدثين من اتفاق الكوفيين على إعمال التقريب ليس صواباً، ففي تفسير الطبري المسمى: (جامع البيان) ذكرَ لبعض الكوفيين الذين يعدون (أطهر) في قراءة قوله تعالى: ﴿هُؤَلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ "نكرةً خارجةً من المعرفة، ويكون (هُنَّ) عماداً للفصل فلا يعملها." (30) وقد عرفنا من قبل أن الخارجَ والخروج

والإخراج، والقطع من مصطلحات الكوفيين التي تقابل الحال عند البصريين، وكان الفراء يُعلل نصب (هدى) في قوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى﴾ البقرة/2 على القطع بقوله: "لأن (هدى) نكرة اتصلت بمعرفة قد تمّ خبرها فنصبته".⁽³¹⁾

والمسألة الثانية: أن ما يروى عن بعض الكوفيين، أو ممن اختلف في مذهبهم النحوي لا يتضح منه شيء عن إعمال التقريب عمل (كان وأخواتها) أو نفيه، وقد نجد بعض ما ينفي عمل التقريب، ومن ذلك أن ابن كيسان قد عرض للتقريب في مسألة نحوية أودعها في كتابه: (المهذب) الذي لم يصل إلينا في حدود علمي المتواضع، بل نقلها أبو العلاء المعري في كتابه: (رسالة الملائكة) بقوله: "القول في المسألة التي ذكرها ابن كيسان في كتابه: المهذب وهو قوله: هذا هذا هذا أربع مرات، فذكر على قول الكوفيين أن الأولى تقريب، والثانية مثال، والثالثة فعل، والرابعة مفعول".⁽³²⁾ وقد تعقب المعري مسألة ابن كيسان موضحاً المصطلحات الواردة فيها، فكان نصيب التقريب من هذا التوضيح أنه: "من قرب الشيء" وشاهد ذلك قول جرير:⁽³³⁾

هذا ابن عمي في دمشق خليفة
لو شئتُ ساقكم إليّ قطينا

وما ينفي عمل التقريب نفياً محضاً ما ورد في مؤلف ابن سعدان الكوفي الضرير تلميذ الكسائي في قوله: "وإذا تمّ الكلام في المعرفة دون الفعل فانصب الفعل، تقول: هذا زيداً شاخصاً، رفعت (زيداً) ب (هذا) ونصبت (شاخصاً) على القطع. تقول: هذا أخوك وأختك مقبلين".⁽³⁴⁾ وليس للقطع من معنى لديه سوى الحال أو هو مصطلح يرادف الحال، إذ يذكر في باب وسمه (باب القطع) ما نصه: "وإذا أُلقيت من نعت الاسم الألف واللام فانصب النعت على القطع والحال تقول: خرج عبد الله نبيلاً، نصبت (نبيلاً) على القطع، وإنما صار قطعاً؛ لأنّ الكلام قد تمّ دونه".⁽³⁵⁾

المبحث الثاني: عامل التقريب في كتب إعراب القرآن وقراءته وتفسيره

يعرض هذا المبحث لتداول هذا العامل في الكتب والمطان القديمة التي عُنيت بالقرآن الكريم؛ إعراباً وتفسيراً ودرسا لقراءته المختلفة في مواضع من آياته يحتمل إعرابها التفسير بهذا العامل.

والآيات الكريمة موضع الدرس وردت في قوله تعالى: ﴿ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ هود / 72 وفي قوله تعالى: ﴿ هُوَآءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ هود / 78، وفي قوله تعالى: ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ ﴾ آل عمران / 66، وفي قوله تعالى: ﴿ هَأَنْتُمْ أَولَاءِ تَحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ آل عمران / 119، وفي قوله تعالى: ﴿ هَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ ﴾ النساء / 109.

في هذه الآيات الكريمة وبعض قراءاتها تتحقق شروط تجعل من اسم الإشارة تقريباً عاملاً، بيد أن المشترك في مصادر النحو الكوفي هو غرضها الطرف عن توجيه بعض هذه القراءات بما يناسب عمل التقريب عند الكوفيين.

ومن ذلك أن الفراء وثعلباً لم يوجها قراءة الجمهور (شيخاً) بالنصب على أنها خبرٌ للتقريب، بل ذكرا قراءة ابن مسعود وغيره (شيخ) بالرفع، وفسر ثعلبُ قراءة الرفع بقوله: "وشَيْخٌ إذا كان مدحاً أو نماً استأنفوه."⁽³⁶⁾ وقد سبق بيان رأي ثعلب في قراءة ابن جويّة (أطهر) بالنصب وذهابه إلى نصبها على خبر التقريب (هؤلاء) وردّه تفسير نصبها على الحال لدى سيبويه. وأما الفراء فليس لدينا ما يشير إلى إعرابه لها خبراً للتقريب، إلا بما يرويه عنه ثعلب.

والآيات السابقة الواردة في سورتي: آل عمران(66، 119) والنساء(109) تعدّ من مواضع التقريب العامل لدى ثعلب، في حين يذهب الفراء في بعضها إلى بيان منهج العرب في الفصل بين هاء التنبيه واسم الإشارة بالمكني أو الضمير.⁽³⁷⁾

وتسوق كتبُ إعراب القرآن وقراءاته في الآيات السابقة إعراباتٍ مختلفةً لها تصل إلى سبعة وجوه، لا يوجد فيها إعرابٌ مبني على إعمال التقريب عمل (كان)، بل فيها وجهان من الإعراب اُشتهرا وفاقاً للمذهب النحوي الكوفي، أحدهما: أن (أنتم) ضميرٌ في موضع ابتداء، وخبره اسمُ الإشارة: (هؤلاء وأولاء) واسم الإشارة - هنا- موصول بمعنى (الذين) وجملة: (تحبونهم وحاجتكم وجدالتم) صلة الموصول. والثاني: أن هذه الجملة في موضع الخبر عن المبتدأ الضمير، واسم الإشارة منادى حذف قبله حرف النداء.⁽³⁸⁾

وأما ما ورد منصوباً في قراءة الجمهور (شيخاً) هود/72 فبعض هذه الكتب تفسر النصب في هذه القراءة على الحال، ومن ثمّ لا تذكر نصبه على أنه خبرٌ للتقريب، وقسم آخرٌ منها يذكر نصبه على الحال أو على خبر التقريب.⁽³⁹⁾

ولكننا لا نطالع أيّ توضيحٍ لمعنى الآية الكريمة، إذا ما أعرب المنصوبُ خبراً للتقريب في هذه الكتب، ولعلّ ما يمكن به تفسير ذلك يعود إلى عدم إفضاء هذا المنصوب بالتقريب إلى معنى يُطمأنُ إليه، في موضع يُحتاطُ له كلُّ الاحتياط في توضيح معاني القرآن الكريم.

ولكنّ المُستقرىءَ لبعض المؤلفات في إعراب القرآن وتفسير آياته يلحظ أنها تعدّ منصوبَ التقريب عند بعض الكوفيين حالاً لازمة، أو حالاً غير مُستغنى عنها، ومن ذلك مثلاً ما ذكره أبو إسحاق الزجاج، في قياس نصب (شيخاً) واحتياج السياق لهذا المنصوب على قولنا: هذا زيد قائماً. إذ لا يجوز أن تنصب قائماً على الحال إلا والمخاطب يعرفُ زيداً ولا يجهله، يقول "الحال ههنا نصبها من لطيف النحو وغامضه، وذلك أنك إذا قلت: هذا زيد قائماً، فإن كنت تقصد أن

تُخبر مَنْ لم يعرف أنه زيد لم يجز أن تقول هذا زيد قائماً؛ لأنه يكونُ زيداً ما دام قائماً⁽⁴⁰⁾ وقد أكد هذا التفسير والإعراب مكي بن طالب القيسي⁽⁴¹⁾.

و أما السمين الحلي فذكر وجه نصب (شيخاً) على خبر التقريب عند الكوفيين، وعلى الحال عند البصريين، وانتهى إلى القول: "وهذه الحال لازمة عند من لا يجهل الخبر، وأما مَنْ جهله فهي غير لازمة." ⁽⁴²⁾ وعندما عرض لقوله تعالى ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم﴾ آل عمران/ 66 ذكر أن جملة (حاججتم) تحتمل أن تكون في موضع نصب على الحال، ودليل ذلك تصريح العرب بالحال في موضع الجملة في قولهم: ها أنا ذا قائماً، وخلص إلى القول بعد ذلك: "ثم هذه عندهم من الأحوال اللازمة التي لا يستغني الكلام عنها." ⁽⁴³⁾

وبين أبو حيان الأندلسي السر في عدم استغناء المخاطب عن الحال بقوله: "ولا يستغني عن هذه الحال، إذا كان الخبر معروفاً عند المخاطب؛ لأن الفائدة إنما تقع بهذه الحال." ⁽⁴⁴⁾

وقد نخلص مما عرضنا إليه - هنا- للقول بأن الفراء ربما كان ينظر للحال التي لا يستغني عنها، معنى وإعراباً في حديثه عن المنصوب في جمل التقريب؛ ولهذا كان يسمي هذا المنصوب خبراً - كما ذكرنا سابقاً- لأن الفائدة تقع به، فصار هذا الخبر منصوباً بالتقريب لدى ثعلب.

المبحث الثالث: رأي البصريين والنحاة المتأخرين في التقريب

لم يثبت أن سيبويه، ومن تلمذ لهم، أو روى عنهم في كتابه قد عدوا التقريب عاملاً عمل (كان) وأخواتها، فكل ما يذكره سيبويه عن وظيفة اسم الإشارة: "أنك تُقرب به شيئاً أو تباعده، وتشير إليه." ⁽⁴⁵⁾ والظاهر أن الكوفيين قد صاغوا مصطلحهم من وظيفة اسم الإشارة التي ذكرها سيبويه. ⁽⁴⁶⁾ وقد يكون ابن السراج (ت 316هـ) من أول البصريين الذين ذكروا هذا العامل النحوي المنسوب إلى الكوفيين، فبعد ذكره لأمثلة التقريب الكوفية، نحو: هذا القمر منيراً، وهذا الأسد مهيباً، قال: "وهذا الوجه يسميه الكوفيون: التقريب، وهو إذا كان الاسم ظاهراً جاء بعد (هذا) مرفوعاً، ونصبوا الخبر معرفةً كان أو نكرةً، وأما البصريون فلا ينصبون إلا الحال." ⁽⁴⁷⁾

والطريف أن ابن السراج لم يذكر أن التقريب يعمل عمل (كان)، فليس هناك ما يثبت أن المرفوع بعد التقريب هو اسم له، وأما المنصوب فهو خبر معرفة أو نكرة. وعندما عرض للفصل بين التقريب و(ها) التنبيه بالضمير قال: "وقال قوم: إن كلام العرب أن يجعلوا هذه الأسماء المكنية بين (ها) و(ذا) وينصبون أخبارها على الحال، فيقولون: ها هو ذا قائماً." ⁽⁴⁸⁾ وإذا بحثنا

عن (القوم) الذين ذكرهم ابن السراج لم نجد إلا الفراء وثعلباً، فالأول يقول: "العرب إذا جاءت إلى اسم مكني قد وُصف ب: (هذا وهذان وهؤلاء) فرقوا بين (ها) وبين (ذا) وجعلوا المكني بينهما، وذلك في جهة التقريب لا في غيرها." (49) والثاني يقول: "وإذا صاروا إلى المكني جعلوه بين (ها) و(ذا) فقالوا: ها أنا ذا قائماً، وهذا كله مع التقريب." (50) والصحيح أن الفراء وثعلباً لم يذكر أن المنصوب في هذه المواضع حال، فثعلب كان يرى أنه خبر منصوب بالتقريب دون شك في ذلك، وأما الفراء فنرجح أنه يعده خبراً منصوباً منقطعاً عن الترفع مع المبتدأ.

وعرض أبو حيان الأندلسي للمسألة السالفة فنسبها إلى الفراء بقوله: "وقال الفراء: إذا وصلت المكني بالمبهم، وجعلت الخبر عنه بالفعل، فالعرب في ذلك تدخل حرف التنبيه على المكني دون المبهم، نحو: ها أنا ذا أقوم... فإذا كان الكلام على غير ترتيب وهو أن تبني أحدهما على الآخر، لم تدخل هاء فتقول: أنا هذا، وهذا هو، ويعني -والله أعلم بقوله هذا- إذا كان الكلام على غير ترتيب أنه يجعل الفعل خبراً، وكأن اسم الإشارة توكيداً للمضمر، ولذلك أتى بالفعل فيه ضمير يعود على المكني، لا على اسم الإشارة." (51) وكان قصدي من إيراد آراء ابن السراج والنص الذي يرويه أبو حيان عن الفراء مناقشة جملة من المسائل:

- الأولى : اختلاف النصوص المروية عن الفراء عن نص الفراء نفسه.
- والثانية : اختلاف الأحكام المنسوبة إلى الفراء في موضوع التقريب.
- والثالثة : إيراد بعض الأخطاء الواردة في النصوص المحققة وفي فهم المراد.

وأما الاختلاف في المسألة الأولى فواضح من عبارة ابن السراج: "وينصبون أخبارها على الحال." إذ لم ترد هذه العبارة في نص الفراء الذي ذكرناه ولا في نص ثعلب أيضاً، وزيادة أبي حيان واضحة من قوله: "وجعلت الخبر عنه بالفعل."

والاختلاف في المسألة الثانية بار من عد ابن السراج المنصوب حالاً وقد ثبت لنا أن المنصوب ليس حالاً عند الفراء وثعلب، واختلاف الحكم النحوي عند أبي حيان الأندلسي واضح من زيادته عبارة: "وجعلت الخبر عنه بالفعل" فهو يبيّن أن الفراء يعد الجملة الفعلية خبراً عن الضمير لا عن اسم الإشارة الذي يعد توكيداً للضمير في جملة: ها أنا ذا أقوم. ودليلاً على ذلك عود الضمير من الجملة الفعلية إلى ضمير الفصل، لا إلى اسم الإشارة.

ويبدو أن ما ذكره الأندلسي هنا لا يتفق مع حقيقة رأي الفراء وثعلب، والدليل على ذلك مسألة الخلاف التي أوردها أبو البركات الأنباري في موضوع أسماء الإشارة، إذ ذهب إلى أن

الكوفيين يعدون اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿هَآئِنْتُمْ هَآئِلًا جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ﴾ النساء / 159 وفي غيرها من الأمثلة المشابهة اسماً موصولاً بمعنى: (الذين) بخلاف البصريين الذين يعدونه إشارة على الأصل. (52)

ومما احتج به أبو البركات على الكوفيين أن جملة: (جادلتم) الواردة في الآية الكريمة تحتل وجوهاً من الإعراب، منها أن تكون في موضع نصب خبر التقريب، وفاقاً لرأي الكوفيين الشائع في مثل هذه المواضع التي عدوا فيها اسم الإشارة تقريباً، وما استفاده أبو البركات من ذلك الاحتجاج هو أن اسم الإشارة ليس موصولاً، ولو كان كذلك لما كان للجملة السابقة موضع من الإعراب؛ لأنها صلة للموصول، وقد شاع في نحو الكوفيين أنها في موضع نصب خبر التقريب. (53)

وأما ما يفيدنا احتجاج أبي البركات هذا، فهو أن الجملة التي تقع في هذا الموضع ليست خيراً عن الضمير في رأي الفراء وثلعب، بل هي في موضع نصب خبر التقريب عند ثعلب، أو واقعة موقع اسم منصوبٍ منقطع عن الترافع فيما نرجحه عند الفراء.

وأما الأخطاء الواردة في المسألة الثالثة فواقعة في قول أبي حيان الأندلسي: "فإذا كان الكلام على ترتيب" وقوله: "إذا كان الكلام على غير ترتيب" فليس هناك أي معنى للترتيب في هذه النصوص؛ لأن حديث الفراء كان عن التقريب، فصواب العبارتين أن نستبدل بكلمة (ترتيب) كلمة: (تقريب).

بقي أن نقول: إن ابن عصفور (ت 669هـ) من أوائل الذين انتقدوا رأي الكوفيين في موضوع التقريب، فقد أشار - ابتداءً - إلى إلحاق الكوفيين للتقريب ب: باب (كان) وأخواتها وجعل دليلهم مبنياً على أن جملة من نمط: هذا زيد قائماً. يقال لمن يقطع بأنه قد علم أن المشار إليه (زيد) وبناءً على أن الخبر يجب أن يكون مفيداً للسامع وليس مما يعلمه فإن: (قائماً) هو الخبر، ولكنه خبر للتقريب. ويرى ابن عصفور فساد هذا الرأي؛ لأنه لا موضع لاسم الإشارة من الإعراب، ولهذا عد المنصوب -هنا- حالاً، ودليل ذلك التزام التنكير فيه، إذ لو كان خيراً لسمع من كلام العرب معرفة، وأما مجيئه معرفة في مثال الكوفيين: هذا زيد قائم، فليس دليلاً لهم؛ لأن ذلك مما أوردوه قياساً لا سماعاً. (54)

وقد ذكر السيوطي مذهب الكوفيين في التقريب وإعرابهم لاسمه وخبره في جمل من نحو: كيف أخاف الظلم وهذا الخليفة قداماً، وكيف أخاف البرد وهذه الشمس طالعة، فرأى أن المعنى على الإخبار عن الخليفة بالقدوم، وعن الشمس بالطلوع، وجيء باسم الإشارة تقريباً للقدوم والطلوع، وبيّن أن المرفوع بعد اسم الإشارة يُخبر عنه بالمنصوب، لأنك لو أسقطت اسم الإشارة لم يختل المعنى، كما أنك تسقط (كان) من جملة: كان زيد قائماً، ولا يختل المعنى. (55)

ويختلف السيوطي عن ابن عصفور باكتفائه بعرض آراء الكوفيين وبيانها دون قبول لها أو رد.

وجملة ما نفيده من نصوص النحاة السابقين في التقريب كثير، نوجزه بالآتي:

1. إغفال بعضهم للسياقات التركيبية والشروط التي تؤهل اسم الإشارة ليكون تقريباً.
2. لا نجد في هذه الآراء -أحياناً- ما يشير إلى إعمال اسم الإشارة عمل (كان) وأخواتها بشرط دلالة على المشار إليه القريب، وهذا من الشروط التي يمكن استنتاجها بيسر، فقسّم ممن سقنا آراءهم يذكرون أن الكوفيين يعملون اسم الإشارة عمل (كان) وأخواتها دون تقييد لهذا العمل.⁽⁵⁶⁾
3. يختلف الرأي في مسألة الفصل بالضمير بين التقريب وحرف التنبيه، فابن السراج يرى أن المنصوب حال عند مَنْ بيّن أنهم الكوفيون، وعلى وجه الخصوص الفراء وتعلب، وثمة مَنْ يرى أن المنصوب هو خبر التقريب، وهذا مستفاد من احتجاج أبي البركات الأنباري في مسألة الخلاف بين البصريين والكوفيين في أسماء الإشارة من جهة مجيئها موصولة أو غير موصولة. وثمة نحاة سكتوا عن مسألة الفصل هذه، فلم يذكروا إن كانت من المواضع التي يُعدّ فيها اسم الإشارة تقريباً عند الكوفيين.
4. زاد دليلنا على أن جُمَل التقريب تُقال في سياق الردّ على سؤال منكر أو شاك، يظهر ذلك من أمثلة السيوطي التي ذكرها.
5. إغفال بعض القدماء حقيقةً خلصنا إليها، وهي أن الكوفيين يختلفون في التقريب، فالفراء لا يصرّح بعمل التقريب بخلاف تعلب، وبعض الكوفيين لا يأخذ بهذا العامل ويوافق البصريين.

المبحث الرابع: رأي الباحثين المحدثين في التقريب وتداوله في التطبيق النحوي المعاصر

تناول بعض المحدثين التقريب الكوفي مصطلحاً وعاملاً، وفي هذا تناول نجد اتفاقاً واختلافاً ونجد -أيضاً- اضطراباً ونقصاً في الاستقراء على النحو الآتي بيانه:

1. المصطلح:

يختلف رأي المحدثين في مصطلح التقريب باختلاف رأيهم في مدرسة الكوفة النحوية، فمن دفعه رأيه إلى إثبات أصالة هذه المدرسة النحوية كان ينظر إلى هذا المصطلح على أنه من الجديد الذي قدّمه الكوفيون إلى التراث النحوي.⁽⁵⁷⁾ ولكن هذا لم يمنع بعض المثبتين لهذه المدرسة، أو النافين لوجودها من القول: بأنه من زمرة المصطلحات الكوفية التي لا تتصف بالشمول والسعة والاستقرار، والدليل على ذلك أن تعلباً شرحه ومثله، وكرّر الكلام عليه في أكثر من موضع،

زيادةً على أن هذا المصطلح مأخوذٌ من قول سيبويه من اسم الإشارة: "أنك تقرّب به شيئاً أو تباعده، وتشير إليه." (58)

وأما الباحثُ فلا يساورُهُ الشكُّ بأنّه من المصطلحات المستفادة من كتاب سيبويه بل إنَّ اتِّكأ بعض الكوفيين على إعماله عمل (كان) مستفاداً -أيضاً- من بعض آراء سيبويه وحواراته في كتابه، فهو يرى أن معنى الجمل الآتية: هذا عبد الله منطلقاً، وذاك عبد الله زاهباً، واحدٌ وهو أنك: "تريد أن تنبه له منطلقاً، لا تريد أن تعرّفه عبد الله، لأنك ظننت أنه يجهله، فكأنك قلت: انظر إليه منطلقاً." (59) ويشابه رأي سيبويه - هنا رأي الفراء في تعليقه لوجوب نصب (نوراً) في مثاله: وهذا القمر نوراً، يقول الفراء: "فكان - أيضاً- عن قولك (هذا) مستغنياً؛ ألا ترى أنك إذا قلت: طلع القمر، لم يذهب الوهم إلى غائب فتحتاج أن تقول (هذا) لحضوره." (60) فالمشترك بين الرأيين حضورُ المشار إليه، وعدمُ جهل السامع به، وصحة الاستغناء عن اسم الإشارة.

2. العمل النحوي:

ذكر بعضُ الباحثين عملَ التقريب في ثنايا توضيحه لمصطلح التقريب، وفي ذلك تقول خديجة الحديثي: "مصطلح التقريب، واختصوا به - تعني الكوفيين - اسم الإشارة المتبوع باسم معرفة، بعده نكرة منصوبة... فهم يعدونه عاملاً عمل (كان) وأخواتها." (61) وذكر إبراهيم السامرائي منهجَ الكوفيين في إعمال أسماء الإشارة الدالة على القريب في مثل: هذا بكرٌ قائماً، بقوله: "المنصوب كأنه خبر لما سُميَ التقريب وهو (هذا) و(هذه)، وكأن (هذا وهذه) مما يفتقر إلى (خبر) والإشارة غير مقصودة." (62) ويذهب شوقي ضيف إلى توضيح التقريب عند الفراء قائلاً: "كان يجعل اسم الإشارة كأنه مُشبهٌ لكان إذ يليه - مثلها - مرفوعٌ ومنصوب، ويقول: إنَّ المنصوبَ يُنصب بخلوه من العامل كما نُصب خبر (كان) أي لعدم وجود رافع يرفعه، ولعل ذلك ما جعل بعض خالفه من الكوفيين يجعل (هذا) من أخوات كان." (63) ويذكر أحمد مكي الأنصاري التقريب بما يمكنُ تلخيصه بأنَّ الفراءَ والكوفيين جميعاً لا يعربون المنصوب بعد التقريب خيراً، وإنما يعربونه حالاً، ويجوزُ أن يُعرب شبهةً حال عند الفراء، وبين أنَّ السيوطي وهِم حين ذكر في كتابه: (همع الهوامع) أن الكوفيين يعربون المنصوبَ خبرَ التقريب، فهو قد لفق بين مذهب البصريين القائلين بالخبرية، وبين مذهب الكوفيين القائلين بالتقريب. (64)

هذه خلاصة تمثل جملة آراء بعض المحدثين الذين درسوا آراء الكوفيين النحوية في التقريب، ولعل في هذه الخلاصة كثيراً مما يحتمل المناقشة والمدارسة.

وأول ذلك التعميم غير المقبول، وهذا واضح من رأي خديجة الحديثي، إذ عدت التقريب عند الكوفيين: اسم الإشارة المتبوع باسم معرفة، بعده نكرة منصوبة. والصحيح أنه ليس كل اسم إشارة أتبع بما ذكرت هو من التقريب العامل عمل (كان) بل يقتصر في ذلك على اسم الإشارة الدال على القريب دون غيره، ومن ثم فإن إتباع الاسم المعرفة بنكرة منصوبة، هو الأصل، بيد أن الكسائي والفراء قد أجازا إتباع هذه المعرفة بمعرفة أخرى، ومثالهم الذي ذكره ثعلب دليل على هذا الجواز، وهو قوله: هذا زيد القائم.⁽⁶⁵⁾ ولو أن التقريب على ما ذكرت الحديثي، لكانت أمثلة من نمط: هذا الحمار فاره، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى﴾ من التقريب العامل عمل (كان) عند الفراء، فهو لم يعد اسم الإشارة في المثال الأول مقيساً على (كان) وإن كان دالاً على التقريب، وأتبع بمعرفةٍ وبعده نكرة، بل بين أن (الحمار) نعت لاسم الإشارة، وأن (فاره) خبر نحوي. وفي الآية الكريمة ذكر جواز نصب (هدى) على الحال، لأنها "نكرة اتصلت بمعرفة قد تم خبرها."⁽⁶⁶⁾ ومن الواضح أننا لو تطلبنا شيئاً من التعميم المشابه لما سبق في آراء المحدثين الذين ذكرناهم لوجدنا الكثير منه.

وثاني ما يحتاج إلى مناقشة من آراء المحدثين التي سلفت الاستقراء الناقد الذي ظهرت آثاره في الآتي:

1. لم يذكر هؤلاء المحدثون كثيراً من الشروط التي يقاس فيها التقريب على (كان) وأخواتها.
2. لم يذكروا موضعاً من مواضع إعمال التقريب عند بعض الكوفيين، وهو إذا ما فصل بين التقريب وحرف التنبيه بضمير الفصل، ولم يستثن هؤلاء المحدثون بعض الكوفيين الذين يرون أن المنصوب - في ضوء هذا الفصل - حال وليس خبراً للتقريب، على نحو ما ذكر الطبري في قراءة (أطهر) الواردة في قوله تعالى: ﴿هُؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾⁽⁶⁷⁾
3. ما ورد في رأي شوقي ضيف والأنصاري يظهر أثرين من آثار الاستقراء الناقد، يحتاج كل واحد منهما إلى مناقشة وبيان، فما ذكره ضيف من أن الخالفين للفراء هم من عد التقريب مثل (كان) في العمل النحوي ليس دقيقاً، إذ تذكر روايات ثعلب وغيره من النحاة أن الكسائي قد سبق الفراء في روايته عن العرب أمثلة التقريب العامل، نحو: هذا زيد إياه بعينه.⁽⁶⁸⁾ فليس - إذاً - الخالفون للفراء المبتدعين لهذا العامل.

وأما رأي الأنصاري في التقريب الكوفي وتلفيق السيوطي بين المذاهب فهو غير دقيق، وأما ذلك قوله: "إن الروايات تذكر أن الفراء والكوفيين جميعاً لا يعربون منصوب التقريب خبراً له، وإنما يعربونه حالاً."⁽⁶⁹⁾

وقد بحثت عن هذه الروايات فلم أجدُ منها شيئاً يؤكد ما قطع به الأنصاري، إن كان من رأي الفراء نفسه أو من صريح روايات ثعلب في هذا الشأن، وكذا من نقد ابن عصفور الواضح لإعمال التقريب عند الكوفيين عمل (كان)، فضلاً عما أورده أبو البركات الأنباري في كتابه: (الإنصاف) مما يتعلّق بالانتكاء على إعمال التقريب في المذهب الكوفي؛ لردّ حجتهم في أن أسماء الإشارة قد تأتي موصولةً. (70)

وأما حكاية تلفيق السيوطي بين المذاهب فيصعبُ انسحابها على ثبت مطلع على دقائق النحو كالسيوطي، فكل الذين ذكرناهم سبقوا السيوطي فيما نسب إلى الكوفيين من إعمال التقريب، وما أرجحه - هنا- هو أن الأنصاري قد غصّ الطرف عما أورده المظانّ النحوية التي سبقت السيوطي، فتناول هذه المسألة، وهو يظنّ أنّ الكوفيين يخالفون البصريين في عمل (كان) وأخواتها من جهة أن المرفوع بعد (كان) عند الكوفيين مرفوع بما كان يرفع به قبل دخولها، وأن المنصوب حال، وفي رواية أخرى أنّ المرفوع عند الفراء يُرفع تشبيهاً بالفاعل وأنّ المنصوب بها حال أو شبيهه بالحال. (71) وإذا كان التقريب مقيساً على (كان) وأخواتها فإنّ عمل التقريب نفسه يجب أن يطابق عمل (كان) باحتياجه إلى حال منصوبة لا إلى خبر، وتلك حجة الأنصاري على ما يبدو.

والظاهر أنّ هذه المسألة قد أثرت في التفكير النحوي لدى بعض المحدثين، فهذا شوقي ضيف يقول: "أما باب (كان) وأخواتها فقد أراح الناشئة منه الكوفيون، إذ أعربوا (كان) وأخواتها أفعالاً تامة لا ناقصة، وما بعدها فواعل لها والمنصوبات أحوالاً. (72)

والصحيح أنه لا خلاف بين الكوفيين والبصريين في عمل (كان) وأخواتها، ودلائلنا على ذلك كثيرة، منها: ما يصرّح به ثعلب من احتياج التقريب إلى اسم مرفوع وخبر منصوب، أي: أنّ عمل التقريب نفسه دليل على تصحيح مذهب الكوفيين في عمل (كان) وأخواتها، ويطالعنا كذلك رأي الفراء الصريح في عمل (كان) وأخواتها، إذ يذكر ثعلب أنّ: "الفراء يقول: لَدُنْ (غُدوة) يُنصب ويرفع ويخفض، فتأويل الرفع: لدن كان غُدوةً ويُنصبُ بخبر كان." (73) فهل هناك ما هو أصرح من هذا القول في نصب خبر (كان) بها؟ وأما ابن الأنباري فكان من الكوفيين الذين نسبوا إلى الكسائي إعمال (كان) في اسمها وخبرها، يقول: "الكسائي قال: إذا كان خبر (كان) مؤنثاً واسمها مذكراً، فمن العرب من يؤنث (كان) ويتوهم أن الاسم مؤنث إذا كان الخبر مؤنثاً... (74)

الجملة الاسمية، وأما المنصوبُ بعد هذه الجملة فهو حال، واشتهرُ ذلك في كتب النحو المعاصر أوضح من أن نمثّل له.⁽⁷⁸⁾

2- إخلاء اسم الإشارة نفسه من الإعراب.

3- في مجيء الاسم المنصوب بعد اسم الإشارة والمرفوع بعده، ما يرشّحُ المنصوبَ - من ناحية معنوية - لأن يكونَ حالاً وليس خبراً، يقول فاضل السامرائي: (هذا خالدٌ مجتهدٌ) أي هو ممّن اتّصف بالاجتهاد، وإن لم يكن يبذل الجهدَ في وقت الإشارة إليه فهذا خبرٌ كأنك قلت: (هذا مجتهدٌ) فإن قلت: (هذا خالدٌ مجتهداً) كان المعنى أنه كان يجتهد في أثناء الإشارة إليه، ولا تقوله إلا إذا كان كذلك.⁽⁷⁹⁾

4- ونذكر - أيضاً - أنّ مدارسَ بعض المعاصرينَ للمدرسة الكوفية النحوية لم يشفع لهذا العامل أن يجدَ له سبيلاً إلى الأخذِ به، والانتفاعِ منه في التطبيقِ النحوي لديهم، وفي مقدّمة ما نذكر من هؤلاء، مهدي المخزومي.⁽⁸⁰⁾ وقد يكون المنهج الوصفي الذي ترسمه المخزومي في مؤلفاته السبب الذي دفعه إلى الإعراض عنه. وهو أمر ينسحب على تخفّفه من نظرية العامل على عمومها في مؤلفاته.

وقد تحوّل تفسيرُ نصبِ الاسمِ بالتقريب - في بعض مؤلفات عبد الفتاح الحموز المتأخرة- إلى ما يوافق الوصف التفسيري المعتمد على أنّ انزياح اللسان من حركة إلى أخرى قائمٌ على جذبٍ يفرضي إلى جلب الانتباه للكلمة موضع الانزياح لتوكيدها.⁽⁸¹⁾

وتأسيساً على ذلك فسّر نصب (شيخاً) في قراءة الجمهور في قوله تعالى: ﴿ وهذا بعلي شيخاً ﴾ هود / 72 على أنه انزياح عن الرفع، وهو الأصل الذي يوافق قراءة ابن مسعود والأعمش: (شيخ) وفي هذا الانزياح من الرفع إلى النصب تنبيهٌ كما يقول الحموز: "على أهمية هذه اللفظة على أنها البؤرة، أو المحور."⁽⁸²⁾

و الصحيح أن ما يذهب إليه الحموز فيه كثيرٌ من الجديد الذي يقدّمه في مؤلفاته المتأخرة، وهذا الجديد فيه متسعٌ لنظر الباحثين، وأخال أنّ من هذا النظر أنّ انزياح لسان المتكلم عن حركة إلى أخرى لتوكيد الكلمة موضع الانزياح يصرفُ النظر عن المعنى الكلي للجملة، و يقيدهُ بكلمة واحدة، ومن ثمّ لا نعلمُ بعد ذلك لماذا يختارُ المتكلمُ حركاتٍ مخصوصةً لتوكيد الكلمة، وصرفُ النظر إليها، وهو أمر يعيد إلى الأذهان كثيراً ممّا أخذه المتقدمون والمتأخرون على نظرية قطرب في الحركات الإعرابية.

ولعله يصدق على منهج المعاصرين في تداول التقريب والمثاقفة به في التطبيق النحوي المعاصر القول: بأنّه تداولٌ ومثاقفةٌ لحلقةٍ في تاريخ الفكر النحوي العربيّ لم تعد قائمةً.

Approximation Particle in Kufi Syntax

Khalid Masa'feh, *Department of Arabic Language and Literature, Al-Hussein Bin Talal University, Ma'an, Jordan.*

Abstract

This study aims to shed light on Approximation, a term coined by the Kufi syntacticians to refer to the demonstrative pronoun functioning like Kan and its sister particles (particles that have the same function of Kana). Put it differently, the use of this approximation particle in an utterance requires the presence of a nominative noun and an accusative predicate. Tha'lab, a pioneer figure on ancient Arabic syntax, argues that Sibawayh had no idea about this syntactic phenomenon. Rather, it was Al-Farraa' and Al-Kisaa'i who coined this particle. However, Al-Farraa's book 'Ma'ani Al-Quran' (The Quran Meanings) does not provide a concrete piece of evidence in support of the claim that he believes that this particle has the same function of Kan and its sister particles. Furthermore, this book provides no piece of evidence concerning the agreement or disagreement between Al-Farraa' and Al-Kisaa'i over the use of the approximation particle, as mentioned by Tha'lab and other syntacticians.

Findings show that what has been attributed to Kufi syntacticians concerning the approximation particle is not precise. Rather and contrary to the ancient and modern syntacticians' beliefs, such a generalization needs re-examination and further investigation since not all Kufi syntacticians believed even in the existence of this phenomenon. Moreover, Kufi syntacticians who believed in this syntactic phenomenon did not provide sufficient exploration of this phenomenon, including the reasons underlying the analogy between this particle and Kan and its sister particles, and the syntactic environments where this particle is considered as a demonstrative pronoun rather than an approximation.

وقبل في 2010/2/25

قدم البحث للنشر في 2009/11/3

الهوامش

1. الفراء، أبو زكريا، معاني القرآن، 13/1.
2. ثعلب، أحمد بن يحيى، مجالس ثعلب، 43/1.
3. ابن الجزري، غاية النهاية، 1 / 536. وينظر في شيوخه ومن أخذوا عنه: القسم الأول من تحقيق كتاب: مختصر النحو، 15 - 17، المنشور في حوليات الآداب، الحولية (26) الرسالة (237) لسنة 2005م.
4. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، 84/7.
5. ابن عصفور، أبو الحسن علي بن مؤمن، شرح جمل الزجاجي، 361/1.
6. ثعلب، مجالس ثعلب، 43/1.
7. المصدر السابق، 359/1.
8. الفراء، معاني القرآن، 362/1، 409، 471.
9. الأندلسي، أبو حيان، ارتشاف الضرب، 1148/3.
10. ثعلب، مجالس ثعلب، 43/1، وذكر أبو حيان الأندلسي أن قراءة (أظهر) لزيد بن علي والحسن وعيسى بن عمر وسعيد بن جبير والسدي، ورويت هذه القراءة عن مروان بن الحكم، ينظر: البحر المحيط، 187/6.
11. الأندلسي، أبو حيان، ارتشاف الضرب، 1148/3.
12. ثعلب، مجالس ثعلب، 43/1.
13. المصدر السابق، 42/1، 43.
14. المصدر السابق، 43/1.
15. المصدر السابق، 43/1، 44.
16. المصدر السابق، 44/1.
17. المصدر السابق، 44/1، الهامش (1).
18. المصدر السابق، 44/1.
19. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الأشباه والنظائر، 154/2.
20. السيوطي، همع الهوامع، 294/1.
21. ثعلب، مجالس ثعلب، 44/1.
22. الفراء، معاني القرآن، 13-10/1، 231، 232.
23. المصدر السابق، 231/1، 232.

24. المصدر السابق، 12/1، 13.
25. المصدر السابق، 12/1، 46، 16/3، الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، 44/1، المسألة (5).
26. ابن عصفور، شرح جمل الزجاجي، 361/1.
27. سيوييه، أبوبشر عمرو بن عثمان، الكتاب، 78/2.
28. ينظر، الفراء، معاني القرآن، 154/1، 171، 103/2، 104، ثعلب، مجالس ثعلب، 359/2.
29. عباينة، جعفر، مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي، 177.
30. الطبري، جامع البيان، 84/7.
31. الفراء، معاني القرآن، 12/1.
32. المعري، أبو العلاء، رسالة الملائكة، 225.
33. المصدر السابق، 225، 226.
34. ابن سعدان الكوفي الضرير، مختصر النحو، 56، 57.
35. المصدر السابق، 56، 57.
36. ثعلب، مجالس ثعلب، 359 / 2.
37. ينظر: معاني القرآن، 2 / 23، 221، 232، ثعلب، مجالس ثعلب، 360/2.
38. الزمخشري، الكشاف، 1 / 398، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 3 / 200، 186/6، 184.
39. السمين الحلبي، الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون، 6 / 257، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 6 / 186، 184.
40. الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم، معاني القرآن وإعرابه، 63/3، 64.
41. القيسي، مكي بن طالب، مشكل إعراب القرآن، 406، 405/1.
42. السمين الحلبي، الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون، 357/6.
43. المصدر السابق، 241/3.
44. أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 184/6.
45. سيوييه، الكتاب، 12/2.
46. عباينة، جعفر، مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي، 177.
47. ابن السراج، الأصول في النحو، 152/1، 153.
48. المصدر السابق، 152/1.
49. الفراء، معاني القرآن، 231/1.
50. ثعلب، مجالس ثعلب، 43/1.

51. الأندلسي، أبو حيان، ارتشاف الضرب، 977/2.
52. الأنباري، أبو البركات، الإنصاف في مسائل الخلاف، 717/2.
53. المصدر السابق، 719/2، 720.
54. ابن عصفور، شرح جمل الزجاجي، 261/1، 262.
55. السيوطي، همع الهوامع، 415/1، 416.
56. المصدر السابق، 415/1.
57. المخزومي، مهدي، مدرسة الكوفة، 320، 321.
58. ينظر: السامرائي، إبراهيم، المدارس النحوية، 112، 113، الحديثي، خديجة، المدارس النحوية، 169، 237.
59. سيوييه، الكتاب، 78/2.
60. الفراء، معاني القرآن، 13/1.
61. الحديثي، خديجة، المدارس النحوية، 169.
62. السامرائي، إبراهيم، المدارس النحوية، 113.
63. ضيف، شوقي، المدارس النحوية، 198.
64. الأنصاري، أحمد مكي، أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة، 420.
65. ثعلب، مجالس، ثعلب، 359/2.
66. الفراء، معاني القرآن، 12/1.
67. الطبري، جامع البيان، 84/7.
68. ثعلب، مجالس ثعلب، 43/1.
69. الأنصاري، أحمد مكي، أبو بكر زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة، 420.
70. الأنباري، أبو البركات، الإنصاف في مسائل الخلاف، 717/2.
71. المصدر السابق، 821/2، السيوطي، همع الهوامع، 408/1.
72. ضيف، شوقي، تيسير النحو التعليمي، 50.
73. ثعلب، مجالس ثعلب، 160/1.
74. ابن الأنباري، أبو بكر، شرح القوائد السبع الطوال الجاهليات، 551.
75. الزجاجي، مجالس العلماء، 195، وقد ساق فاضل السامرائي كثيراً من الدلائل على أن الكوفيين لا يختلفون عن البصريين في احتياج (كان) وأخواتها إلى اسم مرفوع بها، وخبر منصوب، ينظر: تحقيقات نحوية، 78-82.
76. ابن سعدان الكوفي، أبو جعفر محمد، مختصر النحو، 64.

77. السامرائي، محمد، الحجج النحوية، 84.
78. ينظر: الغلاييني، الشيخ مصطفى، جامع الدروس العربية، 3 / 80.
79. السامرائي، فاضل، معاني النحو، 710/2.
80. لا يخفى حماس مهدي المخزومي للمدرسة الكوفية النحوية في مؤلفاته المختلفة ومعرفته لعامل التقريب الكوفي في مؤلفاته المتعلقة، من نحو: في النحو العربي نقد وتوجيه، وفي النحو العربي قواعد وتطبيق على المنهج العلمي الحديث، ومدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو.
81. الحموز، عبد الفتاح، انزياح اللسان العربي، الفصيح والمعنى، 13.
82. المصدر السابق، 98، 99.

المصادر والمراجع:

- ابن الأنباري، أبو بكر محمد. (د.ت). شرح القوائد السبع الطوال الجاهليات، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، ط6، القاهرة: دار المعارف.
- ابن السراج، أبو بكر محمد بن سهل. (1999). الأصول في النحو، تحقيق، عبد الحسين الفتلي، ط3، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- ابن عصفور، أبو الحسن علي بن مؤمن. (1998). شرح جمل الزجاجي، وضع هوامشه وفهارسه، فواز الشعار، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن النحاس، أبو جعفر. (1988). إعراب القرآن، تحقيق، زهير زاهد، ط3، بيروت: عالم الكتب.
- الأنباري، أبو البركات كمال الدين. (1961). الإنصاف في مسائل الخلاف، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد، ط4، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى.
- الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف. (1998). ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق، رجب عثمان، ط1، القاهرة: مكتبة الخانجي.
- الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف. (1992). البحر المحيط في التفسير، بعناية، الشيخ زهير جعيد، (د.ط)، بيروت: دار الفكر.
- الأنصاري، أحمد مكي. (1964). أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة، (د.ط)، القاهرة: نشر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب.

- ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى. (د.ت). مجالس ثعلب، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، ط 6، القاهرة: دار المعارف.
- الحديثي، خديجة. (1990). المدارس النحوية، ط2، بغداد: مطبعة جامعة بغداد.
- الحريري، القاسم بن علي. (1998). دُرّة الغواص في أوهام الخواص، تحقيق، عرفات مطوجي، ط1، بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية.
- الحموز، عبد الفتاح. (2008). انزياح اللسان العربي الفصيح والمعنى، ط 1، عمان: دار عمار للنشر والتوزيع.
- الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم. (1998). معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل شلبي، ط1، بيروت: عالم الكتب.
- الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق. (1999). مجالس العلماء، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، ط3، القاهرة: مكتبة الخانجي.
- السامرائي، إبراهيم. (1978). المدارس النحوية، ط1، عمان: دار الفكر للنشر والتوزيع.
- السامرائي، فاضل. (2001). تحقيقات نحوية، ط1، عمان: دار الفكر.
- السامرائي، فاضل. (1989). معاني النحو، ط 1، الموصل: مطبعة التعليم العالي في الموصل.
- السامرائي، محمد فاضل. (2004). الحجج النحوية حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ط1، عمان: دار عمار للنشر والتوزيع.
- السّمين الحلبي. (1987). الدرّ المصون، ط1، دمشق، بيروت : دار القلم.
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان. (1988). الكتاب، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، ط3، القاهرة: مكتبة الخانجي.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. (2001). الأشباه والنظائر في النحو، وضع حواشيه، غريد الشيخ، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. (د.ت). همع الهوامع، تحقيق، عبد الحميد هنداي، (د.ط) القاهرة: المكتبة التوفيقية.

الضرير، أبو جعفر بن سعدان الكوفي. (2005). مختصر النحو، دراسة وتحقيق، حسين أحمد بو عباس، ط1، الكويت: حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، الحولية (26) الرسالة (237).

ضيف، شوقي. (د.ت). تيسير النحو التعليمي، (د.ط)، القاهرة: دار المعارف.

ضيف، شوقي. (د.ت). المدارس النحوية، ط3، القاهرة: دار المعارف.

الطبري، أبو جعفر محمد ابن جرير. (1992). جامع البيان في تأويل القرآن، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.

عبابنة، جعفر. (1984). مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي، ط1، عمان: دار الفكر.

الغلاييني، الشيخ مصطفى. (1995). جامع الدروس العربية، ط30، بيروت: المكتبة العصرية.

الفراء، أبو زكريا. (د.ت). معاني القرآن، تحقيق، أحمد نجاتي والنجار، (د.ط)، دار السرور.

القيسي، مكّي بن طالب. (2003). مشكل إعراب القرآن، ط1، دمشق: دار البشائر.

التحليل الجغرافي للمعطيات الطبيعية المحددة لحالة الغطاء النباتي

في حوض وادي وهيدة- جنوب الأردن

علي حمدي أبوسليم*

ملخص

تتناول هذه الدراسة المعطيات الطبيعية المحددة لحالة الغطاء النباتي وخصائصه في حوض وادي وهيدة، وقد اعتمدت هذه الدراسة على تحليل نتائج القياسات الميدانية المتعلقة بخصائص الغطاء النباتي من حيث الكثافة ونسبة التغطية والإنتاجية، وتحليل بيانات عن الغطاء النباتي تم استنباطها من الصور الجوية لفترتين مختلفتين (1997، 2008)؛ إضافة إلى تحليل نتائج عينات التربة، لتوضيح أهميتها في تحديد خصائص الغطاء النباتي في الحوض.

توصلت الدراسة إلى عدة نتائج، منها: أوضح أسلوب الانحدار المتعدد الخطوات أهمية المتغيرات الطبيعية في تفسير التباين في نسبة التغطية النباتية في الحوض، حيث فسرت (65%) من مجمل التباين، وبدلالة إحصائية (0,001).

كما أظهرت نتائج الدراسة وجود علاقة سلبية بين درجة الانحدار ونسبة التغطية والكثافة النباتية في الحوض. من جهة أخرى تراجع نسبة التغطية النباتية في جميع أجزاء الحوض مما يؤكد شدة التدهور الذي تعرض له الغطاء النباتي في الحوض بعد عام 1997، ويظهر هذا التراجع بشكل واضح في الحوض الأعلى، حيث تراوحت نسبة التغطية النباتية في الحوض الأعلى في عام 1997، ما بين (8,9 - 9,8) %، إلا أنها انخفضت في عام 2008 لتتراوح ما بين (5,6 - 7,5) %.

المقدمة:

يُمثل الغطاء النباتي عنصراً أساسياً في النظام البيئي Ecosystem للأحواض النهرية، ويتأثر هذا العنصر بشكل مباشر بالتغيرات التي تطرأ على عناصر هذا النظام؛ نتيجة لاختلاف الخصائص المناخية والحيوية والتربة، ونوعية الاستغلال، وتزداد حدة تأثير تلك التغيرات في الأحواض الجافة؛ نظراً لحساسية نظمها وسرعة استجابتها للتغيرات البيئية.

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2012.

* كلية العلوم التربوية، جامعة الحسين بن طلال، معان، الأردن.

ويُصنف حوض وادي وهيدة ضمن الأراضي الجافة Arid land، مما يعزز أهمية إدارة موارده الأرضية والحفاظ عليها، وإدامتها، ويأتي في مقدمة تلك الموارد الغطاء النباتي الذي يشكل مورداً طبيعياً يمكن استغلاله وتنميته لسد حاجة الثروة الحيوانية من الموارد الرعوية في ظل تزايد تكلفة تربية الماشية؛ نتيجة لارتفاع أسعار الأعلاف عالمياً.

يقع حوض وادي وهيدة في الجزء الجنوبي الغربي من المملكة الأردنية الهاشمية بين خطي الطول 25° 35' و 41° 35' شرقاً، ودائرتي العرض 55° 29' و 12° 30' شمالاً، ويبلغ أقصى طول للحوض 26.5 كم من الشرق إلى الغرب، بينما يبلغ امتداده من الشمال إلى الجنوب 15.2 كم. أما مساحته الحوضية فتبلغ 252 كم². ويلتقي وادي وهيدة مع وادي حسينان ليشكل معاً مجرى واحداً، يصب في قاع الجفر، وتمتاز البيئة الحوضية للوادي بالجفاف، وشدة حساسية غطائها النباتي لذبذبة الأمطار (شكل 1).

وتتبع أهمية هذه الدراسة من محدودية الدراسات التطبيقية التي أجريت على الغطاء النباتي ضمن البيئات الجافة محلياً، على الرغم من الدور الجيومورفولوجي الذي يقوم به الغطاء النباتي في الحفاظ على التوازن البيئي للحوض، ويتضح هذا الدور من خلال قدرته على الحد من تأثير العمليات الجيومورفوديناميكية Geomorphodynamics التي تتمثل في الحت المائي والريحي، وقدرته على التقليل من معدلات انجراف التربة من خلال زيادة تماسك حبيباتها، وزيادة معدلات المياه المتسربة إلى الخزانات المائية الجوفية.

وتلقي هذه الدراسة الضوء على الأهمية الاقتصادية للغطاء النباتي كونه يشكل مورداً رعوياً يستفاد منه في أغراض التنمية وزيادة العائد الاقتصادي لسكان المنطقة. كما تتعزز أهميتها مع تزايد حساسية أراضي الحوض لذبذبة الأمطار خلال العقود الثلاثة الماضية، وتبرز هذه الحساسية

من خلال زيادة حدة المشكلات البيئية ومنها: تدهور الغطاء النباتي، وانتشار الكثبان الرملية، وظهور النباتات غير المستساغة في الحوض.

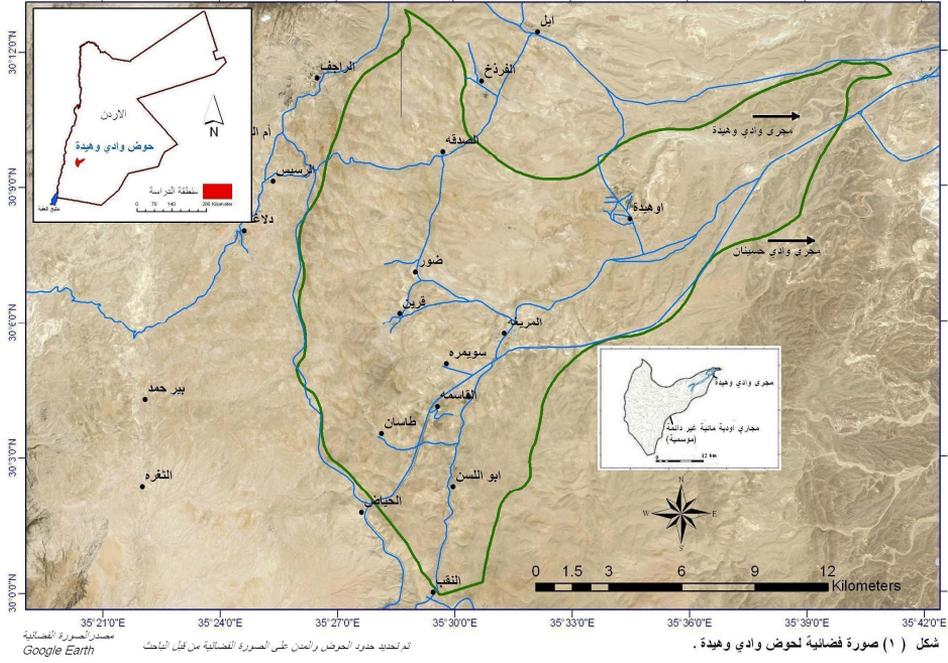
مشكلة الدراسة:

تكمن مشكلة البحث في دراسة المعطيات الطبيعية المحددة لحالة الغطاء النباتي في الحوض، والتي تتمثل في: الظروف المناخية الجافة، وعدم انتظام سقوط الأمطار، وتدهور خصائص التربة، وطبيعة مورفولوجية السطح.

ويعاني الغطاء النباتي في حوض وهيدة في ظل تدهور نظامه البيئي من مشكلة، تتمثل مظاهرها في تراجع واضح للغطاء النباتي، سواء على مستوى الإنتاجية، أو الكثافة النباتية، أو

التحليل الجغرافي للمعطيات الطبيعية المحددة لحالة الغطاء النباتي في حوض وادي وهيدة- جنوب الأردن

على مستوى النوعية النباتية، فمنطقة الحوض - وبسبب ظروفها المناخية الجافة - تضم غطاء نباتياً فقيراً نسبياً، ولكنه متنوع، يجمع بين النباتات الحولية سريعة الزوال، والنباتات الدائمة، والنباتات عالية المقاومة للملوحة، والنباتات قليلة المقاومة، وبين النباتات المستساعة من جانب الحيوان، والنباتات غير المستساعة أو الضارة.



وتعمل التغيرات السلبية في خصائص الغطاء النباتي على زيادة حساسية أراضي الحوض للعمليات الجيومورفوديناميكية، إذ تعمل إزالة الغطاء النباتي وتدهور خصائصه على زيادة فاعلية الحت المائي والريحي، وما يرافق ذلك من تدهور في خصائص التربة وفقدان خصوبتها وقدرتها البيولوجية على إعالة الغطاء النباتي، وإمداده بالعناصر الغذائية التي يحتاجها. كذلك يؤدي تدهور الغطاء النباتي إلى زيادة كمية الجريان السطحي، وانخفاض كمية المياه المتسربة إلى الطبقات الجوفية، وبالتالي انخفاض منسوب المياه الجوفية، وسرعة تعرضها لعملية الاستنزاف.

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى تحليل المعطيات الطبيعية المحددة لحالة الغطاء النباتي في حوض وادي وهيدة، من خلال إجراء حصر نوعي وكمي للأنواع النباتية السائدة في الحوض، وقياس خصائص

الغطاء النباتي، ومدى ارتباطها بالظروف الطبيعية للحوض. ويمكن بلورة أهداف الدراسة في النقاط التالية:

- 1- تحليل المعطيات الطبيعية المحددة لحالة الغطاء النباتي في حوض وادي وهيدة، وتمثل هذه المعطيات في الخصائص المناخية، وخصائص التربة، ومورفولوجية السطح.
- 2- تحليل خصائص الغطاء النباتي في الحوض من حيث التغطية والكثافة والإنتاجية النباتية، وربط تلك الخصائص بالظروف البيئية للحوض.
- 3- تحليل التغيرات الزمانية التي طرأت على نسبة التغطية النباتية في الحوض خلال الفترة (1997-2008).

الدراسات السابقة:

تناولت العديد من الدراسات الحديثة في مجال الجغرافيا الحيوية Biogeography تأثير المعطيات الطبيعية للأحواض الجافة على غطائها النباتي، وفيما يلي توضيح لبعض الدراسات التي أفادت البحث من جوانب مختلفة، وهي:

درس فيتر (Vetter, 2009) تأثير المناخ على خصائص الغطاء النباتي ضمن البيئات الجافة في جنوب إفريقيا، وخلصت الدراسة إلى دور نذبدة الأمطار في تحديد الأنماط النباتية في البيئات الجافة، وأن متغير الأمطار يعد العامل الرئيسي المحدد لخصائص الغطاء النباتي في هذه البيئات.

وتناول ساور و ريز (Saure and Ries, 2008) تأثير العمليات الجيومورفوديناميكية على الغطاء النباتي Vegetation Cover في الحقول المهجورة Abandoned Fields في وسط حوض إبرو Ebro في أسبانيا Spain، وقد توصل الباحثان إلى أن العمليات الجيومورفوديناميكية يزداد نشاطها في المناطق الجافة مع انخفاض كثافة الغطاء النباتي Vegetation Dense، مما يسرع عملية تدهور أراضي الحوض؛ نتيجة لزيادة معدلات انجراف التربة بفعل نشاط تلك العمليات.

وأكد ماير و ادمو (Meyer and Adamo, 2006) على أن تدهور الغطاء النباتي في البيئات الجافة يرتبط بعددٍ من المتغيرات، ومن أهمها التباين المناخي Climatic Variation، وتدهور خصائص التربة. وتسهم الأنشطة البشرية في تسريع عملية التدهور من خلال الزراعة المروية، والرعي الجائر، والتحطيب، وتوسع المستوطنات البشرية، وأكدت الدراسة على أهمية إدارة الموارد الطبيعية للمحافظة على التوازن البيئي في البيئات الجافة.

وقد قام بيستيلميرا (Bestelmeyera, 2006) بتصنيف الأراضي الجافة Classifying في صحراء تشيهانان Chihahnan في جنوب غرب الولايات المتحدة بناءً على معطياتها الطبيعية، وأظهر التصنيف مدى تأثير خصائص التربة في تحديد كثافة الغطاء النباتي، وأن تدهور التربة

Soil Degradation، وانتشار ظروف الجفاف يزيد من حدة تدهور الغطاء النباتي، ويفرز مجتمعات نباتية تختلف في خصائصها مكانياً وزمانياً.

وقيم عمر وآخرون (Omar *et al.*, 2005) الغطاء النباتي في الكويت، وأوضحوا وجود تراجع في الغطاء النباتي في البيئات الجافة بسبب تدهور الخصائص الطبيعية والكيميائية للتربة Chemical and Physical Properties. وتعد ملوحة التربة Soil Salinity، وارتفاع نسبة كربونات الكالسيوم أهمها، كما أوضحت الدراسة أن ظروف المناخ الجاف، والرعي الجائر، وزيادة الضغط البشري على الموارد الأرضية في البيئات الجافة يزيد من حدة تدهورها. وخلصت الدراسة إلى أن تدهور الغطاء النباتي يعمل على تسارع الجريان السطحي وانجراف التربة، وفقدان التربة لطبقها العليا، وانخفاض خصوبتها وإنتاجيتها، وقدرتها البيولوجية على تجديد الغطاء النباتي.

ويرى زاهو وآخرون (Zhao *et al.*, 2004) أن التغيرات التي تطرأ على نوعية الغطاء النباتي وتركيبه في جبال تيانشان الصينية ما هي إلا استجابة مباشرة للتغيرات المناخية، وأن هذه التغيرات تنعكس سلباً على إنتاجية الغطاء النباتي وقدرته البيولوجية.

كما يرى زهانج (Zhang, 2004) في دراسته حول تأثير انجراف التربة على الغطاء النباتي في جنوب شرق الصين، أن التغيرات التي تطرأ على خصائص التربة؛ نتيجة تعرضها للانجراف، تعد عاملاً محددًا لخصائص الغطاء النباتي.

وتوصل بروان (Brown, 2003) في دراسته لبعض المجتمعات النباتية Vegetation Communities في المناطق الجافة في شمال الكويت إلى أهمية الجفاف Drought، وحالة التربة Soil Condition في تحديد خصائص المجتمعات النباتية في المناطق الجافة. وأكدت الدراسة على دور التعرية الريحية وحركة الرمال Sand Movement في إحداث تغيرات في تركيبة المجتمعات النباتية في المناطق الجافة، كما أوضحت الدراسة، أن الرعي الجائر وزيادة الضغط على الغطاء النباتي من أجل استخدامه كوقود يعدان من العوامل الرئيسة لتدهور الغطاء النباتي في شمال الكويت.

وقد قام فيولي وآخرون (Feoli *et al.*, 2002) بتقييم التدهور البيئي في إثيوبيا Ethiopia، بفعل تأثير الأنشطة الزراعية، وتدهور الغطاء النباتي، وانجراف التربة، والتغيرات الاقتصادية والاجتماعية Socio - economic، إضافة إلى التغيرات المناخية، وخلصوا إلى أن التغيرات المناخية وانجراف التربة لهما الدور الأكبر في زيادة حدة تدهور الغطاء النباتي في المناطق الجافة.

وأشارت دراسة ويلز و سيفاكومار (Wills and Sivakumar, 1995) إلى أن عوامل تدهور الغطاء النباتي في كينيا، الجفاف، والرعي الجائر.

وأخيراً، درس تيفين وزملاؤه (Tiffen *et al.*, 1994) الغطاء النباتي في المناطق الكينية الجافة، وخلصوا إلى أن الجفاف والرعي الجائر تزيد من حدة تدهور الغطاء النباتي، بالإضافة إلى تزايد الدور الجيومورفولوجي في النحت بالأخاديد، والعمل على تدهور الغطاء النباتي.

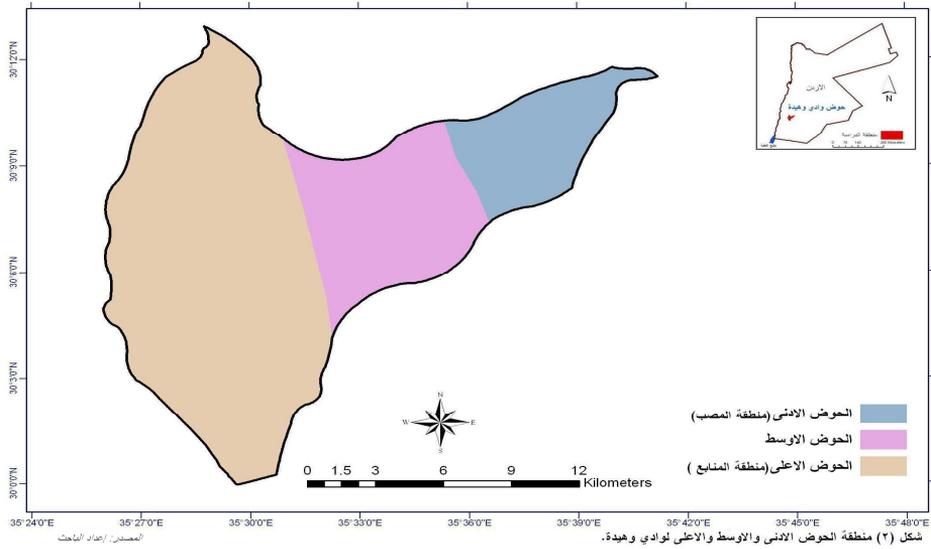
بالرغم من تزايد اهتمام الباحثين في مجال الجغرافيا الحيوية على دراسة الغطاء النباتي في الأحواض النهرية ضمن المناطق الجافة، إلا أنها اقتصرته اهتمامها على المجتمعات النباتية السائدة، وتحديد أثر الأنشطة البشرية عليها، كما اعتمدت في منهجيتها على التحليل الوصفي والمحاكاة والنمذجة، بينما تتميز هذه الدراسة بمنهجيتها التطبيقية والتحليلية، والنظرة الشمولية في معالجتها لحالة الغطاء النباتي ضمن الأحواض الجافة.

منهجية الدراسة:

تعتمد الدراسة في منهجيتها على إجراء قياسات ميدانية لخصائص الغطاء النباتي في حوض وادي وهيدة من حيث نسبة التغطية النباتية والإنتاجية النباتية والرعية⁽¹⁾ خلال الفترة (1997/12/1-2009/6/1) وربط نتائج تلك القياسات بالظروف الطبيعية للحوض، ولتحقيق أهداف الدراسة المتمثلة في تحليل خصائص الغطاء النباتي في الحوض في ظل تباين معطياته الطبيعية، فقد تم تقسيم الحوض حسب خصائصه الطبيعية إلى ثلاثة أجزاء رئيسية، هي: الحوض الأعلى الأوسط والأدنى (شكل 2). وقد شكل هذا التقسيم نواة البحث المنهجي لهذه الدراسة، والمتمثل بالمنهج اللاندسكيبي الايكولوجي Ecology Landscape حيث قسم كل جزء ميدانياً إلى خمسة أجزاء لدراسة خصائص الغطاء النباتي في الحوض، وتحديد أثر اختلاف الخصائص الطبيعية عليه.

(1) تمثل نسبة التغطية النباتية النسبة المئوية من مساحة التربة التي تغطيها النباتات حين النظر إليها من أعلى، وهذه التغطية تعبر عن مدى انتشار الغطاء النباتي، وعن تأثير هذا الغطاء بالعوامل البيئية المحيطة. أما الإنتاجية النباتية فتتمثل كمية المادة النباتية التي تنتجها الأنواع النباتية المختلفة في وحدة مساحية معينة. بينما تمثل الإنتاجية الرعية كمية المادة النباتية التي يمكن للحيوانات رعيها من الغطاء النباتي ضمن وحدة مساحية معينة، دون الإضرار بقدرته الإنتاجية .

التحليل الجغرافي للمعطيات الطبيعية المحددة لحالة الغطاء النباتي في حوض وادي وهيدة- جنوب الأردن



ولتحديد مدى ارتباط خصائص التربة بعوامل تدهور الغطاء النباتي في الحوض، أخذت (30) عينة من الترب في ست مناطق تعاني من تدهور في غطائها النباتي، وبواقع (5) عينات لكل منطقة؛ وذلك لإجراء تحليل لقوام التربة وملوحتها، ونسبة المادة العضوية، ونسبة الرطوبة فيها (شكل3). وقد استخدمت طريقة العوامة المدرجة Hydrometer لتحديد نسبة السلت والطين، والتي تعتمد في الأساس على أخذ قراءتين للعوامة المدرجة لفترتين مختلفتين، ثم حساب نسبة السلت والطين من خلال تطبيق المعادلتين التاليتين:

$$\text{نسبة الطين} = \frac{\text{القراءة الثانية} \times 100}{\text{وزن عينة التربة}}$$

$$\text{نسبة السلت} = \frac{\text{القراءة الأولى} - \text{القراءة الثانية} \times 100}{\text{وزن عينة التربة}}$$

أما نسبة الرمل فقد تم حسابها وفقاً للمعادلة التالية:

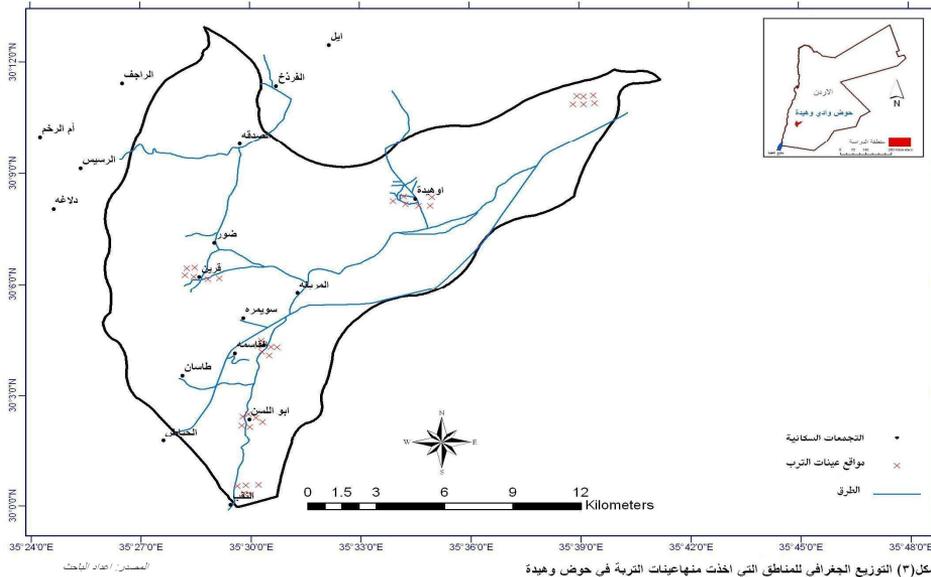
$$\text{نسبة الرمل} = 100\% - (\text{نسبة الطين} + \text{نسبة السلت}) \quad (\text{Boul et al., 1980})$$

واستخدمت طريقة الحرق Combustion لتقدير نسبة المادة العضوية Organic Matter (OM)، وتتلخص هذه الطريقة بمرحلتين، تتمثل المرحلة الأولى في تجفيف عينات التربة عند

درجة حرارة 105 م°، ثم قياس وزنها بعد التجفيف، فيما تتمثل المرحلة الثانية في حرق العينات من خلال وضعها في فرن حراري وتعريضها لدرجة حرارة 400م° لمدة ست عشرة ساعة، ولإيجاد نسبة المادة العضوية تم تطبيق المعادلة التالية:

$$\text{نسبة المادة العضوية} = \frac{\text{وزن عينة التربة الجافة} - \text{وزن عينة التربة بعد حرقها}}{\text{وزن عينة التربة الجافة}} \times 100$$

(Boul *et al.*, 1980)



أما ملوحة التربة، فقد تم تحديدها عن طريق قياس الايصالية الكهربائية Electrical Conductivity (EC) للتربة باستخدام جهاز EC Meter.

واعتمدت الدراسة على تقنيات حديثة، إذ تم استخدام الصور الجوية (1 - 25000 لعامي 1997، 2008)؛ لتحديد نسبة التغطية النباتية في الحوض خلال هاتين الفترتين، فيما استخدم برمجية Arc GIS (Geographical Information System) لإعداد الخرائط الكارتوغرافية الخاصة بموضوع الدراسة. واعتمد الباحث التحليل الإحصائي، المتمثل في الانحدار المتعدد الخطوات Stepwise Regression؛ لتحديد أثر بعض المتغيرات الطبيعية في انخفاض

التغطية النباتية، حيث تم إخضاع مصفوفة من المتغيرات الطبيعية غطت (50) منطقة وشملت جميع أجزاء الحوض للتحليل الإحصائي، وقد تمثلت أهم هذه المتغيرات في متغير الأمطار، وملوحة التربة، ونسبة المادة العضوية، ودرجة انحدار السطح. كما استخدم التحليل الإحصائي الوصفي المتمثل في معامل الاختلاف Coefficient of Variation لتحديد مدى التباين في المعدل السنوي للأمطار في الحوض.

المعطيات الطبيعية المحددة لحالة الغطاء النباتي:

تتمثل المعطيات الطبيعية المحددة لحالة الغطاء النباتي في الخصائص المناخية، والتربة ومورفولوجية السطح، وفيما يلي توضيح لهذه المعطيات:

الخصائص المناخية:

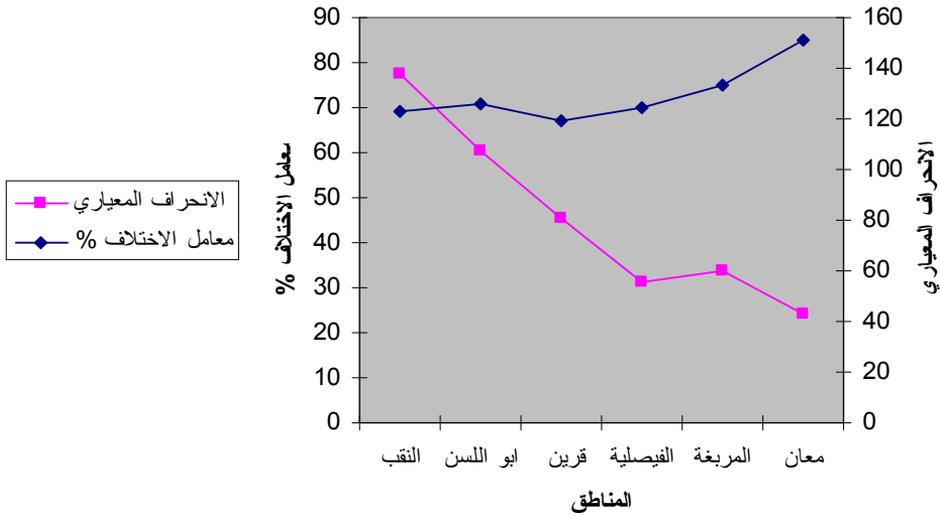
يشير الجدول رقم (1) إلى مدى الاختلاف في قيم العناصر المناخية على امتداد الحوض إذ نجد أن الحوض الأدنى لوادي وهيدة، تميّز بارتفاع معدل حرارته السنوي (17.7م)، وانخفاض رطوبته إلى (50%)، وتدني معدل أمطاره إلى (50ملم) سنوياً، وارتفاع معدل التبخر الكامن السنوي إلى (2709.4ملم)، وقد انعكست هذه الظروف المناخية سلباً على نوعية وكثافة الغطاء النباتي في الحوض الأدنى، بينما نجد أن تحسن الظروف المناخية من أمطار (80 ملم) وحرارة (15.6) ورطوبة (52%) باتجاه الحوض الأوسط، قد قلل من حدة تدهور الغطاء النباتي بالمقارنة مع الحوض الأدنى، أما الحوض الأعلى، فقد أثرت ظروفه المناخية إيجاباً على خصائصه المناخية؛ نتيجة لزيادة كمية أمطاره التي تراوح معدلها ما بين (120-200) ملم، وارتفاع نسبة رطوبته إلى (54%)، وانخفاض معدل حرارته السنوي إلى (12.7م)، فيما انخفض معدل التبخر الكامن السنوي إلى (1752ملم) (دائرة الأرصاد الجوية، 2004).

جدول رقم (1): العناصر المناخية في حوض وادي وهيدة.

العناصر المناخية				
المنطقة	معدل الأمطار السنوي ملم	معدل التبخر الكامن السنوي ملم	نسبة الرطوبة %	معدل الحرارة م
معان	50	2709.4	50	17.7
المريفة	80	2215.6	51	15.6
الفيصلية	80	2069.1	52	13.9
قرين	120	2154	52	13.6
أبو اللسن	150	1889	54	12.9
النقب	200	1752	54	12.7

تمثل معان الحوض الأدنى، فيما تمثل المريغة والفيصلية الحوض الأوسط، أما قرين وابلوالسن والنقب، فتمثل الحوض الأعلى.

وتعمل التغيرات السنوية في كمية الأمطار الهاطلة على الحوض على اختلاف نسبة التغطية والكثافة النباتية من سنة لأخرى. ويظهر الشكل رقم (4) قيم معاملات الاختلاف لبعض المحطات المطرية الواقعة في الحوض، وتدل هذه القيم على وجود تقلب واضح في معدلات الأمطار السنوية على امتداد الحوض خلال الفترة (1990-2008)، حيث تزداد قيمة معامل الاختلاف بالاتجاه نحو الحوض الأدنى لتبلغ (85%) في منطقة معان، فيما تنخفض قيمة معامل الاختلاف بالاتجاه نحو الحوض الأعلى لتبلغ (69%) في منطقة النقب. وقد أظهرت جميع المحطات المطرية في الحوض انحرافاً معيارياً عالياً تراوح ما بين (42.6 – 137.6)، ألا أن الانحراف المعياري يزداد في المناطق الغربية، وينخفض في المناطق الشرقية مما يعطي مؤشراً واضحاً على التباين المكاني للإمطار في الحوض. من ناحية أخرى تتميز الأمطار الهاطلة على الحوض بأنها من نوع الأمطار الرعدية التي تسقط على شكل زخات مطرية، وهذه الزخات قد تسقط دفعة واحدة بكمية كبيرة محدثةً انسياباً سطحياً للمياه في مناطق محدودة، بينما لا تتأثر مناطق أخرى بهذه الأمطار، مما يؤدي إلى تباين كثافة الغطاء النباتي من منطقة لأخرى.



شكل (4): قيم معاملات الاختلاف للأمطار لبعض المناطق في حوض وهيدة وانحرافها المعياري (1990-2008). المصدر: إعداد الباحث

خصائص التربة:

تؤثر خصائص التربة في حوض وادي وهيدة على نحو مباشر في قدرته البيولوجية على إعالة غطاءه النباتي، وتتمثل هذه الخصائص في: القوام، وحموضة التربة، ونسبة الملوحة، وكمية المادة العضوية، ويتضح أثرها من خلال تحليل خصائص ترب الحوض، وتحليل نتائج عينات التربة، وعلى النحو الآتي:

- أنواع التربة:

يسود في حوض وادي وهيدة خمسة أنواع رئيسة من الترب (شكل 5)، وهي:

1- التربة الكلسية الجافة:

تعد هذه التربة من أكثر أنواع الترب الجافة انتشاراً في الحوض، حيث تنتشر - بشكل رئيسي - في الأجزاء الشرقية للحوض ضمن النمط الرطوبي الجاف، وتشكل ما نسبته (22.7%) من مساحة ترب الحوض، وتتراوح نسبة المادة العضوية فيها ما بين (0.20-0.50) %، ويغطي الطبقة السطحية من التربة الحصى الصواني والحجارة الكلسية ذات الأحجام المختلفة، التي يتراوح قطرها ما بين (5 - 250) ملم، وقد تراوحت نسبة تغطية الحصى والحجارة لسطح التربة ما بين (5 - 75) %، وتعمل هذه الطبقة - بما تتميز به من نفاذية عالية - على زيادة معامل التسرب المائي لمقطع التربة. وتتراوح نسبة الكالسيوم في الأفق الكلسي ما بين (5 - 70) % (وزارة الزراعة، 1993). إن تميز التربة بالملوحة العالية، والقوام الخشن، وانخفاض محتواها من المادة العضوية والرطوبة، قد قلل من قدرتها على تجديد الغطاء النباتي.

2- التربة الكلسية الانتقالية الجافة:

تنتشر هذه التربة ضمن النمط الرطوبي الانتقالي ما بين النمط الرطوبي الجاف وشبه الجاف، ويكون قوام التربة لومياً رملياً ذا نفاذية متوسطة، وتقع هذه التربة ضمن النمط الحراري الجاف، حيث تبلغ درجة الحرارة على عمق (50 سم) حوالي (19.5 م°) (وزارة الزراعة، 1993)، وتتراوح نسبة المادة العضوية فيها ما بين (0.30 - 0.60) %، وتنخفض فيها نسبة الملوحة مقارنة مع التربة السابقة، مما أثر إيجاباً على قدرتها على تجديد الغطاء النباتي.

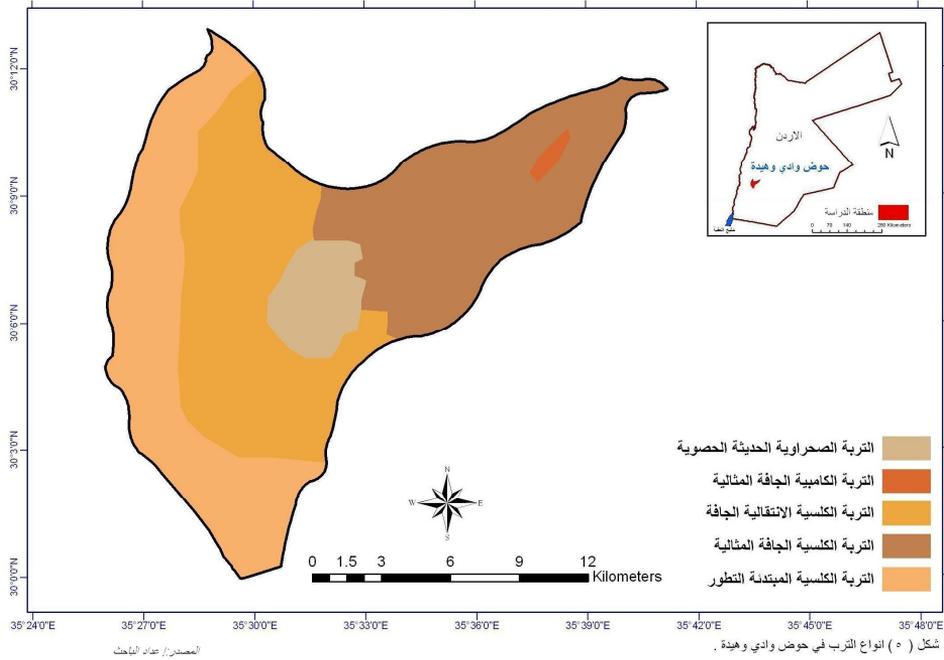
3- التربة الكلسية المبتدئة التطور:

تنتشر بشكل رئيسي ضمن المرتفعات الجنوبية الغربية التي يتراوح ارتفاعها ما بين (1200 - 1700) متر فوق مستوى سطح البحر. وتتراوح نسبة الكالسيوم في هذه التربة ما بين (5 - 30) %، ويكون قوام التربة لومياً طينياً، وتتميز الطبقة السطحية من التربة بأنها مفككة وناعمة

في الحالة الجافة، وبناءً التربة كتلي ضعيف، وتكون التربة دون (25 سم) الأولى من عمق القطاع أكثر تماسكاً وصلابة نتيجة لتماسك حبيبات التربة (وزارة الزراعة، 1993)، وتتراوح نسبة المادة العضوية فيها ما بين (0.35-0.98) %، وقد أثير تحسن نسبة المادة العضوية في هذه التربة إيجاباً على زيادة نسبة التغطية النباتية التي تراوحت ما بين (8- 12.5) %.

4- التربة الكامبية الجافة:

تنتشر التربة الكامبية بشكل محدود في مجاري الأودية وعند مصباتها، وتتميز بقوامها السلتي الناعم، وبوجود الأفق الكامبي على عمق يتراوح ما بين (8 – 18) سم، وتتراوح نسبة الطين في مقطع التربة ما بين (22.6 – 35.27) %، وهي ذات بناء ضعيف، وتكون شديدة القساوة وقليلة النفاذية في الحالة الجافة (وزارة الزراعة، 1993). إن تميز هذه التربة بقلّة النفاذية، وضعف بنائها، قد قلّل من معامل التسربّ المائي للجريانات المائية ليزيد من حجم التصريف المائي وقدرته على جرف مكونات التربة، مما يضعف قدرتها الإنتاجية.



5- التربة الصحراوية الحديثة:

تنتشر هذه التربة بشكل محدود في المناطق الشرقية من الحوض، وتشكل مساحتها (1.5%) من مساحة الحوض، وتتميز هذه الترب بارتفاع نسبة الحصى والحجارة فيها، حيث يظهر

أثر التجوية في تكوينها، بالإضافة إلى التعرية المائية، وغالباً ما يتعرض هذا النوع من الترب إلى الانجرافات المتكررة في المناطق الجافة. وهي عادة توجد على الانحدارات الشديدة بحيث لا تعطي فرصة لتطور التربة، وبالتالي هنالك مساحات معينة يكون فيها معدل سماكة التربة أقل من (30 سم)، (وزارة الزراعة، 1993).

تتميز الطبقة السطحية بارتفاع نسبة الحصى والحجارة بنسبة (25%) تليها طبقة رملية القوام ضعيفة البناء. ويميل لون التربة في الطبقة السطحية إلى اللون البني الداكن، وفي الطبقات السفلى، يكون بنياً باهتاً، وقوام التربة متدرج من رملي ناعم إلى حصوي رملي في الطبقات السفلى، وقدرتها على الاحتفاظ بالرطوبة قليلة.

- نتائج تحليل عينات التربة:

1- قوام التربة Soil Texture.

أمكن تحديد قوام التربة، بواسطة التحليل الميكانيكي لعينات التربة المأخوذة من أماكن متباينة في خصائصها النباتية. وتشير نتائج التحليل في الشكل رقم (6) إلى ما يلي:

1- تزايد خشونة التربة في الحوض الأدنى؛ نتيجة لتعرضها للتعرية الريحية، حيث تقوم الرياح بنقل المكونات الناعمة من التربة- الطين والسلت والمواد العضوية- لترسبها في مناطق بعيدة عن أماكن توضعها السابقة، مما يضعف من القدرة البيولوجية للتربة على إعالة الغطاء النباتي، ويتضح ذلك في منطقة معان، حيث بلغت نسبة السلت والطين والرمل (10.6%)، (8.8%، 80.6%) على التوالي. وتصنف معظم الترب في مناطق الحوض الأدنى- بناءً على مثلث قوام التربة- ضمن القوام اللومي الرملي.

2- تحسن قوام التربة بالاتجاه غرباً نحو الحوض الأوسط، حيث بلغت نسبة السلت والطين في منطقتي المريغة والفيصلية (10.1%، 14.5%)، (39.6%، 13.9%) على التوالي. فيما انخفضت نسبة الرمل في هاتين المنطقتين إلى (75.4%، 46.5%) على التوالي؛ ويفسر زيادة نعومة التربة؛ نتيجة لتحسن خصائص التربة ومقاومتها لعوامل التعرية.

3- تزايد نسبة المواد الطينية والسلت، وانخفاض نسبة الرمل في ترب الحوض الأعلى، حيث بلغت نسبة السلت والطين في منطقتي أبو اللسن والنقب (55.9%، 15.8%)، (39.6%، 40.9%) على التوالي، فيما انخفضت نسبة الرمل في هاتين المنطقتين إلى (28.3%، 18.5%) على التوالي، ويعمل زيادة كثافة الغطاء النباتي، ورطوبة التربة في الحوض الأعلى على تثبيت السلت والطين على شكل تجمعات ترابية متلاحمة، إضافة لما يوفره الغطاء النباتي من مواد عضوية، تعمل على زيادة تلاحم حبيبات التربة، مما يزيد من مقاومتها

لعوامل التعرية (Tiffen et al.,1994; Alejandro et al .,1999; Zhang ,2004) وتصنف معظم الترب في مناطق الحوض الأعلى ضمن القوام اللومي السلتي.

4- تعمل زيادة نسبة الطين والسلت في ترب الحوض الأعلى على زيادة قدرتها على الاحتفاظ بالماء وتحسين نفاذيتها⁽¹⁾ مقارنة بالترب الأخرى، ويظهر الشكل رقم (7) نسبة رطوبة التربة ومقدار نفاذيتها في الحوض حيث تزداد نسبة رطوبة التربة ونفاذيتها بالاتجاه نحو الحوض الأعلى، وقد بلغت نسبة رطوبة التربة في الحوض الأعلى (1.6%)⁽²⁾، فيما بلغت معدل نفاذيتها حوالي (57 ملم/ساعة).

2- درجة الحموضة PH:

يتأثر نمو النبات بشكل مباشر بحموضة التربة، وتعتبر الحموضة الخفيفة إلى المتعادلة هي الأكثر ملائمة لنمو الغالبية العظمى من النباتات، ويتراوح ذلك ما بين رقم حموضة (6.5-7.2). وتعمل زيادة درجة الحموضة على إضعاف قدرة النباتات على امتصاص الماء والعناصر الغذائية، وعندما يكون الوسط قلويًا فإن كثيراً من العناصر يترسب على شكل مركبات لا يستطيع النبات الاستفادة منها، كما أن النيتروجين يصبح أكثر عرضة للفقد من التربة على شكل غازات، مما يعمل على تدهور التربة وانخفاض إنتاجيتها (Poesen,1999; Friedel et al.,2003; Haraldsson,2003) وترتفع درجة الحموضة في ترب الحوض لتتراوح ما بين (7.2 – 7.9) وهذا بدوره يؤثر على قدرة النبات على امتصاص العناصر الغذائية، مما يؤدي إلى تدهور إنتاجيته، وزيادة تركيز العناصر السامة في محلول التربة، كما أن لحموضة التربة تأثيراً مباشراً على نشاط وتكاثر الكائنات الحية الدقيقة في التربة، ولكل نوع من الكائنات الحية مدى من الحموضة يلائم نموه، بالإضافة إلى تأثيره المباشر على نوبان العناصر الغذائية في محلول التربة، وتفاعلات الأكسدة والاختزال التي تتم في التربة (Aranda and Oyonarte ,2005) (Khaznadar et al .,2008).

¹ تعرف النفاذية Permeability بأنها مدى قابلية التربة لامتصاص المياه السطحية خلال المقطع العمودي لتلك التربة، أي أنها تعبر عن حركة المياه خلال المقطع العمودي للتربة، وبذلك فهي تقاس بوحدة سم/ ساعة (Boul et al., 1980).

² يقصد برطوبة التربة بأنها كمية المياه التي تحتويها التربة قبل أن تتعرض لعملية التجفيف، ويتم قياسها من خلال حساب نسبة الفرق بين وزن عينة التربة قبل تعرضها للتجفيف وبعد تعرضها للتجفيف بأفران خاصة إلى وزن عينة التربة الجافة (Boul et al., 1980).

3- نسبة المادة العضوية Organic Matter:

تشير نتائج تحليل عينات التربة فيما يتعلق بنسبة المادة العضوية في شكل رقم (8) إلى الحقائق التالية:

1- انخفاض نسبة المادة العضوية في ترب المناطق الشرقية ضمن الحوض الأدنى، فقد بلغت نسبتها في منطقة معان (0.18%)، وهذه النسبة حسب تصنيف منظمة FAO تقع ضمن فئة المادة العضوية المتدنية جداً والتي تبلغ أقل من 1% (FAO,1988)؛ ويفسر هذه الانخفاض بجفاف المنطقة، وانخفاض التغطية النباتية، بالإضافة إلى نشاط التعرية الريحية في هذه المناطق.

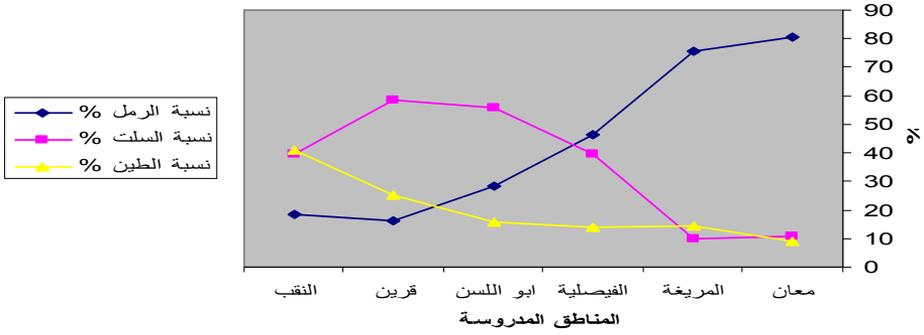
2- انخفاض نسبة المادة العضوية في ترب الحوض الأوسط، فقد بلغت نسبتها في منطقة المريغة والفيصلية (0.25%، 0.64%) على التوالي، وهذه النسبة حسب تصنيف منظمة FAO تقع ضمن فئة المادة العضوية المتدنية جداً والتي تبلغ أقل من 1% (FAO,1988)؛ ويفسر هذا الانخفاض بجفاف المنطقة، وانخفاض التغطية النباتية.

3- تزداد نسبة المادة العضوية بشكل ملحوظ في المناطق الجنوبية الغربية ضمن الحوض الأعلى، حيث تراوحت نسبتها ما بين (0.72%) في منطقة أبو اللسن و(0.83%) في منطقة النقب؛ ويفسر هذا التحسن في نسبة المادة العضوية بارتفاع معدلات الأمطار، وزيادة نسبة التغطية النباتية.

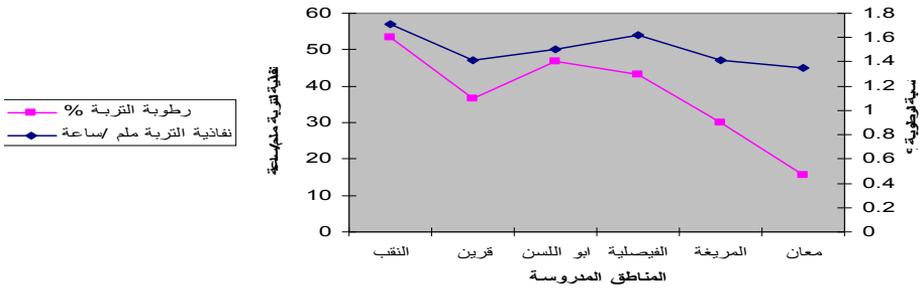
4- تنخفض نسبة المادة العضوية في المناطق الشمالية الغربية، على الرغم من تحسن الظروف المناخية. وقد بلغت نسبة المادة العضوية في منطقة قرين (0.61%)؛ ويعود الانخفاض في نسبة المواد العضوية في هذه المناطق إلى تدهور الغطاء النباتي، وتعرض تربتها للتعرية الريحية والمائية.

ويشير الجدول (2) لبعض الخصائص الطبيعية للتربة التي تؤثر في كمية المادة العضوية حيث ترتبط المادة العضوية بعلاقة إيجابية قوية مع نفاذية ورطوبة التربة، فقد بلغ معامل الارتباط بينهما (0.84، 0.75) على التوالي، وبدلالة إحصائية (0.001)؛ وتفسر هذه العلاقة الإيجابية بأن المواد العضوية تعمل على زيادة حجم الفراغات ما بين حبيبات التربة، الأمر الذي ينعكس على نفاذية التربة، كما أن رطوبة التربة تسرع في عملية التحلل؛ لما توفره من وسط ملائم لتنشط من خلاله الكائنات في تحليل المواد العضوية، وبخاصة في ظل ارتفاع درجات الحرارة في المنطقة.

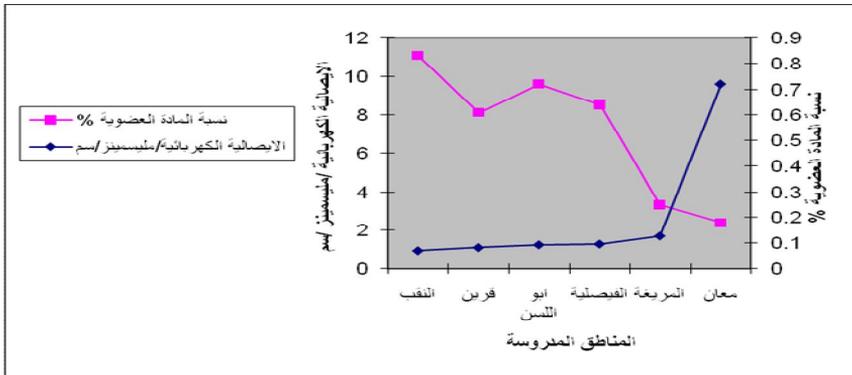
أبو سليم



شكل (6): نسب الرمل والصلت والطين في عينات ترب حوض وادي وهيدة. المصدر: إعداد الباحث



شكل (7): رطوبة التربة ومقدار نفاذيتها في حوض وادي وهيدة. المصدر: إعداد الباحث



شكل (8): الاصلية الكهربائية ونسبة المادة العضوية في عينات ترب حوض وادي وهيدة.

المصدر: إعداد الباحث

كما دلت نتائج التحليل الإحصائي لعينات التربة على وجود علاقة إيجابية بين حموضة التربة والمادة العضوية حيث بلغ معامل الارتباط بين هذين المتغيرين (0.66) وبدلالة إحصائية (0.05).

أما العلاقة السلبية ما بين المادة العضوية والايصالية الكهربائية (0.65)؛ فتعود إلى أن عملية التحلل، التي تطرأ على المواد العضوية، تعمل على زيادة الوسط الحمضي الذي يتميز بقدرته على امتصاص الأملاح المعدنية، وبالتالي تنخفض قيمة الايصالية الكهربائية (kharin, 1999; Zhao, 2007).

جدول رقم (2): معاملات الارتباط ما بين المادة العضوية وبعض خصائص التربة في

وادي وهيدة

العلاقات الارتباطية	معامل الارتباط	الدلالة الإحصائية
المادة العضوية - نفاذية التربة	0.84	0.001
المادة العضوية - رطوبة التربة	00.75	0.001
المادة العضوية - درجة الحموضة	0.66	0.05
المادة العضوية - الايصالية الكهربائية	- 0.65	0.05

المصدر: إعداد الباحث.

4- ملوحة التربة

تعمل زيادة الأملاح في التربة على إضعاف قدرتها الإنتاجية؛ نتيجة لزيادة الضغط الإسموزي في محلول التربة، مما يؤدي إلى انخفاض قدرة النبات على امتصاص المياه والمواد الغذائية (Meyer, 2006; Adamo and Bestelmeyera, 2006). ويتبين من تحليل قيم الايصالية الكهربائية⁽¹⁾ في شكل رقم (8) النتائج التالية:

1- تزداد ملوحة التربة بالاتجاه شرقاً حيث بلغت الايصالية الكهربائية في منطقة معان (9.6) مليسيمنز/سم، ويعود السبب في زيادة نسبة الملوحة إلى جفاف المنطقة، وقد دل معامل

(1) تعبر الايصالية الكهربائية (EC) عن كمية الأملاح المعدنية القابلة للذوبان في مياه التربة، وهي تعكس مدى ملاءمة التربة للمحاصيل الزراعية المختلفة، ومعظم المحاصيل تناسبها ايصالية كهربائية للتربة لا تزيد عن (2) مليسيمنز/سم، وهناك محاصيل تظهر لديها حساسية تجاه EC إذا أصبحت تتراوح ما بين (2-4) مليسيمنز/سم) ومعظم المحاصيل الزراعية تتأثر سلباً بالايصالية الكهربائية إذا زادت عن (4) مليسيمنز/سم.

الارتباط بين ملوحة التربة وكمية الأمطار على وجود علاقة سلبية قوية بين هذين المتغيرين حيث بلغ معامل الارتباط (0.80)، وبدلالة إحصائية (0.001).

2- انخفاض ملوحة التربة بالاتجاه نحو المناطق الجنوبية الغربية حيث بلغت الايصالية الكهربائية في منطقتي أبو اللسن والنقب (0.95، 1.26) مليسيمنز/سم على التوالي، ويعود السبب في انخفاض نسبة الملوحة إلى تحسن معدل الأمطار وقدرتها على تشكيل جريان سطحي قادر على غسل التربة من الأملاح.

3- تتميز ترب المناطق الشمالية الغربية بزيادة ملحوظة في درجة ملوحتها مقارنة مع المناطق الجنوبية الغربية حيث تراوحت ايصاليتها الكهربائية ما بين (1.14) مليسيمنز/سم في منطقة قرين و(1.72) مليسيمنز/سم في منطقة المريغة؛ وتفسر هذه الزيادة بانخفاض الاتجاه العام للأمطار في هذه المناطق.

4- ارتفاع الضغط الإسموزي⁽¹⁾ في معظم ترب الحوض؛ نتيجة لتزايد نسبة الملوحة، وقد تراوح نسبته ما بين (0.34 - 3.456)، ويعمل هذا الارتفاع على تقليل النشاط الكيماوي للمياه داخل التربة، وإضعاف قدرة جذور النباتات على امتصاص المياه والمواد الغذائية من التربة، مما يؤدي إلى انخفاض قدرتها الإنتاجية.

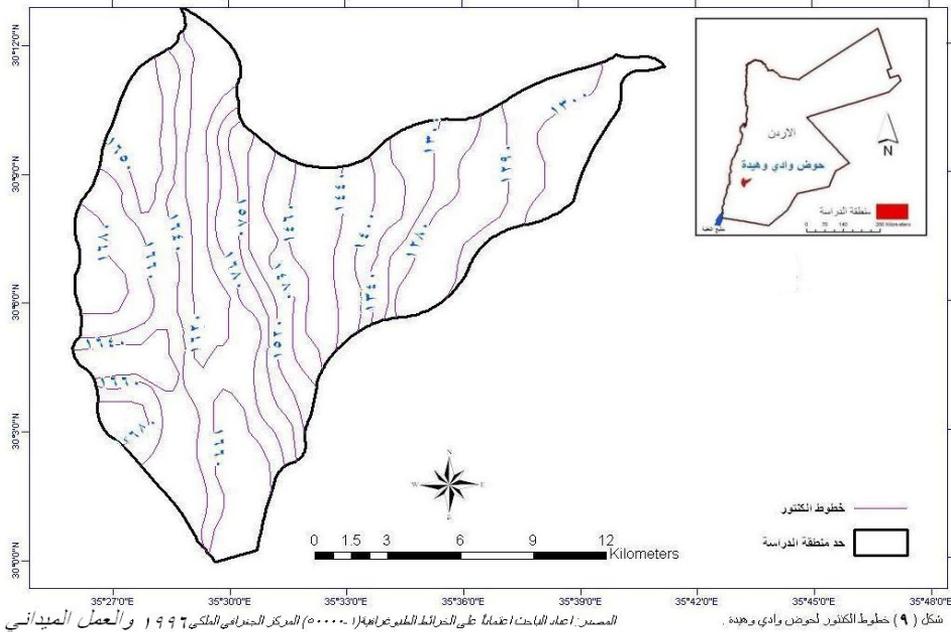
مورفولوجية السطح:

يعمل التباين الطبوغرافي في حوض وادي وهيدة على تنوع مظاهر السطح واختلاف خصائصها المورفولوجية (شكل 9). وتتشكل مظاهر السطح في حوض وادي وهيدة بشكل رئيسي من الوحدات الأرضية اللاندسكية التالية: المرتفعات الغربية، ومجاري الأودية، وأراضي الحماد الصواني التي تخترقها الأودية الانتشارية في الجزء الشرقي من الحوض، وقد أثرت هذه المظاهر على نحو رئيسي في كثافة الغطاء النباتي ونسبة تغطيته، فنجد أن المرتفعات الغربية ذات السفوح المتموجة، والتي تتشكل من منحدرات محدبة Convex ومقعرة Concave تميزت بمناطقها المنخفضة بنسبة تغطية نباتية عالية، تراوحت ما بين (7.6- 12.2) %، وكثافة نباتية تراوحت ما بين (2.3- 4.1) /م²، في حين انخفضت نسبة التغطية النباتية على السفوح المرتفعة لتتراوح ما بين (4.3- 8.4) %، فيما تراوحت كثافتها النباتية ما بين (1 - 2.3) /م²؛ ويفسر هذا التباين في نسبة التغطية والكثافة النباتية إلى أن المناطق المنخفضة تستقبل كمية من المياه عن

(1) تم حساب الضغط الإسموزي عن طريق المعادلة التالية: الضغط الإسموزي = 0.36 × الايصالية الكهربائية للتربة / مليسيمنز/سم. (الشاطر، 1995).

طريق الجريان السطحي أكثر من الكمية الهاطلة على المناطق المرتفعة. كذلك يؤدي ترسيب حبيبات التربة في المناطق المنخفضة إلى زيادة عمق مقطع التربة، وقدرته على الاحتفاظ بالرطوبة، مما يوفر البيئة الملائمة لنمو النباتات، بينما نجد أن عمليات الحت المائي يزداد نشاطها في السفوح الوعرة والمحدبة، مما يزيد من معدل انجراف التربة وتدني قدرتها على إعالة الغطاء النباتي (Francis and Thornes, 1990; Sauer and Ries, 2008). وتزداد الكثافة النباتية في مجاري الأودية عن المناطق المحيطة بها، إلا أن زيادة الضغط الرعوي في هذه المناطق أدت إلى انخفاض الإنتاجية النباتية فيها، وانخفاض الأنواع النباتية المستساغة، وقد تراوحت نسبة التغطية النباتية في مجاري الأودية ما بين (8.2-14.1) %، فيما تراوحت الكثافة النباتية ما بين (1.9 - 3.1) م².

أما في منطقة الحماد الصواني، التي تمثل الجزء الشرقي من الحوض، فيتميز الغطاء النباتي بأنه أكثر تجانساً من المناطق الأخرى، ويرجع ذلك إلى عدم التغير الكبير في مستوى السطح الطبوغرافي في أراضي الحماد، حيث تنخفض نسبة التغطية والكثافة النباتية فيها إلى أقل من (1.3%، 0.83 م²) على التوالي. وبالرغم من ذلك، تزداد التغطية والكثافة النباتية في الوديان العريضة الضحلة التي تخترقها، وقد تصل التغطية النباتية في أراضي الحماد إلى حد الانعدام- عدا بعض الحوليات التي تنمو في فصل الربيع- كما تبين من العمل الميداني أن المناطق التي يختفي فيها وجود حصى الصوان عن سطح الحماد تظهر النباتات بكثافة أعلى، مما يشير إلى أن وجود الحصى على السطح يعيق نمو النباتات، ويقلل فرصة انتشارها. كما يعمل الحصى على تقليل مساحة السطح المعرضة لاستقبال بذور النباتات، هذا من الناحية الميكانيكية. أما من الناحية الفسيولوجية التي تؤثر أساساً في انخفاض انتشار الشجيرات المعمرة، فيرجع إلى أن الحرارة النوعية لحبيبات الحصى منخفضة بدرجة كبيرة، ولذلك فهي تستجيب بسرعة لارتفاع وانخفاض درجات الحرارة، إذ يؤدي ارتفاع الحرارة صيفاً إلى زيادة في حرارة أسطح الحصى الصوانية، مما يؤثر سلباً على بادرات المعمرات ويؤدي إلى موت معظمها، وقد يكون هذا سبباً في ارتفاع التغطية النباتية في البقع الخالية من الحصى على سطحها، والتي يختفي فيها الحصى تحت حبيبات التربة أو الرمال، مما يعطي فرصة لنمو بعض النباتات. وعلى الرغم من التأثير السلبي لحبيبات الحصى على نمو النباتات فإن هذه الطبقة السطحية من حبيبات الحصى تقي التربة من التعرية الريحية التي تتأثر بها المنطقة، كما أنها تقلل من الانجراف بالمياه إذا ما حدث جريان سيالي خلال فترة التساقط المطري، وذلك بإعاقة حركة المياه الجارية، مما يزيد فرصة تشعب التربة أسفل الحصى برطوبة أكثر (Ries, 2003; Reij et al., 2005).



ويظهر الدور المباشر لمظاهر السطح في تحديد خصائص غطائها النباتي من خلال اختلاف درجة انحدار سطحها؛ فزيادة الانحدار يعمل على زيادة سرعة الجريان السطحي، وعدم إتاحة الفرصة الكافية للتربة للتشبع بالمياه، وبالتالي انخفاض معدل تسرب المياه إلى الطبقات السفلى، مما يعمل على زيادة كفاءة الجريان السطحي على ممارسة عملية الحت، ونقل حبيبات التربة من المناطق المنحدرة إلى المناطق الأقل انحدارا، مما ينعكس سلبا على عمق قطاع التربة، وقدرته على إعالة الغطاء النباتي Steenekamp and Bosch, 1995; Wills and Sivakumar (1995).

ويبين الجدول (3) العلاقة ما بين درجة الانحدار ونسبة التغطية والكثافة النباتية في الحوض، إذ نجد أن المناطق التي تزيد فيها درجة الانحدار عن (10°)، تتميز بنسبة تغطية وكثافة نباتية، منخفضة تراوحت ما بين (1.5-5.6) %، (0.58-1.9) م² على التوالي، فيما تراوحت نسبة التغطية والكثافة النباتية في المناطق التي يقل انحدارها عن (10°) ما بين (7.3-9.6) %، (2.8-3.5) م² على التوالي.

جدول (3): العلاقة بين درجة الانحدار ونسبة التغطية والكثافة النباتية في حوض وادي وهيدة.

فئات الانحدار ⁽⁵⁾	التغطية النباتية %	متوسط الكثافة النباتية/م ²
5-0	9.6	3.5
10-6	7.3	2.8
15-11	5.6	1.9
20-16	3.4	1.2
20 <	1.5	0.58

المصدر: إعداد الباحث

نتائج التحليل الإحصائي للانحدار متعدد الخطوات:

يظهر الجدول (4) نتائج التحليل الإحصائي للانحدار المتعدد الخطوات للمتغيرات الطبيعية المؤثرة في نسبة التغطية النباتية في حوض وهيدة حيث فسرت المتغيرات الطبيعية (65%) من مجمل التباين في نسبة التغطية النباتية في الحوض، وقد جاء متغير الأمطار في المرتبة الأولى من حيث الأهمية في تفسير التباين في نسبة التغطية النباتية على امتداد الحوض، إذ بلغت نسبة التفسير لهذا المتغير (24%)، وبدلالة إحصائية (0.001)، فيما دل معامل الارتباط على علاقة إيجابية قوية بين المتغيرين بلغ (0.85) وبدلالة إحصائية (0.001)، وجاء متغير المادة العضوية في المرتبة الثانية. إذ فسّر ما نسبته (18%) من مجمل التباين، وبدلالة إحصائية (0.001)، ودل معامل الارتباط على وجود علاقة قوية بين المتغيرين بلغ (0.76)، وبدلالة إحصائية (0.001)، وقد جاء متغير ملوحة التربة في المرتبة الثالثة، إذ بلغت نسبة التفسير لهذا المتغير (14%)، وبدلالة إحصائية (0.001)، فيما دل معامل الارتباط على علاقة إيجابية قوية بين المتغيرين بلغ (0.70) وبدلالة إحصائية (0.001)، وقد جاء متغير درجة انحدار السطح في المرتبة الرابعة، إذ بلغت نسبة التفسير لهذا المتغير (9%)، وبدلالة إحصائية (0.03)، فيما دل معامل الارتباط على علاقة إيجابية متوسطة بين المتغيرين بلغ (0.67) وبدلالة إحصائية (0.025).

جدول (4): نتائج التحليل الإحصائي للانحدار المتعدد الخطوات للمتغيرات الطبيعية المؤثرة في

نسبة التغطية النباتية في حوض وهيدة

المتغير	نسبة التفسير %	الدلالة الإحصائية	معامل الارتباط	الدلالة الإحصائية
التساقط المطري	24	0.001	0.85	0.001
المادة العضوية	18	0.001	0.76	0.001
ملوحة التربة	14	0.001	0.70	0.001
درجة انحدار السطح	9	0.03	0.67	0.025

المصدر: إعداد الباحث

التركيب النوعي للغطاء النباتي:

تم دراسة الأنواع النباتية السائدة في الحوض ميدانياً بعد أن تم تحليل غطاءين من الصور الجوية المتوفرة عن المنطقة لفترتين مختلفتين، أحدهما يعود لعام 1997 والآخر لعام 2008، بالإضافة إلى نتائج الدراسة التي قامت بها المنظمة العربية للتنمية الزراعية حول تطوير المراعي في جنوب المملكة الأردنية الهاشمية لعام 1979، والدراسات المتعلقة بأنواع النباتات السائدة في المنطقة لتحديد أنواع النباتات المنتشرة في الحوض، وتصنيفها إلى مجموعات نباتية مختلفة، وتحديد الأنواع النباتية التي تعرضت للتدهور. واعتماداً على ذلك فقد تم تحديد المجتمعات النباتية التالية (شكل 10):

1- مجتمع القيصوم والشيخ:

تنتشر نباتات هذا المجتمع بكثرة في مجاري الأودية التي تتلقى أمطاراً تتراوح ما بين (100 - 200) ملم سنوياً، وتشكل ما نسبته (12.1%) من مساحة الحوض، ويضم هذا المجتمع القيصوم *Achillea fragrantissima*، والشيخ *Artemisia herba - alba* ونباتات أخرى كالقبا *Poa sinaica*، والشنان *Anabasis syriaca*، والحرمل *Peganum harmala*. ويتراوح ارتفاع الشيخ ما بين (10-50) سم، ويتميز برائحته العطرية التي تحد من استساغته، وترعاه الأغنام في أول نموه في فصل الربيع. ويصنف الشيخ من حيث الإنتاجية الرعوية من الدرجة الثانية (القضاة، 1999).

أما القيصوم فيتميز برائحته العطرية، وقلة استساغته، وتفضله الأغنام والماعز في أول نموه في الربيع حيث الرائحة خفيفة، ويتراوح ارتفاعه ما بين (10-55) سم، ويصنف من حيث الإنتاجية الرعوية من الدرجة الثانية (القضاة، 1999).

2- مجتمع الشيخ والنيثول:

ينتشر هذا المجتمع النباتي في الجزء الجنوبي الغربي، ويشمل منطقة قرين والفيصلية والقاسمية وأبو اللسن والمريفة. وتبلغ مساحته حوالي (43.6 كم²). ويضم هذا المجتمع نباتات الشيخ *Artemisia herba - alba*، والنيثول *Haloxylon articulatum*، والروثة *Salsola rermiculata* والقيصوم *Achillea fargrantissima* والنصي *Aristida plumosa*. أما الأعشاب والحشائش السائدة في هذا المجتمع فهي: النجيل *Cynodon dactylon*، والشعير البري *Hordeum glaucum*. وقد دلت الدراسة الميدانية على أن هنالك كثيراً من النباتات التي كانت سائدة في هذه المنطقة، قد تدهورت، وهي: الروثة *Salsola rermiculata*، والنصي *Aristida plumosa*، والقبا *Poa sinaica*، والصمعة *Stipa barbata*. وقد حلت محلها نباتات أقل

استساغة، وذات قيمة رعوية متدنية، كالشنان *Anabasis syriaca*، والحرمل *Paganum hurmala*، والمرار *Launaea spinosa*.

3- مجتمع القيصوم والشنان:

تنتشر نباتات هذا المجتمع بشكل رئيسي في الحوض الأوسط لوادي وهيدة، ويعد من أكثر المجتمعات النباتية التي تعرضت للتدهور. ويعتبر نبات الشنان من النباتات الدالة على التدخل السيئ من قبل الإنسان في المراعي الطبيعية، ويتراوح ارتفاعه ما بين (11-55) سم. أما نبات القيصوم فهو ينتشر إلى جانب نبات الشنان. ويتراوح ارتفاعه ما بين (10-40) سم. وقد أدى الرعي الجائر، وظروف الجفاف إلى تدهور بعض النباتات التي كانت سائدة في هذا المجتمع، كالروثة *Salsola rermiculata*، والشيح *Artemisia herba alba*، والبقا *Poa sinaica*. لتحل محلها نباتات غير مستساغة كالصر *Noaea mucronata*، والحرمل *Paganum harmala*.

4- مجتمع الشنان:

تعتبر سيادة هذا النوع النباتي مؤشراً واضحاً على مرحلة التدهور المتقدمة التي وصلت إليها هذه المنطقة؛ نتيجة لسيادة ظروف الجفاف لفترات زمنية طويلة، ويصنف هذا النبات- حسب القيمة الرعوية- من الدرجة الثالثة، ويتراوح ارتفاعه ما بين (15-90) سم. مما يؤكد حجم التدهور البيئي الذي وصلت إليه هذه المنطقة.

يسود هذا المجتمع النباتي في الحوض الأدنى لوادي وهيدة، وتشكل أراضي هذا المجتمع جزءاً من أراضي الحماد التي تتميز بمناخها الجاف، وعدم صلاحية أراضيها لنمو النباتات الرعوية، وتبلغ مساحة الأراضي التي تغطيها نباتات هذا المجتمع حوالي (67.8 كم²).

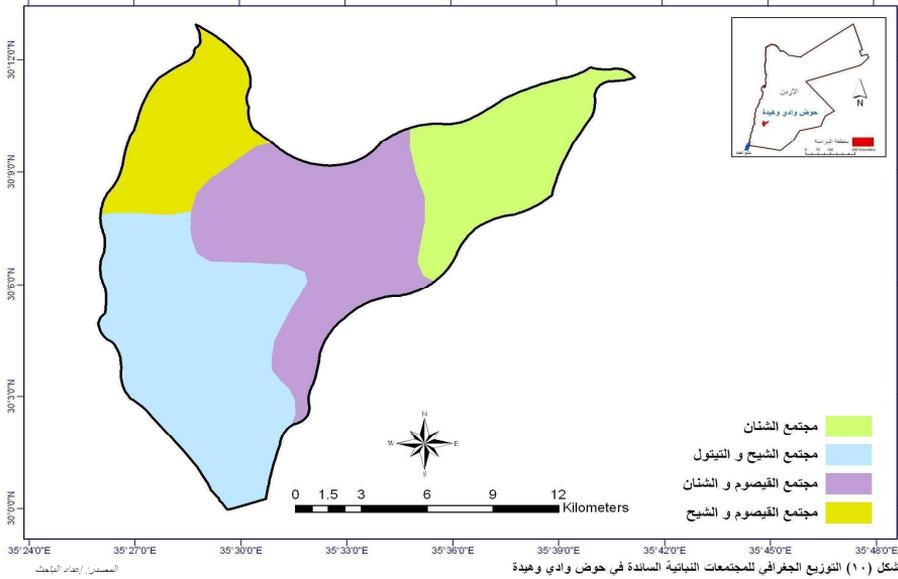
خصائص الغطاء النباتي:

تمثل خصائص الغطاء النباتي في حوض وادي وهيدة انعكاساً لظروف بيئته الحوضية الجافة، وتعكس خصائص الغطاء النباتي - من حيث الكثافة ونسبة التغطية والإنتاجية النباتية- حجم التدهور الذي تعرضت له نباتات الحوض. ويظهر الجدول رقم (5) خصائص الغطاء النباتي في الحوض، وعلى النحو التالي:

الكثافة النباتية:

تمثل الكثافة النباتية عدد النباتات في وحدة مساحية معينة (م²). وقد تم تقديرها بعدد أفراد كل نوع نباتي موجود في وحدة القياس. ولما كانت المكونات النوعية التي يتركب منها الغطاء النباتي في حوض وادي وهيدة تختلف في نموها ابتداءً من الأعشاب الحولية وحتى

الشجيرات المعمرة، فقد استخدم الباحث شكلاً مساحياً يتناسب مع خصائص تلك النباتات؛ لقياس الكثافة النباتية في المنطقة، حيث استخدم الباحث شكلاً مساحياً مربعاً مساحته (م²) لقياس الكثافة النباتية للأعشاب والحواليات النجيلية والمعمرات النجيلية وشبه النجيلية والمعمرات الأخرى.



تعد الكثافة النباتية مؤشراً جيداً للحكم على حالة الغطاء النباتي ومدى التدهور الذي أصابه، وتتفاوت الكثافة النباتية في حوض وادي وهيدة تبعاً لاختلاف خصائصه الطبيعية، إذ نجد أن الكثافة النباتية ترتفع في الحوض الأعلى؛ نتيجة لتحسن الظروف الطبيعية للحوض، حيث تراوحت ما بين (2.4/م²) في منطقة القاسمية و(3.2/م²) في منطقة النقب، وقد انخفضت الكثافة النباتية في الحوض الأوسط؛ نتيجة لانتشار ظروف الجفاف، لتتراوح ما بين (1.75/م²) في منطقة ضور، و(2.3/م²) في منطقة سويمرة. كما تنخفض الكثافة النباتية بشكل واضح في الحوض الأدنى لتتراوح ما بين (0.5/م²) في منطقة معان و(1.2/م²) في منطقة الصدقة؛ ويرجع الانخفاض في كثافة الغطاء النباتي إلى طبيعة أراضي الحماد المغطاة بالصخور الصوانية التي تعيق عملية نمو النباتات، وانخفاض معدلات الأمطار الهائلة عليها، وارتفاع ملوحة تربتها.

الكثافة الرعوية:

تمثل الكثافة الرعوية عدد النباتات الرعوية التي يمكن أن ترعاها الماشية في وحدة مساحية معينة (م²)، وتم قياسها بالطريقة التي قيست بها الكثافة النباتية بعد تحديد نوعية النباتات

الرعيوية المستساغة ميدانياً، ويتغير معدل الكثافة الرعيوية في الحوض تبعاً لاختلاف خصائصه الطبيعية.

وتتراوح الكثافة الرعيوية في الحوض ما بين (0.45- 2.6)/م²، حيث ترتفع الكثافة الرعيوية بالاتجاه نحو الحوض الأعلى؛ نتيجة لتحسن الظروف المناخية، لتتراوح ما بين (1.6/م²) في منطقة القاسمية و(2.6/م²) في منطقة النقب، بينما تنخفض الكثافة الرعيوية بالاتجاه نحو الحوض الأدنى بشكل واضح، لتتراوح ما بين (0.45/م²) في منطقة معان و(0.9/م²) في منطقة الصدقة؛ ويعود هذا الانخفاض الى طبيعة أراضي الحماد المغطاة بالصخور الصوانية التي تعيق عملية نمو النباتات، ولانتشار ظروف الجفاف.

الإنتاجية النباتية:

لقد كان الاتجاه لقياس الإنتاجية النباتية شاملاً لجميع المكونات النوعية الأساسية للغطاء النباتي في الحوض بغض النظر من كونها مستساغة من قبل الحيوان أو غير مستساغة. وقد قدرت المادة النباتية من المعمارات بطريقة قص الأفرع والنموات الحديثة التي تمثل إنتاج السنة نفسها، وبالنسبة للحوليات فقد تم حصاد النبات على ارتفاع (2سم) تقريباً فوق سطح الأرض، لتقدير إنتاجيتها النباتية، باعتبارها مناسبة للحيوان بأكملها. أما الأعشاب فقد تمت عملية القص على مستوى سطح الأرض. ولتقدير الوزن الجاف للعينات النباتية تم تعريضها لعملية تجفيف، على درجة حرارة 65° ولمدة 48 ساعة، وقد تم حساب الإنتاجية النباتية للوحدة المساحية (دونم)، وذلك بأخذ عينات ممثلة⁽¹⁾ لهذه الوحدة المساحية (دونم) بواقع عشر عينات لكل دونم، وأخذ المتوسط الحسابي لهذه العينات، ولتحديد إنتاجية الدونم تم ضرب المتوسط الحسابي للعينات بوحدة المساحة (دونم).

وقد تراوحت الإنتاجية في الحوض ما بين (1.1 - 4.5) كغم مادة جافة/دونم. وترتفع الإنتاجية النباتية في الحوض الأعلى، لتتراوح ما بين (3.52- 4.5) كغم/ مادة جافة/ دونم؛ ويرجع سبب هذا الارتفاع إلى زيادة الكثافة النباتية؛ نتيجة لزيادة معدل الأمطار الهائلة على الحوض الأعلى، وتحسن خصائص التربة من حيث الرطوبة، والقوام، ونسبة المواد العضوية، وقدرتها على تجديد الغطاء النباتي. وتتناقص الإنتاجية بشكل تدريجي في الحوض الأوسط لتتراوح ما بين (2.14- 2.87) كغم/ مادة جافة/دونم. بينما نجد أن الإنتاجية النباتية تنخفض في أراضي الحماد ضمن الحوض الأدنى حيث تراوحت الإنتاجية النباتية ما بين (1.1-1.98) كغم/

(1) بلغت مساحة العينة المدروسة (1م×1م)

مادة جافة/ دونم؛ ويرجع السبب في انخفاض الإنتاجية النباتية لأراضي الحماد لانخفاض الكثافة النباتية بسبب جفاف المنطقة، وارتفاع ملوحة التربة، وانتشار الحجارة الصوانية على سطح التربة.

الإنتاجية الرعوية:

تسهم المراعي الطبيعية في الحوض بما تنتجه من كلاً دوراً مهماً في تغطية الاحتياجات الغذائية للثروة الحيوانية، لمدة تتراوح ما بين 2-3 شهور دون تغذية تكميلية، أي ما يعادل 30% من احتياجاتها الغذائية (وزارة الزراعة، 2001). وقد تم قياس الإنتاجية الرعوية من خلال قياس الإنتاجية النباتية للنباتات الرعوية المستساغة من قبل الحيوان في المتر المربع الواحد، وذلك بعد فصلها عن النباتات غير المستساغة للحيوان، وتم حساب الإنتاجية الرعوية للوحدة المساحية (الدونم) بنفس الطريقة التي حسبت بها الإنتاجية النباتية. ويمكن من خلال تحديد الإنتاجية الرعوية، تقدير الحمولة الرعوية للمراعي، وتجنب الرعي الجائر، وتحقيق التوازن ما بين عدد الحيوانات وطاقة الحمولة للمرعى.

وتختلف الإنتاجية الرعوية في الحوض تبعاً لاختلاف خصائص العوامل الطبيعية المؤثرة عليها، فنجد أن الإنتاجية ترتفع في الحوض الأعلى، حيث تتراوح ما بين (1.7 - 2.36) كغم/مادة جافة/ دونم؛ نتيجة لتحسن خصائص التربة ومعدلات الأمطار الساقطة، بينما تنخفض الإنتاجية الرعوية في الحوض الأدنى حيث تتراوح ما بين (0.5 - 1.2) كغم/ مادة جافة/ دونم. ويرجع انخفاض الإنتاجية الرعوية في الحوض الأدنى إلى طبيعة خصائص السطح، وانتشار الحجارة الحصوية التي تعمل على الحد من النمو النباتي (أراضي الحماد)، بالإضافة إلى تدهور خصائص التربة وانخفاض معدل الأمطار. وارتفاع نسبة الملوحة في التربة، وسوء النفاذية والصرف المائي، وقد أدت هذه العوامل إلى الحد من النمو النباتي في تلك الأراضي، وسيادة النباتات غير المستساغة.

ويعكس الانخفاض في الإنتاجية الرعوية بالنسبة للإنتاجية النباتية الكلية، والتي تراوحت ما بين (45-52)% حالة الموارد الرعوية المتدهورة؛ نتيجة لاختلال التوازن الطبيعي لعناصر النظام البيئي في الحوض من تربة ومياه وغطاء نباتي.

جدول (5): خصائص الغطاء النباتي في حوض وادي وهيدة.

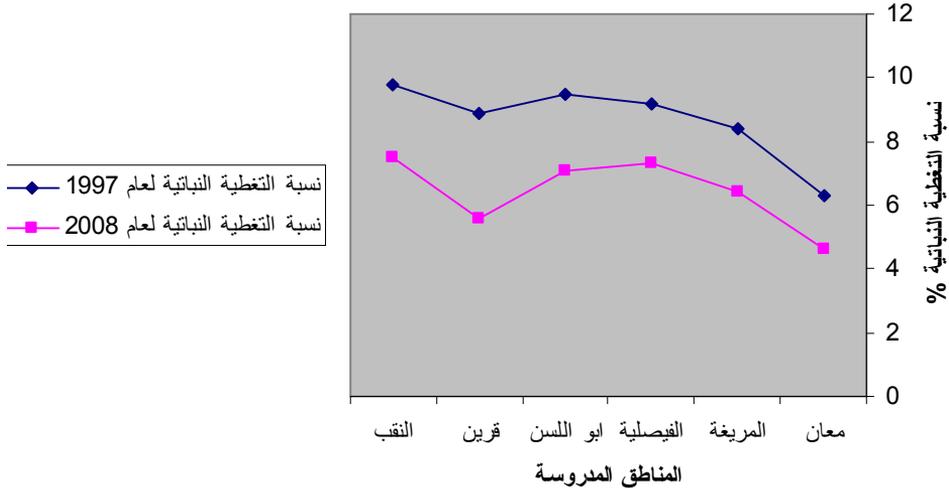
الحوض	المنطقة	معدل الكثافة النباتية /م ²	معدل الكثافة الرعوية /م ²	ارتفاع النبات سم	الإنتاجية النباتية كغم مادة جافة/دونم	الإنتاجية الرعوية كغم مادة جافة/دونم	التركيب النباتي
الحوض الأعلى	النقب	3.2	2.6	المدى 10-45 المعدل 23.9	4.5	2.36	الشيخ، النيتول، النجيل
الحوض الأعلى	أبو السن	2.8	1.9	المدى 5-39 المعدل 18.6	4.23	2.11	الشيخ، النيتول، الصمعة
الحوض الأعلى	طاسان	2.6	1.85	المدى 7-30 المعدل 19.8	3.98	1.86	الشيخ، النجيل، الحرمل
الحوض الأعلى	القاسمية	2.4	1.6	المدى 6-30 المعدل 17.6	3.52	1.70	، القيصوم، الروثة، القبا
الحوض الأوسط	سوبمرة	2.3	1.5	المدى 8-25 المعدل 16.8	2.87	1.55	القيصوم، الشيخ، البحترى، أعشاب النجيل
الحوض الأوسط	الفيصلية	1.9	1.45	المدى 7-22 المعدل 16	2.65	1.47	القيصوم، الشيخ، النجيل

الحوض الأوسط	قرين	1.8	1.4	2.49	1.33	القيصوم، الشنان، الحرمل
الحوض الأوسط	ضور	1.75	1.35	2.14	1.3	الشيخ، القيصوم، الروثة
الحوض الأدنى	الصدقة	1.2	0.9	1.98	1.2	القيصوم، الشنان
الحوض الأدنى	الصدقة	0.62	0.55	1.8	1.19	القيصوم، الشنان
الحوض الأدنى	وهيدة	0.52	0.45	1.25	0.85	القيصوم، الشنان
الحوض الأدنى	معان	0.5	0.45	1.1	0.5	القيصوم، الشنان

المصدر: إعداد الباحث، العمل الميداني والصور الجوية.

نسبة التغطية النباتية:

يبين الشكل رقم (11) نسبة التغطية النباتية في حوض وادي وهيدة خلال فترتين زمنييتين (1997 و2008) حيث يستدل من تحليل الشكل على وجود تراجع واضح في نسبة التغطية النباتية في جميع أجزاء الحوض، إلا أن نسبة التراجع تختلف من منطقة لأخرى على نحو يتوافق مع شدة التدهور الذي تعرض له الغطاء النباتي في كل منطقة بعد عام 1997، فقد تراجعت نسبة التغطية النباتية بشكل كبير في الحوض الأعلى، ويظهر هذا التراجع في منطقة قرين وأبو اللسن والنقب، فقد بلغت نسبة التغطية النباتية في هذه المناطق في عام 1997 (8.9%، 9.5%، 9.8%) على التوالي، إلا أنها انخفضت في عام 2008 إلى (5.6%، 7.1%، 7.5%) على التوالي؛ ويفسر هذا التراجع بممارسة الزراعة الهامشية وإحلالها محل الأراضي الرعوية، إضافة إلى الرعي الجائر وانخفاض كمية الأمطار عن معدلها السنوي. كما تراجعت نسبة التغطية في الحوض الأوسط في عام 2008 لتتراوح ما بين (4.6%) في منطقة الفيصلية و(6.4%) في منطقة المريفة مقارنة مع عام 1997 حيث بلغت نسبة التغطية في هاتين المنطقتين (9.2%، 8.4%) على التوالي. أما الحوض الأدنى، فقد انخفضت نسبة التغطية النباتية في منطقة معان من (6.3%) في عام 1997 إلى (4.6%) في عام 2008؛ ويفسر هذا التراجع في نسبة التغطية في الحوض الأوسط والأدنى بشكل رئيسي إلى تدهور خصائص التربة وفقدانها لعناصرها الغذائية، نتيجة لجفاف المنطقة وتعرض أراضيها للتعرية الريحية.



شكل (11): التغيرات التي طرأت على نسبة التغطية النباتية في حوض وادي وهيدة في الفترة (1997-2008). المصدر: إعداد الباحث

ارتفاع الغطاء النباتي:

تختلف نباتات الحوض في معدل ارتفاعها عن سطح الأرض تبعاً لاختلاف خصائصها الفسيولوجية والظروف الطبيعية السائدة، وبخاصة كمية الأمطار الهائلة ورطوبة التربة. ويعكس ارتفاع النبات حجم الكتلة النباتية المتوفرة، ومدى تحسن النمو النباتي، ويتراوح معدل ارتفاع النباتات في الحوض الأعلى ما بين (10- 45) سم، فيما ينخفض بشكل تدريجي في الحوض الأوسط ليتراوح ما بين (6 - 25) سم، ليصل أقل ارتفاع للنبات في الحوض الأدنى حيث يتراوح ارتفاعه ما بين (5- 19) سم.

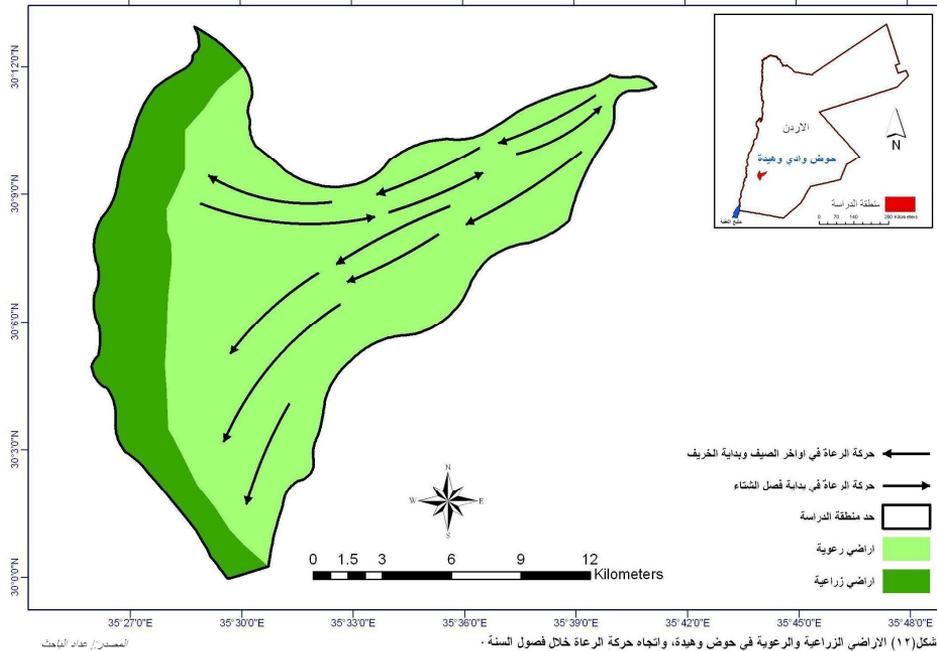
الحمولة الرعوية:

يقصد بها عدد الحيوانات التي يمكن أن ترعى في وحدة مساحية معينة، ضمن مدة زمنية محددة، وتستخدم الحمولة الرعوية في تقدير طاقة المرعى على إعالة عدد معين من الحيوانات في وحدة المساحة، ويساعد تقدير الحمولة الرعوية في الأراضي الرعوية على تطويرها، والتوصل إلى حالة التوازن البيئي بين عدد الحيوانات التي يجب إطلاقها في وحدة المساحة، وقدرة النباتات على إمدادها باحتياجاتها الغذائية. ويصعب تقدير الحمولة الرعوية لأراضي الرعي؛ بسبب التباين في كمية الأمطار من سنة لأخرى (شكل 12). وتقدر الحمولة الرعوية للمرعى التي يقل معدل أمطارها عن (100 ملم) بحوالي (150) دونم لرأس الغنم الواحد أي أن الدونم يعطي 2-3⁽¹⁾ وحدات غذائية، بينما تقدر الحمولة الرعوية لأراضي المراعي الطبيعية التي تتراوح أمطارها ما بين (100- 200) ملم بحوالي (100) دونم لرأس الغنم الواحد. أي أن الدونم الواحد يعطي 4.5 وحدة غذائية (وزارة الزراعة، 2001)، أما المناطق التي تزيد معدل أمطارها عن (200 ملم)، فتقدر الإنتاجية الرعوية للدونم بعشر وحدات غذائية. وتقدر الاحتياجات السنوية للأنواع المختلفة من الحيوانات في الحوض من الوحدات الغذائية على النحو التالي:

نوع الحيوان	عدد الوحدات الغذائية اللازمة سنوياً
رأس غنم	430 وحدة
رأس ماعز	400 وحدة
رأس ابل	3000 وحدة (المنظمة العربية للتنمية الزراعية، 1979).

(1) الوحدة الغذائية تعادل كيلو غراماً واحداً من الشعير.

التحليل الجغرافي للمعطيات الطبيعية المحددة لحالة الغطاء النباتي في حوض وادي وهيدة- جنوب الأردن



وبناءً على هذه المعايير المعتمدة، فقد تم حساب الحمولة الرعيّة لأراضي الرعيّة تبعاً لمعدلات هطول الأمطار فيها. ويتضح من الجدول رقم (6) أن الحمولة الرعيّة والقدرة الإنتاجية للأراضي الرعيّة تزداد بزيادة معدلات الأمطار حيث بلغت الحمولة الرعيّة في المرتفعات الجنوبية الغربية شبه الجافة التي يزيد معدل أمطارها عن (200 ملم) حوالي (419) رأس من الأغنام موزعة على مساحة تقدر بحوالي (18000) دونم، فيما نجد أن الحمولة الرعيّة تنخفض في أراضي الحماد الصواني التي يقل معدل أمطارها عن (100 ملم) حيث بلغت القدرة الإنتاجية الرعيّة وحدتين غذائيتين لكل دونم، وبطاقة حمولية بلغت (195) رأس غنم موزعة على مساحة تقدر بحوالي (42000) دونم.

جدول (6): الحمولة الرعوية في حوض وادي وهيدة تبعاً لمعدلات الأمطار الساقطة عليه.

الحمولة الرعية للمنطقة (رأس غنم)	مجموع القدرة الإنتاجية للمنطقة /وحدة غذائية	القدرة الإنتاجية وحدة غذائية/دونم	معدل الأمطار / ملم	المساحة بالألف / دونم	المنطقة / الوحدة اللانداسكية
195	84000	2	100	42	المراعي الجنوبية والشرقية(أراضي الحماد الصواني)
220	94500	4.5	-100 150	21	مراعي المرتفعات الشمالية الغربية
419	180000	10	200فاكثر	18	مراعي المرتفعات الجنوبية الغربية /مجري الأودية

النتائج:

تضافرت العديد من المعطيات الطبيعية التي أثرت سلباً على القدرة البيولوجية للغطاء النباتي في حوض وهيدة، منها:

أ- دلت نتائج التحليل الإحصائي للانحدار المتعدد الخطوات على أهمية المتغيرات الطبيعية في تفسير التباين في نسبة التغطية النباتية في حوض وهيدة، حيث فسرت المتغيرات الطبيعية (65%) من مجمل التباين في نسبة التغطية النباتية في الحوض، وقد جاء متغير الأمطار في المرتبة الأولى من حيث الأهمية، إذ بلغت نسبة التفسير لهذا المتغير (24%)، وبدلالة إحصائية (0.001)، فيما دل معامل الارتباط على علاقة إيجابية قوية بين المتغيرين بلغ (0.85) وبدلالة إحصائية (0.001)، وجاء متغير نسبة المادة العضوية في التربة في المرتبة الثانية. إذ فسّر ما نسبته (18%) من مجمل التباين، وبدلالة إحصائية (0.001).

ب - انخفاض نسبة المادة العضوية في ترب الحوض، فقد تراوحت نسبتها ما بين (0.18%) في منطقة معان، و(0.83%) في منطقة النقب، وهذه النسبة حسب تصنيف منظمة FAO تقع

ضمن فئة المادة العضوية المتدنية جداً والتي تبلغ أقل من 1%؛ ويفسر ذلك بجفاف المنطقة، وانخفاض التغطية النباتية، بالإضافة إلى نشاط التعرية الريحية في هذه المناطق.

ج- تزايد خشونة التربة في الحوض الأدنى؛ نتيجة لتعرضها للتعرية الريحية ويتضح ذلك في منطقة معان، حيث بلغت نسبة السلت والطين (10.6%، 8.8%) على التوالي، فيما ارتفعت نسبة الرمل إلى (80.6%).

د- تعمل زيادة الأملاح في ترب الحوض على إضعاف قدرتها الإنتاجية؛ نتيجة لزيادة الضغط الإسموزي في محلول التربة، مما يؤدي إلى انخفاض قدرة النبات على امتصاص المياه والمواد الغذائية، وقد تراوحت قيم الايصالية ما بين (0.95- 15.21) مليسمينز/سم، فيما تراوح الضغط الإسموزي في ترب الحوض ما بين (0.34 - 3.456).

هـ- العلاقة السلبية ما بين درجة الانحدار ونسبة التغطية النباتية في الحوض، إذ نجد أن المناطق التي تزيد فيها درجة الانحدار عن (10°)، تتميز بنسبة تغطية نباتية منخفضة تراوحت ما بين (1.5-5.6) %، فيما تراوحت كثافتها النباتية ما بين (0.58- 1.9) م²/م². وتراوحت نسبة التغطية النباتية في المناطق التي يقل انحدارها عن (10°) ما بين (7.3- 9.6) %، فيما تراوحت كثافتها النباتية ما بين (2.8- 3.5) م².

و- أثرت مورفولوجية أشكال السطح على نحو رئيسي في كثافة الغطاء النباتي ونسبة تغطيته، فنجد أن المرتفعات الغربية ذات السفوح المتموجة، تميزت بمناطقها المنخفضة بتغطية نباتية عالية، تراوحت ما بين (7.6- 12.2) %، فيما تراوحت كثافتها النباتية ما بين (2.3- 4.1) م²/م²؛ ويرجع هذا التحسن في نسبة التغطية النباتية إلى تلقي هذه المناطق كميات وافرة من المياه من الجريانات السطحية، بالإضافة إلى تحسن خصائص تربتها.

أما في منطقة الحماد، التي تمثل الجزء الشرقي من الحوض، فيتميز الغطاء النباتي بأنه أكثر تجانساً من المناطق الأخرى، ويرجع ذلك إلى عدم التغير الكبير في مستوى السطح الطبوغرافي في أراضي الحماد، حيث تنخفض نسبة التغطية والكثافة النباتية فيها إلى أقل من (1.3) %، (0.83 م²/م²) على التوالي؛ ويرجع الانخفاض في كثافة الغطاء النباتي لطبيعة أراضي الحماد المغطاة بالصخور الصوانية التي تعيق عملية نمو النباتات، كذلك لانخفاض معدلات الأمطار الهائلة عليها، وارتفاع ملوحة التربة.

كما أظهرت نتائج الدراسة وجود تراجع واضح في نسبة التغطية النباتية في جميع أجزاء الحوض، إلا أن نسبة التراجع تختلف من منطقة لأخرى على نحو يتوافق مع شدة التدهور الذي تعرض له الغطاء النباتي في كل منطقة بعد عام 1997، فقد تراجعت نسبة التغطية النباتية بشكل كبير في الحوض الأعلى، ويظهر هذا التراجع في منطقة قرين وأبو اللسن والنقب، فقد بلغت نسبة

التغطية النباتية في هذه المناطق في عام 1997 (8.9%، 9.5%، 9.8%) على التوالي، إلا أنها انخفضت في عام 2008 إلى (5.6%، 7.1%، 7.5%) على التوالي؛ كما تراجع في الحوض الأوسط في عام 2008 لتتراوح ما بين (4.6%) في منطقة الفيصلية و(6.4%) في منطقة المريغة مقارنة مع عام 1997 حيث بلغت نسبة التغطية في هاتين المنطقتين (9.2%، 8.4%) على التوالي. أما الحوض الأدنى، فقد انخفضت التغطية النباتية في منطقة معان من (6.3%) في عام 1997 إلى (4.6%) في عام 2008.

وأظهرت الدراسة العديد من مظاهر تدهور الغطاء النباتي في الحوض وتتمثل هذه المظاهر في: انتشار النباتات غير المستساغة والضارة على حساب الأنواع المستساغة، وزيادة نشاط العمليات الجيومورفوديناميكية، وانخفاض الإنتاجية النباتية الرعوية في الحوض، وقد تراوحت الإنتاجية النباتية في الحوض ما بين (1.1 - 4.5) كغم/مادة جافة/ دونم، فيما تراوحت الإنتاجية الرعوية ما بين (0.5 - 2.36) كغم/مادة جافة/ دونم.

التوصيات:

- في ضوء النتائج التي توصلت إليها الدراسة، يوصي الباحث بما يلي:
- 1- عدم التوسع في الزراعة المطرية للمناطق الهامشية ذات القدرة الإنتاجية المنخفضة؛ لما تسببه زراعة هذه المناطق في ظل ظروف الجفاف من تعرض تربتها لعوامل التعرية بعد الحراثة، وبالتالي فقدان خصوبتها وقدرتها الإنتاجية.
 - 2- حماية الأراضي الرعوية من التدهور، وإدارتها بشكل فعال، فقد أوضحت التقديرات الأولية لوزارة الزراعة أن إنتاجية المراعى المحمية تزداد بمقدار خمسة أمثال عما هي عليه في المراعي المفتوحة غير المحمية؛ وذلك نتيجة لحماية النباتات من الرعي الجائر والمبكر، مما يتيح لها فرصة النمو والتجديد واستعادة قدرتها الإنتاجية.
 - 3- إتباع دورة أو خطة رعوية سليمة تنظم عملية استغلال المراعي في الحوض.
 - 4- التوسع في إنشاء المحميات الطبيعية؛ لاستعادة الغطاء النباتي عن طريق التطور الطبيعي، كما تعد المحميات وسيلة فاعلة للحد من انجراف التربة بفعل عوامل التعرية.

Geographical Analyses of Natural Conditions Limiting the Vegetation cover in Oheideh Basin – Southern Jordan

Ali Hamdi Abu Saleem. *Faculty of Education Sciences, Al-Hussein Bin Talal University, Ma'an, Jordan.*

Abstract

This study deals with the natural condition limiting the vegetation cover in Oheideh Basin. It aims at showing their role in determining the characteristics of vegetation in the basin. The study, in its methodology, depended on the analysis of field measurements related to the characteristics of vegetation in relation to density, cover percentage, and productivity; the analysis of the data which was collected about the vegetation including aerial photographs for two different periods (1997 and 2008); as well as the analysis of soil samples and showing its importance in determining the characteristics of the vegetation in the Basin.

The study reached the following conclusions: firstly, the statistic analysis of the stepwise regression showed the importance of the rainfall in explaining the variance in vegetation in the basin, hence, explaining 65% of the variance which is statistically significant (0.001).

Secondly, the study showed that there was a negative relation between the percentage of vegetation, density and slope degree in the basin. Thirdly, there was a backdrop in the percentage of vegetation in all of the parts of the basin which is a logical outcome of the degradation in vegetation after 1997. This degradation is evident in the upper basin as the percentage of vegetation dropped from (8.9-9.8%) in 1997 to (5.6-7.5%) in 2008.

وقبل في 2010/6/8

قدم البحث للنشر في 2009/12/27

المراجع:

- دائرة الأرصاد الجوية. (2000). النشرة السنوية للمعلومات المناخية في الأردن. ط1. عمان، الأردن.
- الشاطر، محمد. (1995). الأراضي المتأثرة بالملوحة، الطبعة الأولى، المملكة العربية السعودية، مكتبة الإحصاء.
- القضاة، بكر. (1999). تنمية المراعي الطبيعية في الأردن، ط1، دار البشر، عمان، الأردن.
- المركز الجغرافي الملكي (1996) الخرائط الطبوغرافية (1-50000) لمنطقة معان. عمان، الأردن.
- المنظمة العربية لتنمية الزراعة. (1979). دراسة تطوير المراعي في جنوب المملكة الأردنية الهاشمية، جامعة الدول العربية، الخرطوم، السودان.
- وزارة الزراعة. (1993). المشروع الوطني لخارطة التربة واستعمالات الأراضي، المستوى الأول، عمان، الأردن.
- وزارة الزراعة. (2001). الإستراتيجية الوطنية للمراعي، عمان، الأردن.
- Adamo, S. and Meyer, C. (2006). Aridity and desertification: Exploring environmental hazards in Jachal, Argentina, *Applied Geography*, Vol 26, Issue 1, P.P. 61 – 85.
- Alejandro, P. Johann, K. Migue A. and Ana, M. (1999). Relationship of Soil characteristics to vegetation successions on a sequence of degraded and rehabilitated soils in Hondura Agriculture, *Ecosystems & Environment*, Volume 72, Issue 3, Pages 215 – 225.
- Aranda, V and Oyonarte, G. (2005). Effect of vegetation with different evolution degree on soil organic matter in a semi – arid environment (Cabo de Gata – Nijar Natural Pak, SE Spain). *Journal of Arid Environments*, Volume 62, Issue 4, Pages 631 - 647.
- Bestelmeyera, B. (2006). A multi – scale classification of vegetation dynamics in arid land. *Journal of Arid Environments*, Volume 65, Issue 2, Pages 296 – 318.
- Boul, W.,Hole,F and McCracken., A. (1980). *Soil Genesis*, USA, the Iowa State University press

- Brown, G., (2003). Factors maintaining plant diversity in degraded areas of northern Kuwait, *Journal of Arid Environments*, Volume 54, Issue 1, Pages 183 – 194.
- FAO, (1988). *Assessment of Soil Degradation*. FAO. Rome
- Feoli, E. Gallizia, L. Zerihun W, (2002). Evaluation of Environmental degradation in northern Ethiopia using GIS to integrate vegetation, geomorphologic, erosion and socio – economic factors Agriculture, *Ecosystems and Environment*, Volume 91, Issue 1 – 3, Pages 313 - 325.
- Francis, F. and Thornes, J. (1990). *Run off hydrographs from three Mediterranean vegetation cover types In: Thornes, J (Ed) vegetation and Erosion Processes and Environments*, Wiley, Chichester, p p 363 - 384.
- Friedel, M. Sparrow, A. Kinloch, J. and Tongway, D. (2003). *Degradation and recovery processes in arid grazing lands of central Australia*. Part 2: Pages 1 – 24.
- Haraldsson, R. (2003). Simulating vegetation cover dynamics with regards to long – term climatic variations in sub – arctic landscapes, *Global and Planter Change*, Volume 38, Issues 3 – 4, Pages 313 – 325.
- Kharin, N., Tateishi, R. and Harahsheh, H. (1999). *Degradation of the Dry Lands of Asia*, Center for Environmental Remote Sensing, Chiba University. Japan, pp. 1 – 81.
- Khaznadar, M. Vogiatzakis, N. and Griffiths, G. (2008). Land degradation and vegetation distribution in Chott El Beida wetland Algeria, *Journal of Arid Environments*, Volume 73, Issue 3, Pages 369 - 377.
- Omar, S. Bhat, N. R. Shahid, S. A. and Assem, A. (2005). Land and vegetation degradation in war-affected areas in the Sabah Al-Ahmad Nature Reserve of Kuwait: A case study of Umm. Ar. Rimam, *Journal of Arid Environments*, Volume 62, Issue 3, Pages 475 - 490.
- Poesen, J. 1999. Soil and water components of banded vegetation patterns *CATENA*, Volum 37, Issues 1 – 2, Pages 1 – 24.
- Reij, C. Tappan, G. and Belemvire, A. (2005). Changing Land management practices and vegetation on the Central Plateau of Burkina Faso (1986 – 2002) *Journal of Arid Environments*, Volume 63, Issue 3, Pages 642 - 659.
- Ries, J. (2003). Monitoring of gully erosion in the central Ebro Basin by large – scale aerial photography taken from a remotely controlled blimp. *Catena*, 50. PP 309 – 328.
- Sauer, T. and Ries, J.(2008). Vegetation cover and geomorphodynamics on abandoned Fields in the central Ebro Basin (Spain), *Geomorphology*, 10, p. p 267 – 277.

- Steenekamp, J. and Bosch, O. (1995). The influence of rainfall on vegetation composition in different conditional states. *Journal of Arid Environments*, Volume 30, Issue 2, Pages 185 - 190.
- Tiffen, M., Mortimore, M., and Gachuki, F., (1994). *More People Less Erosion Environmental in Kenya*, ACTS, Nairobi, Kenya.
- Vetter, Susanne (2009). Drought, change and resilience in South Africa's arid and semi-arid rangelands. *South African Journal of Science*, Vol. 105 Issue 1/2, p29-33.
- Wills, J. Sivakumar, V. K., (1995). Combating Land Degradation in Sub-Saharan Africa: *Summary Proceedings of the International Planning Workshop for a Desert Margins Initiative*, 23 – 26 Nairobi, Kenya.
- Zhang, Y. (2004). Effect of vegetation restoration on soil and water erosion and nutrient losses of a severely eroded clayey Plinthudult in southeastern China *CATENA*, Volume 57, Issue 1, Pages 77 – 90.
- Zhao, Y.,(2007) Changes in vegetation diversity and structure in response to heavy grazing pressure in the northern Tianshan, *China Journal of Arid Environments*, Volume 68, Issue 3, Pages 465 - 47.

الزمن في المقامة الأصفهانية

محمد علي ابنيان*، سهيل محمد خصاونة* وعلي صالح بن تميم**

ملخص

يحاول بديع الزمان الهمذاني في هذه المقامة، التوفيق بين زمني الدين والدنيا، وذلك حين جرب تحقيق ذلك بتأدية صلاة الفجر في مسجد أصفهان، دون أن تفوته القافلة التجارية التي ينتظرها لمرافقتها إلى بلاد الري، ولكنه فشل - وكان بإمكانه ألا يفشل- لو أن القائمين على المساجد- أئمة ووعاظ- مدركون خصوصية مهمتهم، وما تمليه عليهم من وجوب مراعاة ظروف من خلفهم من رواد المساجد، لهذا جاءت المقامة مكونة من قسمين رئيسيين، خصص القسم الأول، وهو المقامة- لانتقاد إمام المسجد، الذي أدى الصلاة بأناة مفرطة، في حين خصص القسم الثاني وهو (المنام) لانتقاد الوعاظ الذين يظهرن فجأة بعد الصلاة، فيسفحون دم الوقت على مذابح الكذب والخداع والاحتيال في أغلب الحالات.

مقدمة:

تختص كل مقامة من مقامات بديع الزمان الهمذاني بموضوع من المواضيع المهمة، وتستأثر المقامة الأصفهانية بالحديث عن الزمن في بعده الديني والديني، وعلاقة الإنسان بهما، وهو موضوع حساس قديماً وحديثاً، ولن ينتهي الحديث فيه.

ينطلق هذا البحث من تساؤل جوهري فرضته هذه المقامة هو: هل الإنسان ضحية الزمن، أم الزمن ضحية الإنسان، أم إن كليهما ضحية الآخر؟ ولربما يكون الجواب السريع المتعاطف هو أن الإنسان هو الضحية، ولكن الجواب المتأني هو أن كلاهما ضحية الآخر، وبصورة جدلية لا تكاد تنتهي، ففي اللحظة التي يقطعنا فيها الزمن، نكون نحن نقطعه، ولكن قطعنا إياه يأخذ صوراً وأشكالاً مختلفة متعددة، مع ملاحظة أن حسن استثمار الوقت غير سوء استثماره، وكلتا الحالتين بالتأكيد قطع للوقت، والزمن يكشف فاعلية النص وفضاءه الربح، وهو من الفضاءات الرحبة لهذا النص وأغواره العميقة التي قد تركز عليه قراءة ما، وقد لا تركز عليه قراءة أخرى⁽¹⁾.

يتركز الاهتمام على أهمية الناقد في إنتاج النص الإبداعي الجديد، عن النص الأصيل، وذلك من خلال إعادة تحديد المفاهيم الكامنة في هذا النص، وتفعيلها عبر سلسلة من آليات التأويل

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2012.

* قسم العلوم الإنسانية / شعبة اللغة العربية، جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية، اربد، الأردن.

** كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الإمارات، العين، الإمارات العربية المتحدة.

الفاعلة، وبالتالي الوصول إلى مجموعات الدلالات الفنية المستترة خلف ما هو ظاهر في هذا النص، والتي قد لا تتحقق بكشف القارئ لها، بقدر ما تتحقق بإنتاجه لها، من هنا، فإن النص المنتج منفلت من الذات المنتجة التي لا تتحقق أبداً من شكله النهائي، لأن إدراكه يتطلب متلقياً آخر⁽²⁾.

لعل ما يريد بديع الزمان الهمداني طرحه في مقامته الأصفهانية هذه، هو ضرورة حسن استثمار الوقت الديني، وإجادة إدارته، والتنبه لعظيم قيمته، واستشعار دقائقه، خصوصاً لدى القائمين عليه، المتحكمين بشؤونهم، من أمثال بعض أئمة المساجد ووعاظها، الذين بأيديهم زمام الوقت الديني، فيتحكمون برقاب الآخرين، دون مراعاة لارتباطاتهم الدنيوية المختلفة، فيسيئون إلى الدين والدنيا من حيث يعلمون، أو لا يعلمون.

إن الفكرة الأساسية في هذه المقامة تنبعث من ضرورة التوفيق بين الدين والدنيا، بين العبادة والتجارة، بين المسجد والسوق، بين صلاة الفجر والقافلة المتجهة إلى بلاد الري، بين عيسى بن هشام وبين إمام مسجد أصفهان من جهة، وبينه وبين أبي الفتح الأسكندري المتنكر بثياب الواعظ الدعي الأفاك من جهة أخرى، وهذا جميعه لا يكون إلا بحسن إدارة الوقت، وإجادة استثماره.

وبديع الزمان الهمداني، إن يعالج هذه المسألة من مكانها الخاص بها، وينقل أحداثها من مسجد أصفهان، فانه على وعي بما للفعل من ميزة عندما ينقل من المكان المخصص له.

الإنسان ومفهوم الزمن العام:

إن كان السؤال عن الزمن واحداً، فإن الإجابات عنه مختلفة متغايرة، وهو أمر عائد إلى اختلاف أمزجة الناس المتسائلين وتجاربيهم.

فمثلاً لم يكن اهتمام الفلاسفة اليونانيين منصباً على زمن الحياة الدنيا الذي يعتريه التبدل والتغير، بل انصرفوا إلى الوجود اللازماني الثابت المستقر الخالد، أما في النصوص الأدبية وغيرها، فتوجد سلسلة زمنية قوية، تتضمن رؤية النص، وهو ما يتوجب على القارئ إدراكها لاستيعابها⁽³⁾.

لقد بقي مفهوم الزمن في الفلسفة اليونانية ينطبق على العالم الحسي وحده. وبقيت مسألة الزمن في ذيل قائمة الاهتمامات، لأن الزمن الغيبي في نظرهم أرقى من الزمن الحسي⁽⁴⁾، وهكذا استمرت هذه النظرة في القرون الوسطى، حتى جاء هيجل، وقال: إن وجود الكائن لا ينفصل عن تحقيق ذاته⁽⁵⁾.

أما مفهوم الزمن في الإسلام، فقائم على نظرة متوازنة تتكئ على مبدأ الاعتدال والوسطية الذي يحكم العقيدة الإسلامية، بحيث لا يطغى زمن الدنيا على زمن الآخرة، وعلى المسلم أن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً، وأن يعمل لآخرته كأنه يموت غداً.

يقدم بديع الزمان الهمداني في مقامته الأصفهانية هذه، معالجة حية نابضة، لمشكلة قديمة حديثة، تتمثل في تعامل بعض أئمة المساجد ووعاظها مع الوقت دون إيلاء اهتمام لارتباطات المصلين ومشاعلمهم التي تفرض عليهم أن يؤديوا فروض دينهم ودنياهم دون ان يطغى جانب على آخر، فكما أن للدين فروضه، فان للدنيا فروضها، وعلى أهل الدين أن لا يستغلوا قداسة الزمان والمكان في الضغط على الناس، وحصصهم وتعطيل مصالحهم.

إن مسألة الوقت في المقامة الأصفهانية، ليست معالجة نظرية تقوم على الوعظ المنبري، بل هي معالجة فريدة، تقوم على التفاعل والمعاشية الطبيعية الحارة، من هنا يمثل الزمن عنصراً مهماً فيها من حيث أنه الخط الذي تسير عليه الأحداث⁽⁶⁾، فالمقامة الأصفهانية مغموسة بالوقت غمساً، تفوح منها رائحة الزمن فوحاً، ولج فيها بطل بديع الزمان عيسى بن هشام الزمان والمكان، وراح يتقلب بأحاسيسه ومشاعره الحارة من مسجد أصفهان، نافخاً الروح في مفرداته وجمله عبر حوار داخلي لاهب؛ لتنتفض المقامة أمامنا صوراً حية ناطقة أو تكاد.

وقد جاء بناء المقامة اللغوي ترجمة حية لارتباط مفهوم الزمن باللغة، فاللغة استعملت في حين من الزمن ألفاظاً مثل، الدهر، والقرن، والحين، والحول، واليوم، والأسبوع، والساعة، والدقيقة. وهو فهم - كما هو واضح - تقريبي للزمن يعكس البعد العلمي والحضاري لذلك الأوان قياساً بمفهومه اليوم، الذي يهتم بأصغر وحداته، لأن لها قيمة بالغة، تؤثر على حياة الإنسان وأعماله⁽⁷⁾. حقاً، لقد صار الزمن اليوم كميّاً يقاس بالمتراً، وهي قابلة للوصف والحصص، والتحديد⁽⁸⁾: فالثواني، صار يقابلها انطباع يقاس بأوصاف مثل البساطة والتعقيد، والثواني صارت جمرات نارية تسري في الدم وتفتك بكرياته، ويبقى الزمن دائماً بالنسبة للإنسان مشحوناً بالمغزى، مرهوناً بالخبرة الشخصية، وليس كما يبدو لمراقب أو مؤرخ ينظر إليه من بعيد خارج منطقة التماس المباشر⁽⁹⁾. ويبقى طغيان الزمن، يمثل قمة الإحساس بالعجز عند الإنسان الذي يشتبك معه في أسوأ صراع يتطلب استمرار المقاومة والتصدي⁽¹⁰⁾.

إن الاهتمام بالزمن علامة حضارية، واحترام للذات، ومؤشر واضح على وعي الإنسان لحياته، وإدراكه تفاصيلها، والإنسان ذاته قادر على اعطاء الزمن قيمته؛ لأنه في إطاره الفيزيائي العام، يحوي كثيراً من العوامل التي تؤدي الى اختلاف الإحساس به على مستوى المجتمعات والأفراد، تبعاً لعوامل كثيرة، فقراءة النص بالنسبة للمتلقي، هي عملية زمنية تحدث في الذهن، والنص هو

ما يمثل هذه الحركة الحادثة داخل العقل⁽¹¹⁾، وبعض الناس اليوم، يتأكلون مع كل ضربة عقرب ساعة⁽¹²⁾، في حين لا يشعر آخرون بمثل هذا الشعور، وذلك لأن إدراك الوقت، مرتبط باستطاعة الفرد الذاتية على تقدير قيمة الزمن من خلال الإحساس الذاتي، أو الشعور المرافق للعمليات النفسية المرتبطة دائما بالوقت، دون الاستعانة بأدوات قياس الزمن⁽¹³⁾.

هاجس الزمن في المقامة:

يعيش بديع الزمان الهمداني موضوعه الذي يريد طرحه حالة نفسية حية متلبسا الزمان والمكان، فيعكس ذلك على ألفاظه، ومعانيه، مما يجعلنا نستشعر الجو الحقيقي للأحداث وكأننا نرى ونسمع، ولا عجب في ذلك، فالإنسان كما يقول "ميرهوف": حيوان موسوس بالزمن⁽¹⁴⁾.

لقد أيقظ بديع الزمان الهمداني عيسى بن هشام بطل مقامته التي تتحدث عن الزمن وقت الفجر، وهذا مؤشر صارخ على احترام الوقت من جهتين: فالنهوض من النوم مبكرا أمر محمود جدا من جهة، فكيف إذا كان مقرونا بعبادة وسفر في تجارة من جهة أخرى، ثم أن اختياره صلاة الفجر، وهي ثنائية الركعات، وليست رباعية، مؤشر آخر على أن بديع الزمان لا يريد التطويل في الحديث عن "التطويل" الذي ينهى عنه، وهذا تطبيق عملي فعله، وقد جاء ترجمة واقعية لما يريد بديع الزمان معالجته، كما انعكس هذا الأمر جليا واضحا على عبارات بطل بديع الزمان وجمله التي صاغ بها مقامته، فقد اكتفى في وصفه إطالة الإمام في الركعة الثانية بقوله: وقام إلى الركعة الثانية، فقرأ الفاتحة والقارعة قراءة استوفى بها عمر الساعة، واستنزف أرواح الجماعة⁽¹⁵⁾، وهو تعبير وجيز في ظاهره، لكنه طويل طويل في معناه وهذا من بلاغة المختص، كما يمكننا فهم ما أصاب عيسى بن هشام من إحباط وأأس وبعد ركعتين اثنتين فقط وفي صلاة الفجر- والنهار ما يزال في أوله وهو في بداية نشاطه- بأنها إشارة تدعونا إلى ملاحظة مقدار ما يصيب المصلين الذين يصلون وراء ذلك الإمام في الصلوات الرباعية الأخرى وقد تقدم بهم النهار، ونالهم من التعب ما نالهم.

ونستطيع ملاحظة ما فعله عيسى بن هشام حين اختار أن يصلي في الصف الأول عمدا وقصدا- وهو المستعجل- وكان بإمكانه أن يصلي في الصفوف الأخيرة، فيترك الصلاة وينسحب في اللحظة المناسبة له من دون حرج، لكنه لم يشأ ذلك، لأنه يريد أن يعالج مشكلة الإطالة في الصلاة كظاهرة عامة فاشية، وليست كظاهرة فردية عابرة، فهو يريد أن يحل مشكلة من هو في الصف الأول، ومن هو في الصف الأخير، ومن هو مستعجل، ومن هو متأن دون تمييز.

يظهر أن بديع الزمان أراد بجرأة المؤمنين المخلصين، نقد الإطالة في الوقت التي يرتكبها أئمة المساجد ووعاظها في زمنه، فدخل إلى المسجد مباشرة، مدركاً قيمة المكان من خلال ارتباطه

بالفعل البشري، وما يحملانه من انفعالات الكائن البشري ومشاعره، واعيا في الوقت ذاته عقيدته الدينية الإسلامية التي تعترف بأهمية الوقت وقيمه وتأثيره على النفس الإنسانية؛ فالإسلام شرع القصر والجمع في الصلاة في حالات خاصة؛ اعترافاً منه بتأثير الزمن على النفس، وهو أمر يدل على حكمة الإسلام البالغة في التعامل مع الوقت الذي لا يقاس دائماً بالدقائق والساعات، وإنما يرتبط بالروح، حتى تصير الدقيقة أحياناً دهرًا كاملاً، ويخف أحياناً أخرى، فتصبح الساعة دقيقة أو أقل، ذلك لأن الاقتراب من الزمن يختلف باختلاف الأمزجة والتجارب، ولهذا، نرى تعدد الإجابات على سؤال الزمن⁽¹⁶⁾.

ومن هنا يمكننا الحديث عن الزمن في المقامة الأصفهانية عبر زاويتين اثنتين كانتا في حالة تعارض، فأشعلتا نار الصراع في نفس عيسى بن هشام - الذي يؤدي دور البطولة في الجزء الأول من هذه وهما:

الأولى: زاوية دينية، نزل من خلالها على عيسى بن هشام وقد سمع المنادي من مسجد أصفهان لصلاة الفجر، وزمن الصلاة يصنف زمناً متعاقباً؛ أي يعقب بعضه بعضاً، ويكرر نفسه برتابة، بمعنى أنه يسير بشكل دائري لا طولي⁽¹⁷⁾، أي لا بد من تأديته من قبل اكتمال الدائرة، وإلا فاتنا.

الثانية: زاوية دنيوية، وفيها نرى عيسى بن هشام نفسه ينتظر على أحر من الجمر القافلة التجارية المتجهة إلى بلاد الري، فتظهر في لحظة إقامة الصلاة، وزمن القافلة يصنف زمناً منقطعاً بمعنى أنه مرتبط بالقافلة، فإذا ما فاتت القافلة، لم يعد للزمن أهمية خاصة⁽¹⁸⁾.

أشكال الصراع في المقامة الأصفهانية:

يتفاعل بديع الزمان الهمذاني بحرارة مع موضوعه الذي يعالجه، فينخرط فيه تماماً، ويظهر ذلك بوضوح على عناصر بنائه الفني المختلفة، دون أن يكون ذلك مقصوداً على المضمون الداخلي، من هنا يتجلى إبداع المتلقي في إنتاج نص إبداعي يولد من رحم النص الأم، ومن هنا يأتي دور النقد، من حيث إنه إبداع واحتراف يتحالف مع العقيدة الثقافية، تتسامى فيه القدرة على إنتاج نصوص إبداعية جديدة⁽¹⁹⁾.

يظهر أن الروح الصراعية التي غشيت المقامة الأصفهانية باادية على بنائها العام وشكلها الخارجي وهو ما يعكس واقعا اجتماعيا معيشاً⁽²⁰⁾، فهي مؤلفة فعلياً من قسمين اثنين، يمكن أن نسمي الأول "مقامة"، وهو ما جاء على لسان الراوي عيسى بن هشام، بينما يمكن تسمية الجزء الثاني "منامة"، وهو ما جاء على لسان "الواعظ" أبي الفتح الاسكندري، مع ملاحظة أن الانقسام

في الغالب يحوي بذوراً صراعية. وهو ما حصل- على ما يبدو - بين شخصيتي المقامة على الأدوار، فالراوي التقليدي عيسى بن هشام صار بطلاً في الجزء الأول، وتحول البطل التقليدي للمقامات الهمدانية أبو الفتح الاسكندري الى بطل المنامة فتأخر دوره إلى القسم الثاني، وهو ما سنعمل على بيانه تالياً:

أولاً: صراع الشكل:

تتألف المقامة الأصفهانية في إطارها العام من قسمين رئيسيين:

الأول: ويمثل مجريات أحداث ركعتي صلاة الفجر التي أداها عيسى بن هشام جماعة مقتدياً بإمام مسجد أصفهان.

الثاني: ويشمل تفاصيل منام الواعظ أبي الفتح الإسكندري الذي ظهر بعد انتهاء الإمام من الصلاة.

يصلح كل قسم من قسمي المقامة أن يكون كياناً منفرداً قائماً بذاته، فالقارئ لا يكاد يشعر بأثار "عملية التوصيل واللحام" الموجودة بين القسمين، وذلك لوجود توافق في الخلايا والأنسجة بين القسمين ناتجة عن براعة المؤلف الذي يشعر بضرورة حل المشكلة المشتركة في جلسة واحدة.

إن هذا الاتحاد "الإجباري" الذي فرضه المؤلف على مقامته، يظل يشير إلى بذور صراع غالباً في أرحام الاتحادات التي تعيش في الغالب حالة شد توقا إلى الاستقلال والحرية، رغم ما يبدو عليها من ظاهر مطمئن.

ثانياً: صراع الشخصيات على الأدوار:

وقع في هذه المقامة صراع على البطولة، حيث أدى دور البطولة في الجزء الأول الراوي التقليدي للمقامات عيسى بن هشام، في حين قام أبو الفتح الاسكندري - البطل التقليدي للمقامات - بتأدية دور البطولة في الجزء الثاني، وهو أمر جاء منسجماً مع جو المقامة الصراعي سواء أكان هذا الأمر مقصوداً أو عفويًا.

ثالثاً: الصراع بين شخصيات المقامة على الزمن:

1- بين عيسى بن هشام والمؤذن:

بدأ الصراع في نفس عيسى بن هشام -الذي ينتظر القافلة التجارية المتوجهة إلى بلاد الري- مبكراً، ومن اللحظة التي سمع فيها صوت المؤذن ينطلق من مسجد أصفهان، يدعو إلى

صلاة الفجر، وقبل أن يتفاعل الصراع كثيراً في داخله، حسم أمره. فقرر كسب الصلاة -رمز الدين-، ريثما تأتي القافلة -رمز الدنيا-، فيجمع بينهما، دون تفريط بواحد منهما على حساب الآخر، يقول: كنت بأصفهان، اعتزم المسير إلى الري، فحللتها حلول الفي، أتوقع القافلة كل لمحة، وأترقب الراحلة كل صبحه، فلما حم ما توقعته، نودي للصلاة نداء سمعته، وتعين فرض الإجابة، فانسلت من بين الصحابة، أغتنم الجماعة أدركها، وأخشى فوت القافلة أتركها، لكنني استعنت ببركات الصلاة على وعشاء الفلاة، فصرت إلى أول الصفوف، ومثلت للوقوف، وتقدم الإمام للمحراب...⁽²¹⁾.

يتضح من النص، أن انتظار عيسى بن هشام القافلة، هو اهتمامه الأول، فهو يتوقعها كل لمحة، ويترقبها كل صبحه، وأن الصلاة هي التي طرأت، فهو قلق قبل أن تزيد صلاة الجماعة قلقاً على قلق، يقول: فلما حم ما توقعته، نودي للصلاة نداء سمعته، وتعين فرض الإجابة، فانسلت من بين الصحابة، أغتنم الجماعة أدركها، وأخشى فوت القافلة أتركها⁽²²⁾، "فابن هشام يتصرف بحس المؤمن متأملاً أن تعينه الصلاة وبركاتها على التوفيق بين زمن العبادة والتجارة، يقول: " لكنني استعنت ببركات الصلاة على وعشاء الفلاة، فصرت إلى أول الصفوف، ومثلت للوقوف، وتقدم الإمام للمحراب...⁽²³⁾. وهنا، نلاحظ وعي بديع الزمان تسلسل العناصر المشكلة للنص من حيث العلاقة الخاصة بين الأجزاء، أو العناصر بعضها ببعض، بقصد الكشف عن وحدة العمل الكلية، على نحو يبرز علاقة بعضها ببعض، سواء أكانت تلك العلاقة ظاهرة أم خفية⁽²⁴⁾.

2- بين عيسى بن هشام والإمام "قراءة القرآن والزمن":

أ - قراءة الإمام القرآن في الركعة الأولى:

تفاجأ عيسى بن هشام عند دخوله المسجد ووقوفه وراء الإمام بالأناة المفرطة عنده في القراءة والحركة، وهو ما لا يتناسب معه، وهو المستعجل الذي يريد أن يؤدي واجبه الديني ويلتحق بالقافلة ن دون أن يخسر أحدهما، يقول: "وتقدم الإمام إلى المحراب، فقرأ الفاتحة، فاتحة الكتاب بقراءة حمزة مدة وهمزة، وبني الغم المقيم المقعد في فوت القافلة، والبعد عن الراحلة، واتبع الفاتحة الواقعة، وأنا أتصلى نار الصبر وأتصلب، وأتقل على جمر الغيظ وأقلب، وليس لي إلا السكوت والصبر، أو الكلام والقبر، لما عرفت من خشونة القوم في ذلك المقام، أن لو قطعت الصلاة دون السلام، فوقفتم بقدوم الضرورة، على تلك الصورة، إلى انتهاء السورة، وقد قنطت من القافلة، وأيست من الرحل والراحلة⁽²⁵⁾.

نما الصراع في نفس عيسى بن هشام وتفاقم من الركعة الأولى، وأوصله إلى القنوط واليأس من اللحاق بالقافلة، والسبب هو قراءة الإمام الجائرة للقرآن، حيث يمد ما ليس يمد، استهلاكاً

للوقت وهذرا، فهو يقرأ الفاتحة بقراءة حمزة، مدة وهمزة- مع أن الفاتحة ليس فيها همز، ولا مد يظهر رواية حمزة كما يقول المحقق في الهامش - (26)، كما أن الإمام عمد بعد قراءته الفاتحة إلى قراءة سورة الواقعة، وهي من السور الطويلة، التي تدل على أهوال يوم القيامة، والحق أن ابن هشام كان سيسمعه يقرأ الواقعة، ولو كان يقرأ سورة الإخلاص، لأنه- في واقعة حقيقية- فهو مشغول بالتوفيق بين زمنين مختلفين يعاندانه حاليا أشد العناد. والزمن كما هو معروف مرتبط إدراكه بالحالة النفسية للإنسان⁽²⁷⁾، لهذا ذهب الزمخشري في تفسير قوله تعالى: " تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين الف سنة " (28)، إلى أن استطالة اليوم سببها المعاناة والشدة على الكفار، أما على المؤمنين، فإن اليوم يكون كما بين الظهر والعصر⁽²⁹⁾.

يقول برغسون: إن الزمن يكون له طعم، أو يشعر به، في حالات ثلاث: تجرع نشوة لحظة نجاح، أو معاناة لحظة فشل، أو إدراك زاهل لنموذج فني رائع⁽³⁰⁾، وهنا كما هو واضح، تجرع عيسى بن هشام معاناة لحظة فشل مرير، فخرج من الركعة الأولى محطم الأعصاب، يائساً خاسراً، فلم يستطع التوفيق بين الصلاة والسفر مع القافلة، فظل في المسجد: " يتصلى نار الصبر ويتصلب، ويتقل على جمر الغيظ ويتقلب، وليس له إلا السكوت والصبر، أو الكلام والقبر؛ لما عرف من خشونة القوم في ذلك المقام، أن لو قطعت الصلاة دون السلام، فوقف بقدم الضرورة، على تلك الصورة، إلى انتهاء السورة وقد قنط من القافلة وأيس من الرحل والراحلة " (31).

ب- قراءة الإمام القرآن في الركعة الثانية:

قنط عيسى بن هشام من اللحاق بالقافلة المتجهة إلى الري من الركعة الأولى، إلا أنه بقي لديه ما يقوله مشنعاً على الإمام إبطائه في الصلاة، وعدم مراعاته ظروف الناس، فقد وصف تطويله في قراءة القرآن في الركعة الثانية بقوله: " وقام إلى الركعة الثانية، فقرأ الفاتحة والقارعة قراءة استوفى بها عمر الساعة، واستنزف أرواح الجماعة⁽³²⁾، فقد بلغ به الشعور بثقل الوقت ووطأته جراً ما يفعله الإمام به وبالمصلين أن رأى أن القيامة قد أن أوانها، وحان زمانها؛ لفرط معاناته، ولهذا؛ خيل له أن الإمام قرأ سورة القارعة، بما توحيه من أهوال شدائد، وهذا يناسب الشعور النفسي الذي يمزقه ويفتك بأعصابه.

تقول فيرجينا وولف: " إن عقل الإنسان يعمل بغرابة في جسد الزمن، فالساعة يمكن مطها خمسين أو مئة مرة من طولها الدقائق، ويمكن التمثيل على الساعة بثانية واحدة لقصرتها، والسبب في هذا الشعور - كما يقول - بروس: هي الانفعالات التي تجتاحنا، فهي التي تمدده وتبسطة، وفي ذات الوقت، هي التي تقبضه⁽³³⁾.

- بين عيسى بن هشام والإمام (حركة الإمام والزمن).

أ- حركة الإمام في الركعة الأولى:

يعالج بديع الزمان الهمذاني مسألة الإطالة في الصلاة، وهي مسألة متكاملة، لا بد له أن يتناول عناصرها كاملة، فقد سقط عيسى بن هشام قبل نهاية الركعة الأولى يائساً قانطاً من القدرة على التوفيق بين الصلاة والسفر جراء إطالة إمام المسجد قراءته القرآن، إلا أنه بقي مواصلاً حديثه عن تفاصيل الإطالة التي يجترحها الأئمة، والتي لا تقتصر على الإطالة في زمن قراءتهم الجهرية للقرآن، بل تتعدى إلى حركاتهم البطيئة أثناء الركوع والسجود التي استوفى بها عمر الساعة، واستنزف أرواح الجماعة بلغة المقامة نفسها، وهي لغة استثمرها الكاتب بفتية عالية للوصول إلى ما يريد، وقد تجلى أثر الزمن في هذا المقام أكثر مما قد يفصح عنه السرد ذاته، من حيث تمظهره من خلال التصاقه بعمق الشعور المتولد لدى بعض الشخصيات، وإحساسها بوطأته وثقله عليها⁽³⁴⁾.

لننظر إلى وصف عيسى بن هشام حركة ظهر الإمام البطيئة وهو في حالة السجود حين قال: "ثم حتى قوسه (أي ظهره) للركوع - بكل ما لانحناء القوس من إحياءات نفسية هنا لا يراها بوضوح إلا المسافر المستعجل الذي يرى الخط المستقيم هو أقرب الطرق - بنوع من الخشوع وضرب من الخضوع لم أعده من قبل، ثم رفع رأسه ويده، وقال سمع الله لمن حمده وقام حتى ما شككت انه قد نام ضرب بيمينه وأكب لجبينه، ثم انكب لوجهه، ورفعت رأسي انتهز فرصة، فلم أر بين الصفوف فرجة، فعدت إلى السجود، حتى كبر للقعود وقام إلى الركعة الثانية"⁽³⁵⁾.

كم تبدو صورة عيسى بن هشام مضحكة مبكية، ونفسه موزعة بين هدفين يمكن تحقيقهما معاً، لو كان إمام المسجد، على وعي بحاجات المصلين، واهتماماتهم، ومشاعلم، التي من المفروض أن يراعيها الأئمة في كل زمان ومكان، لكن إمام المسجد كان في واد، وعيسى بن هشام في واد آخر، لقد كان الوقت يمر على عيسى بن هشام ثقيلًا لرجاً، ولهذا بدا متن الإمام لعيسى بن هشام عند ركوعه قوساً منحنيًا، قد استغرق وقتاً طويلاً لاكتساب مثل هذه الصفة، وقد زاد هذا الوقت ثقلاً على نفسه الخشوع المصطنع، والخضوع المبتذل الذي يبديه الإمام، وكما هو موح معنى التراخي الذي يضيفه حرف العطف "ثم" حتى أشعرنا عيسى بن هشام بانعدام الحركة عند الإمام، في لحظة نهوضه من الركوع، وذلك من خلال تتابع أعضائه بصورة بطيئة مملّة، حيث وصفه قائلاً: "ثم رفع رأسه ويده، وقال: سمع الله لمن حمده، وقام حتى ما شككت انه قد نام⁽³⁶⁾، والنوم كما هو معلوم موت مؤقت، والموت سكون، والسكون عدو الحركة وضدها، يقول ابن سينا: إنا لا نشعر بالزمان إلا إذا شعرنا بحركة، فالمرضى والمكتئب يريان الزمان طويلاً، بينما

المغتبط يراه قصيراً، والسبب هو الحركة عند الثاني، وانعدامها عند الأولين، وأهل الكهف من قبل فقدوا الشعور بالزمن لفقدانهم الحركة⁽³⁷⁾.

ب- حركة الإمام في الركعة الثانية:

يسير بديع الزمان الهمداني في حديثه عن الزمن وضرورة احترامه ضمن فلسفة محكمة لا ينطبق عليه مضمون: "يقولون ما لا يفعلون"، بل هو يقول ويفعل، ويريد من الآخرين أن يفعلوا ولا يكتفوا بالقول، ففي الركعة الأولى فصل نسبياً في وصف قراءة الإمام القرآن، وكذلك فعل في وصف حركة ركوعه وسجوده، أما في الركعة الثانية، فقد أشار إلى القراءة إشارة سريعة تتناسب مع فلسفة المقامة وفكرتها، واكتفى بالإيماء إلى الحركة، وهذا تطبيق عملي لما يدعو إليه، يؤشر على وعي وإيمان قل نظيره، ففي وصفه جلوس الإمام للتشهد، وقراءة الصلاة الإبراهيمية للتسليم والخروج من الصلاة قال: "فلما فرغ الإمام من ركعته، وأقبل على التشهد بلحييه، ومال إلى التحية بأذعيه، وقلت: سهل الله المخرج وقرب الفرج، قام رجل وقال:...⁽³⁸⁾: فهذا وصف دقيق، يرقب فيه حركة اللحيين عند الإمام بكل ما يتضمنه المعنى من حرارة الصراع الداخلي المخنوق والذي يتوق لقرب الخلاص من هذه الورطة، فهو يدقق في أدق حركات فكي الإمام اللذين يتحركان بقراءة المتطلبات الأخيرة لإنهاء الصلاة، وهنا نحس المفارقة القائمة بين ما يجب على المصلي أن يكون منصرفاً إليه من خشوع في الصلاة، وبين حالة عيسى بن هشام، الذي يتابع الإمام بمادية غليظة، تستنكرها روحانية الصلاة وخشوعها، فما أن سمع تسليم الإمام معلنا الخروج من الصلاة، حتى تنفس الصعداء، لكن المفاجأة غير السارة كانت له بالمرصاد، إذ قام واعظ من بين المصلين، وأطبق على أنفاس المصلين من جديد، وبهذا، استطاع بديع الزمان بمهارة فنية ملفتة، أن يحسن التخلص من حالة الإمام، ليدخل بسلاسة وسهولة إلى حالة الواعظ، ولا يلحظ هذا إلا المتلقي المتفاعل اليقظ المنتبه إلى ما يستتر خلف النص، وهي عملية مهمة وضرورية، إذ تؤدي إلى قراءة أكثر إنتاجاً وعمقا للنص⁽³⁹⁾.

- بين عيسى بن هشام والواعظ:

اشتعلت نار الصراع من جديد في نفس عيسى بن هشام، بعدما كادت تنطفئ بعد أن ظهر هذا الواعظ الأفاك، وكان ظهوره لا بد منه عملياً وفنياً؛ لأن بديع الزمان يعالج مسألة هدر الوقت الديني في المساجد، من القائمين عليها المستغلين قداسة المكان والزمان، وهو أمر لا يتعلق بالأئمة فقط، بل يشترك به بعض الواعظ، والمتظاهرون بالوعظ، وهم الأشد خطراً، إذ يجترحون معصيتين مزدوجتين، عندما يسرقون وقت المصلين من جهة، ويسرقون جيوبهم بالكذب والافتراء من جهة أخرى، وهذه مشكلة متصلة فصولها، يحكمها المكان الواحد، فلا بد من بحثها متصلة في

مكانها، فبعد أن أفلت المصلون من قبضة الإمام، وقعوا في قبضة الواعظ الدعي، الذي يادر المصلين فور تسليم الإمام قائلًا: "من كان منكم يحب الصحابة والجماعة، فليعربي سمعه ساعة، فقال عيسى بن هشام: فلزمت أرضي صيانة لعرضي، فقال الواعظ: حقيق علي أن لا أقول غير الحق، ولا أشهد إلا بالصدق، فقد جئتم ببيشارة من نبيكم، لكني لا أؤديها حتى يظهر الله هذا المسجد من كل نذل يجحد نبوءته، قال عيسى بن هشام: فربطني بالقيود وشدني بالحبال السود، ثم قال: رأيته صلى الله عليه وسلم في المنام، كالشمس تحت الغمام، والبدر ليل التمام، يسير والنجوم تتبعه، ويسحب الذيل، والملائكة ترفعه، ثم علمني دعاء أوصاني أن اعلم ذلك أمته، فكتبتة على الأوراق بخلوق ومسك وزعفران وسك، فمن استوهبه مني وهبته، ومن رد ثمن القرطاس علي أخذته، قال عيسى بن هشام: فلقد انثالت عليه الدراهم حتى حيرته، وخرج، فتبعته متعجباً من حذقه برزقه، وتمحل رزقه، وهممت بمسألته عن حاله، فأمسكت، وبمكالمته، فسكت، وتأملت فصاحته في وقاحته، وملاحته في استماحته، وربطه الناس بحيلته، وأخذ المال بوسيلته، ونظرت فإذا هو أبو الفتح الإسكندري، فقلت: كيف اهتديت إلى هذه الحيلة، فتبسم، وأنشأ يقول:

الناس حمر فجوز وبرز عليهم وبرز

حتى إذا نلت منهم ما تشتهي به ففروز⁽⁴⁰⁾

هذا هو مجمل أحداث الجزء الثاني من المقامة الأصفهانية، والتي تشمل تفاصيل "منام" رآه الواعظ "أبو الفتح الإسكندري"، وادعى من خلاله انه شاهد الرسول صلى الله عليه وسلم في المنام، فأوصاه وصية طلب منه تبليغها إلى المسلمين".

فإذا كان إمام المسجد قبل قليل قد تحكم بالمصلين تعسفاً، ولوى أعناقهم بقراءته سور القرآن الطويلة بطريقته القاتلة تنطعا بالإضافة إلى حركاته المتماوتة المفتعلة أثناء الركوع والسجود فإن الواعظ الدعي الحانق الداهية عمد إلى مصادرة وقت المصلين وحشرهم مجبرين للبقاء في المسجد، والاستماع إليه عنوة وإجباراً، وذلك باستخدامه وسائل وأساليب ليس فيها رائحة الدين ولا تمت إلى الأخلاق أو الفضيلة بصلة من مثل:

- الإحراج بالمشاعر الدينية:

وجه الواعظ حديثه للمصلين قائلًا: من كان منكم يحب الصحابة والجماعة فليعربي سمعه ساعة، فجلس بن هشام مضطراً، لأنه لو خرج، فسيكون ممن لا يحبون الصحابة، وبذلك يستحق اللعن، بل ربما الإساءة والضرب، خاصة أن القوم الذين يحيطون به من المصلين خشنو الطباع- كما وصفهم في أول المقامة- ولهذا جلس ليس حباً واختياراً، بل جبراً واضطراراً، وحفظاً لنفسه وحماية لعرضه. كما قال: "فلزمت أرضي، صيانة لعرضي"⁽⁴¹⁾.

- الاتهام بالعبارات البذيئة:

عندما أعلن الواعظ للناس أنه يحمل لهم بشارة من الرسول صلى الله عليه وسلم، وحتى يمكن لنفسه جواً مسيطراً، وليحكم حيلته، قال بخبث: "قد جئتكم ببشارة من نبيكم، لكني لا أؤديها حتى يظهر الله هذا المسجد من كل نذل يجحد نبوءته"⁽⁴²⁾.

إذن، فالنبي نبيكم، ومن لا يريد الاستماع لنبيه فهو جاحد منكر للنبوة، لذلك جلس ابن هشام يستمع مربوطاً بالقيود، ومشدوداً بالحبال السود كما قال.

- استخدام تقنية الحلم:

تستخدم الأحلام وسيلة ناجعة للإفلات من الزمن والهروب من عالم المساءلة والمسؤولية، كما أن تأثيرها الطاغي على الناس لا خلاف عليه خصوصاً البسطاء منهم، لأنها من عالم الغيب، والنفس البشرية مولعة بمعرفة المجهول، فهي تستسلم باستمتاع لحديث الغيبات والغرائب وتميل إلى تصديقه، وقد استغل أبو الفتح الإسكندري حساسية الحلم وتأثيرها على النفوس خصوصاً نفوس البسطاء والعامّة، وقد تجلى الكاتب في اختيار زمن الليل، فالليل قد يجلب لكل متفكر وحيد التعويض الواضح عن خلفية معينة⁽⁴³⁾، وزادت براعته في استخدامه عندما جعل موضوع الحلم دينياً يتعلق برؤية الرسول صلى الله عليه وسلم، وتفنن في الإغراب في رسم الصورة التي رأى عليها الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا أمر يدفع للإثارة والمتابعة أكثر وأكثر، فقد رآه كالشمس تحت الغيم، وكالبدر في ليلة الظلمة، النجوم تسير وراءه عندما يمشي، والملائكة تتبعه ترفع ثوبه الطاهر، فعلى هذه الصورة رآه. وعلى هذه الهيئة حاكاه، وعلمه الرسول دعاء أوصاه أن يعلمه للمسلمين- وهذه لفظة مهمة- تشير إلى مكانة الواعظ- صاحب الحلم -عند الرسول صلى الله عليه وسلم حيث جعله مؤتمناً على وصيته للمسلمين، وهذا سيسوغ قبول المصلين مثل هذه التفصيلات، والنظر إلى الواعظ باحترام وإجلال وقداسة، وبالتالي الانقياد والطاعة لكل ما يطلبه بعد قليل، ولأن الحلم لا قيود عليه لأنه خارج نطاق الموضوعية والمراقبة والمعقولة، ومثله النوم والتخيلات والهلوسات⁽⁴⁴⁾، فقد حلق خيال الواعظ تحليفاً عالياً، وتفنن في رسم صور مشاهداته للرسول.

لقد نجح الواعظ نجاحات عدة؛ فقد نجح عندما ضبط الناس ومنع خروجهم من المسجد، ونجح عندما سيطر على مشاعرهم بمنامه الغريب، ونجح عندما أعلن أن الرسول صلى الله عليه وسلم خصه بوصيته، ونجح عندما فتح جيوب الناس لتنتال عليه الدراهم بكثرة محيرة.

ولعل ابن هشام هنا نسي الوقت وصعوبة الانتظار، فقد أزهلته الطريقة في تحصيل الرزق، فخرج وراء هذا الواعظ - أبي الفتح الإسكندري - وقد جمع من المال ما جمع لا ليعاتبه على هدره

وقت الناس الآن، بل ليسأله، كيف اهتدى الى هذه الحيلة البارعة، وهو سؤال معجب لا عاتب مستغرب،..... وكأنه ارتاح لفعله الذي جعل من العبادة تجارة مربحة، في حين فشل هو في جعل العبادة عبادة، والتجارة تجارة، أو على الأقل في التوفيق بينهما؟؟. ويبقى الزمن مسئولاً عن التغيير والتبدل في شخصية الفرد، وسلوكه، وعواطفه، فالانقلاب الذي أصاب شخصية عيسى بن هشام أخيراً من أقصى السالب إلى أقصى الموجب تجاه الزمن، كان في الواقع هو الزمن نفسه؟.

الخاتمة:

تتولى المقامات الهمدانية معالجة قضايا متعددة، وتعرض لمسائل شتى، وتنتقل من بلاد إلى بلاد، وتحضر في مجالس العلم والأدب، وتدخل الدور والبيوت، وتلج البيمارستانات، والخمارات، والمساجد، وتناقش، وتصف، وتوجه، وتعلن، وتخفي، وتوحي، وترمز، وتؤشر، متسلحة بلغة مشحونة بطاقة مميزة، لا يدركها إلا من هو قريب منها.

وقف هذا البحث، مع المقامة الأصفهانية التي عرضت لموضوع مهم يتعلق بالعلاقة القائمة بين الزمن الديني (الصلاة)، والزمن الدنيوي (التجارة)، وهي علاقة ليس من السهل التوفيق بينهما.

حاول بديع الزمان أن يوفق بين الزمنين في هذه المقامة، لكنه لم يستطع، فقد فشل عيسى بن هشام الذي أدى دور البطولة فيها - وهو الراوي في العادة - فشل في التوفيق بين تأديته صلاة الفجر جماعة مقتدياً بإمام مسجد أصفهان، ومرافقته القافلة التجارية المتجهة إلى بلاد الري. لم يكن السبب في فشل عيسى بن هشام عائداً إلى استحالة الجمع بينهما كعملين متضادين، بل كان السبب الرئيس، هو تصرفات الإمام البيئية، التي لا تراعي أحوال من خلفه من المصلين، بالإضافة إلى الوعاظ الذين يصادرون وقت الناس دون مراعاة إلا لمصالحهم المادية الضيقة جداً وقد أدى دور الواعظ هنا أبو الفتح الإسكندري -وهو البطل التقليدي للمقامات-. تنبع أهمية هذه المقامة، من كونها تدعو إلى احترام الوقت، وحسن استثماره، وإمكانية التوفيق بين زمني الدين والدنيا.

Time in Asfahani Maqama

Mohammad Ali Ibnian and Suhail m. Khasawneh, *Department of Human Sciences / Division of Arabic, Jordan University of Science and Technology, Irbid, Jordan.*

Ali Ben Tameem, *Faculty of Humanities and Social Sciences, UAE University, Al Ain, United Arab Emirates*

Abstract

Badi az- zaman al-hamadani tried in this maqama to harmonize between the present life and religious duty but he couldn't because of those who are administering mosque affairs such as iman and preacher. the maquma falls into two parts in its genral strcture. the first part deals with lengthly prayers and narrator issa ibin hisham played the leading role in it. He was depicted as a frustrated person who suffers from a sever confflect due to the incapability to conform between the time of worship and time of business.

In the second part ,almanamah, the leadin role was performed by the renowned hero of almaqamah abu alfatih aliskandari who sheds the blood of time on the altar of lies,deception and fraud through adream in which he saw prophet mohammed (peace be upon him). so, he almost made people forget thire suffering arts of making his living.

وقبل في 2009/5/4

قدم البحث للنشر في 2008/8/10

الهوامش:

- * الزمن والوقت: اسم لقليل الوقت وكثيرة، والزمن والزمان هو العصر، والوقت مقدار معروف من الدهر وغالب استعماله في الماضي. ينظر: لسان العرب، باب النون، فصل الزين.
- 1- ينظر: قاسم المومني، في قراءة النص، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، دار الفارس للنشر والتوزيع، 1999م، ص36.
 - 2- ينظر: هانس روبيرت يابوس، الإنتاج والتلقي "أسطورة الأخوين العدوين"، ترجمة: رشيد بنحدو، مجلة نوافذ، الإصدار الخامس عشر، 2001م، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ص51.
 - 3- ينظر: وولفكانك أيزر، سيرورة القراءة "مقاربات ظاهراتية"، ترجمة: فاطمة الذهبي، مجلة نوافذ، الإصدار الخامس عشر، 2001م، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ص143.

- 4- الزمن في الأدب، هانز ميرهوف، ترجمة: أسعد رزق، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1972، ص: 77-78. وينظر: مجلة الباحث، عدد7، تموز، 1977، ص 103 - 104.
- 5- مجلة الباحث، عدد7، ص103-104.
- 6- حسني محمود، المكان في رواية زينب... الواقع والدلالات، علامات في النقد، الجزء الثامن والعشرون، المجلد السابع، 1998، جدة، النادي الأدبي الثقافي، ص204.
- 7- في نظرية الرواية، عبد الملك مرتاض، عالم المعرفة، عدد240، الكويت، ص208.
- 8- مجلة الباحث، عدد7 ص90، وينظر: مجلة الفكر العرب المعاصر، عدد 20/21، 1982، ص22، ص: 69.
- 9- الزمن في الأدب، هانز ميرهوف، ص100.
- 10- المرجع نفسه، ص100.
- 11- السيد إبراهيم، قضايا النقد الأدبي في كتابات عبدالله الغدامي، علامات في النقد، الجزء الثامن والعشرون، المجلد السابع، 1998، جدة، النادي الأدبي الثقافي، ص75.
- 12- مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 20/21/22، 1982، ص73.
- 13- مجلة الباحث، عدد37، 1985، ص115.
- 14- الزمن في الأدب، هانز ميرهوف، ص 75.
- 15- مقامات بديع الزمان الهمداني، شرح: محمد عبده، دار المشرق، بيروت، ط8، انظر المقامة الاصفهانية ص53.
- 16- مجلة الفكر العربي المعاصر، ص 73.
- 17- في نظرية الرواية، عبد الملك مرتاض، ص 203-206.
- 18- المرجع نفسه، ص 203-206.
- 19- إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، ترجمة: عبد الكريم محفوظ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000م، ص30.
- 20- ينظر: الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية " محمد نجيب أبو طالب "، دار المعارف، ص:90. وينظر: أحداث التاريخ الإسلامي، عبد السلام الترماني، تونس للطباعة، دمشق، 1991، المجلد الأول، ج2، ص: 19-23. فهي كلها تؤكد جو المقامة العام.
- 21- ينظر: المقامة ص51.
- 22- ينظر المقامة ص 51-52.

- 23- مقامات بديع الزمان الهمداني، شرح: محمد عبده، دار المشرق، بيروت، ط8، ص:51.
- 24- نبيلة إبراهيم، البنائية: من أين وإلى أين؟ مجلة فصول، مج1، ع2، 1981، ص 169.
- 25- المصدر نفسه، ص 51.
- 26- المصدر نفسه، ص 52. ينظر: هامش المقامة.
- 27- بناء الرواية، سيزا قاسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984، ص 76.
- 28- ينظر: المقامة ص52.
- 29- سورة المعارج، آية:4.
- 30- تفسير الكشاف، الزمخشري، تحقيق: محمد موسى عامر، ج5، ص155.
- 31- مجلة الفكر العربي المعاصر، ص69.
- 32- ينظر: المقامة ص52.
- 33- مقامات بديع الزمان الهمداني، ص53.
- 34- الزمن في الأدب، هانز ميرهوف، ص 20.
- 35- ينظر: محمد أحمد المسعودي، الزمن والكينونة "الفانتاز المشهدية الغرائبية في زمن عبد الحليم"، مجلة كتابات معاصرة، المجلد الثامن، العدد (29)، بيروت، 1996/1997م، ص110.
- 36- ينظر: المقامة ص53.
- 37- ينظر: المقامة ص53.
- 38- ينظر: المقامة ص52، 53.
- 39- مجلة الكلمة، العدد7، السنة الثانية، بيروت، 1995، ص 89-90، نقلاً عن كتاب الزمان في الفكر الإسلامي، إبراهيم العاني، دار المنتخب العربي، بيروت، 1993، ص26.
- 40- مقامات بديع الزمان الهمداني، ص53.
- 41- See: Iser, Wolfgang, The Act of reading, A theory of Aesthetic Respanse, P: (20).
- 42- ينظر: المقامة، ص 53- 54.
- 43- قلق التأثر، نظرية في الشعر، هارولد بلوم، ترجمة: عابد إسماعيل، دار الكنوز، بيروت، 1998، ص87.
- 44- الزمن في الأدب، هانز ميرهوف، ص 31، 32.

النهضة العربية: دراسة في القومية العربية من خلال جريدة القبلة

(1334-1343هـ) (1916-1924م)

أحمد جوارنة وجبر محمد الخطيب*

ملخص

لعبت جريدة القبلة التي كانت قد صدرت في الحجاز باسم النهضة العربية بأمر من الشريف الحسين بن علي، دورا بارزا ومميزا في نشر الوعي الديني والقومي في الوسط العربي في مطلع القرن العشرين، وعليه فإن هذه الدراسة تسعى للإجابة على التساؤلات التالية:

- 1- كيف وظفت الجريدة الربط بين العروبة والإسلام في سبيل نشر الوعي القومي والديني العربي؟
- 2- ما هي الدوافع التي دفعت بالجريدة لربط العرب بتاريخهم القديم وصولا الى الثورة العربية الكبرى؟
- 3- لماذا اتجهت جريدة القبلة نحو إبراز أمجاد العرب مع تأكيدها على أن العروبة لا تتنافى مع روح الإسلام؟

تقديم

بدا الوعي السياسي عند العرب مع بداية نهضتهم الفكرية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وبرز الفكر القومي العربي بشكل واضح على سطح العلاقات العربية العثمانية في المشرق العربي الخاضع للحكم العثماني، وتطور نتيجة لنمو النشاط السياسي والفكري، وأحدث الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني عام 1909م تغيراً في تفكير العرب السياسي وبخاصة المتنورين منهم، وكانت الظروف مهيأة لذلك بسبب ضعف الدولة العثمانية، والهجمة الاستعمارية على الوطن العربي، وممارسة الاتحاديين سياسة التتريك، وهذه الأسباب حملت المتنورين العرب على تأسيس الجمعيات العلنية ثم السرية، وعقد المؤتمرات داخل الدولة وخارجها.

وبعد دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية في 5 تشرين الثاني 1914م إلى جانب ألمانيا والنمسا ضد دول الحلفاء: بريطانيا، وفرنسا، وروسيا بدأ العرب وبخاصة المتنورين منهم

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2012.

* قسم التاريخ، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

بالتفكير في الانفصال عن الدولة العثمانية، وتشكيل دولة عربية موحدة، والبحث عن زعيم عربي لقيادة الثورة على ضوء ذلك تم الاتصال بالشريف الحسين بن علي الذي تزعم الحركة العربية.

بعد حصول الشريف الحسين على الضمانات من بريطانيا بدعم استقلال العرب، أطلق الرصاصة الأولى في 9 شعبان 1334هـ/10 حزيران 1916م، وأسس جريدة القبلة لتكون ناطقة باسم النهضة العربية، وميداناً لأحرار العرب وأعضاء الجمعيات لطرح أفكارهم القومية والوحدوية.

التعريف بالمصدر:

القبلة: جريده حجازية رسمية ناطقة باسم النهضة العربية، أصدرها الشريف حسين بن علي بعد قيام النهضة العربية. كانت تصدر من قلعة اجياد في مكة المكرمة مرتين في الأسبوع الاثنتين والخميس في أربع صفحات لكل عدد، وكان معدل صدورها مئة عدد سنوياً.

صدر العدد الأول للجريدة في يوم الاثنتين 15 شوال 1334هـ الموافق 15 آب 1916م، واستمرت الجريدة بالصدور مدة ثمانية أعوام وأربعين يوماً تقريباً، وكان آخر أعدادها العدد (823) المؤرخه في 25 صفر 1343هـ الموافق 25 أيلول 1924 حيث توقفت عن الصدور على اثر القتال الذي نشب بين الحجاز ونجد ودخول القوات النجدية إلى مكة المكرمة.

اتخذ الشريف حسين اسم القبلة من الآية الكريمة "وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم"⁽³⁾ وروست الجريدة بهذه الآية في أعلى صفحاتها منذ العدد الأول حتى العدد "110" حيث حذفت بعد ذلك وبررت الجريدة ذلك حفاظاً على الآية الكريمة لأن القارئ يرمي الجريدة بعد قراءتها.

تناولت القبلة المواضيع السياسية والدينية والاجتماعية وعبرت عن نفسها منذ عددها الأول بأنها جريدة "دينية سياسية اجتماعية" وحمل العدد الثاني وما بعده شعاراً للجريدة بأنها "لخدمة الإسلام والعرب" وهذا الشعار كان يعكس الفكر السياسي للشريف حسين بن علي والقوميين العرب في تلك الفترة.⁽²⁾

إدارة الجريدة: تولى إدارة الجريدة محب الدين الخطيب من 15 آب 1916 - 27 أيلول 1920م، وظهر اسمه على الجريدة منذ العدد الثاني تحت اسم "مدير الجريدة المسؤول" بعد أن طلبه الشريف حسين للعمل فيها في تموز 1916م، واستمر الخطيب مديراً للجريدة وظل اسمه عليها حتى العدد (419) ثم حل محله حسن الصبّان وهو من المغرب وكان يقيم في الحجاز وظل مديراً للجريدة حتى توقفت عن العمل في 25 أيار 1924م.

أهمية الجريدة: تعتبر القبلة من الوثائق المهمة المعاصرة لفترة الدراسة، وتأتي أهميتها من قلة الاعتماد عليها من قبل الباحثين والدارسين الذين كتبوا عن النهضة العربية والشريف حسين وعن الجزيرة العربية خلال فترة الدراسة.

العروبة والإسلام ومقاومة سياسة التتريك:

ربطت القبلة في إعدادها بين العروبة والإسلام⁽³⁾، لأهميتها في البناء الفكري للقومية العربية، وهاجمت سياسة التتريك التي اتبعتها جمعية الاتحاد والترقي ضد العرب، وإن أمراء العرب اتجهوا بأنظارهم إلى الحجاز "لأن أهله هم أهل الحل والعقد في مثل هذه الأمور من قديم الزمان"⁽⁴⁾، ولأن الحجاز يتمتع بنوع خاص من الاستقلال الإداري، فبايعوا الشريف حسين الذي "غضب لدينه الذي عبث به الاتحاديون ولقومه الذين أهانهم الظالمون، فظهر الإسلام من رجز أولئك الزنادقة وجمع الشمل الذي فرقوه، وأعز ذلك الشرع الذي أهانوه"⁽⁵⁾. وإن العرب "لا يقاتلون الترك ولا غيرهم من الممالك العثمانية وإنما يحاربون حزباً طاغياً ضرب الله على سمعه وختم على قلبه، فهو خليط من الجهالات وراكب عشوات"⁽⁶⁾.

فالعرب قبلوا بحكم الدولة العثمانية لحرصهم على الوحدة الإسلامية وإيثارهم المصلحة العمومية ولأن العثمانيين حكموا الدولة حكماً إسلامياً، ولم يخرجوا عن الدين ("ولعمري إن في صبرهم على ذلك المضض لبرهاناً ساطعاً على حرصهم على الوحدة الإسلامية") وبرزت القبلة الثورة على الاتحاديين لخروجهم عن الدين والشرع القويم "إن المملكة العثمانية وأسفاه أفضت إلى فئة طاش بها الغرور.... وشنت على الإسلام حرباً عواناً في كل أعمالها"⁽⁷⁾، فالعرب لم يفكروا بالانفصال عن الدولة العثمانية حرصاً منهم على الوحدة الإسلامية، لكن زج الاتحاديون الدولة في الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا، أصبحت هذه الدولة الإسلامية تحت سيطرة ألمانيا فقام العرب عن بكرة أبيهم للدفاع عن حوضهم وعن كياناتهم لأنه ليس فيهم مسلم يرضى بالحكم الأجنبي⁽⁸⁾.

واستندت القبلة في انتقاد الاتحاديين بخروجهم عن الشرع الإسلامي على النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، فهم كافرون، قال تعالى: "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون"⁽⁹⁾، فترى القبلة بعد هذه الآيات أن خروج الاتحاديين عن الشرع لا يحق لهم بأن يزعموا بأنهم مؤمنون⁽¹⁰⁾، وفي الثورة على الاتحاديين يتفق مع الفقه الإسلامي الذي يقول بشرعية السلطة على أساس التفويض ما دامت تطبق الشريعة وتحمي البلاد الإسلامية، ولكن مخالفة الاتحاديين للشريعة وتنكرهم للغة العربية (لغة القرآن) أوجب خروج العرب على الدولة العثمانية وهي دولة إسلامية من منطلق إسلامي⁽¹¹⁾.

وبينت القبلة أن الثورة من أجل الإسلام والعرب "فمهلاً يا بني الإسلام أما والله إن الوثبة واجبة والنهضة فرض.... فإنكم تحاربون من أجل الوطن والعرب بل من أجل كل مسلم.... أيها العرب كونوا عرباً وكفى" (12).

فالنهضة العربية كانت ضد الاتحاديين وليس ضد الخليفة العثماني وآل عثمان وفي هذا السياق يؤكد الملك حسين في خطاب له بقوله: "أنتم تعلمون حق العلم أنني لا أريد أن أحرصكم على خاندان آل عثمان، فإنهم قوم قد عرفوا ما لهذه البلاد من واجب الحرمة فافتخروا بخدمتها، ونحن أيضاً وخصوصاً بيننا وعلى الأخص أنا بالذات فقد قابلنا ذلك بما ينبغي بالنظر لما كان بيننا وبين الدولة العثمانية من رابطة الدين ولكن ليس بينكم من يجهل أن الأمر في الدولة، الآن ليس في يد أحد من بني عثمان، بل هو قد خرج من أيديهم إلى أناس آخرين، لا يعرفون قيمة تلك الرابطة، ولا يرقبون في الأمة إلا ولا زمة" (13)،

ونشرت القبلة للحسين بأن النهضة على الاتحاديين، لأنهم أصبحوا يشكلون خطراً على العرب والإسلام بقوله "لعلكم علمتم يا أبنائي أنني لم أقم مع أهل بلادنا بما قمنا به، إلا بعد العلم بأن هؤلاء القوم -أي الاتحاديين- أصبحوا خطراً علينا في ديننا ودياننا؛ لأنهم سلكوا في كلا الأمرين طريقاً يخالف طريقنا ويهدد مصالحنا وكياننا" (14).

وأشارت القبلة إلى خطاب الحسين إلى أنه اختار مقاومة الاتحاديين من أجل دينه وقومه وبلاده فقال: " وإما أجنح بكم إلى هذا السبيل الذي سلكته فأصون ديني من عبث العابثين، وأصد عن قومي وبلادتي عادية المعتدين السفاحين، وهو أسلم عافية وأهون شراً وأقل خطر" وفي نهاية خطابه أشار إلى أنه استخار الله في هذا الطريق فوفقه الله لذلك (15).

وبعد تحقيق النصر الذي أحرزه الأمير فيصل في الشمال، وصفت القبلة الانتصارات التي حققوها بأنها من أجل إعلاء الوطن العزيز وكيانهم الديني والقومي "فطربت لها القلوب فرحاً وسروراً" ووصف هذه الانتصارات بالواجب المقدس: "أبنائي البواسل إنكم لن تجدوا بعد اليوم موقفاً هو أقرب إلى الله وأدنى إلى رحمته وإحسانه، من موقفكم الذي أنتم فيه إذ أنكم تدافعون عن وطن يشكو إلى الله قوماً أضاعوه وأنصاراً خذلوه" (16).

والربط بين العروبة والإسلام واضح في خطابات الشريف، ففي هذا الخطاب بين الملك أن الثورة كانت للدفاع عن الإسلام ثم طالب الحكومة الفرنسية بأن تكون عوناً للدولة العربية الجديدة.

وفي خطاب آخر موجه للجند، ركز الشريف على العروبة "وإن ما بذلتموه حتى الآن وما ستبذلونه فيما بعد من الحماية العربية والهمم الشماء العدنانية في سبيل القيام بالواجب المقدس

اتجاه كياناتكم وإثبات وجودكم من طرد أعدائكم وأعداء الشهامة والشيم العربية في عقر داركم قد جاء مصداقاً لما كنا نترقبه ونتوخاه منكم"، ثم يعود للربط بين العروبة والإسلام، وحث الجند على الاستشهاد في سبيل الله، "فالبدار البدار إلى استكمال مهمتكم.... حتى يكون تاريخكم عزة في جبين الدهر وذكركم مسطراً بمداد" "فالله الله في إنقاذ أخوانكم.... إنكم إن تحسنوا إليهم تحسنوا لأنفسكم، وأن تنقذوهم تنقذوا جامعتكم وقومكم" وفي نهاية الخطاب أوصى الحسين الجند باتباع سنة الرسول -صلى الله عليه وسلم- والشريعة الغراء⁽¹⁷⁾.

وأكدت أعداد جريدة القبلة على العروبة والإسلام والربط بينهما، فقد جعلت رسالتها خدمة الإسلام والعرب "وهذا ما يراه قراؤنا تحت اسم جريدتنا من أنها أسست لخدمة الإسلام والعرب" فالإسلام مجموعة فضائل أخلاقية عدى عليها أعداؤها التورانيون باسم الإسلام فمن الواجب على العرب الذي يرتبط عز الإسلام بعزهم أن يقاوموا الذين أضاعوا "مجداً مؤثلاً ونظاماً خالداً وعيشة هنيئة لكل عناصر الأمة ضمنها الإسلام إليها، وأفسدها عليهم أعدائها وأعداؤهم"⁽¹⁸⁾

والربط بين العروبة والإسلام ليس غريباً فالبعض يرى أن الرابطة الدينية والجنسية غريبتان عن بعضهما- لأن اللغة العربية والدين الإسلامي يكادان أن يكونا توأمين، والعرب ثالث هذه الثلاثة من شدة بينهما⁽¹⁹⁾.

وخطاب القبلة الموجه لرجال النهضة خطاب عروبي إسلامي "أي إعلام الفضل في الأعصر، جهاذة المجد والعنصر نجباء عدنان وقحطان أهل لغة القرآن ومن لحقوا سراة أهل الإيمان..... فليحيى العرب جميعاً والإسلام عموماً"⁽²⁰⁾
بها ليل في الإسلام سادوا ولم يكن كأولهم في الجاهلية أول

وخدمة الإسلام في القبلة تأتي عن طريق نهضة العرب وعزتهم، فإذا رغب المسلمون في أن يحافظوا على الأمانة التي أودعت لديهم فالواجب عليهم أن يقوموا بإحياء البلاد العربية، وبينت القبلة أن أي دولة نشأت للمسلمين في أي بقعة من بقاع الأرض وفي أي زمن، إذا لم يكن العرب أساس الدولة، "وأركان بنائها وعمد صروحها، ومديري أمورها ومديري حركتها واليد العاملة فيها والقوة التي ترتكز عليها والروح التي تسري في مفاصلها والأمل الذي تتفرع منه أغصانها وتنمو عليه أفنانها" فهي بلا شك دولة لن تدوم ولن تستمر ولا يعتز بها الإسلام⁽²¹⁾

والنهضة العربية تسعى وراء خدمة الإسلام في جميع الأقطار وتعمل من أجل خدمة الإسلام وتقدم المسلمين، وفي المقابل أيضاً تسعى لإعلاء شأن الأمة العربية بين الأمم⁽²²⁾.

وفي هذا السياق أكد الأمير عبدالله هدف النهضة بقوله: "والنهضة العربية التي قام بها والدي ومن معه من عظماء الحجاز، وابتغاء علمائهم وانضمام عظماء الشام والعراق إليهم، كانت نهضة حق للدفاع عن الإسلام، ثم لتبوء العرب المقام الذي خصهم الله به، قال تعالى: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر"⁽²³⁾(24).

ورأى الحسين أن النهضة العربية لنهضة العرب. وقد عبر في كتاب إلى الشيخ علي الغاياتي⁽²⁵⁾: "إننا لم نقصد بنهضتنا هذه غير خدمة الإسلام والعرب لما تحقق لنا من نيات الاتحاديين السيئة نحو كليهما"⁽²⁶⁾، وفي جواب للشريف حسين على برقية بعض المسلمين في الهند ربط الحسين عز العرب بعز الإسلام: "تضاعف عجزى عن شكر الباري من بعث برقيتكم العالية التي لا يستكثر على كمالات فضائلكم ما لها المؤسس اقله على ما في معنى: إذا عز العرب عز الإسلام"⁽²⁷⁾.

الاعتزاز باللغة العربية والتاريخ العربي:

اعتزت القبلة بالعروبة، بعدما اعتبرت جمعية الاتحاد والترقي رياح القومية التي هبت على المنطقة بعد إعلان الدستور، حقاً للحركة الطورانية وحدها دون غيرها من القوميات في الدولة العثمانية، فكان لابد من التفاف العرب حول هويتهم العربية، وأكدت القبلة في صفحاتها على الاعتزاز بالعروبة وتاريخ العرب واللغة العربية.

وتساءلت القبلة هل كانت دعوة شريف مكة نتيجة نزاع بين العناصر في الدولة؟ وكان الجواب كلا لأن العنصر التركي أي الأمة التركية لم تقل بحرمان العناصر الأخرى من مشاركتها في الحكم والتمتع بخيرات البلاد ولكن الذين تولوا السلطة في الدولة صبغوا أنفسهم بصبغة العنصرية الطورانية⁽²⁸⁾.

"فالعرب قوم لهم أول المجد وآخره، وباطن الفضل وظاهره، أعلامهم في الكون منشودة، وأيامهم في عددهم مشهودة، فأعظم بشأنهم وأكبر، وأسمع بهم وأبصر"⁽²⁹⁾ وكما قال الشاعر:
لو كان يقعد فوق الشمس من كرم
قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

وحفلت صفحات القبلة بالتأكيد على العروبة وعلى الاتجاه القومي، فنشرت رسالة عنوانها (نيل الأرب في فضل العرب) متسلسلة في إعدادها، جمع فيها مؤلفها جميل العظم⁽³⁰⁾ ما روي في كتب السنة وكلام الأئمة في فضل العرب ودحض مزاعم أعدائهم⁽³¹⁾.

وفي رد القبلة على الشعوبيين أوضحت بأنه لا يوجد في القرآن ولا في الأحاديث الشريفة كلمة تنزيلية أو تأويلية تشير إلى الحط من أقدار العرب وتفضيل غيرهم عليهم⁽³²⁾ والعرب في القبلة أمة عريقة لها تاريخ وحضارة يعرفهما العالم أجمع⁽³³⁾، إنه أعظم تاريخ، ويرجع أحد الكتاب -لم يذكر اسمه بل ذكر بأنه مؤرخ إسلامي كبير في مصر- في القبلة إلى تاريخ العرب ويستعرض الدول والحضارات التي كانت قبل الإسلام من الدولة البابلية وهي من العرب، أسسها حمورابي "وهو عربي ودولته عربية" كما ذهب الكاتب إلى القول بأن الدولة الثانية والعشرين التي حكمت مصر من قبل ثلاث آلاف سنة كان ملوكها من "أصل آشوري والأشوريون إخوان البابليين فهي تعد لذلك عربية"، وهكذا يقال عن دولة الحواري في الشام والأزينية في تدمر والفساسنة والتونسيين، ثم دول عرب الجنوب السبئية والحمرية⁽³⁴⁾.

وخلصت القبلة إلى القول: إن العربي الذي لا يعرف تاريخ أجداده وسيرة قومه وكيف انتشروا في مشارق الأرض ومغاربها ونشروا العلم والعمران، ليبيكي دماً ويتمنى لو أن الأرض انشقت وغار فيها، لقد "ورث العرب عن آبائهم ملكاً ضخماً وسلطاناً عظيماً"⁽³⁵⁾. وأشارت إلى أن العرب حتى في صميم الجاهلية حافظوا على أنسابهم، ولم يفقدوا استقلالهم، حتى إن الغزاة فشلوا في اختراق جزيرتهم ولم يخضعوا في أدوار كلها لحاكم غير عربي⁽³⁶⁾، كما أشارت إلى واقعة ذي قار التي أبلى فيها العرب بلاءً حسناً قبل الإسلام، وأكدت استمرار الثورة رغم ما قيل عنها من أنها نار تخلف رمادا⁽³⁷⁾ حتى إن العلم الذي اختارته النهضة العربية كان ذا دلالات تاريخية عربية من خلال المرسوم الذي أصدره الملك حسين⁽³⁸⁾.

وخاطبت القبلة المقاتلين العرب وشددت على أيديهم "فأنتم البقية الصالحة والخلف المبارك وأرواح أجدادكم ترف من حولكم ويد الله تشد أزركم، ونفحات نبيكم تعيق في أردانكم، أن النهضة العربية اليوم وطنية قومية وعربية مليية⁽³⁹⁾، وطالبت باتباع طريقة الأجداد والسلف الصالح: "فكيف تثبت للملأ المشرئين إلينا، أننا من سلالة أولئك السادة الأماجد، إن لم نفر فريهم ولم نفعل شرواهم؟ أليست الدماء التي في عروقنا منحدره منهم إلينا؟... اعملوا لله وللتاريخ، بل لأنفسكم وأحفادكم وبلاذكم... فالسلام عليكم وعلى كل عربي ناطق بالضاد.... يصيح في وجوه الجامدين نحن أمة حرة وشعب مستقل، كذا كنا وكذلك نكون"⁽⁴⁰⁾.

والأمة العربية في القبلة لها تاريخ حافل وحضارة مجيدة، أمة حافظت على تاريخها الطويل "يا بني يعرب وقحطان إلى العمل.... في سبيل تاريخكم وتقاليديكم"⁽⁴¹⁾.

وحثت القبلة العرب للمحافظة على لغتهم وخاطبت بني قحطان وعدنان لأنها لغة أجدادهم فهي "أجزل اللغات وأوسعها مجالاً وأحكمها استعمالاً لا يذهب مر العشي بلاستها ولا يعبث كَر

الغداة بطلاوتها ولقد طاحت دول وباءت ملل فاستسرت لغاتها وعفت آياتها" وطالبت العرب بالدفاع عنها لأنها مفخرة لكل عربي⁽⁴²⁾ فالعربي في لغتنا الخالدة آية مجد لا تنسخها الأيام، وكنز فخر لا تفنيه الأعوام، فما بالك إذا كان لنا مع هذه اللغة تاريخ يفتح الشمس وعلا النفس⁽⁴³⁾.

وذكرت القبلة بـ "سوق عكاظ" في دعوة منها للتمسك بالوحدة الجنسية^(*) والمفاخرة باللغة العربية، والمحافظة عليها لأنها لغة الأجداد، وافتخرت القبلة باللغة العربية لأنها لغة القرآن التي نزل بها ليعبر عن صادق مشاعر الأمة العربية⁽⁴⁴⁾.

وبعد دخول الأمير فيصل دمشق، استقبل الملك حسين الأعيان وأعضاء حكومته، وحضر عدد من السوريين المقيمين في مكة، وخطب الملك فيهم فيين الغاية من النهضة لإحياء البلاد ورحمة بالعباد، ومن أجل نصره قومه، وإنقاذ أوطانهم، وإرضاء لعربه، وأكد الملك المساواة بين أفراد الأمة "أوكد لكم يا أبنائي أنه لا فرق عندي بين أحد من بني قومي مهما اختلفت أوطانهم فهم جميعاً في نظري بمنزلة الأشخاص المقيمين معي في هذا المنزل وتحت هذا السقف" وأضاف الملك مؤكداً على التسامح "وإني إذ ذكرت أبناء سوريا فلا أفرق بين أحد منهم بمذهب أو غيرهم بل كلهم في نظري سواء⁽⁴⁵⁾.

كما أكدت القبلة على أن الروح القومية أصيلة في العرب منذ العصر الجاهلي وإلى أن اللغة العربية أساس الذات القومية⁽⁴⁶⁾، "إن الأمة العربية ترجع إلى أصل واحد، وتتكلم بلغة واحدة، وهذا من أهم دواعي اجتماع الأمم"، ولا يرى في اختلاف الأديان عقبه في سبيل الجامعة لأن الدعوة جنسية عنصرية (أي قومية)⁽⁴⁷⁾.

وعلقت القبلة على هذا الخطاب موضحة طبيعته القومية في إطار الاتجاه العربي الإسلامي، والقومية نوعان: نوع لا ينافي روح الدين ولا يخالف أوامره، ويهدف إلى إيجاد الاتحاد والتآخي وإحياء روح التضامن والتعاقد بين أفراد الأمة، ولا يتجاوز إلحاق الضرر بالغير، وهذا هو النوع الذي تدعو إليه القبلة، وقامت على أساسه الدول العربية في صدر الإسلام، أما النوع الآخر فهو الغرض منه إحياء العصبية الباطلة وهذا النوع نهى الدين عنه، ويدعو إليه الاتحاديون تقليداً للألمان⁽⁴⁸⁾.

واهتمت القبلة بنشر قصائد للشعراء العرب يعترفون فيها بالقومية العربية والتغني بأمجاد العرب⁽⁴⁹⁾.

وبعد أن كانت العروبة غير مقبولة وظنها البعض بأنها منافية للإسلام، كرست القبلة صفحاتها وأكدت ان العروبة حق مقدس يجب أن يعترف بها كل عربي، ولا تتناقض مع الإسلام.

وكان الشريف حسين واضحاً في خطاباته في هذا السياق، مؤكداً أن القومية العربية تتماشى مع الإسلام، بعكس القومية الطورانية التي تسعى لاستبعاد الغير، فهي مرفوضة دينياً، ففي خطاب للشريف حسين في موسم الحج بمنى في 10 ذي الحجة 1334 هـ / تشرين الأول 1916م، رداً على خطبة للشيخ رشيد رضا، فبعد أن أوضح أنه لم ينهض رغبة في الدنيا ولا من أجل الجاه مؤكداً أنه لو أراد الجاه لحصل عليه، ولكنه فضل احتمال العناء رغبة منه في الدفاع عن الكيان الإسلامي المهدر من الداخل والخارج بعد دخول الدولة الحرب، وأكد أنه مستعد لأن يضع يده في يد أي رجل تتفق عليه الأمة فيه الكفاية، وأضاف بأنه متفائل بنتيجة النصر والحصول على الاستقلال ولن يسمح لأحد أن يقف أمام هذه النهضة "وأني ماضٍ في سبيلي، ولو أن هذا العمل الذي أعتقد فيه كل الصلاح لقومي وبلادي وديني، يعترضه أحد بسوء ولو كان أحد أولادي لصلبته بيدي غير آسف عليه، لأنني أحب قومي وبلادي وديني أكثر من أي شيء في هذا الوجود، ولولا هذه المحبة لما نهضت هذه النهضة، ولا غضبت هذه الغضبة وسأبقى مستمراً في خطتي غير متزعزع فيها ولا متحولاً عنها، حتى يقضي الله أمري، ولينصرن الله من ينصره" وفي نهاية الخطاب أكد أن النهضة تشمل كل عربي كائناً من كان شرط أن يكون صادقاً لوطنه مخلصاً لقومه⁽⁵⁰⁾.

وفي خطاب آخر في 15 ذي الحجة 1334 هـ / 30 تشرين الأول 1916م صرح بقوله: "لقد كان القصد من هذه النهضة إرضاء الله تعالى وإعطاء القومية العربية حقها من الخدمة بإنقاذ بنيتها وحفظ أوطانها، وإن إزعان العرب لقوميتهم من أخص مآثرهم وأقدم سجاياهم، فهم من عشاق الاستقلال القومي من قبل ومن بعد"⁽⁵¹⁾.

و القومية عند الشريف تظهر دائماً من الفطرة التي فطر عليها وتربى في حب العرب والتفاني في سبيلهم، وهذا واضح من خلال رد الشريف على قصيدة لأحد الضباط العرب يصف فيها امرأة عربية هي وأولادها تنتزور جوعاً وخوفاً، فقال: (ليبيك يا ابنة الشم العدانيين، لبيك يا ابنة الأماجد الأقدمين، لبيك يا ابنة من عرف شهامتهم ونخوتهم، أهل الأرضيين، يرحم الله المعتصم، وأيم الله أيتها النجبية إنني لست بدونه حداً ولا جلماً، ولكن أقعدني عنك ما لو اهتم به جزء من مهام شؤونكم لأقعد كاهل أمثاله، ولكن هاهو ابن جدك وأحد أفلاذ كبدي يقود مقدمات سراة قومك، ولسان حاله يقول: أجالدهم دون (الطفيلة) (*) جاسراً كأن يدي بالسيف محرق لاعب⁽⁵²⁾

وهذا الحس القومي هو الذي دعا الشريف للقيام بالنهضة. "أجبرنا الشعور والحس الذي لاجابة لذكركه... حرصنا على الأساس الذي أقامنا وأقعدنا واستهنا في سبيله بذل المهج والأرواح، إجابة لصريخ القومية ونداء أبنائها عندما اختصتنا واختارتنا لمستعرفها دون سوانا من

الأمثال، وقصدنا بداعيها من بين الأمراء والأعيان والأفاضل، فأجبنا داعيها، وشاركنا ناعيها...
بذلنا وأرخصنا المهج والأرواح في سبيل تلك الغايات الكريمة وشرفها الديني والقومي⁽⁵³⁾

اختلاف الدين لا يؤثر على الرابطة القومية:

الجامعة القومية في فكر الملك حسين تهدف إلى جمع كلمة العرب دون تمييز وهذا ما صرح به في رسالته للشيخ علي الغاياتي ".... فليس مثار حركتنا وقيامنا غير مصلحة وكيان جامعة محض بلادنا العربية بدون تفريق في المذهب، هذه هي الغاية القصوى دون سواها".

وإن النهضة لكل العرب دون تمييز بينهم، وكان يسعى من وراء ذلك إلى كسب العرب من غير المسلمين، كما أكد الملك هذا المعنى في خطابه الموجه إلى أبناء سوريا: "وطالما قلت أن العرب عرب قبل أن يكونوا مسلمين أو مسيحيين أو موسويين" وحدد الملك في هذا الخطاب من هو العربي، "والعربي يستحيل عليه أن يصير جاوياً أو يونانياً"، وأكد بأن تاريخهم أثبت بأن اختلاف الدين لا يمكن أن يكون سبباً لهضم حقهم⁽⁵⁴⁾.

وكان الحسين يؤكد أن العروبة قبل الإسلام "منذ كم ونحن مسلمون؟ ومنذ كم ونحن عرب؟: إذا نحن عرب قبل أن تكونوا مسلمين"⁽⁵⁵⁾ وهذه الكلمات تؤكد على ما كان يتمتع به الحسين من أصالة الرأي، وبعد النظر والتسامح الديني، بين أبناء قومه ووطنه، فهو حريص على جمع الكلمة ونبد الفرقة بين أفراد شعبه.

وسارت القبلة في صفحاتها على هذا النهج، مؤكدة على التسامح الديني مبتعدة عن التفرقة بين الديانات، وأن الإسلام قوى هذه الرابطة بصلة المصاهرة، فأباح للمسلم أن يتزوج من المسيحية أو اليهودية مع بقائها على عقيدتها وأدائها فروض عبادتها وذهابها إلى كنيستها وأن يعهد إليها ببته وأولاده ونفسه ولم يفرق في شيء من الحقوق بينهما فأى صلة أعظم مما يكون بين أقارب الزوج والزوجة. وأكدت القبلة على أن المملكة الهاشمية قامت على هذا الأساس⁽⁵⁶⁾ ونشرت القبلة مقالات وأشعاراً لبعض العرب من غير المسلمين أكدوا فيها الاعتزاز بكل عربي مهما كان مذهبه وديانته.

فكتب جبران خليل جبران: "أنا مسيحي ولي فخر بذلك، ولكنني أهوى النبي العربي وأكبر اسمه وأحب مجد الإسلام وأخشى زواله، أنا أجل القرآن ولكنني أزدري بمن يتخذ القرآن وسيلة لإحباط مساعي المسلمين، كما أنني أمتنهن الذين يتخذون الإنجيل وسيلة للحكم برقاب المسيحيين"⁽⁵⁷⁾

وأنشده بعض المسيحيين يتغنون بعيد المولد النبوي فقال جرجي حداد⁽⁵⁸⁾

نودوا عن اللغة التي وردت بها أي الكتاب وأنزلت تنزيلاً⁽⁵⁹⁾

وقال عباس أبو شقرا⁽⁶⁰⁾

أبناء يعرب أين مجد جدوكم وججوكم لعلائم آثام

أبناء يعرب أين كل حقوقكم أو ترسخون وفوقها الإقدام

ماجا في أحد وصايا (المصطفى) إن الخلائق بعده أعجام⁽¹⁶⁾

وفي ذلك تحاول القبلة تعزيز النهج القومي الذي لا يفرق بين العرب من أجل جمع الكلمة والابتعاد عن التفرقة.

الاستقلال والوحدة العربية:

انتهت الحرب العالمية الأولى لصالح الحلفاء في 11 تشرين الثاني 1918م وتوجهت أنظار العرب والحسين نحو بريطانيا للوفاء بوعودها أثناء الحرب ولكن الحلفاء بدأوا بنقض العهود التي تعهدوا بها للحسين وللعرب، وأخذت جريدة القبلة من خلال مقالاتها تركز على العروبة، وحث العرب على الوحدة وتوحيد الكلمة، وتراص الصفوف.

ونلاحظ في هذه الفترة اتجاه الحسين والقبلة اتجاهاً عربياً، بالتركيز على العروبة والعرب والبلاد العربية والاستقلال التام والوحدة العربية.

وأكدت القبلة على القومية والاستقلال في هذه الفترة فبينت أن "إنعان العرب لقوميتهم من أخص مآثرهم وأقدم سجايهم فهم عشاق الاستقلال القومي من قبل ومن بعد"⁽⁶¹⁾ وتظهر لدى الحسين والقبلة نبرة عروبية أكثر وضوحاً فالقبلة تهتز طرباً بدخول العرب دمشق ورفع العلم العربي "كيف لا نهتز طرباً لذكرى يوم ستكتب بأحرف ذهبية بارزة في تاريخنا خفقت فيه على أسوار دمشق ذلك العلم العربي الذي يحمل بين طياته مشكاة ماضيها ومرآة مستقبلنا"⁽⁶²⁾.

وأشادت القبلة بالشهداء العرب الذين ضحوا بدمائهم من أجل عز الوطن، وفي سبيل الأمة، لأن التاريخ سوف يحفظ لهم هذه الذكرى، وكانت أمني القبلة بعد الحرب كبيرة "لقد طلع فجر الآمال ومالت أضواؤه في شعاب النفوس، وانبتق فجر الأمانى وفاض للأله على مسالك الأفتدة وثنايا القلوب"⁽⁶³⁾.

وحصول الأمة العربية على الاستقلال له في القبله لذه " بعد أن ناقت الأمة مرارة الاستعباد بدماء أبنائها" وبذلك فقد انقضى دور التخریب والتدمير وجاء دور التعمير والتجديد، وبينت القبله بأن هذا العهد هو عهد العمران والسلام في العالم بعد عودة المياه إلى مجاريها⁽⁶⁴⁾.

وناشدت القبله الأمة العربية بالعمل والمثابرة والتحلي بالأخلاق الحسنة حتى تصل الأمة العربية إلى مصاف الأمم الحية⁽⁶⁵⁾ وحثت القبله العرب على العلم لأنه الوسيلة الأولى لولوج ميدان الحياة ومن أجل تقدم الأمة العربية⁽⁶⁶⁾.

وأكدت على الرابطة القومية "إذا كانت هذه الحرب قد أفقدتنا كثيراً من رجالنا، وعرضت أمراءنا وكبراءنا للأخطار في ميادين القتال... فإنها قد أيدت استقلالنا ووطدت دعائمها، وأعادت ملكاً مضاعفاً، وحقاً مسلوباً، إذا كانت قد أماتت بعض رجالنا إلا أنها أحييت ميت أمالنا وأيقظت أمانينا القومية، ومكنت روابطنا العنصرية فأصبحنا بحمد الله إخواناً على اختلاف أدياننا وتعدد مذاهبنا تجمعنا جامعة واحدة"⁽⁶⁷⁾.

وركزت القبله على الجامعة القومية والوطنية "إن للوطنية والقومية واجبات يحتم على كل شخص حر يعلم لا حياة له إلا بتحقيق جامعة قومية ينتمي إليها"⁽⁶⁸⁾ والقومية التي تنشدها القبله، هي قومية لا تتعارض مع الإسلام، بل إنها تتماشى مع الإسلام⁽⁶⁹⁾، وكان لمدير الجريدة أثر في إظهار القومية والوطنية فكان محب الدين الخطيب مديراً للجريدة وقد أيدته في دعوته عدد كبير من أحرار العرب الذين شاركوا في تحرير الجريدة، غير أن كتابات الخطيب والحزبيين منهم كانت مميزة لأنها تنبع من إيمانهم بضرورة الثورة، ومن إيمانهم بأهداف التنظيمات العربية السرية والعلنية مثل: جمعية العربية الفتاة وجمعية الجامعة العربية وحزب اللامركزية⁽⁷⁰⁾. واهتمت القبله في هذه الفترة بالوحدة العربية وشكل الدولة العربية والحكم. ونشرت القبله على صفحاتها هذه العناوين.

وخاضت القبله أيضاً في موضوع الرئيس ومركز العاصمة. فبينت القبله أن الملك حسين لا يعارض أي مركز تختاره الأمة العربية ليكون عاصمة للدولة العربية⁽⁷¹⁾. وأوضحت بأن الملك حسين لا يهيمه تعيين المركز أو الرئيس، وإنه لحق عليه يحيا وعليه يموت⁽⁷²⁾.

وأوضحت القبله بأن الاتحاد روح الحياة، لأنه الأساس الوحيد الذي تقوم عليه سائر أسبابها: "فإلى الأمام يا بني يعرب وقحطان إلى الأمام في سبيل توحيد الكلمة في سبيل السعادة والمجد والشرف لتعيدوا مجد أسلافكم وتخلفوهم بإحياء تلك المدينة الحققة"⁽⁷³⁾.

واهتمت القبلة بنشر البرقيات الواردة إلى الملك حسين من السوريين في المهجر ومن سوريا تطالب بالوحدة تحت الحكم الهاشمي.⁽⁷⁴⁾

وأخذت القبلة تحت العرب للدفاع عن بلادهم وأوطانهم "فالحياة كفاح وجهاد ومن يطلب الحسنة لم يغله المهر" وذكرّت القبلة الصهيونيين بيت الشعر التالي⁽⁷⁵⁾

بلادي وإن جارت علي عزيزة ولو أنني أعرى بها وأجوع
في كف ضرغام إذا بسطتها بها أشتري يوم الوغى وأبيع
أتركها تحت الرهان وابتغي بها بدلاً؟! إنني إناً لرقيع

ودافعت القبلة عن الأمير فيصل بعد أن صرّح عوني عبدالهادي⁽⁷⁶⁾ لبعض الصحف لما زعمه المستر تشرشل في البرلمان البريطاني من أن الأمير فيصل سلم بأن فلسطين مستثناة من العهد التي قطعتها حكومة بريطانيا سنة 1915م للشريف حسين، وعلقت القبلة على ذلك "نحن نسدي خالص شكرنا لحضرة السيد عوني عبدالهادي على بياناته التي نعتقد أنها صدرت منه بباعث الغيرة والحرص على سلامة القضية التي يدافع عن شرفها كل عربي حميم تشرب روح التطوع إلى مجد أجداده العرب شم العراقيين"، ونلاحظ اتجاه العروبة بالتركيز على العرب وشرفهم وأمجادهم، وفي نهاية المقالة بينت القبلة بأن تشرشل تجرأ على فيصل برميّه بهذه الرذيلة العارية عن أدنى شبهة، وأكدت بأن الحلفاء من حيث البراهين والحجج مقتنعون بحقوقنا ولكن الحجة والبرهان على الحق أصبحا لا اعتبار لهما في نظر سياسة القرن العشرين وإنما الاعتبار الأول للقوة⁽⁷⁷⁾.

وقبل انعقاد مؤتمر الصلح في 12 كانون الثاني 1918م حرصت القبلة على تأكيد الوحدة ونبذ القطرية مبيّنة بأن الأمة تجمعها رابطة واحدة "القطر السوري أو الشامي كتلة واحدة تجمعها رابطة اللغة والعادات والأخلاق ووحدة التاريخ"⁽⁷⁸⁾ وتوقعت القبلة: "بأن يكون مؤتمر الصلح بلسماً شافياً لكل المشاكل الدولية، وعلاجاً ناجحاً لكل الاختلافات الجوهرية"، وتصورت القبلة بأن المؤتمر سيهتم بأهم المبادئ وأعظمها وهو تحرير الشعوب⁽⁷⁹⁾.

وأوضحت القبلة بأن البلاد العربية الشمالية تتجلى فيها معاني الحياة الاجتماعية والنهضة القومية والجامعة الوثيقة، وبينت بأن الرأي العام في تلك المنطقة يتربقّب كل بادرة من بوادر السياسة ليصدر فيها حكمه⁽⁸⁰⁾. وأشارت القبلة إلى أساليب الصلح عند العرب القدماء مبيّنة شروطه فالمجني عليه هو الذي يفرض هذه الشروط⁽⁸¹⁾.

ولم تتسرع القبلية في الحكم على مؤتمر الصلح قبل أن تشهد نهايته وتبصر إلى ما ينتهي إليه الحال، ولكنها كانت تثق في الحلفاء لأنهم سيقومون بواجبهم لخدمة المبادئ العالمية، والغاية السامية، ولأن العرب أزهقوا دماءهم، ولكن القبلية تظمن نفسها بتصريحات الرئيس الأمريكي ولسن في المؤتمر، واعتماداً على تصريحات ولسن فقد عبرت القبلية بأن المؤتمر سيكون بلا ريب فاتحة لعصر جديد تسود فيه الألفة والاتحاد بين الدول كبيرها وصغيرها⁽⁸²⁾.

وقد عبرت القبلية فيما بعد في هذا السياق بأن العالم يحترم القوي: "إن الحوادث تؤيد في هذا العصر أن الحق لا يسمع إلا إذا كانت القوة وراءه، وإن القوي إذا كذب قيل له صدقت وإذا صدق الضعيف قيل له كذبت، وعلى هذه القاعدة يجب أن ينسج العرب وبذلك لا بغيره ينجحون في قضيتهم نجاحاً مطرداً فقد أصبح الضعيف اليوم لا فرق بين أحلافه وأعدائه، بل يحكم عليه أحلافه بما لا يستطيعون أن يحكموا به على أعدائه، إن أولئك الأعداء أقوياء لما وقع بالفعل على العرب من أحلافهم، الأمر الذي أجمع لحظة الدهر وعبر التاريخ ومحل كل ثقة واعتماد على الأقوال والعهود التي كان على اعتبارها مدار نظام العالم وأساس تبادل المصالح⁽⁸³⁾."

وحثت القبلية على الاستقلال التام، وبيّنت بأن احتلال سوريا قد "قطع أوصال العرب فهامم تراق دماؤهم، وتسلب أموالهم وتنتهك حرمااتهم وتهتضم حقوقهم" وأوضحت بأن بريطانيا هي التي سلمت سوريا بكامل حدودها لقمة سائغة لفرنسا التي لم تهرق في سبيلها قطرة دم، فأصبح الخلاف صريحاً مع بريطانيا واتهام صريح للسياسة البريطانية بوقوفها إلى جانب فرنسا ضد العرب، وأكدت القبلية على الوحدة لأنها القاعدة في قوة العرب لاسترجاع حقوقهم⁽⁸⁴⁾ فواضح من القبلية تركيزها على القضية العربية والوحدة والاستقلال ونبذ الإقليمية والتجزئة.

وحثت القبلية العاملين في القضية العربية على وحدة الصف من أجل الوحدة العربية، بعد أن ظهرت القطرية في بعض الصحف وبيّنت أنها من الدسائس التي يراد بها تجزئة البلاد العربية، وأكدت القبلية بأن العرب قدموا تضحيات جسيمة في سبيل استقلال بلادهم، ولكن السياسة الغاشمة أبت إلا أن تجزئ أقطارهم وتعمل على استعبادهم، وبيّنت خطأ هذه السياسة لأنه ينتج عنها ثورات في كل من العراق وسوريا وفلسطين⁽⁸⁵⁾.

فالعرب: قوم إذا الشر أبدى ناجده لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا

وتعود القبلية للتركيز على تاريخ العرب لاستنهاض همهم لاسترجاع حقهم وعلقت القبلية على البرقيات الواردة من الجالية السورية في المهجر للملك حسين مطالبة بالقتال إلى جانبه فقالت: "لا

يستكثر مثل هذا على أبناء حروب " زي قار والبسوس " وهذا الخلف النجيب امتاز على سلفه الحسيب بعظم مكانه وحماسته وشهامته وهممه بنداثة من وراء ظلمات البحار" (86).

وتعود القبلة مرة أخرى إلى التركيز على الوحدة العربية والاستقلال والنخوة العربية، ففي افتتاحية القبلة في العدد (433) بينت بأن نهضة الحسين كانت من أجل النخوة والشهامة لتحقيق الوحدة العربية واستقلال بلاد العرب بحدودها المعلومة، وأن الحجاز استجاب لمستصر بني أبيهم في شمال الجزيرة ليرفعوا شأن أمتهم العربية المجيدة ويعلوا كعبها ويعيدوا مجدها التاريخي (87).

وركزت القبلة في هذه الفترة على الوحدة العربية والقومية والابتعاد عن الإقليمية، ففي افتتاحية لها بعنوان "وتواصوا بالحق" ركزت على الوطنية والقومية والعروبة، وأكدت أن كل عربي طاهر الوجدان لا يحمل أقوالنا إلا على أنها من قبيل التواصي بالحق والتعاون على البر والتقوى في سبيل خدمة العرب والعروبة (88) بتركيزها على الوحدة العربية والقومية العربية، ونبتذ الإقليمية.

وبعد شهر من احتلال الفرنسيين لسوريا وقعت انتفاضة حوران، وأشادت القبلة في افتتاحيتها في العدد (495) تحت عنوان (أولئك أقوامي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا غوير) (المجامع) بالعرب بعد حادثة الاعتداء على الجنرال غورو بقولها: "إيه بني يعرب إيه بني قحطان هذه والله صفاتكم وهذه والله شممكم وشعوركم أثبتموه رغماً عنم جردوكم من خصال أبانكم شم العرانيين ومزايا أجدادكم فخر الأولين والآخرين". فالقبلة تشيد بالعرب وبدفاعهم عن بلادهم.

وخاطبت غورو بأن هؤلاء أبناء الغافقي، ووصفت العرب بأنهم لا يقبلون الظلم ويدافعون عن الأوطان والديار (89).

واهتمت القبلة اهتماماً كبيراً بالأحداث في سوريا واتجهت في خطابها نحو العروبة، مبينة أن هذه الأحداث رمز للشهامة العربية، ومن شيم العدنانيين، ووصفت الذين يقاومون القوات الفرنسية بأنهم أحفاد واقعة "زي قار" وحثتهم على الصبر والمثابرة "إيه بني قومنا فقد حفت الجنة بالمكاره وأن الأجر على قدر المشقة... إنكم لا تطلبون إلا حقيقة لا ينكرها إلا منكر في ضياء الشمس في رابعه النهار" ووصفت هذه الأحداث بأنها وصمة عار في تاريخ القرن العشرين (90).

خاتمة الدراسة:

بعد دراسة واقع النهضة العربية من خلال جريدة القبلة التي أسست على يد الشريف الحسين بن علي سنة 1334هـ/1916م، والتي تعتبر من أهم وثائق حركة النهضة العربية التي قادها شريف مكة، فقد خلصت الى النتائج التالية:

- 1- برهنت جريدة القبلة على الوعي السياسي القومي الذي كان يؤمن به شريف مكة ورجال العرب من حوله، بل وجاءت لتحكي بصوت كل العرب الذين رفعوا راية الإصلاح والتغيير في المنطقة العربية، من أجل رص الصفوف العربية والإسلامية لتأسيس منهج جديد يقف بوجه الظلم والاضطهاد الذي اکتوت بنيرانه البلاد العربية برمتها من خلال تعسف وتطرف سياسة الاتحاديين في الدولة العثمانية.
- 2- عبرت جريد القبلة عن طموح العرب في التخلص من الاتحاديين الذي بالغوا في الإساءة إلى العروبة والإسلام، ووضعوا الدولة العثمانية بصورة غير مقبولة لدى كافة الاقطار العربية والإسلامية أيضاً، إن حركة النهضة العربية لم توجه ضد العثمانيين الذين خدموا العرب والمسلمين ومقدساتهم.
- 3- أكدت جريدة القبلة على الربط بين العروبة والإسلام، وجعلت رسالتها خدمة للعرب والمسلمين، على أن خدمة الإسلام في القبلة تأتي عن طريق نهضة العرب ومجدهم وعزتهم، وقد أكد الشريف الحسين بن علي أن القومية العربية تتماشى مع الإسلام، بعكس القومية الطورانية التركية التي تسعى إلى استبعاد الآخرين.
- 4- اعتزاز جريدة القبلة بالعروبة، وحفلت صفحات جريدة القبلة بالتأكيد على العروبة وعلى الاتجاه القومي، وتحقيقاً لذلك فقد نشرت الجريدة رسالة عنوانها "نيل الأرب في فضل العرب"، على شكل سلسلة حلقات جمع فيها مؤلفها جميل العظم ما روي في كتب السنة وكلام الأئمة في فضل العرب.
- 5- تمجيد تاريخ العرب وحضارتهم، معتبرة الأمة العربية ذات أمجاد تاريخية خالدة ينبغي تقديرها واحترامها، كما حثت القبلة العرب على المحافظة على لغتهم العربية، مفاخرة بتلك اللغة، كونها لغة القرآن الكريم، وهي المعبرة عن مشاعر الأمة العربية الصادقة.
- 6- ولفتت جريدة القبلة انتباه العرب تجاه العمل على التحلي بالأخلاق الحميدة والمثابرة لتصل الأمة العربية إلى مصاف الأمم الحية، وجعلت من تطور العلوم الوسيلة الأساسية إلى تقدم وازدهار وتطور المجتمعات العربية.

Arab Renaissance: A study in the Arab Nationalism According to Al Qibla Newspaper (1334-1343AH) (1916-1924AD)

Ahmad Al-Jawarneh and Jabr Al Khatib. *Department of History, Yarmouk University, Irbid, Jordan.*

Abstract

Al Qibla newspaper that had been issued in Al Hijaz on behalf of the Renaissance order of Sharif Hussein bin Ali. played a prominent and unique role in the dissemination of religious and national awareness in the Arab sector in the early twentieth century. and therefore. this study seeks to answer many of the following questions:

- 1- How the newspaper employed the link between Arabism and Islam in order to raise awareness of the Arab national and religious?
- 2- What are the motives that prompted the newspaper to connect the old Arab history and the way to the great Arab revolt?
- 3- Why have Al Qibla some highlight the glory of the Arabs with the assertion that Arabism is not inconsistent with the spirit of Islam?

وقبل في 2009/6/16

قدم البحث للنشر في 2008/8/31

الهوامش

(1) سورة البقرة، الآية 143.

(2) تذكر الوثائق البريطانية أن الشيخ فؤاد الخطيب اقترح مشروعاً لإصدار جريدة في مكة بغرض ترويح القضية العربية وشرح قضية العرب ضد الأتراك، ولإظهار ارتباط مصالح الإسلام بمصالح الحلفاء، واعتبر المندوب السامي هذا المشروع ناجحاً، وقدم استعداداً للمساعدة في ذلك، انظر نجدة فتحي صفوة: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، دار الساقى، بيروت، م2، ص339.

- (3) روست الجريدة في العدد الثاني وما بعده بشعار "جريدة لخدمة الإسلام والعرب"، القبلة، العدد 2، الخميس (8 شوال 1334هـ) 18 آب 1916م، ص1، ولم يحمل العدد الأول هذا الشعار.
- (4) القبلة، العدد 2، ص 1.
- (5) القبلة، العدد 1، الاثنين (15 شوال 1334هـ) 15 آب 1916م، ص1.
- (6) القبلة، العدد 13، الاثنين (28 ذي القعدة 1334هـ) 28 أيلول 1916م، ص1.
- (7) القبلة، العدد 1، الاثنين (15 شوال 1334هـ) 15 آب 1916م، ص1.
- (8) القبلة، العدد 2، الخميس (8 شوال 1334هـ) 18 آب 1916م، ص1.
- (9) (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون)، سورة المائدة، الآية 44، 45، 47.
- (10) القبلة، العدد 11، الخميس (18 شوال 1335هـ) 21 نيسان 1916م، ص1.
- (11) عبدالعزيز الدوري: التكوين التاريخي للأمة العربية، دار المستقبل، القاهرة، 1985م، ص275-276.
- (12) القبلة، العدد 2، ص1.
- (13) القبلة، العدد 110، الخميس (19 ذي القعدة 1335هـ) أيلول 1917م، ص2، وهذا الخطاب يذكرنا بالمقابلة التي كانت بين الشريف حسين والسلطان عبد الحميد الثاني حينما عين الشريف أميراً على مكة، فقد تخوف السلطان والشريف من خروج جمعية الاتحاد والترقي عن الشرع الإسلامي وتهديدها للسلطان.
- (14) القبلة، العدد 56، الاثنين (4 جمادى الأولى 1335هـ) شباط 1917م، ص3، هذا الخطاب كان إمام علماء المدينة المنورة الذين هربوا منها إلى مكة وشكوا للشريف أعمال الاتحاديين.
- (15) القبلة، العدد 56 ص1.
- (16) القبلة، العدد 65، الخميس (6 جمادى الثانية 1335هـ) آذار 1917م، ص2.
- (17) القبلة، العدد 65، الخميس (6 جمادى الثانية 1335هـ) آذار 1917م، ص1.
- (18) القبلة، العدد 52، الاثنين (19 ربيع الثاني 1335هـ) شباط 1917م، ص1، مقالة لمحِب الدين بن الخطيب مدير الجريدة.
- (19) القبلة، العدد 168، الاثنين (18 جمادى الثانية 1336هـ) آذار 1918م، ص1.

- (20) القبلة، العدد 101، الاثنين (18 شوال 1335هـ) آب 1917م، ص1.
- (21) القبلة، العدد 4، (25 شوال 1334هـ) 25 آب 1916م، ص1، والمقالة تحت عنوان "مكانة العرب في الإسلام".
- (22) القبلة، العدد 200، (17 شوال 1336هـ) تموز 1918م، ص1.
- (23) سورة آل عمران، الآية (11).
- (24) عبد الله بن الحسين: المذكرات، ص27-28.
- (25) علي الغاياتي: صحفي عربي كان مراسل لجريدة المستقبل التي كانت تصدر في باريس، انظر خيرية قاسمية: النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه 1908-1918 م، بيروت 1973 م، ص339.
- (26) القبلة، العدد 51، الخميس (15 ربيع الثاني 1335هـ) 9 شباط 1917م، ص2.
- (27) القبلة، العدد 723، الخميس (2 ربيع الأول 1342هـ) 27 أيلول 1923م، ص2، وكان هذا الجواب موجهاً إلى كل من محمد علي، شوكت علي، والأنصاري.
- (28) القبلة، العدد 2، الخميس (18 شوال 1334هـ) 18 آب 1916م، ص4.
- (29) القبلة، العدد نفسه.
- (30) جميل العظم: أديب سوري ولد في الأستانة 1873-1933 م، واستقر في دمشق بعد ولادته بخمس سنوات عرف باهتماماته الأدبية واللغوية والتاريخية، تولى بعض الأعمال الحكومية في بيروت ودمشق وأصدر مجلة البصائر السورية. انظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ج1، دار العلم، بيروت، 1979م، ص638.
- (31) كتب هذه الرسالة جميل العظم، وفيها اقتباسات من الحافظ العراقي ومن ابن المقفع وابن قتيبة ومما ورد عن الرسول ﷺ قوله: "أحب العرب لثلاث لأنني عربي والقرآن عربي وكلام أهل الجنة عربي" وبغضهم كفر من أحب العرب فقد أحبني ومن أبغض العرب فقد أبغضني". وقوله ﷺ "من غش العرب لم يدخل شفاعتي ولم ينله مودتي، وقوله ﷺ: "من سب العرب فأولئك هم المشركون". وبقاء العرب نور الإسلام، وإزالة العرب نزل الإسلام". و"هلال العرب من أشراط الساعة". انظر القبلة، ع11، الاثنين (12 ذي القعدة 1334هـ) أيلول 1916م، ع12 (24 ذي القعدة 1334هـ) أيلول 1916م، ع13 (28 ذي القعدة 1334هـ) 27 أيلول 1916، ع14 ذي الحجة 1334هـ) 29 أيلول 1916م، والعدد (16 ذي الحجة 1334هـ). والعدد 569، الخميس (17 رجب 1340هـ) 16 آذار 1922م، ص1.
- (32) القبلة، العدد 569، الخميس (17 رجب 1340هـ) 16 آذار 1922م، ص1، الافتتاحية (العربية والشعوبية).

- (33) القبلة، العدد 297، الخميس (12 شوال 1337هـ) 1 تموز 1919م، ص 2.
- (34) القبلة العدد 21 الخميس (29 ذي الحجة 1334 هـ) 27 أيار 1916م، ص2
- (35) القبلة، العدد 30، الاثنين (غرة صفر 1335هـ) 28 تشرين الثاني 1916م، ص1.
- (36) وعلى سبيل المثال فقد استأذن قمييز الفارسي (مع موادة العرب للفرس) العرب في اجتياز بلادهم عندما زحف على مصر، وكذلك الاسكندر الأكبر فقد هابته الأمم إلا العرب، انظر القبلة العدد 19، الخميس (22 ذي الحجة 1334هـ)، ص1.
- (37) القبلة، العدد 18، الاثنين (19 ذي الحجة 1334هـ) تشرين الأول 1916م، مقال للشيخ فؤاد الخطيب ص1.
- (38) القبلة، العدد 82، الاثنين (7 شعبان 1335هـ) حزيران 1917م، ص1.
- (39) القبلة، العدد نفسه.
- (40) القبلة، العدد 83 (10 شعبان 1335هـ) حزيران 1917م، ص1، خطبة الحكومة الهاشمية في يوم الاستقلال، ألقاها الأمير عبد الله بن الحسين، وفي هذا المعنى ايضاً العدد 241، الاثنين (16 ربيع الأول 1337هـ) 1918م، الافتتاحية (نصرة الله لا سواها أقامت لبني العرب دولة وفخاراً) ص1.
- (41) القبلة، العدد 363، الخميس (13 جمادى الثاني 1338هـ) 14 اذار 1920م، ص1.
- (42) القبلة، العدد 21، الخميس (19 ذي الحجة 1334هـ) 26 أيار 1916م، ص2، وفي هذا السياق في مقال آخر بعنوان (العربية والعرب) أكدت القبلة جمال اللغة العربية وسموها أمام عوادي الزمن، وحث المقال العرب على تأكيد لغتهم وتنقيتها من الشوائب باعتبارها أحد أركان حضارتهم وقوميتهم، انظر القبلة، العدد 14 (غرة ذي الحجة 1334هـ) ص1.
- (43) القبلة العدد 270 الخميس (2 رجب 1337 هـ) 3 نيسان 1919م، ص1.
- (44) القبلة، العدد 21، الخميس (29 ذي الحجة 1334هـ) 26 نيسان 1916م، ص1.
- (45) القبلة، العدد 220، الخميس (4 المحرم 1337هـ) 8/تشرين الاول 1918م، ص2.
- (46) القبلة، العدد 157، (10 جمادى الأولى 1336هـ)، ص1.
- (47) القبلة، العدد 184، (17 شعبان 1336هـ) 24 أيار 1918م، ص1.
- (48) القبلة، العدد 220 (4 محرم 1337هـ) 8 تشرين الأول 1918م، مقال افتتاحي بعنوان إيضاحات مولانا صاحب الجلالة الهاشمية، ص1.
- (49) حول ذلك انظر القبلة، العدد 49، الخميس (8 ربيع الثاني 1335 هـ) اشباط 1916م والعدد 52، الاثنين (19 ربيع الثاني 1335 هـ) 12 آذار 1916م، والعدد 54، الاثنين (26

- ربيع الثاني 1335هـ) آذار 1916م، والعدد 63، الخميس (جمادى الأولى 1335هـ)، والعدد 65، الخميس (6 جمادى الثانية 1335)، والعدد 94، الاثنين (20 رمضان 1335) تموز 1917م، والعدد 98، الخميس (7 شوال 1335) تموز 1917م، ص2.
- (50) القبلة، العدد 17، الخميس (15 ذي الحجة 1334هـ)، ص1، وفي هذا السياق أشارت القبلة إلى أن النهضة قامت باسم العرب ومن أجل العرب وأنه لعار على كل عربي نقله الأرض وتطله السماء أن يكون بمعزل عنها ولا يدلوه ولا يضرب فيها بسهم، انظر القبلة، العدد 70، الاثنين (24 جمادى الثانية 1335هـ)، ص1، وفي هذا السياق أيضاً انظر العدد 103، الاثنين (4 صفر الخير 1336هـ) ص1.
- (51) القبلة 220 (4 محرم 1337) ص1.
- (*) ويقصد بها منطقة الطفيلة في الأردن حينما كان الأمير فيصل متجهاً نحو دمشق.
- (52) القبلة، العدد 156، الاثنين (7 ربيع الثاني 1336هـ)، ص1.
- (53) القبلة، العدد 529، الخميس (25 صفر 1340هـ) 1 كانون الأول 1921م، ص1.
- (54) القبلة، العدد 220، الخميس (4 محرم 1337هـ) 8/تشرين الاول 1918م، ص1.
- (55) القبلة، العدد 138، الخميس (20 صفر 1336هـ) 7 كانون الثاني 1917م، ص1. وكرر الملك في هذا المعنى في خطابه في العدد 722 الاثنين (19 ربيع الأول 1342هـ) 24 أيلول 1923م، ص1، والعدد 737 (ربيع الثاني 1342هـ) 15 تشرين الثاني 1923م. وكان الملك فيصل يردد دائماً قوله: "أنا عربي قبل أن أكون مسلماً"، انظر: علي راغب حيدر أحمد: مجلة العرفان ونظرتها إلى التاريخ 1909-1960م. جامعة القديس يوسف، بيروت، 2000م، ص 96.
- (56) القبلة، العدد 52 (الاثنين 19 ربيع الثاني 1335هـ) 16 شباط 1917م، ص1.
- (57) القبلة، العدد 53، الخميس (22 ربيع الثاني 1335هـ) 17 شباط 1917م، ص2-3.
- (58) جرجي حداد هو ابن سارة اليازجي، الذي أنشأ في سان باولو (البرازيل) جريدة القلم الحديدي، عام 1913م، انظر سعد أبو دية، الفكر السياسي في قصائد الثورة العربية الكبرى (مجلة المؤرخ) العدد 44، 1991، ص 14.
- (59) القبلة، العدد 52، الاثنين (19 ربيع الثاني 1335هـ) 16 شباط 1917م، ص2، ونشرت مقالات أيضاً لخليل مطران ورفيق رزق سلوم وغيرهم من الشعراء والكتاب وكانت القبلة تهتم بالجاليات العربية في المهجر حول ذلك انظر: القبلة العدد 107، الاثنين (29 ذي القعدة 1335هـ) ص2.

- (60) وهو من الشعراء العرب المسيحيين في أمريكا، انظر، القبلة، العدد 52، ص 3.
- (61) القبلة، العدد 220، الخميس، (4 محرم 1337) 8 تشرين الأول 1918م، ص1.
- (62) القبلة، العدد 223، الاثنين، (15 محرم 1337) 20 تشرين الأول 1918م، ص1.
- (63) القبلة، العدد 270، الخميس (2 رجب 1337) 3 نيسان 1919م، الافتتاحية (ظلال الآمال)، ص1.
- (64) القبلة، العدد 305، الخميس (10 ذي القعدة، 1337)، ص2.
- (65) القبلة، العدد 306، الاثنين (14 ذي القعدة، 1337)، ص1.
- (66) القبلة، العدد 334، الاثنين (1 ربيع الأول، 1338) 14 تشرين الثاني 1919م، ص1.
- (67) القبلة العدد 234، الخميس (23 صفر 1337) 27 تشرين الثاني 1918م، الافتتاحية، ص1.
- (68) القبلة العدد 307، الخميس (17 ذي القعدة 1337) الافتتاحية (واجبات القومية والوطنية)، ص1.
- (69) ولا شك بأن القوميون السوريين الذين كانوا حول الملك حسين كان لهم أثر في إظهار القومية والوطنية في جريدة القبلة، فالشريف حسين هو الذي كان يشرف على جريدة القبلة وسياستها وإدارتها وله العديد من المقالات لم تذكر باسمه وخاصة افتتاحيات الجريدة التي لم يذكر اسم كاتبها، حول ذلك انظر خير الدين الزركلي ما رأيت وما سمعت، المطبعة العربية، مصر، 1923م، ص135؛ أحمد السباعي: تاريخ مكة، نادي مكة الثقافي، مكة المكرمة، 1984م، ص239. وكان مديرو جريدة القبلة من المتنورين العرب فأول مدير للجريدة كان محب الدين الخطيب الذي ظهر اسمه في العدد الثاني، انظر القبلة، العدد 2، الخميس (18 شوال 1334) 18 آب 1916م، ص1، حسن الصبان وكان يقيم في مكة المكرمة.
- (70) سهيلة الريماوي: جانب من فعاليات محب الدين الخطيب (مجلة دراسات تاريخية، العدد 33، 34)، 1989، ص32-33.
- (71) القبلة، العدد 279، الاثنين (5 شعبان 1337) آيار 1919م، ص1.
- (72) القبلة، العدد 299، الخميس (19 شوال 1337) 17 تموز 1919م، ص1.
- (73) القبلة، العدد 308، الاثنين (21 ذي القعدة 1337) ص1.
- (74) القبلة، العدد 242، الخميس (22 ربيع الأول 1337) 26 كانون الأول، 1919م، ص1.
- (75) القبلة، العدد 613، الاثنين (5 محرم 1341) 27 آب 1922م، ص1.

- 76) للمزيد عن دور عوني عبدالهادي في الحركة العربية، انظر شهناز أحمد فلكي: عوني عبدالهادي ودوره في الحركة العربية، (1909-1939م)، رسالة ماجستير، اليرموك، 1999م.
- (77)القبلة، العدد 614، (الخميس 8 محرم 1341) 31 آب 1922م، ص2.
- (78) القبلة، العدد 250، الخميس (21 ربيع الثاني 1337) 6 شباط 1919م، ص1، الافتتاحية (الوحدة السورية).
- (79) القبلة، العدد 235، الاثنين (27 صفر 1337) 2 كانون الأول 1918م، ص1.
- (80) القبلة، العدد 262، الخميس (4 جمادى الثانية 1337) 4 آذار 1919م، ص1.
- (81) القبلة، العدد 345، الاثنين (4 ربيع الثاني 1337) 2 كانون الثاني 1920م، ص1.
- (82) القبلة العدد 254، الخميس (5 جمادى الاولى 1337) 16 شباط 1919م.
- (83) القبلة، العدد 614، الخميس (8 محرم 1341) 30 آب 1922م، ص1
- (84) القبلة، العدد 433، الاثنين (4 ربيع الأول 1339) 5 تشرين الثاني 1920م، ص1.
- (85) القبلة، العدد 412، الاثنين (18 ذى الحجة 1339) 1 أيلول 1920م، ص1
- (86) القبلة، العدد 465، الخميس (30 جمادى الثانية 1339) 10 آذار 1921م، ص1
- (87) القبلة، العدد 443، الخميس (13 ربيع الثاني 1339) 27 كانون الأول 1920م، ص1.
- (89) القبلة، العدد 495، الاثنين (31 شوال 1339) 15 أيار 1922م، ص1.
- (90) القبلة، العدد 585، الخميس (14 رمضان 1334) 14 أيار 1922م، ص1.

المصادر والمراجع

جريدة القبلة

الدوري، عبدالعزيز. (1985). التكوين التاريخي للأمة العربية، القاهرة: دار المستقبل.

واقع التمكين الأسري في المناهج التعليمية في الأردن

أحلام محمود مطالقة*

ملخص

يهدف البحث إلى بيان واقع التمكين الأسري في المناهج التعليمية في الأردن من خلال توضيح دواعي الحاجة إلى التمكين الأسري وأسسه.

ولتحقيق هدف الدراسة تم استخدام أسلوب تحليل المحتوى لكتب التربية الإسلامية واللغة العربية للصفوف الثامن الأساسي والأول الثانوي الشامل في الأردن، ومن هذه الكتب الأربعة تكونت عينة الدراسة ومجتمعها.

وقد اعتمد التحليل استمارة تحليل اعتمدت الجملة وحدة للتحليل، أما فئات التحليل فشملت الأسس الثمانية للتمكين الأسري وهي: الأساس العقدي، والتعبدي، والأخلاقي، والعلمي الفكري، والعاطفي النفسي، والاجتماعي، والصحي الجسمي، والاقتصادي.

وقد خلص البحث إلى مجموعة من النتائج أهمها: أن كتب التربية الإسلامية واللغة العربية قد اهتمت بأسس التمكين الأسري، مع وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين هذه الكتب في تضمينها لتلك الأسس.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين وبعد:

فإن الأسرة كانت وما زالت المؤسسة التربوية الأكثر أهمية؛ نظراً للأدوار المختلفة التي تؤديها، حيث إنها أول مؤسسة تربوية يتعامل معها الفرد؛ لذا تشكل الأسرة العامل الأساسي في تشكيل شخصية الفرد ورسم أبعادها مستقبلاً، ومن هنا كان اهتمام الإسلام بتلك المؤسسة، حيث وضع لها مجموعة من الضوابط والقواعد قبل وأثناء إنشائها لضمان استمرارية وجودها على أساس من الثبات والاستقرار، ولتأدية وظائفها في ضوء منهاج الإسلام وتعليماته.

وتزداد أهمية الأسرة وضرورة إعادة تمكينها لقيامها بوظائفها المطلوبة منها في خضم الأوضاع التي نعيشها اليوم، حيث بدأت طلائع الظواهر السلبية تطفو على سطح مجتمعاتنا العربية

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2012.

* قسم الدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

والإسلامية، مما يهدد حصن الأسرة المسلمة، وهذا يتطلب إعادة الدور الحقيقي للأسرة، ومساعدتها على النهوض بأعبائها وتحسينها ضد ما يهدد وجودها أو يضعف تأثيرها.

ومن هنا وجب على المناهج الدراسية أن تسهم في هذا المجال، إذ إن المناهج الدراسية -بمفهومها الشامل- تعد العامل الرئيس في إيجاد المخرجات التربوية القادرة على الخروج من الأزمة التي نمر بها، بتحقيق الكفايات الضرورية لدى الناشئة، فعلى المستوى المعرفي يتوقع من المناهج أن تعرف الطالب بحقوق الإنسان الأساسية، وأن توضح له أهمية الأسرة ووظائفها، والحقوق والواجبات المتبادلة بين أفرادها، وفي مجال الاتجاهات والقيم عليها أن تسعى إلى تحقيق اتجاهات سليمة يمثّلها الطالب في سلوكه، مع تقدير الآخرين واحترامهم وتقبل آرائهم، وتحقيق الوعي الكامل تجاه أفراد الأسرة والمجتمع المحيط، وفي مجال المهارات على المناهج أن تسعى إلى إكساب الطالب القدرة على توظيف هذه القيم والحقوق والواجبات في مجالات الحياة الأسرية والاجتماعية توظيفاً صحيحاً يتوافق ومنهج الإسلام وحدوده.

مشكلة الدراسة وأهدافها:

تتحدد مشكلة الدراسة في السؤال المحوري الآتي:

ما واقع التمكين الأسري في المناهج التعليمية في الأردن؟

ويتفرع عن السؤال المحوري الأسئلة الفرعية الآتية التي بالإجابة عنها تتحقق أهداف

الدراسة:

- ما دواعي الحاجة إلى التمكين الأسري؟ - ما أسس التمكين الأسري؟
- ما واقع التمكين الأسري في مناهج اللغة العربية والتربية الإسلامية في الأردن؟
- هل هناك فروق ذات دلالة إحصائية بين كتب اللغة العربية والتربية الإسلامية في تضمينها لأسس التمكين الأسري؟

محددات الدراسة

يمكن تعميم نتائج هذا البحث في ضوء المحددات الآتية:

- كتب اللغة العربية (مهارات الاتصال) والتربية الإسلامية للصفوف الثامن الأساسي والأول الثانوي الشامل.
- أسس التمكين الأسري المتضمنة في كتب اللغة العربية والتربية الإسلامية للصفوف الثامن الأساسي والأول الثانوي الشامل في الجوانب الآتية: العقيدية، والتعبديّة، والأخلاقية، والعلمية الفكرية، والعاطفية النفسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والصحية الجسمية.

مصطلحات الدراسة:

الأسرة: هي مؤسسة تنشأ من ارتباط رجل بالغ عاقل بامرأة بالغة عاقلة بعقد صحيح للعيش معاً بشكل دائم، وليقوم كل منهم بدوره المنوط به وفق حقوق وواجبات متبادلة.

التمكين الأسري: هي منظومة متكاملة تسعد الأسرة في الدارين الدنيا والآخرة في جوانبها العقدية، والتعبدية، والأخلاقية، والعلمية والفكرية، والعاطفية والنفسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والصحية والجسمية، وتحصينها ضد ما يهددها.

مرحلة التعليم الأساسي: وهي المرحلة الدراسية التي تأتي في بداية السلم التعليمي النظامي في الأردن، وتتكون من 6 سنوات في المرحلة الأساسية الدنيا، و4 سنوات في المرحلة الأساسية العليا وتمثلها الصفوف السابع والثامن والتاسع والعاشر الأساسي، ويلتحق بها الطلبة في الغالب من فئات العمر (12-15) عاماً، ويكون التعليم فيها إلزامياً.

مرحلة التعليم الثانوي: وهي المرحلة الدراسية التي تأتي في نهاية السلم التعليمي في الأردن، ويمثلها الصفان الأول والثاني الثانويان بفروعه المختلفة، ويلتحق بها الطلبة في الغالب من فئات العمر (16-18) عاماً، ويكون التعليم فيهما اختيارياً.

كتب التربية الإسلامية: وهي مجموعة الموضوعات التي تتضمنها تلك الكتب وما تحويه من مفاهيم وحقائق ومهارات وقيم واتجاهات، وتشمل: القرآن الكريم وعلومه، والحديث الشريف وعلومه، والعقيدة الإسلامية، والسيرة النبوية والتراجم، والفقه وأصوله، والأخلاق والتهديب، والنظم والفكر الإسلامي، وتتعلق هنا بكتابي التربية الإسلامية للصف الثامن الأساسي والثقافة الإسلامية للمرحلة الثانوية (المستوى الأول والثاني).

كتب اللغة العربية (مهارات الاتصال): وهي مجموعة الموضوعات التي تضمنتها تلك الكتب وما تحويه من مفاهيم وحقائق ومهارات وقيم واتجاهات وتشكل: المحادثة، الاستماع، والقراءة، والكتابة، وتتعلق هنا بكتابي اللغة العربية (مهارات الاتصال) للصف الثامن الأساسي، والمرحلة الثانوية (المستوى الأول والثاني).

المبحث الأول: أسس التمكين الأسري

1- الأساس العقدي: وهو الأساس الأول الذي تبنى عليه الأسرة، بل وتعتمد عليه الجوانب والأسس الأخرى، إذ ببناء العقيدة الصحيحة يسهل بناء كل ما نريد بسهولة ويسر، ولعل ذلك هو السبب في تركيزه صلى الله عليه وسلم في المرحلة المكية على بناء الجانب العقدي في النفوس، ثم لما نزلت التشريعات المختلفة من عبادات ومعاملات في العهد المدني سهل

على النفوس تقبلها، ومن هنا كان على الأسرة أن تقوم على هذا الأساس ؛ فهي "أعمق وأشمل ما يعمر النفوس ويؤثر فيها ويكيف مشاعرها، ويحدد تأثراتها واستجاباتها، ويعين طريقها في الحياة كلها، وإن كان الكثيرون يخدمهم أحياناً كمون العقيدة أو ركودها، فيتوهمون أنها شعور عارض يمكن الاستغناء عنه ببعض الفلسفات الفكرية، أو بعض المذاهب الاجتماعية، وهذا وهم وقلة خبرة بحقيقة النفس الإنسانية ومقوماتها الحقيقية"⁽¹⁾.

ومن هنا كان اهتمام الإسلام بقيام الأسرة منذ بداية تكوينها على هذا الأساس وذلك من خلال الجوانب الآتية:

1- تحريم الزواج من مشرك: فلا بد أن تقوم الأسرة في أساسها على رباط حقيقي يلتقي في الله، ويقوم على منهجه في الحياة، ومن هنا جاء الحكم الجازم "وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَالْأُمَّةَ مُؤْمِنَةً خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ " (البقرة: 221).

كما وضع أحكاما تشريعية في زواج المسلم بكتابية، وحرّم زواج المسلمة من كتابي، ومن هنا كان التوجيه النبوي إلى الأزواج باختيار كل منهما الآخر على هذا الأساس.

2- إحياء بذرة التوحيد في نفس الطفل منذ قدومه: لذلك من الأحكام التي شرعها الإسلام للمولود الأذان في أذنه اليمنى والإقامة في أذنه اليسرى، وذلك بعد الولادة مباشرة، حتى يكون أول شيء يلقى في أسماعهم ذكر الله، وهذا ما يؤكد ابن القيم⁽²⁾، حول سر الأذان والإقامة "أن يكون أول ما يقرع سمع الإنسان كلمات الأذان المتضمنة لكبرياء الرب وعظمته، والشهادة أول ما يدخل بها في الإسلام، فكان ذلك كالتلقين له شعار الإسلام عند دخوله إلى الدنيا" وفي الحديث الذي رواه أبو رافع عن أبيه قال: " رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن في أذن الحسن بن علي حين ولدته فاطمة"⁽³⁾.

3- تثبيت الاعتقاد بالله الواحد الأحد، وتنزيهه ومراقبته في السر والعلن، واللجوء إليه في السراء والضراء، وما يتبع ذلك من الإيمان بأركان العقيدة الأخرى، قال تعالى: "فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ" (الزمر: 2، 3) "وتوحيد الله وإخلاص الدين له، ليس كلمة تقال باللسان، وإنما هو منهاج حياة كامل، يبدأ من تصور واعتقاد في الضمير، وينتهي إلى نظام يشمل حياة الفرد والجماعة، والقلب الذي يوحد الله، يدين لله وحده، لا يحنى هامته لأحد سواه، ولا يطلب شيئاً من غيره، ولا يعتمد على أحد من خلقه"⁽⁴⁾.

4- ترسيخ محبة النبي صلى الله عليه وسلم، وحب آل بيته، ويتمثل ذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه، واتخاذ القدوة الحسنة في كل شؤونه، قال تعالى: " قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ " (آل عمران: 31).

5- تعلم الطفل القرآن الكريم والمسارة إلى حفظه: فمن واجبات الوالدين "أن يبدأ بتعليم الأولاد القرآن الكريم منذ الصغر، وذلك ليتوجها إلى اعتقاد أن الله تعالى هو ربه، وأن هذا كلامه تعالى، وتسري روح القرآن في قلوبهم، ونوره في أفكارهم ومداركهم وحواسهم، وأن ينشأ على محبة القرآن والتعلق به، والانتماء لأوامره والانتفاء عن نواهيه، والتخلق بأخلاقه"⁽⁵⁾.

ومن هنا انطلق الصحابة يتعلمون ويعلمون القرآن الكريم، تأسيماً بقوله صلى الله عليه وسلم: " خيركم من تعلم القرآن وعلمه "⁽⁶⁾.

وجعل ابن خلدون (ت 808هـ) "تعليم الولدان القرآن شعار الدين، أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان"⁽⁷⁾.

وهذه الجوانب في العقيدة الإسلامية تنمي عند الأطفال الحد الأدنى من التصورات الإسلامية عن الكون والإنسان والحياة، ويمكن للوالدين القيام بوسائل مختلفة في سبيل غرس العقيدة منها⁽⁸⁾:

- 1- ضرورة أن يكون الوالدان قدوة في سلوكهم وأفعالهم بما يتناسب والعقيدة الصحيحة.
- 2- استخدام الأدلة البديهية الفطرية والحقائق العلمية الحديثة للإقناع، لتكوين عاطفة إيمانية قوية دافعة إلى السلوك القويم، بما يتناسب وقدراتهم العقلية والعمرية.
- 3- تشجيع ميل الأطفال التلقائي إلى استطلاع عجائب الكون وبديع خلقه.
- 4- التبصير بوسائل الملحين ودحض حججهم.
- 5- الإجابة عن أسئلتهم فيما يتعلق بأمور العقيدة بصدق وأمانة وبأسلوب يتفق مع سنهم.
- 6- تعويدهم على الدعاء واللجوء إليه في كل أحوالهم.
- 7- ربطهم بالدين من خلال المناسبات الدينية المختلفة مثل غرة رمضان والعيدين والهجرة النبوية.
- 8- تحريرهم من الخرافات والضلالات التي تؤثر في بناء العقيدة السليمة.
- 9- تمتعهم بقراءة قصص الأنبياء، وسيرة السلف الصالح، لتكون دافعاً في سلوكهم وتضحياتهم في سبيل العقيدة.

2- الأساس التعبدية: يعمل الإسلام على تحقيق الهدف من وجود الإنسان وهو عبادته، قال تعالى: " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ " (الذاريات:56) والعبادة لا تقتصر على العبادات والشعائر المخصوصة فحسب، وإنما هي أعمق من ذلك، ليتمثل فينا قوله تعالى: " قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " (الأنعام:162)

وبذلك تشمل العبادة أعمال الإنسان جميعها، إذا قصد بها إرضاء الله تعالى ولكن لا يمكن أن نصل إلى العبودية بشموليتها إلا بعد تدريب على العبادات المخصوصة، التي هي طريق لكل عمل يرضي الله تعالى، وتقع مسؤولية البناء التعبدية على الوالدين بإحياء شعائر الدين في الأسرة، وذلك بتطبيقها بأنفسهما، والأخذ بيد الأولاد للتقيد بمبادئ الدين والرضوخ لأوامره.

3- الأساس الأخلاقي: إذا كان الخلق هو: حال للنفس داعية إلى أفعالها من غير فكر ولا روية، وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعياً ومن أصل المزاج... ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدريب⁽⁹⁾؛ فمعنى ذلك أنه يمكن تدريب الناشئة على الخلق، لأن من الأخلاق ما يمكن اكتسابه، ومن هنا يأتي دور الوالدين في بناء هذا الأساس، وهذه ما يؤكد الغزالي⁽¹⁰⁾ بقوله: اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها، والصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش، ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه، وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له مؤدب، وإن عود الشر وأهمل شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له".

وعلى الوالدين الأخذ بعين الاعتبار طريقة التوجيه المناسبة لغرس القيم الأخلاقية في نفس الطفل باختلاف مراحل النمو، ويشير الإمام الغزالي⁽¹¹⁾ إلى قيمة هذا التفاوت من الناحية التربوية قائلاً: "وهذا التفاوت يعهد لكل شخص من صباه إلى كبره، إذ هو في بدء صباه لا يمكن زجره وحثه بالحمد والذم، بل بمطعم حاضر أو ضرب ناجز يحس به، فإذا صار مميزاً مقارباً للبلوغ أمكن زجره وحثه بالمحمده والمذمة، فطريق زجره مذمة المزجور عنه، وتقبيح حال متعاطية، وطريق ترغيبه في تعلم الأدب وغيره بكثرة الثناء على آتيه، وكثرة الذم لمجتنبه فيؤثر ذلك تأثيراً ظاهراً، وأكثر الخلق لا يتجاوزون هاتين المرتبتين إلى المرتبة الثالثة... التي هي العزيز الفذ رتبة من لا يبتغي إلا التقرب إلى الله، وطلب مرضاته، وابتغاء وجهه". ونستنتج من كلام الغزالي أن هناك ثلاث مراحل للنمو الأخلاقي:

1- المرحلة المادية الحسية: وتمتد هذه المرحلة من فترة الطفولة المبكرة إلى سن التمييز، حيث تتكون لديه المبادئ الأخلاقية بالثواب والعقاب الماديين، لأن الطفل في

هذه المرحلة لا يستطيع فهم المعاني المجردة، فلا بد من ربط الثواب والعقاب بشيء مادي ملموس.

2- المرحلة المعنوية العقلية: وتمتد من مرحلة التمييز إلى ما قبل البلوغ قليلاً، ويتربى خلقياً بمعاني المدح والذم.

3- المرحلة المثالية: وهي مرحلة تقديس الأوامر والنواهي الخلقية، وتمتد من مرحلة البلوغ إلى ما بعدها، وقد تتداخل زمنياً مع المرحلة التي قبلها، وهي مرحلة مراقبة الله في السر والعلن، وهنا نحتاج إلى التوجيه المباشر وغير المباشر، واستخدام الأساليب المناسبة لإقناعه بأهمية القيم الأخلاقية، وتكوين الشعور بالمسؤولية الأخلاقية أمام الله تعالى.

4- الأساس الاجتماعي: ويقصد بالتنشئة الاجتماعية "أن يتم تدريب الطفل عن قصد بواسطة آخرين ليتشرب قيم مجتمعه وعاداته ومعتقداته والأعراف السائدة، وإعداده ليتم استيعابه للقيام بدوره كشخص صالح في هذا المجتمع"⁽¹²⁾.

وبما أن الأسرة هي المحضن الأول للطفل، فيقع على عاتقها أول أسس التنشئة الاجتماعية، فيقوم الوالدان بإعداد الطفل ليسلك السلوك القويم والتفاعل مع الآخرين وفق أحكام الإسلام وهدية، ولا سيما إن الإسلام يربط ما بين العقيدة السليمة والواجبات الاجتماعية المشروعة، وبين تقويم الإنسان على مدى تعاطفه وتعاونه الإنساني وحرصه على نفع الآخرين⁽¹³⁾. قال تعالى: "خُذُوهُ فَغُلُّوهُ {30} ثُمَّ الْجَحِيمِ صَلُّوهُ {31} ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ {32} إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ {33} وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ" (الحاقة: 30-34)، فسبب دخوله جهنم شركه ثم عدم قيامه بواجبه الاجتماعي تجاه المساكين، وقد سأل أعرابي النبي صلى الله عليه وسلم عن عمل يقربه من الجنة ويباعده عن النار، فقال: "تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم"⁽¹⁴⁾.

ويبدأ النمو الاجتماعي بصفه مبدئية عن طريق التفاعل الأسري، الذي يلعب دوراً مهماً في تكوين شخصية الطفل وتوجيه سلوكه، فالسمات الأولية للسلوك الاجتماعي للفرد ترجع إلى المرحلة الأولى من حياته، وإلى علاقاته بأفراد أسرته، واتجاهات هؤلاء الأفراد، وأنماط سلوكهم، وتعمل العلاقات الأسرية على تطبيع الطفل وتنشئته على الخصائص والسمات الاجتماعية السائدة في الأسرة.

ومن هنا فإن المنهج الإسلامي في التربية يبدأ مبكراً، منذ بداية المشاركة الزوجية التي تتطلب التسامح والتوافق، والتجديد المستمر لعرى الروابط الطيبة بين الزوجين، بلفتات كريمة واتجاهات إيجابية ومن ثم ينعكس هذا على الأسرة بكاملها⁽¹⁵⁾.

وبالتربية الاجتماعية تتحقق مبادئ الإخاء والتعاطف والتواد، والتكافل والتناصح والتراحم، ومن هنا لا بد من تنشئة الطفل عليها، مع تعويده على الالتزام بالأداب الاجتماعية العامة كآداب الحديث والسلام، وآداب الطعام والشراب، وآداب الجلوس، وآداب الزيارة، وآداب عيادة المريض، مع تقوية اتصال الطفل مع الآخرين، وتوجيه الأبناء إلى حسن اختيار الأصدقاء⁽¹⁶⁾.

وقد أشار ابن قدامه المقدسي (ت 620هـ)⁽¹⁷⁾. إلى مسؤولية الآباء تعليم أبنائهم بعض هذه الآداب فـ "يحفظه من قرناء السوء، ولا يُعوّده التمتع، ولا يُحبب إليه أسباب الرفاهية، فيضيع عمره في طلبها إذا كبر،... وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يعلم آداب الأكل... ويحبب إليه الثياب البيض.. ويمنعه من مخالطة الصبيان الذين عودوا التمتع".

ومن وسائل التربية الاجتماعية اصطحاب الطفل إلى مجالس الكبار، فهذا عمر (ت 13هـ) - رضي الله عنه- يصحب ابنه إلى مجلس رسول الله صلى عليه وسلم، فعن ابن عمر -رضي الله عنه- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أخبروني بشجرة مثلها مثل المسلم تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ولا تحت ورقها، فوقع في نفسي النخلة، فكرهت أن أتكلم"⁽¹⁸⁾.

وإرسال الطفل لقضاء الحاجات، فعن عبد الله بن عباس (ت 68هـ) -رضي الله عنهما- قال: كنت أعب مع الصبيان، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فتواريت خلف باب، قال: فجاء فحطاني خطأ، وقال: اذهب فادع لي معاوية⁽¹⁹⁾.

وكذلك تعويد الطفل سنة السلام، فعن أنس -رضي الله عنه- انه مرَّ على صبيان فسلم عليهم، وقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلُه"⁽²⁰⁾.

والحقيقة يعتبر إعداد الطفل المسلم في جانبه الاجتماعي هو جوهر الإسلام نظراً لأن الإسلام هو دين معاملة في المقام الأول تحريكاً وتيسيراً لأمر المسلمين ولم يترك الإسلام تعاملًا إلا وقد وضع له كياناً وحدوداً ونصوصاً وحسن معاملة⁽²¹⁾.

5- الأساس النفسي والعاطفي: يتأثر الفرد بالجو النفسي المهيمن على أسرته وبالعلاقات القائمة بين أهله، ويكتسب اتجاهاته النفسية وعواطفه بتقليده لهم، والأسرة المستقرة المطمئنة تعكس هذا الاستقرار والاطمئنان على حياة الطفل، فتشبع حاجته إلى الأمن، وتهيئ له جواً سليماً لنموه.

وإذا توافر هذا الجو المثالي تكوّنت شخصيات إيجابية متكيفة مع نفسها ومع الآخرين، قادرة على تجنب كل ما يعصف بحياتها، ويسبب لها الاضطراب والقلق، وتساعد الأفراد على تأدية أدوارهم في الحياة في أحسن صورة مما يجعلهم في حالة من الرضا والسعادة والثقة بالنفس⁽²²⁾.

فالصحة النفسية هي: التوافق التام بين الوظائف النفسية المختلفة، مع القدرة على مواجهة الأزمات النفسية العادية التي تطرأ على الإنسان، ثم الإحساس الإيجابي بالسعادة والرضا⁽²³⁾. وإذا كان الهدف من الأسرة هو تحقيق السكينة والمودة والرحمة، فالصحة النفسية هدف أساس من أهداف بناء الأسرة، وتتعلق أساساً بالعلاقة الطيبة بين الزوجين، فوصية الله تعالى: "وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ" (النساء: 19) تتضمن كل قول وفعل طيب للزوجة، وبالتالي تنعكس آثار هذه المعاملة الحسنة على البيت فيهنأ كل من فيه.

ولتحقيق النفسية السوية جعل الإسلام من أهم حقوق الطفل حق النسب للوالدين، قال تعالى: "ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ" (الأحزاب: 5) إذ أن إنكار الوالد ولده يعرضه للخزي، وللشعور بالنبذ والذنب، وهما أخطر ما يؤثر في نفسية الطفل⁽²⁴⁾.

إضافة إلى حق الرضا والرعاية، التي لا تتعلق بأمور مادية بدنية فحسب وإنما تمتد لتحقيق الاحتياجات النفسية والعاطفية للطفل، ومن ثم الشعور بالأمن والرعاية والاطمئنان، وبالتالي إعداد شخصية سوية تتمتع بصحة نفسية سوية في تصرفاتها السلوكية، ومن هنا كان اهتمام الإسلام بالطفل نفسياً في مراحل مبكرة ومن ذلك معاملتهم على أساس الملاطفة واللين وخفض الجناح، فعن البراء بن عازب -رضي الله عنه- قال: رأيت الحسن على عاتق النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول اللهم إني أحبه فأحبه⁽²⁵⁾. ويؤخذ من هذا الحديث كما يؤكد الإمام النووي استحباب الولي مداعبة وملاطفة الصبي وإدخال السرور إلى نفسه، والتواضع له ومحبته، وكذلك في الحديث الذي رواه أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً، وكان لي أخ يقال له أبو عمير، قال: أحسبه كان فطيماً، فكان إذا جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأه، قال: أبا عمير ما فعل النغير، قال: فكان يلعب به⁽²⁶⁾. وهذا إقرار من النبي صلى الله عليه وسلم على حاجة الطفل للعب مما يدخل السرور إلى نفسه، وفيه استحباب تكتية الصغير مما يولد شعوراً بالثقة بالنفس، وإشعاره بقيمته وكيانه، ومن ذلك تسليمه صلى الله عليه وسلم على الصبيان⁽²⁷⁾. وتغييره الأسماء القبيحة إلى حسنة، فالاسم الحسن له انعكاساته النفسية على صاحبه، ومن أساليب الرعاية النفسية العدل والمساواة بين الأولاد في المحبة والعطاء ذكوراً وإناثاً، حيث "أن عدم العدل بين الأبناء توظف فيهم مشاعر

القلق، والطفل القلق يحس دوماً بالعذاب النفسي، ولهذا فإنه لا يحل لأي شخص أن يفضل بعض أولاده على بعض في العطاء لما يترتب على ذلك من زرع العداوة والبغضاء" (28).

وهذا ما أكده النعمان بن بشير (ت 64هـ) فيما يرويهِ رضي الله عنه "أن أباه أتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إني نحتت ابني هذا غلاماً كان لي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أكل ولدك نحتته مثل هذا؟ قال: لا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فارجه" (29).

وللرعاية النفسية السوية يجب على الوالدين الابتعاد عن الحماية الزائدة للطفل حيث تؤدي هذه الحماية إلى شخصيه تابعة مدعنه ومهزوزة، لا قدرة لها على اتخاذ القرار لتوجيه حياتها أو مستقبلها، وذلك نتيجة اعتياد الطفل لظاهرة التبعية للأخريين مع الشعور بعدم الكفاية والتردد، وقلة المبادرة والرغبة المستمرة في الاعتماد على الآخرين، وعلى النقيض من ذلك القسوة على الطفل، وتكليفه فوق حدود قدراته، لأن ذلك يولد لديه الشعور بالإحباط، وقد جعل ابن خلدون فصلاً في مقدمته سماه في أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم، وعلل ذلك بأن القهر يضيق على النفس ويذهب بنشاطها ويحمل على الكذب والخبث (30).

وكذلك البعد عن وصف الطفل بصفات تقدر ذاته كألفاظ الغباوة والبلادة، مع الابتعاد عن كثرة اللوم والعتاب إذا صدر منه فعل قبيح، فيقول الغزالي (ت 505هـ) (31) "ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه".

ومما يقع به الوالدان أحياناً مقارنة الأبناء بين بعضهم البعض؛ مما يولد الغيرة أو الحقد والبغض بينهم، فيجب الاعتراف بالفروق الفردية والقدرات الذاتية لكل فرد، ومن هنا يجب توجيه كل فرد إلى العمل الذي يتناسب وقدراته.

6- الأساس الفكري والعلمي: التربية العقلية في عمومها "تنمية القدرات العقلية المختلفة بحسب ما تسمح به الاستعدادات الفطرية والوراثية الموجودة في كل فرد" (32).

أما التربية العقلية في الإسلام فهي ذلك النشاط العقلي والذهني المنظم الذي يعتمد في أصوله ومركزاته على تعاليم القرآن والسنة النبوية المطهرة، ثم العلوم النافعة والضرورية حتى يستفيد العقل من تلك العلوم، وما تحوي من خبرات، ويحول هذه الخبرات إلى سلوك في التفكير من أجل الوصول إلى معرفة بأن الله خالق الكون ومبدعه، والتوجه إليه بالعبادة وحده، وسلوك في التطبيق من أجل استغلال الطاقات التي سخرها الله للإنسان، وذلك لإعمار الأرض وإصلاحها وترقية الحياة فيها، كما تشمل التربية العقلية في الإسلام على الطرق التي ينبغي إتباعها، فيما

يختص بالمحافظة على العقل وتحصينه ضد الأفكار الفاسدة والأمراض المدمرة والعادات الضارة، وذلك بـغية الوصول إلى الكمال البشري المطلوب⁽³³⁾.

ومن الوسائل التي يمكن اتباعها لتحقيق التربية العقلية السليمة⁽³⁴⁾:

- 1- أن تقدم المعلومات والمعارف تبعاً لطبيعة النمو لدى الطفل، ومن ذلك عدم تقديم المعلومات المجردة للطفل في مراحله الأولى لأن ذلك يؤدي إلى عدم فهمه وبالتالي إعاقة نموه إضافة إلى عدم ثقته بنفسه، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة"⁽³⁵⁾.
- 2- أن تقدم إليه المعلومات بطريقة شاملة وبطريقة نقدية، تعلم الطفل التفكير الاستقلالي.
- 3- أن تقدم إليه معلومات موثقة وصحيحة ومن هنا يخطئ بعض الآباء إن يقدمون لأبنائهم معلومات غير صحيحة إما لتخويفهم أو لصرفهم عن إجابة بعض أسئلتهم واستفساراتهم عن بعض الأمور ومن هنا ينبغي أن يعرف الآباء كيف يجيبون عن أسئلة أبنائهم بطريقة مقنعة ومناسبة لمستواهم، وأن تكون إجابة صحيحة لا تلفيق فيها ولا تشويه، وبالتالي نعلمهم طريقة التفكير الصحيح، بعيداً عن التفكير الخرافي.
- 4- تدريب الأبناء على طرق استخدام المعلومات وحل المشكلات في الوقائع العملية، بحيث تكون المشكلة متناسبة ومستواهم.
- 5- إثارة انتباه الأبناء إلى ظواهر الكون المختلفة، لنعودهم التفكير فيها وصولاً إلى خالقها وبالتالي نجمع في تعليمنا لأولادنا بين العلم الديني والدنيوي.
- 6- غرس حب العلم في نفس الطفل وبيان شرف العالم والمتعلم، لينشأ الطفل على حب العلم وأهله وتقديرهم.
- 7- اختيار المدرس الصالح والمدرسة الصالحة.
- 8- ضرورة الاعتناء بوجود مكتبة في البيت تسهم في بناء المادة الفكرية والعلمية للأبناء.
- 9- توجيه الطفل وفق ميوله العلمية، مع مراعاة الفروق الفردية، فمحيط الأسرة يستطيع أن ينمي في الطفل المواهب الكامنة والقدرات والميول، بدلاً من فرض الأبوين ميولاً معينة على أبنائهم، أو جعلهم نسخاً كربونية عنهم.
- 10- فتح المجال للحوار والمناقشة وحرية السؤال في البيت.
- 11- البدء بتحميلهم المسؤولية تدريجياً عن طريق الاعتماد على أنفسهم في إنجاز واجباتهم المدرسية وممارسة نشاطهم، والتعود على التخطيط لها بما يتناسب وأعمارهم.
- 12- إبعادهم عن كل ما يضر العقل مادياً ومعنوياً.

7- الأساس البدني والصحي: إن الإسلام بنظرته الشاملة لا يهمل النواحي الجسدية والصحية، لأن عدم الأسرة بهذا المقوم يعني الخلل في أدائها لوظائفها، ومن هنا كان من الضرورة بمكان بأن تقوم الأسرة على هذا الأساس ابتداءً من الأبوين وانتهاءً بالأبناء، ونقصد بالتربية الصحية: "تهيئة الفرد ليكون سليم الجسم قوي البنية، قادراً على مواجهة الصعاب التي تعترضه، بعيداً عن الأمراض والعلل التي تشل حركته وتعطل نشأته"⁽³⁶⁾.

والأسرة هي الأداة البيولوجية التي تحقق إنجاب الأبناء واستمرار حياة المجتمع، فهي الوسيلة التي تنتقل من خلالها الخصائص الوراثية، ولذلك لا بد أن تقوم الأسرة على أساس صحي سليم، حيث إن الاستعداد الجسمي السليم هو حجر الزاوية في الحياة الأسرية السعيدة، ويقرر كثير من العلماء أن ضعف النسل وانحطاط قدراته العامة يرجع في كثير من الأحيان إلى عوامل وراثية، ولهذا ينصحون بعدم زواج الأقارب خاصة إذا كانت القرابة وثيقة، وبوجود أمراض وراثية، وبضرورة الفحص الطبي قبل الزواج للتأكد من سلامتها أو العلاج المبكر في حالة وجود أمراض معينة أو عدم الزواج لعدم الكفاءة الجسمية والصحية⁽³⁷⁾.

وهذا يتفق والتوجيهات الإسلامية في تغريب النكاح، والاهتمام بكل ما يحفظ صحة البدن والجسم، وعلى الوالدين تحقيق هذا الأساس من خلال وسائل أهمها⁽³⁸⁾:

1- أن نعلم أبناءنا الحرص على النظافة في البدن والثوب والمكان، إذ إن النظافة ركن من أركان الصحة الأساسية وأبلغ دليل على ذلك أن معظم العبادات في الإسلام تعتبر الطهارة شرطاً لصحتها.

2- أن يعود الطفل الأكل الطيبات التي تقوي البدن، مع البعد عن الإسراف الذي يضر الجسم ويعرضه لكثير من الأمراض، قال تعالى: "وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا" (الأعراف: 31) ويرشدنا الغزالي⁽³⁹⁾ إلى ذلك بقوله: "وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدب فيه، مثل أن لا يأخذ إلا بيمينه، وأن يقول عليه بسم الله عند أخذه... وأن لا يسرع في الأكل، وأن يجيد المضغ، ولا يوالي بين اللقم". مع ضرورة الاعتناء بتغذيته التغذية السليمة وإبعاده عن الأغذية المحرمة أو الضارة، ومن هنا كان من حقوق الطفل في الإسلام الرضاعة.

3- الوقاية من الأمراض باتباع الأسس السليمة في ذلك وإلى ضرورة العلاج، فقال عليه الصلاة والسلام: "لكل داء دواء"⁽⁴⁰⁾.

4- أن يحبب إليه ممارسة الألعاب الرياضية كالمشي والسباحة والرمية والمصارعة وركوب الخيل، فقد كتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة رضي الله عنه: "علموا غلمانكم العوم

ومقاتلتكم الرمي" (41). وأوصي بركوب الخيل (42). ويعود في النهار المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل (43).

5- تعويده اتباع السنن النبوية في النوم والمأكل والمشرب.

المبحث الثاني: واقع التمكين الأسري في مناهج التربية الإسلامية واللغة العربية

1- الطريقة والإجراءات: اتبعت الباحثة أسلوب تحليل المحتوى لكتب التربية الإسلامية واللغة العربية لتحقيق أهداف البحث والإجابة عن السؤالين الثالث والرابع.

2- مجتمع البحث وعينته: تكوّن مجتمع البحث وعينته من كتب التربية الإسلامية واللغة العربية (مهارات الاتصال) للصفين الأول الثانوي الشامل والثامن الأساسي.

3- أداة البحث: قامت الباحثة ببناء أداة البحث (استمارة التحليل) وقد اعتمدت أداة التحليل الجملة وحدة للتحليل لتناسبها مع موضوع البحث، أما فئات التحليل فشملت الأسس الثمانية للتمكين الأسري وهي: الأساس العقدي، التعبدي، الأخلاقي، العلمي والفكري، العاطفي والنفسي، الاجتماعي، الصحي والجسمي، الاقتصادي.

4- صدق الأداة وثباتها: للتأكد من صدق الأداة تم عرضها على مجموعة من المختصين لإبداء الآراء في فقراتها من حيث انتماء الفقرة للمجال ودقة الصياغة اللغوية وإضافة أية فقرة يرونها مناسبة أو الحذف أو التعديل، وبذلك أصبحت الأداة مكونة من ثمانية مجالات أساسية. كما تم الاستعانة بمحلل خارجي يمتلك الكفاية اللازمة للقيام بعملية التحليل، وبعد الانتهاء من عملية التحليل، تم حساب نسبة الاتفاق بين المحللين وكانت تساوي (86.2) وهذه النسبة كافية لأغراض الدراسة.

النتائج ومناقشتها:

هدف هذا البحث إلى التعرف على مدى تضمين كتب التربية الإسلامية واللغة العربية لأسس التمكين الأسري في الأردن، وفيما يلي عرض للنتائج التي تم التوصل إليها.

أولاً: النتائج المتعلقة بالسؤال المتعلق بـ "ما مدى تضمين كتب التربية الإسلامية واللغة العربية (مهارات الاتصال) لأسس التمكين الأسري؟

وللإجابة عن هذا السؤال تم حساب التكرارات والنسب المئوية لأسس التمكين الأسري في عينة الدراسة، والجدول التالي يوضح ذلك:

الجدول (1): التكرارات والنسب المئوية لأسس التمكين الأسري في كتب التربية الإسلامية واللغة العربية في الأردن (كتاب مهارات الاتصال كتاب الثقافة الإسلامية للأول الثانوي)

كتاب اللغة		كتاب التربية		كتاب اللغة		كتاب الثقافة		المجال
العربية		الإسلامية (الصف		العربية		الإسلامية		
(الصف الثامن)		الثامن)		(الأول الثانوي)		(الأول الثانوي)		
النسبة	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة	التكرار	
المئوية		المئوية		المئوية		المئوية		
%0.16	54	%0.30	404	%0.16	110	%0.20	160	الأساس العقدي
%0.08	25	%0.11	150	%0.05	34	%0.10	77	الأساس التعبدي
%0.10	34	%0.15	193	%0.16	106	%0.17	133	الأساس الأخلاقي
%0.05	17	%0.05	66	%0.14	98	%0.19	146	الأساس العلمي والفكري
%0.28	92	%0.16	212	%0.23	155	%0.18	138	الأساس الاجتماعي
%0.20	70	%0.10	123	%0.12	78	%0.05	36	الأساس العاطفي والنفسي
%0.08	25	%0.04	45	%0.10	65	%0.04	26	الأساس الصحي والجسمي
%0.05	16	%0.09	115	%0.04	32	%0.07	58	الأساس الاقتصادي
%100	333	%100	1308	%100	678	%100	774	المجموع

يتضح من الجدول أن كتب التربية الإسلامية واللغة العربية اهتمت جميعها بأسس التمكين الأسري، ويتضح أن أعلى أساس في كتب التربية الإسلامية كان للأساس العقدي وهذا يرجع إلى أن أهم أساس يُبنى عليه الفرد هو الأساس العقدي وتبنى عليه الأسس الأخرى، وهذا أهم هدف من أهداف مناهج التربية الإسلامية كما ورد في الخطوط العريضة لمناهج التربية الإسلامية للصفوف جميعها، ومما يؤكد ذلك وجود وحدة أساسية في هذه الكتب تتعلق بالعقيدة الإسلامية، أما أدنى مجال فكان للأساس الصحي والجسمي، وهذا قد يرجع إلى كون الأسس العقدية والتعبدية والأخلاقية والاجتماعية لها الأثر الأكبر في تكوين شخصية الفرد ولكن لا يعني ذلك التقليل من أهمية هذا الجانب.

أما بالنسبة لكتب اللغة العربية (مهارات الاتصال) فيلاحظ أن أعلى مجال كان للأساس الاجتماعي، وهذا قد يرجع لأهداف الكتاب فمن عنوانه مهارات الاتصال الذي يعتمد في أساسه

على التفاعل مع الآخرين ولكنه لم يغفل الجوانب الأخرى، والإسلام في جوهره وحقيقته دين معاملة أما أدنى مجال فكان للأساس الاقتصادي ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن هذا الكتاب يهدف أولاً إلى الاهتمام بالجوانب الاجتماعية والأخلاقية كونه يهتم بالمحادثة والاتصال مع الآخرين ثم يأتي الاهتمام بهذا الجانب كونه أقل تأثيراً في بناء الشخصية.

أما النتائج المتعلقة بالسؤال الأخير والذي ينص على: هل هناك فروق ذات دلالة إحصائية بين كتب التربية الإسلامية واللغة العربي في تضمينها لأسس التمكين الأسري؟

من الجدول يتضح أن أسس التمكين الثمانية تضمنتها الكتب جميعها، ولكن كانت الفروق ذات الدلالة الإحصائية في بعض المجالات، فالتركيز في كتب التربية الإسلامية كان للأساس العقدي، أما كتب مهارات الاتصال فقد كان التركيز فيها على الأساس الاجتماعي وهذا يرجع إلى الأهداف الأساسية التي يسعى كل منهاج إلى تحقيقها، وإلى الاتجاه التكاملي الذي تبنى عليه المناهج في الأردن أفقياً وعمودياً ومما يدل على ذلك أن أسس التمكين الأسري أتت بطريقة مباشرة في كتب التربية الإسلامية ومهارات الاتصال، فكتاب الثقافة الإسلامية للصف الأول الثانوي تضمن موضوعات تتعلق بالتمكين الأسري مثل العفاف وحفظ الأعراض، والإحسان إلى البنات، توجيهات للمرأة المسلمة، ومن صور الزواج، وعلاقة الأبناء بالديهم، وعلاقة الوالدين بأبناهما ومعالجة الإسلام للخلافات الزوجية، وموضوع العنوسة.

أما كتاب التربية الإسلامية للصف الثامن فقد احتوى على موضوعات كذلك تتعلق بالتمكين الأسري مثل آيات من سورة الإسراء، الخطبة، حقوق الزوج على زوجته، وحقوق الزوجة على زوجها، والتحذير من التقليد الأعمى لغير المسلمين أما كتاب مهارات الاتصال للصف الأول الثانوي فقد احتوى كذلك على آيات من سورة الإسراء، حقوق الأطفال، والفحص الطبي قبل الزواج.

التوصيات:

- 1- إجراء دراسات حول واقع وأسس التمكين الأسري في المناهج الدراسية الأخرى وفي أقطار أخرى لإعطاء صورة كاملة عن هذا الواقع.
- 2- تفعيل دور المؤسسات التربوية والاجتماعية الأخرى لتتكامل مع الأسرة في قيامها بوظائفها وتمكينها.
- 3- إقامة مؤسسات خاصة تقوم بتأهيل الزوجين قبل الزواج، وتقديم الاستشارات الخاصة أثناء الزواج مما يمكن الأسرة من القيام بدورها على أكمل وجه.
- 4- الاهتمام بالجانب الصحي والجسمي في مناهج التربية الإسلامية، والاهتمام بالجانب الاقتصادي في مناهج اللغة العربية بشكل أكبر.

Recognition of Family Consolidation in Educational Curriculum in Jordan

Ahlam Matakah, *Department of Islamic Studies, Yarmouk University, Irbid, Jordan.*

Abstract

The cardinal objective of research has centered around discussing the recognition of family consolidation in educational curriculum in Jordan through clarifying requirements and necessities to such concept and its basics.

To reach the target of the study, the analysis method has been adopted to analyse the contents of Islamic education and Arabic language book for the 8th elementary class and the first secondary class in Jordan to be the sample of this study and its society.

The analysis has relied on an article based on sentence as a unit to analyse.

Analysis categories include the eighth basics of family consolidation that covers the ideological, devotional, ethical, scientific and hygienic, and physical and economical basis.

The research has come to a group of results. First, the books under study have attached importance to the basics of family consolidation. Secondly, there were some differences that have statistical indication between the Islamic education book and Arabic language ones in terms of including the basics of family consolidation in its contents.

وقبل في 2009/10/15

قدم البحث للنشر في 2009/2/10

الهوامش

- (1) فائز، أحمد، دستور الأسرة في ظلال القرآن، د.م، د.ن، ط1، 1400هـ- 1980م، ص 87.
- (2) ابن القيم الجوزية، تحفة المودودة في أحكام المولود، بيروت، عالم الكتب، د.ط، د.ت، ص 21.
- (3) أبو داود، السنن، باب في الصبي يولد فيؤذن في أذنه، حديث رقم (5105)، ص 765.
- (4) قطب، سيد، في ظلال القرآن، بيروت، د.ن، ط7، 1391هـ- 1971، ج7/ 119-120.
- (5) علي، عبد الجليل أحمد، الأسرة المسلمة في ضوء الكتاب السنة، ص110.

- (6) سنن أبي دواد، باب في ثواب قراءة القرآن، حديث رقم (1452)، ص 225.
- (7) ابن خلدون، المقدمة، بيروت، دار القلم، ط11، 1413هـ-1992، ص 537-538.
- (8) أنظر: داود، عبد الباري محمد، التنشئة الاجتماعية للطفل، الإسكندرية، البيطاش سنتر للنشر والتوزيع، ط1، 2005م، ص 38-39؛ جبار، سهام مهدي، الطفل في الشريعة الإسلامية ومنهج التربية النبوية، بيروت، المكتبة العصرية، ط1، 1417هـ-1997م، ص 256.
- (9) ابن مسكوية، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1401هـ-1981، ص25-26.
- (10) الإحياء، ج3/72.
- (11) ميزان العمل، دمشق، بيروت، دار الحكمة، د.ط، 1407هـ-1986م، ص 82.
- (12) داود، عبد الباري محمد، التربية الإسلامية للطفل، الإسكندرية، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، ط1، 2003م، ص 26.
- (13) الجقندي، عبد السلام عبد الله، التربية المتكاملة للطفل المسلم في البيت والمدرسة، دمشق، بيروت، دار قتيبة، ط1، 1424هـ-2003م، ص 202.
- (14) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، باب الإيمان الذي يدخل الجنة، ج1/172-173.
- (15) أنظر: داود، عبد الباري، التربية الإسلامية للطفل، ص15-16.
- (16) أنظر تفصيل ذلك: داود، عبد الباري، التنشئة الاجتماعية للطفل، ص 39-44؛ جبار، سهام مهدي، الطفل في الشريعة الإسلامية، ص 490-515.
- (17) ابن قدامة المقدسي: أحمد بن عبد الرحمن، مختصر منهاج القاصدين، بيروت، دار الهجرة، دار البيان، د.ط، 1406هـ-1986م، ص 159-160.
- (18) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب صفات المنافقين، باب مثل المؤمن مثل النخلة، ج17/153.
- (19) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب البر والصلة والآداب، باب من لعنه النبي صلى الله عليه وسلم أو سبه، ج16/155-156، وحطاه: أي ضرب بيده مبسوطاً.
- (20) صحيح مسلم لشرح النووي، كتاب السلام، باب استحباب السلام على الصبيان، ج14/148-149.
- (21) داود، عبد الباري، التنشئة الاجتماعية للطفل، ص 46.
- (22) الهابط، محمد السيد، التكيف والصحة النفسية، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، ط3، 2003م، ص 11-12 (بتصرف).
- (23) الهابط، التكيف والصحة النفسية، ص25.
- (24) صالح، سعاد إبراهيم، علاقة الآباء بالأبناء في الشريعة الإسلامية، ط1، جدة، دار تهامة، 1401هـ-1980م، ص 25، (بتصرف يسير).

- (25) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الفضائل، باب فضائل الحسن والحسين رضي الله عنهما، ج15/193.
- (26) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الأدب، باب جواز التكنية، ج14/128.
- (27) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الأدب، باب استحباب السلام على الصبيان، ج14/149.
- (28) جبار، سهام مهدي، الطفل في الشريعة الإسلامية، ص 465.
- (29) صحيح مسلم لشرح النووي، كتاب الهبة، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة، ج11/65.
- (30) أنظر: ابن خلدون، المقدمة، ص 540.
- (31) الإحياء، ج3/73.
- (32) يالجن، مقدار، بناء البيت السعيد في ضوء الإسلام، ص 168.
- (33) الجقندي، عبد السلام، التربية المتكاملة للطفل في الإسلام، ص 298.
- (34) أنظر تفصيل ذلك: يالجن، مقدار، بناء البيت السعيد، ص 169-184؛ الجقندي، التربية المتكاملة للطفل، ص 315-329، جبار، سهام، الطفل في الشريعة الإسلامية، ص 377-403.
- (35) صحيح مسلم بشرح النووي، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، ج1/76.
- (36) صالح، سعاد إبراهيم، علاقة الآباء بالأبناء في الشريعة الإسلامية، ص 47.
- (37) الصديقي، سلوى وحسن، عبد المحيي محمود، الأسرة والسكان من منظور الخدمة الاجتماعية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، د.ط، 2000م، ص 24. (بتصرف).
- (38) أنظر تفصيل ذلك: صالح، سعاد، علاقة الآباء بالأبناء، ص 58؛ جبار، سهام مهدي، الطفل في الشريعة الإسلامية، ص 416-445.
- (39) الإحياء، ج3/72.
- (40) صحيح مسلم بشرح النووي، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي، ج14/191.
- (41) ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن، مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، تحقيق: زينب القاروط، بيروت، دار الكتب العلمية، ط3، 1407هـ-1987م، ص 128.
- (42) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري، عيون الأخبار، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ط، د.ت، ج1/132.
- (43) الغزالي، الإحياء، ج3/73.

المصادر والمراجع:

- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن. (1407هـ- 1987م). مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ط3، تحقيق: زينب القاروط، بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن القيم الجوزية. (د.ت). تحفة المودود في أحكام المولود، بيروت: عالم الكتب.
- ابن خلدون. (1413هـ- 1992م). المقدمة، ط11، بيروت: دار القلم.
- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري، (د.ت). عيون الأخبار، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ط.
- ابن قدامة المقدسي، أحمد بن عبد الرحمن، (1406هـ- 1986م). مختصر منهاج القاصدين، بيروت، دار الهجرة، دار البيان.
- ابن مسكوية، محمد بن أحمد بن يعقوب، (1401هـ- 1981م). تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1.
- ابو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، (د.ت). السنن، تخريج: محمد الألباني، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط1.
- جبار، سهام مهدي، (1417هـ- 1997م). الطفل في الشريعة الإسلامية ومنهج التربية النبوية، بيروت، المكتبة العصرية، ط1.
- الجفندي، عبد السلام عبد الله، (د.ت). التربية المتكاملة للطفل المسلم في البيت والمدرسة، دمشق، بيروت، دار قتيبة، ط1.
- داود، عبد الباري محمد، (2003م). التربية الإسلامية للطفل، الإسكندرية، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، ط1.
- داود، عبد الباري محمد، (2005م). التنشئة الاجتماعية للطفل، الإسكندرية، البيطاش سنتر للنشر والتوزيع، ط1.
- صالح، سعاد إبراهيم، (1401هـ- 1980م). علاقة الآباء بالأبناء في الشريعة الإسلامية، ط1، جدة، دار تهامة.
- الصدريقي، سلوى وحسن، عبد المحيي محمود، (2000م). الأسرة والسكان من منظور الخدمة الاجتماعية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.

علي، عبد الجليل أحمد، (1421هـ- 2001م). الأسرة المسلمة في ضوء الكتاب والسنة، الإسكندرية، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، (1407هـ- 1986م). ميزان العمل، دمشق، بيروت، دار الحكمة، د.ط.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، (د.ت). إحياء علوم الدين، بيروت، دار الندوة الجديدة.

فانز، أحمد، (1400هـ- 1980). دستور الأسرة في ظلال القرآن، د.م، د.ن، ط1.

قطب، سيد، (1391هـ- 1971م). في ظلال القرآن، بيروت، د.ن، ط7.

النووي، شرف الدين، (د.ت). صحيح مسلم بشرح النووي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط3.

الهابط، محمد السيد، (2003م). التكيف والصحة النفسية، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، ط3.

يالجن، مقداد، (1408هـ- 1987م). بناء البيت السعيد في ضوء الإسلام، الرياض، دار المريخ.

ريف القدس وحكام اللواء في القرن السابع عشر الميلادي

إبراهيم حسني ربايعه*

ملخص

عالجت هذه الدراسة الأوضاع العامة لسكان ريف القدس في حقبة من حقبة التاريخ العثماني وهي القرن السابع عشر الميلادي، من حيث طبيعة العلاقات التي كانت قائمة ما بين الفلاحين والجهاز الإداري في مدينة القدس، ومن ثم قدمت الدراسة وصفاً للحالة الأمنية في ريف اللواء خلال ذلك العصر، كما لم تغفل الدراسة عنصر آخر من سكان الريف، وهم البدو الذين يعدون جزءاً رئيساً من سكان الريف الذين كان لديهم خصوصية واضحة في النشاطات الاقتصادية والمعيشية عن الفلاحين - سكان القرى- حيث كان لهم أثر واضح في سير الأحداث داخل لواء القدس، أثر لا يمكن تجاهله أو المرور عنه دون انتباه.

تمهيد:

نحاول قبل البدء في معالجة موضوع البحث أن نتعرف إلى المصدر الرئيس الذي استقت منه الدراسة معلوماتها، وهي سجلات محكمة القدس الشرعية التي تعود إلى القرن السابع عشر الميلادي، فهذه السجلات تحوي تراثاً واسعاً وغنياً يصعب الحصول عليه من مصادر أخرى أو تعويضه إن فقد، فإذا كان المبرر الرئيس لإجراء هذه الدراسة خصوصية القدس وما تتمتع به من مكانة رفيعة. فإن إحياء سجلات محكمة القدس كمادة تاريخية تراثية يعد مبرراً آخر لا يقل أهمية عن المبرر الأول.

لقد أغنت سجلات محكمة القدس الشرعية المكتبة الفلسطينية بل وحتى المكتبة العربية بمادة علمية غزيرة جداً؛ لما حوته من معلومات مهمة وفريدة يمكن من خلالها إعداد الدراسات المعرفية لجوانب متعددة في مختلف المجالات السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية في مدينة القدس، إذ تكشف الوثائق عن جغرافية تراثية متكاملة وتنوع ثقافي في جزئياته وموحداً في عمومياته، كما جاءت هذه الأهمية من كونها مرآة تعكس واقع حال الأوضاع المعيشية والاجتماعية داخل مدينة القدس وجوارها. وقد جاءت هذه الأهمية من خلال الدور الذي قامت به المحكمة الشرعية آنذاك حيث لم ينحصر عملها في قضايا الزواج والطلاق، إنما كان دورها شمولياً، فالقاضي الشرعي كان بمثابة المُسير العام للأمور داخل لواء القدس، وذلك بموجب القانون

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2012.

* كلية التربية، جامعة القدس المفتوحة، فرع طولكرم، فلسطين.

العثماني المعمول به في ولايات السلطنة. فالقاضي يُنصَّب الحكام والموظفين، وينظر في جميع القضايا التي تتعلق بأمر اللواء، حتى إن المراسلات والمراسيم السلطانية توجه أولاً إلى حاكم الشرع يليه حاكم اللواء، ويشترط الاحتفاظ بنسخة من الوثائق في سجلات المحكمة، وإن أي مرسوم لا يدون في السجلات يُعدُّ غير شرعي. كما تنبع هذه الأهمية من كون سجلات محكمة القدس أقدم المصادر الارشيفية في بلاد الشام، ويرجع تاريخ أول سجل محفوظ إلى 14 شوال 936هـ / 11 حزيران 1530م، أي بعد أربع عشرة سنة من بداية الوجود العثماني في البلاد العربية، وتأتي بعدها سجلات دمشق ثم حلب.

عندما سيطرت الدولة العثمانية سنة 922هـ/1516م على البلاد العربية شرعت في وضع نظام حكم مباشر على بلاد الشام بما فيها فلسطين يربطها بالأستانة مباشرة، ويعود هذا الاهتمام العثماني بهذه المنطقة إلى عوامل، منها: الأهمية الاستراتيجية والدينية والتجارية للمنطقة التي طالما كانت مدار تنافس بين الدول المجاورة عبر العصور المتلاحقة لطبيعتها تحت جناحها¹.

تمخض هذا النظام الإداري عن تقسيم بلاد الشام إلى ثلاث مقاطعات إدارية كبيرة عرفت بالولاية، هي: ولاية حلب ودمشق وطرابلس، كما عين أمراء للمراكز الكبيرة في كل ولاية، عرفت هذه الوحدات الإدارية بالسناجق (السَنجَق²) أو الألوية (اللواء)، وكانت القدس لواءً من بين أحد عشر لواءً تابعة لولاية (إيالة) دمشق الشام³، وأصبح لكل لواء إدارته الخاصة به، كما قسم كل سَنجَق إلى عدد من النواحي، وكل ناحية تضم مجموعة من القرى، وكانت القرية أصغر الوحدات الإدارية، وقد أشارت المصادر إلى أن لواء القدس ضمَّ عدداً من النواحي، هي: ناحية الخليل⁴ وناحية بني زيد⁵ وبني حارثة⁶، وناحية العرقوب⁷، وناحية الغور⁸ (بني سالم)⁹.

أما تقسيماتها المحلية (المنطقة التي كانت تابعة لها إدارياً)، فتمتد من قرية سنجل¹⁰ في الشمال إلى قرية كفر عطية¹¹ في الشمال الغربي، ومن تقوع¹² في الجنوب الشرقي إلى بيت تتييف¹³ في الجهة الجنوبية الغربية، ومن قرية دير بني عبيد¹⁴ في الجنوب الشرقي إلى نهر الأردن في الشرق.

* - العلاقة بين حكام اللواء وأهل الريف:

إن المعلومات الواردة في الوثائق العثمانية ترسم لنا صورة وافية للنظام الإداري، فقد جاء على رأس السُلْم الإداري من حيث الصلاحيات والمهام حاكم اللواء (أمير اللواء¹⁵)، بوصفه الممثل العام للوالي في دمشق¹⁶، وذكرت الوثائق ألقاباً أخرى، نذكر منها: المحافظ¹⁷، صاحب الدولة وحاكم العرف¹⁸، وحاكم السياسة¹⁹، والسَنجَق بك²⁰، ويشترط به أن يكون من كبار رجال

العسكر²¹، يتم تعيين الحاكم في العاصمة أو في مقر الولاية، ترسل الرسائل إلى الحكام لإشعارهم بذلك، وحسب العادة، يبعث متسلمه²² الجديد لتسلم مفاتيح القدس. فقد تسلّم علي آغا²³ المتسلم في سنة 1058هـ/1648م، مفاتيح القدس من محمد باشا السابق²⁴.

كما أوردت الوثائق معلومات مهمة توضح الواجبات الملقة على عاتق أمير اللواء اتجاه أهل الريف، يذكر أن المناطق الريفية لها أهمية أمنية واقتصادية لحكام اللواء، وهي تشكل مصدر رزق دائماً وضرورياً لا يمكن لأهل المدينة الاستغناء عنه، لذلك جاء على رأس مهام حكام اللواء فرض النظام ودرء الأخطار والفتن، وملاحقة قطاع الطرق واللصوص أينما وجدوا؛ لأن أمن هذه المناطق وسلامتها من سلامة المدينة حكماً ومحكومين، ومن ذلك ما قام به فرخ باشا بن عبد الله²⁵ سنة (1016هـ/1607م) بصد هجمات فرقة السكبان²⁶ عن مدينة القدس ونواحيها²⁷. ومن واجباته تنفيذ أوامر القاضي الشرعي على من يخالف أمر الشرع، ومثال ذلك: ما قام به الشيخ علي جار الله اللطفي عام (1070هـ/1659م)، وهو المفتي الحنفي وخطيب المسجد الأقصى، حيث رفض الشيخ علي إطاعة الأوامر بالحضور إلى المحكمة الشرعية، بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما أوعز لأعوانه وأنصاره داخل المدينة بأن يرفضوا أوامر الحكام بالقوة²⁸.

ومن أعمال التعدي والشقاوة التي أشارت لها الوثائق مهاجمة عرب الزيود²⁹ عام (1063هـ/1652م) قرى القدس، فقد طلبوا من أهل القرى التابعة للواء القدس دفع تكاليف لهم تعرف بالرمايا³⁰، أدى ذلك إلى تعذر وصول التموين إلى القدس من سمن ولحم ولبن؛ بسبب هجرة بعض سكان القرى لقراهم، عند ذلك توجه جمع كبير لمقابلة الباشا بين يدي القاضي الشرعي، وطلبوا من القاضي التنبيه على عرب الزيود، بأنه ليس لهم مشيخة عليهم أو تمثيل³¹. وذكر في حجة شرعية ثانية أن صالح آغا قلعة بيت جبرين³² وجماعة من أهل الخليل هجموا على قرية بيت تنيف الجارية في مقاطعة أمير اللواء³³.

وأظهرت الوثائق المختلفة التي تعود إلى القرن السابع عشر الجهد الكبير الذي كان يبذله حاكم لواء القدس في محاربة ظاهرة اللصوصية وأعمال العدوان بعد أن كان لقطاع الطرق نشاط واسع وتكررت هجماتهم على الزوار والمارين من أرياف اللواء، لدرجة إن القوافل العسكرية لم تكن بمعزل من ذلك، فقد تعرضت قافلة لمبعوث السلطنة المتوجهة من القدس إلى الأستانة على طريق مدينة نابلس والقدس عند المكان الذي يعرف بتل الفول³⁴، لهجوم حنفة من اللصوص، فقتلوا وسلبوا الأموال³⁵، وما كان من الأمير حال وصول الخبر إليه أن شرع في تتبع اثر اللصوص الذين اتجهوا نحو الشرق حتى قطعوا نهر الشريعة³⁶، وتشير الوثيقة، أنه من أجل عدم تكرار هذه الحادثة قام حاكم لواء القدس بوضع حرس دائمة (نقطة مراقبة) داخل ذلك المكان، كما

كلّف العسكر المقيمين في الأرياف بمهمة تأمين بعض الممرات، وأوكل لبعض القرى التي تتواجد على مقربة من الطرق السلطانية حراستها، مقابل أن يدفع المارون مبلغاً من المال عرف بضريبة الخفارة³⁷، وقد أشارت الوثائق إلى أن التعهد كان يدون في سجلات المحكمة الشرعية بحضور مندوب الباشا أو الباشا شخصياً. ومنها ما جاء في الوثيقة التالية:

"بالمجلس الشرعي المرعي، لدى مولانا قدوة النواب عالم أفندي الموقع أعلاه نظيره أعلاه، بمحضر فخر الأقران، خير الزمان، على الترجمان، المندوب من قبل قدوة أرباب الإقبال، عمدة أصحاب الأقوال، أحمد أغا حاكم لواء القدس الشريف، حضر كل واحد من درويش بن بدر، شيخ قرية بيت لقياً³⁸ في عمل القدس الشريف، ومرعي بن خليفة، ومرزوق بن عبد الرحمن، كلاهما من القرية المذكورة وأشهدوا على أنفسهم، وهم بحال الصحة والسلامة والطواعية والاختيار، من غير إكراه لهم في ذلك ولا إجبار، أنهم تعهدوا وتكفلوا بخفارة الطريق السلطاني... عند قرية بيت لقياً، وأنهم مهما ضاع من الحدود القديمة المتعارفة للمارين من الطريق المزبور، يقدمونه لصاحبه، وتضامنوا وتكافلوا في ذلك، بحيث أن كل واحد منهم يد للأخر، وسطر ذلك بالطلب، بتاريخ ثالث عشر ربيع أول سنة ثلاث وعشرين وألف³⁹".

وقد حدث أن اعتدّي على القوافل بسبب الخلاف بين القائمين على جمع ضريبة الخفارة؛ ما دفع أمير اللواء إلى حل الخلاف بين الأطراف، وحسم الأمر. فقد شكت جماعة من مدينة بيروت أنهم عندما وصلوا المكان الذي تؤخذ فيه الخفارة، قرب قرية ساريس⁴⁰، غارت عليهم جماعة من القرية، وأخذوا الرسم من المسلمين والنصارى وضربوهم⁴¹. ومن جهة أخرى، كانت بعض القرى تساعد الحكام ضد قطاع الطريق، مثل ذلك: ما حصل في قرية بيت سقاي⁴² عندما سيطر عليها قطاع الطريق. وأحياناً يرفع الحاكم التكاليف العرفية⁴³ عن بعض القرى مقابل خدمة الخفر ومساعدتهم في حفظ الطريق⁴⁴.

كما ينبغي على حاكم القدس مراقبة شيوخ القرى والأرياف، إذ كان الأمير يتعامل مع نواحي القدس عن طريق شيوخها، فيشترط بالشيخ أن يقدم الطاعة، وأن يحضر عندما يستدعيه الباشا، كما عليه أن يجمع رجال القرية وقت الحاجة. ومن ذلك ما أشارت له الوثائق: "تعاهد مشايخ قرى جبل القدس وتوابعها مع السباهية⁴⁵ على قتال قطاع الطرق ومركزهم قرية بيت سقاي⁴⁶".

وعلى شيوخ القرى دفع ما يترتب عليهم من استحقاقات لحاكم اللواء، من القرى الجارية في إقطاع أمير اللواء، ومن ذلك ما جاء في أحد الحجج أنه بمحضر وكيل حاكم لواء القدس تعهد مشايخ قرية بيت نتيف الجارية في خاص الأمير بتوصيل 450 مد⁴⁷ من الحنطة والشعير إلى

القدس⁴⁸ . ويلبي شيخ القرية ما يُطلب منه، فقد قبل الشيخ محمد شيخ العيسوية⁴⁹ أن يدفع في كل يوم ستة أحمال من الحمير محملة تبناً لخليل حاكم اللواء⁵⁰ .

ولحاكم اللواء الحق في تنصيب أو عزل شيوخ القرى عند اعتدائهم على الرعايا ومن ذلك ما حصل مع البراغثة⁵¹ مشايخ قرى بني زيد⁵² . وعندما كانت تقع المنازعات على تسلّم المشيخة، كان يتدخل الباشا للفصل بين الأطراف. ومنها القتال الذي حدث على مشيخة قرى بني زيد ما بين الشيخ حمد بن أبي ريان والشيخ خليل بن سليمان⁵³ ، وقد توجه حسين باشا بن رضوان⁵⁴ ومحمد آغا⁵⁵ متسلم مدينة القدس إلى الأطراف المتنازعة لحل الخلاف⁵⁶ .

ومن مهامه الأمنية، فرض الأمن في المواسم والأعياد، كموسم الحج، فقد جاء في إحدى الوثائق مرسوم حول ذلك، جاء فيها: " إلى كل واقف عليه وناظر إليه، من المشايخ والرعايا والعربان بناحية القدس الشريف بوجه العموم، نعرفكم بأن نزول الحجاج بمنزل المزيريب⁵⁷ ، كل من أراد أن يحضر إلى المزيريب، وتبعوا وتشترتوا وتكونوا طيبين خاطر من جميع الوجوه، وعليكم أمان الله وأمان الرسول وأمان حضرة السلطان⁵⁸ " .

كما زودتنا الوثائق بمعلومات عن عوائد أمير اللواء، نذكر منها: متحصل عدداً من القرى والمزارع، بحيث تبقى له ما دام على رأس عمله في اللواء، وعند عزله تنقل هذه المخصصات إلى الأمير الجديد⁵⁹ ، فقد ذكر في الوثيقة الشرعية التالية: حضور مشايخ قرى بني زيد الشيخ محمد بن ريان وخليل بن سليمان الجارية في خاص أمير لواء القدس الشريف وتعهدها بدفع ما يتحصل من قراهم لحاكم القدس، فكانت على النحو الآتي⁶⁰ :

المتحصل	القرى
105مد شعير وحنطة	جمالاً ⁶¹ وبيت اللو ⁶²
50 غرش ⁶⁴	سنجل والمزرعة ⁶³

والجدول التالي يظهر فيه قرى أخرى تتبع خاص أمير القدس⁶⁵ ، وهي:

القرية	المتحصل زيت وحنطة وشعير
بيت اللو	15,½ قنطار ⁶⁶
جمالاً	5,½ قنطار
دير أبو مشعل ⁶⁷	8 قنطابير
كفر مالك ⁶⁸	7,½ قنطار
تبناً ⁶⁹	2 قنطار

المتحصل زيت وحنطة وشعير	القرية
2½ قنطار	70 جفنا
60 مد حنطة، 34 مد شعير	71 ترقوميا
180 مد حنطة، 180 مد شعير	72 سعير
15 غرش	73 سلوان
450 مد حنطة وشعير	74 بيت نتيف

ومن خاص أمير اللواء أيضاً قرية أريحا⁷⁵ الغور وبيت نعمة⁷⁶، بالإضافة لعدد من المزارع والخراب، ولأمير اللواء (السنجق) أيضاً رسوم النكاح والقلي⁷⁷ الذي يستعمل في صناعة الصابون⁷⁸، ورسوم عشر الزيت ورسوم الرمايا⁷⁹، وله أجرة جمع العوارض السلطانية⁸⁰، وعليق خيله⁸¹.

كما خصص للباشا متحصل عيني على هيئة تشريف، أشارت له الوثيقة التالية: "بمحضر علي بك حاكم القدس الشريف، حضر كل واحد من خليل بن مطرب من قرية بيت اللو وخطاب بن عزام من قرية بيرزيت⁸²، وإبراهيم الشهير بابي رحمه من دير عمار⁸³ وسليمان بن إسماعيل من خربة المزرعة، وشيخان بن يونس من قرية جمالا، وعبد الله بن عبد الله من قرية عين عريك⁸⁴، وسليمان ولد حنا الذمي من جفنا، وأحمد عمار من قرية عين قنية⁸⁵....، وذكروا لمولانا الحاكم الشرعي أن من العادة القديمة أنهم يدفعون لمتسلم القدس الشريف حين يتسلم القدس حصاناً، وإذا جاء باشا القدس الشريف يدفعون له حصاناً، وعند فصل الغلال يدفعون لحكام العرف⁸⁶ حصاناً، وعند فصل الزيت يدفعون حصاناً..."⁸⁷.

يلحظ من خلال الوثائق السابقة أن متحصل أمير اللواء كان يصله إما عينياً (حنطة أو شعير أو زيت) أو نقدياً، كما يمكن أن نلاحظ التفاوت في الدفع من قرية إلى أخرى، فربما يعود ذلك إلى الاختلاف في حجم القرى من حيث المساحة والسكان، فنجد أن قرية بيت نتيف جاءت على رأس القرى في مادة الحنطة والشعير، تليها قرية سعير، ونجد أن بيت اللو أعلى من حيث الزيت، تليها دير أبو مشعل.

* - الأوضاع العامة في ريف القدس:

إن المتفحص في ثنايا الوثائق العثمانية التي تعود إلى هذا العصر يلحظ أنها أمدتنا بمعلومات قيمة حول الأحوال الأمنية لريف القدس، فنجد أن أعمال الفتن والعصيان كان لها تأثير مباشر على نشاط السكان خلال القرن السابع عشر، فإذا عدنا إلى القرن السادس عشر نجد أنه لم

يكن أيسر حالاً من القرن السابع عشر، فقد شهد أواخر القرن السادس عشر أعمال فتن وعصيان عمت معظم ألوية فلسطين الجنوبية بما فيها لواء القدس الشريف، وقد تمحورت هذه الأعمال بهجمات العربان على المدن والأرياف، فقتلوا وسلبوا كل ما يمكن سلبه، فقد أغار العربان في سنة 982هـ/1574م، على القدس ونواحيها، كما هاجموا بعض المدن عام 991هـ/1583م فخلفوا فيها دماراً كبيراً، وجدد العربان غاراتهم على القدس ونواحيها عام 995هـ/1587م⁸⁸.

وقد استمرت هذه الأوضاع المتردية في نواحي القدس حتى بدايات القرن السابع عشر، ويمكن أن نتعرف إلى واقع الأحداث من خلال الحجة الشرعية التالية التي تعود إلى سنة 1005هـ/1598م، التي جاء فيها ما نصه: "سبب تحرير الحروف بمجلس الشرع الأنور بالقدس الشريف المطهر - أجله الله تعالى - هو أنه لما حضر لدى مولانا قدوة قضاة الإسلام، سيد الموالي العظام، صدر المسلمين العلماء الأعلام، معدن العلم والفصل والطلاق، خادم شريعة الإمام عليه السلام، شجاع الدين⁸⁹ أفندي المولى الموقع خطه الكريم العلامة أعلاه - دام علاه - من قبل أمير الأمراء الكرام، أمير الكبراء الفخام، صاحب العز والاحترام، المحفوف بعواطف لطائف الملك العلام خسرو باشا⁹⁰ دمشق الشام - دامت معاليه إلى يوم القيامة - عن يد المعين من قبل ملك الأمراء الكرام، كبير الفخام محمد بيك⁹¹ بن مولانا ملك أمراء الأفاق محيي قواعد رسوم الإمارة بالاتفاق، الأسد الأسود، والبطل الأشد أحمد بيك أمير لواء غزة - دام الله تعالى عزه - هو فخر الأماثل والأقران يوسف أغا كتحدا⁹²، من خلاصة مضمونه المنيف، أننا عينا ملك الأمراء محمد بيك المومى إليه أعلاه محافظاً بالقدس الشريف، عوضاً عن جعفر بك⁹³ أمير لواء بها بموجب أنه تضرر منه جمع كثير من الأعيان والسباهية وغيرهم من وجهاء الولاية، وحصل منه ظلم زائد للرعايا، حتى جلب كثير من الناس منازلهم خارج الولاية، إلى أن يأتي جواب العرض الذي عرضاه بذلك إلى الباب العالي، وعين محمد بك المشار إليه لتسلم مدينة القدس الشريف يوسف أغا كتحدا محافظاً بنفسه للمدينة، ومحمد شيمش⁹⁴ كتحدا لضبط النواحي من جهة البر، طلب يوسف أغا المزبور المشار إليه، من فخر الأقران إبراهيم أغا كتحدا جعفر بك المومى إليه أن يسلمه مفاتيح المدينة، والجماعة المحبوسين عنده، فأحضر المفاتيح بالمجلس الشريف، وأربعة رجال محبوسين عنده، منهم ثلاثة من عرب جرم المشاريق⁹⁵، وواحد من أهالي قرية كفر عقب⁹⁶، متزوج عند طائفة العرب المزبورين، فتسلم ذلك بالحضرة والمعينة، والعلم الشرعي، وعلى ما هو الواقع سجل وحرر ذلك في ثامن جمادى الآخرة سنة خمسة وألف⁹⁷".

كما ورد في مصادر أخرى رسائل سلطانية موجهة إلى حكام القدس وغزة يدعوهم فيها لمواجهة أعمال التمرد والعصيات التي عمّت المنطقة بأكملها⁹⁸، ومن هذه الأوامر السلطانية الرسالة التالية: "لقد أرسل أحمد باشا نائب لواء غزة رسالة يذكر فيها أن الرملة⁹⁹ ورأس

العين¹⁰⁰ التي تتواجد فيها الحاميات العسكرية على الدرب السلطاني متباعدة عن بعضها البعض، ويعيش فيها قطاع الطرق فساداً، ويعتدون على المسافرين، وينهبون قوافل التجار والحجاج، لهذا ينبغي من أجل سلامة المواطنين، توفير حراسة محلية...¹⁰¹."

كما كان للواء القدس نصيبٌ من الكوارث البيئية، فقد وَقَعَ في سنة 1007هـ/1599م قحط شديد دمرت فيه المزروعات، وما بقي منها كان غذاءً للجراد، فتضرر السكان وعيالهم ودوابهم. وقد أُشير إلى ذلك في الحجة التي طلب فيها ناظر وقف المسجد الأقصى استدانة الزيت من حاكم غزة، لعدم وجود الزيت اللازم لإنارة الحرم، بسبب الجراد والقحط¹⁰².

ومن حركات العصيان والفتن التي حلت في لواء القدس أوائل القرن السابع عشر ما قام به الأمير مصطفى غرغور حاكم لواء القدس سنة 1012هـ/1603م من رفض تنفيذ أمر الوالي في دمشق الذي يدعوه فيه إلى التنحي عن إمارة القدس، حيث نصب مكانه فرخ باشا سنجقاً جديداً في القدس، فقام الأمير مصطفى بإغلاق أبواب المدينة، وجمع عساكره الذين عاثوا في المدينة ونواحها خراباً وتدميراً، وبقي الأمر إلى أن استطاع الجيش القادم من دمشق بقيادة كيوان بلوكباشي¹⁰³ القضاء على الثورة¹⁰⁴.

كما حصل في سنة 1020هـ/1611م اقتتال بين عدد من القرى الواقعة غرب القدس في ناحية العرقوب ومنها قرية دير إبان¹⁰⁵ والجورة¹⁰⁶ وبيت سقايا وكفر صوم¹⁰⁷، مما استدعى من الحاكم التدخل لحل النزاع وإخماد الفتنة¹⁰⁸.

وفي سنة 1030هـ/1620م وقع قتال بين قطاع الطرق وسيف بن مهنا شيخ عرب جرم المشاريق، فقبض محمد باشا¹⁰⁹ بن فروخ على عدد من العصاة الخارجين عن القانون، وعلى رأسهم شيخ عرب جرم المذكور، وسجنهم بسجن القلعة¹¹⁰، وذكر في حجة أخرى أنه عندما رفعت يد محمد باشا بن فروخ عن لواء القدس؛ بسبب شقاوته وتعيديه على الأهالي، كان طلب من نائب القاضي أن يتحفظ على السجناء إلى حين عودة قاضي القدس الشريف من الحج لينظر في أمرهم¹¹¹.

وكان محمد فروخ الذي تسلّم مكان والده فرخ باشا قد ألحقت له إمارة القدس أكثر من فترة، إضافة لإمارة قافلة الحج الشام، وقد وصفت فترة حكمه بالأصعب على اللواء، فبدأ حكمه بقتل نائب والده في لواء نابلس المدعو يوسف أغا، فوقع الخوف في قلوب أهل المدينة والأرياف، حيث تفنن في إيذاء الناس وسلب أموالهم، لدرجة أصبح الناس يخشونه، كما ضرب ببسالته المثل، وهابته العربان، وامتدحه الشعراء¹¹². ولقد وصفه المحبي، فقال: " وبلغت رهبته

في قلوب العربان، إلى أنهم إذا أرادوا أن يخوفون أحداً منهم، يقولون: "ها ابن فرخ أقبل فقتلوا قوائمه"¹¹³.

كما سيطر على قلعة القدس وأقام بها العمائر¹¹⁴، وحلّ بالقرى خراب عظيم، وهاجرت قرى بأكملها، ومما ساعد على تأزم الأوضاع وزاد الأمر سوءاً، حالة شح الأمطار في هذا العام، حيث عمّ القحط في البلاد وتأذى بذلك الدواب والعباد¹¹⁵. فقد جاء كثير من أهل القرى يشكون حالهم أمام القاضي، ومن ذلك، أنه حضر لدى القاضي جماعة من إحدى القرى، وشكوا سوء حالهم بسبب البلاء والقحط، وقالوا: إنهم أوشكوا على الهلاك هم وعيالهم، فطلبوا أن يقرضهم الأمير محمد فروخ حنطة، يدفعونه له في حينه¹¹⁶.

وبالرغم من ذلك، استمر النزاع بين الطرفين، فقد قبض محمد بك بن فروخ سنة (1031هـ/1622م) على حمد بن ريان شيخ قرى بني زيد ومشايخ آخرين وسجنهم بسجن القلعة¹¹⁷، ونصب جابر بن نجاص من قرية دجانية¹¹⁸ على قرى الناحية، عندها قام موسى بن بدر وعصى أمر الأمير، فقرر محمد باشا مهاجمة القرى المذكورة بجيش كبير، وبمساعدة محمد بن حامد شيخ عرب جرم ناحية الغور¹¹⁹، وما أن شعر سكان المنطقة بأنهم لا محال هالكون، هجروا قراهم، واستقروا بقرى لواء نابلس.

فكانت النتيجة التي حققها محمد بك أنه لم يجمع شيئاً من الضرائب التي كان يطمح بتحصيلها، فلو سلب القليل بهذه السنة، فإنه لن يحصل على شيء بالسنوات اللاحقة بسبب ما حل بالبلاد من خراب وتدمير. فلما علم قاضي القدس بحقيقة ما جرى، جمع أعيان القدس ووجهاءها وشاورهم بحقيقة مشايخ القرى الموجودين في السجن، فقالوا جميعاً: إنهم من أهل الصلاح، وإن سجنهم كان من دواعي الشر والفساد والظلم، عند ذلك أمر القاضي بإطلاق سراحهم¹²⁰.

من جهة أخرى، لحق الوقف ضرر كبير جراء ذلك، فقد عرض متولي وقف الخليل على القاضي الشرعي في القدس حال الوقف، فقال: إن المطلوب من قرى الوقف في لواء القدس من الزيت 110 قنابير، وإن ما تم جمعه هذا العام 52 قنطاراً، وتشير الوثيقة أن سبب هذا النقص يعود إلى خراب القرى والمزارع زمن حكم محمد بك بن فروخ باشا، وذلك من كثرة الشر والفساد والفتن¹²¹. وفي وثيقة أخرى طلب القائمون على الأوقاف، ورجال الإقطاع السباهية من القاضي، أن يعين من طرفه من يقوم بالكشف على القرى التي تضررت في نواحي القدس الشريف، فبعد الكشف وجد أن 46 قرية هجرها أهلها، وأصبحت بين عشية وضحاها، أثراً بعد عين، ومأوى للكلاب ومركزاً لقطاع الطرق والخارجين عن النظام، وبالإضافة لقرى أخرى كان الضرر بها نسبياً،

لذلك طلب القاضي من محمد بك تعمير القرى وإرجاع أهلها إليها¹²²، رغم ذلك فقد استمرت تعديت حكام العرف في مناطق متعددة من لواء القدس¹²³. وزاد الأمر صعوبةً سوء الموسم الزراعي في السنة اللاحقة، فذاق أهل الأرياف مرارةً ما بعدها مرارة، إذ حفلت الحجج الشرعية بطلبات مساعدة تقدم بها أهل القرى من القاضي والحكام¹²⁴.

ويظهر أن التراجع في عدد السكان بات واضحاً، فقد طلب أهل قرية أبي ديس من القاضي أن يمنح صوباشى¹²⁵ لواء القدس من التعدي عليهم، وقالوا: إنهم كانوا سابقاً 200 رجل والآن أصبحوا خمسين رجلاً ولا يتحملون هذه الغرامات¹²⁶. يذكر بهذا الصدد أنه في القرية المذكورة كان بها في سنة 1005هـ/1597م ثمانون أسرة¹²⁷.

بقيت الأوضاع في ريف القدس على حالها إلى أن تسلّم حسن باشا¹²⁸ سنة 1036هـ/1627م مفاتيحها من محمد باشا، عندها علم بحقيقة ما جرى ويجري في اللواء على يد محمد بك، فخرج للكشف على النواحي برفقة شيخ بني زيد عرار بن سليمان والشيخ صالح شيخ قرى بني حارثة، فوجد أن حوالي 40 قرية أصبحت خربة تماماً لا يوجد بها أحد، وجميعها من ناحية بني زيد وبني حارثة¹²⁹.

ومن أعمال الفساد والعصيان التي أشبه ما تكون بالعصيان، ما وقع بين عدد من قرى ناحية خليل الرحمن، لحلول¹³⁰ وسعير وفوقين¹³¹، فقام أهالي هذه القرى بأعمال القتل ونهب القرى المجاورة¹³²، عند ذلك خرج أمير السنجق محمد باشا وبصحبته العلماء والوجهاء ورجال الصوفية، مع جمع كبير من العسكر والسباهية، لتأديبهم، فدارت معركة بين الطرفين وصفتها السجلات بأنها "معركة عظيمة"، انتهت بدخول جيش الإمارة قرية لحلول معقل العصاة¹³³.

كما حصل في سنة 1042هـ/1633م، أن أصاب البلاد قحط شديد أهلك الزرع والضرع، وتضرر به الدواب والبشر. فقد حضر جماعة من قرية المالحه¹³⁴ وطلبوا من القاضي الاستدانة بسبب قلة الغلال هذه السنة، إلى حين نزول المحصول الجديد.

وفي سنة 1057هـ/1647م، هاجم جماعة من المجاورين¹³⁵ وأهل القرى في ناحية الخليل، مدينة الخليل، فوقع قتال عنيف بين الطرفين قتل فيه خمسة أشخاص من كل فريق¹³⁶. كما حصل قتال بين العسكر وبعض القرى ومنها قرية بيت سقايا بسبب رفضهم للخدمة العسكرية، فقتل وجرح العديد من الطرفين¹³⁷.

ومن قتال القرى ما قام به أهالي قرى صوبا¹³⁸ وساريس والعنب¹³⁹ ودير عمرو¹⁴⁰ بمهاجمة قرية بيت سوريك¹⁴¹ حيث قتل وجرح العديد¹⁴².

كما حدثت فتن عديدة في حدود سنة 1067هـ/1657م عمت القدس ونواحيها وكان أعنفها في ناحية الخليل بين المجاورين والفلاحين من جهة والأكراد¹⁴³ والتميمية¹⁴⁴ من بني دار وبني داود من جهة أخرى، وهي تعد استمراراً لما ذكرناه سابقاً، حيث قتل عدد كبير من الطرفين ودمرت المنازل والمزروعات وهجر الكثير بيوتهم وديارهم، كما انتقلت الفتنة إلى القدس ما بين المجاورين والأكراد¹⁴⁵.

وعندما رأى الوالي في دمشق عدم قدرة قبلان باشا¹⁴⁶ حاكم القدس على حسم الأمر وإخماد الثورات، عزله وأمره بتسليم مفاتيح القدس لحسين باشا حاكم غزة، فقام حسين باشا بتنصيب ابنه إبراهيم بك حاكماً على القدس، وأصبحت القدس تابعة لحكم حسين باشا حاكم غزة¹⁴⁷، ونتج عن هذه الفتنة هجرة أعداد كبيرة من سكان القدس، حيث ورد بهذا الخصوص كتاب سلطاني إلى حسن آغا حاكم القدس يبارك له فيه عودة أهالي القدس بعد أن هجروها بسبب الفتن التي وقعت بينهم، وأشادت الوثيقة بجهود الباشا في المحافظة على الحرم القدسي الذي نالت منه الفتن¹⁴⁸.

وفي 13 ربيع ثاني 1067هـ/1657م حضر حسين باشا حاكم لواء غزة إلى القدس من أجل إنهاء الخلافات بين الطوائف المتخاصمة، وإخراج السجناء الذين وضعهم الباشا السابق بالسجن، وقد شارك بهذا الصلح أعيان من مناطق ونواح مختلفة ومن شيوخ العربان والقرى ليشهدوا على الاتفاق¹⁴⁹. وبالرغم من عقد الصلح وتقديم الولاء والطاعة، وتعهدهم بدفع ما عليهم من حقوق للعباد والأوقاف، ومقاطعة أمير لواء القدس¹⁵⁰، إلا أنهم لم يلتزموا بما اتفق عليه، فقد بعث الحاكم في القدس وفداً من العلماء من أجل التوسط وإحضار شيوخ الطوائف في الناحية لتقديم الطاعة وإنهاء حالة عدم الوضوح في موقف أهل ناحية الخليل من الخضوع لأمير القدس ودفع ما عليهم للأمير وللدولة¹⁵¹. لكن الخلافات والفتن بين أهل الخليل استمرت بشكل متقطع وأقل من السابق حتى سنة 1082هـ/1672م إذ عقد صلح بالقدس بهذا الخصوص بين طوائف الخليل من أهل القرى والمجاورين المغاربة من جهة والأكراد والتميمية من جهة أخرى¹⁵².

وقامت في سنة أيضاً 1070هـ/1660م حركة عصيان ضد حكام العرف والعسكر في القرى الواقع إلى الجنوب الغربي من القدس، وهي قرى الولجة¹⁵³ والجورة وبيت صافا¹⁵⁴ وصور باهر¹⁵⁵، فقد جاء حسن باشا حاكم القدس الشريف إلى القاضي، وأخبره بأمر خروج القرى

المذكورة، وقال: إنه وقع قتال بين الطرفين استعمل به البندق والنشاب، وقد جرح عدد من العسكر¹⁵⁶.

كما حلّ بالبلاد في سنة 1071هـ/1661م، قحط¹⁵⁷ شديد بسبب قلة الأمطار وانتشار الجراد إذ أوشك الناس على الهلاك، فقد حضر عدد من مشايخ قرى لواء القدس وأخبروا القاضي أن الجراد دمر مزرعاتهم وليس لهم قدرة على دفع ما عليهم من مستحقات¹⁵⁸.

وحدثت فتنة وقتال بين قريتي العيزرية¹⁵⁹ وبيت لحم راح ضحيتها الكثير، بين قتيلٍ وجريح، ومنهم من هاجر إلى مناطق أخرى¹⁶⁰.

وحصل في أيام الأمير صالح باشا حاكم لواء القدس سنة 1099هـ/1688م أن خرج أهل بيت سقايا وبدأوا بقطع الطريق السلطاني ورفضوا دفع ما عليهم من مستحقات، عند ذلك جاء مشايخ قرى لواء القدس مع السباهية، وتعاهدوا على مقاتلة قطاع الطريق في مركزهم قرية بيت سقايا¹⁶¹، وقد انتهى الأمر بأن جاء أهل القرية المذكورة إلى محكمة الشرع الشريف وقدموا الطاعة والولاء¹⁶².

إننا من خلال تتبع هذه الأحداث التي وقعت في ناحية القدس خلال القرن السابع عشر الميلادي، نجد أن حركات العصيان كان لها آثار متعددة الوجوه والأبعاد، فقد وجهت الحركات إن صحَّ هذا التعبير إلى طرفين، إما لحكام العرف وأعاونهم من الصوباشية والعسكر، بسبب تعدياتهم وظلمهم، وإما أنها كانت تقع بين جماعات وطوائف ناحية القدس سواء في ناحية أو أكثر من لواء القدس الشريف.

فإذا أخذنا الجهة الأولى التي وجهت لها حركات العصيان، نجد أنه خلق واقع عداء وعدم ألفة بين الناس وحكام العرف¹⁶³، فكان الحاكم برأي الرعايا إما جايياً أو عسكرياً بيده السيف والسياط، لأنهم لم يشعروا بالأمن المطلوب، لانتشار أعمال التعدي في جميع النواحي¹⁶⁴.

فقد قال السائح التركي أوليا جلبي عن الأمن: "كان مفقوداً بالمرّة"¹⁶⁵. فإضافة لما ذكرنا من الحوادث المتعلقة بهذا الموضوع فقد حفلت السجلات بالحديث عن قتل أعوان حكام العرف طوال هذا القرن، وقد كانت السجلات توضح سبب القتل، بأنه يعود لتفشي ظاهرة العداء¹⁶⁶ الناتجة عن استعمال القوة بشكل مفرط - كما حصل مع محمد باشا بن فرخ باشا - مما أدى إلى ترسيخ آثار سلبية في العلاقة بين الطرفين على المدى القريب والبعيد. فإذا كان هنالك تعهدٌ من السكان لدفع الضرائب المفروضة فهو ليس حباً ووداً في دفع ما عليهم، ولكنه ينبع من قناعة

الرعايا أنه لا سبيل لهم غير ذلك سوى المهالك. لذلك كانوا يفتنمون كل فرصة سانحة للخروج، وعدم دفع ما عليهم من مستحقات.

من جهةٍ أخرى، نلاحظ أن حركات العصيان لم تكن بالحجم الذي تستطيع به أن تدحر النظام الموجود وتقيم حكماً جديداً، بل كانت على نطاق محدود أقل مما كانت عليه في مناطق أخرى من ولاية الشام كحركة فخر الدين المعني في سنة 1043هـ/1634م¹⁶⁷، التي قال المحبي عن زعيمها: "فقد بلغ مبلغاً لم يبق وراءه إلا دعوى السلطنة"¹⁶⁸.

أما الفتن التي كانت تقع بين أهل الريف، فترجع في الغالب لأمر تتعلق بالمعيشة أو قضايا اجتماعية، فكثير ما كانت تقع الخلافات بسبب حدود القرى أو خلاف على بعض المزارع، أو ترجع لسبب بسيط كأن ترعى دابة بأرض قرية أخرى، وهناك فتن تتعلق بأمور لها علاقة بالشرف، أو القتل وغيرها. فقد وقع خلاف بين قريتي بيت اكسا¹⁶⁹ وبيت لقياء على ضريبة الخفارة، فنتج عن ذلك أن حدثت أعمال سلب ونهب على المارين من الطريق¹⁷⁰.

2- العريان:

عاشت القبائل البدوية في لواء القدس على شكل جماعات تنتقل من منطقة إلى أخرى بحثاً عن الكلاً والماء، ولهذا يصعب أن نحدد مكاناً لهم ولكن من خلال ما جاء عنهم في السجلات والمصادر الأخرى يمكن تحديد المنطقة التي دارت نشاطاتهم فيها. وهي في جنوب و جنوب غرب بيت المقدس بين غزة والقدس وبئر السبع، وفي الشرق كان لهم امتداد عبر الغور حتى أريحا، حيث كانت هذه المناطق ملائمة إلى حدٍ ما للظروف التي يعيش بها البدوي وحياة البداوة.

عُرف في لواء القدس خلال هذه الفترة مجموعة من القبائل والعشائر التي كانت تمارس نشاطاتها داخل حدود اللواء، ومنها عرب الوحيدات وفروعها مثل عرب الرتمات¹⁷¹، وعشائر التعامرة¹⁷² وبنو صخر¹⁷³ في جنوب القدس، وعرب جرم المشاريق والجرامنه¹⁷⁴ والكعابنة¹⁷⁵ والزبور¹⁷⁶ ناحية المشاريق الغور، وبنو سالم في ناحية العرقوب¹⁷⁷ وعرب هتيم العساكره¹⁷⁸ في الجنوب الشرقي من بيت المقدس.

أما علاقة حكام العرف بهم فقد كانت دائماً تتميز بالحدز لأن الدولة العثمانية طوال تاريخها في المنطقة لم تستطع التخلص من خطر هذه الطائفة التي طالما وقفت الدولة عاجزة عن طي هذه الجماعات تحت زراعيها¹⁷⁹، حيث خاض حكام القدس حروباً عديدة معهم، منها: الحرب عام 1040هـ/1630م مع عرب جرم في الغور ومركزهم أريحا¹⁸⁰. ويمكن أن نرجع ذلك إلى أمور، منها: طبيعة انتشارها، وطريقة عيشها والأماكن التي يتواجدون فيها، فقد وضعتهم هذه الظروف

بموقع يصعب النيل منهم ليس فقط على مستوى لواء القدس بل على مستوى السلطنة العثمانية¹⁸¹.

ولقد غلب على علاقتهم مع حكام العرف الطابع الحربي والعداء والقتال، وأحياناً كانت تدخل بمهادنة لفترات منقطعة، وقد كان للوضع المعيشي الذي نشأ عليه البدو في أطراف الصحراء حيث الحرارة الشديدة وقلة الماء والغذاء، أثر في ميلهم لاستعمال القوة والشدة، فبدأوا يبحثون عن طرق يحصلون بها على العيش بشكل غير مشروع، فقاموا بقطع الطرق على مرتاديها، وهاجموا القرى والقوافل المدنية والعسكرية¹⁸² حتى قوافل الحجيج لم تسلم من ضرباتهم، وكثيرة هي الحالات التي اعتدوا بها على قوافل الحجيج¹⁸³. لذلك كان الأمراء في ناحية القدس يهادنونهم بطرق، منها: أن يقوم حاكم اللواء بدفع مبلغ من النقد عرف بالصرة¹⁸⁴ عن طريق أمير اللواء، لشيوخ القبائل مقابل عدم اعتدائهم على الحجيج، فقد دفع خليل باشا حاكم لواء القدس ونابلس والحج قبل زهاب الحجيج 740 غرش للشيخ وشاح شيخ عرب الوحيدات من صرتهم على الحج الشريف¹⁸⁵، وعند العودة قبض الشيخ وشاح من يد المتسلم 1570 غرش ومن متسلم نابلس 670 غرش¹⁸⁶. وهذا أمير الحج المصري تعاهد مع العربان المقيمين على الطريق مع مصر، بعدم الاعتداء عليهم نظير المال المقدم لهم¹⁸⁷.

وفي حجج أخرى كان يدفع لهم مبلغاً من المال على شكل مقاطعة مقابل أن تقوم هذه القبائل بمرافقة قوافل الحجيج وحمل أمتعتهم زهاباً وإياباً، ويسلم المبلغ على دفعتين الأولى قبل الذهاب والثانية بعد العودة وبهذه الطريقة يحقق الحاكم هدفين، ففي الوقت الذي يؤمن طرف هؤلاء، يكون قد حقق أمن وسلامة قوافل الحج التي لم يستطع الجيش النظامي تحقيقها. وقد أمدتنا السجلات الشرعية بما تم تدوينه حول ذلك، حيث كانت تتم عملية الاستلام والتسليم في محكمة القدس الشريف، بحضور مندوب من شيخ القبيلة ومندوب الحاكم في مدينة القدس¹⁸⁸.

يبدو من خلال المصادر الأرشيفية أن هذه الحالة من التعامل بين الحكام وشيوخ البدو، لم تظهر إلا في أواخر القرن 11هـ/17م، وذلك يظهر أن القبائل والعربان أصبحت من القوة والشدة بمكان، لا تقوى عليها دار الإمارة، كما أن القبائل البدوية وجدت في هذا الدور مهنة لها، فهي تحصل على المال دون قتال. ومن جهة أخرى تفاقمت حالة الضعف والتراخي وقلة اهتمام الدولة بولاياتها، خصوصاً مع انشغالها في حرب داخلية وخارجية كبيرة¹⁸⁹، حيث سحبت عساكر كثيرة من الولايات، فبدأت تتقرب لهذه العناصر، حتى تقوم بما كان يقوم به العسكر.

الخاتمة:

حاولنا في هذا البحث أن نتعرف إلى أوضاع ريف القدس خلال القرن السابع عشر وذلك بتسليط الضوء على طبيعة العلاقات التي كانت قائمة بين الجهاز الإداري العثماني وأهل الريف من الفلاحين والعربان. وقد توصلت الدراسة إلى ما يلي:

- تشكل الجهاز الإداري في القدس ونواحيها من طاقم كبير من الحكام يتقدمهم أمير اللواء وعدد من معاونين، كُلف أمير لواء القدس بمهام كثيرة، ولكل حاكم جاء إلى القدس سياسة خاصة به، بنيت غالباً لتلبية مصالحه الشخصية، فقد وُصف حكام المدينة ونواحيها خلال فترة الدراسة، أن منهم حكاماً وفروا سبل العيش للسكان، ومنهم من أغرق البلاد بألوان من الظلم والتعدي.

- عاش لواء القدس خلال القرن السابع عشر تحت تأثير الزعامات المحلية المحيطة باللواء (لواء نابلس في الشمال بزعامة آل فروخ، ولواء غزة في الجنوب بزعامة آل رضوان)، كما لم يظهر في اللواء حكام أقوياء يستطيعون إدارة اللواء بمعزل عن الألوية المجاورة، وبالتالي تأثر لواء القدس بشكل مباشر بالأوضاع التي عصفت بسناجق فلسطين، مما أثر في التركيبة الديمغرافية في اللواء، يبعدها المكاني والزمني.

- يبدو أن المفهوم الإداري والسياسي أو علاقة الحاكم بالمحكوم في تلك الفترة لم تكن واضحة للطرفين معاً، فالحاكم يريد من السكان كل شيء، دون أن يقدم أي شيء، وبالمقابل السكان صور لهم الحاكم بصورة الجبار والجابي بأن واحد، ونجد أن هذه الصورة إلى حد ما كانت عامة في ولايات السلطنة العثمانية. ويعود ذلك لجملة من الأسباب على رأسها استمرار عمل الدولة على أساس نظام العصور الوسطى وعدم التجديد، كما كان لحالة الركود والتراخي التي حلت بالدولة العثمانية خلال القرن السابع عشر الميلادي، أن خفت قبضة الدولة على ولاياتها مما أطلق العنان لبعض الحكام في عمل ما يشاؤون داخل ولاياتهم.

- أخيراً، إن الدراسات المتعمقة والجادة المستمدة من جوهر التراث الشرقي تعكس صورة حقيقية لتاريخنا، وتضيف رصيماً علمياً جديداً يتناغم مع الدراسات التي تناولت تاريخ القدس من حيث الموضوعات التي عالجتها، وطريقة عرضها وتحليلها، ومن أجل تغذية النسق الفكري والمعرفي بأسلوب الباحث المحترف ينبغي قراءة هذا الكم الهائل من التراث المخطوط- مثل سجلات محكمة القدس الشرعية- قراءة معمقة من منظور موضوعي ونقدي؛ لأن الاتزان والموضوعية في دراسة الماضي عوامل لها صلة وثيقة بفهم الحاضر وتحليله بأبعاده المتعددة.

The Countryside of Jerusalem and Its Governors during the 17th Century

Ibrahim Rabayah, College of Education, Al-Quds Open University, Palestine.

Abstract

This study is an attempt to understand the general circumstances of the countryside in Jerusalem rural areas at a specific era of the Ottoman empire history. It sheds the light on the kind of relationship between the peasants and the administrative system in Jerusalem. The study also describes the security status in the countryside areas during that era. In addition, the study presents, an important sector of the rural areas inhabitants, the Bedouins, who are peculiar in their style of living and economic activities. The study takes they have taken into account their important effect on the incidents that took place during that time.

وقبل في 2008/10/26

قدم البحث للنشر في 2007/11/26

الهوامش

1. عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون 1516 – 1916م، ط1، دمشق، 1984م، ص95 – 97؛ ليلى الصباغ، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، دمشق، 1973م، ص15-17؛ - "S.A. BONEBAKKER"AL- KUDS, *Encyclopedia of Islam*. E.J. Brill, leiden, 1982, vol. 5, p. 332-335.
2. السنجق: كلمة تركية معناها العلم والراية واللواء الذي يرفع أمام الحاكم الإداري، وقد استعملت في الفترة العثمانية في بلاد الشام بمعنى ولاية وفي العراق بمعنى والي أو حاكم، أحمد بن علي القلقشندي (ت821هـ/1418م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج15، القاهرة، 1963م، ج4، ص8؛ J. Deny، سنجق، دائرة المعارف الإسلامية، ج18، دار المعرفة، بيروت، ج18، ص249-255.
3. الألوية هي: الشام، صغد، بيروت، غزة، نابلس، اللجون، تدمر، صيدا، الكرك وعجلون، خليل محمد ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، اسطنبول، 2001م، ص21.
4. محمد سليم اليعقوب، ناحية القدس الشريف في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، ج2، ط1 البنك الأهلي الأردني- عمان 1999م، ج1، ص204.

5. قرى بني زيد: مجموعة من القرى تقع شمال غرب بيت المقدس، نذكر منها: (دير غسانة وعابود وكفر شوا وعطارا وعارورا وجمالا وبيت اللو وسنجل والمزارع وعبوين)، ينظر في: سجل القدس 151، ح1، 4 صفر 1067هـ / 22 تشرين ثاني 1656م، ص505؛ لواء القدس الشريف، لواء القدس من دفتر مفصل لواء صفد وغزة والقدس الشريف، من دفتر تحرير (T.D.427)، دراسة تحليلية للنص العثماني وترجمته إلى العربية مع الشروحات الإيضاحية محمد عدنان البخيت ونوفان رجا السوارية، عمان، 1426هـ/2005م، ص224، ص226، ص228، ص230، ص332؛ M. Hartmann, Die Ortschaftenliste des Liwa Jerusalem in dem Tukiischen Staatskalender Fur Syrien .auf Jahr 1288 der Flucht(1871). Z D P V, Band vi (1883), Reprint 1966, P. 106-17.
6. سجل القدس 117، ح1، 13 جمادى الأولى 1040هـ/17 كانون أول 1630م، 260.
7. العرقوب: نسبة إلى الشيخ أبو عرقوب الذي كان يقيم في تلك المنطقة، وقد ذكرت أحد السجلات أنه في قرية حمامة التي تقع غرب بيت المقدس، قرب بلدة مجدل عسقلان، يوجد زاوية تعرف بزاوية أبو عرقوب، تم تعيين محمد بن إبراهيم، شيخاً وناظراً ومتولياً عليها، وهذه القرية دمرت معالمها وهجر أهلها على يد الاحتلال الصهيوني لفلسطين 1948م، سجل القدس 102، ح2، 7 جمادى الثانية 1028هـ/22 يار 1619م، ص32. ناحية العرقوب ذكرت في: سجل القدس 117، ح1، 13 جمادى الأولى 1040هـ/13 كانون أول 1630م، ص260.
8. سجل القدس 105، ح1، غرة رجب 1031هـ/12 أيار 1622م، ص216.
9. سجل القدس 117، ح1، 13 جمادى الأولى 1040هـ/17 كانون أول 1630م، 260.
10. سنجل: تقع شما مدينة رام الله، سجل القدس 141، ح1، 18 رجب 1059هـ/28 تموز 1649م، ص381؛ مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، ج10، مطبوعات رابطة الجامعيين بجامعة الخليل، 1974م، ج8، ص279.
11. كفر عطية: تقع شمال غرب رام الله، قسطنطين نقولا أبو حمود، معجم أسماء المواقع الجغرافية في فلسطين، ط1، إصدار جمعية الدراسات العربية القدس 1984، ص15.
12. تقوع: تقع جنوب شرق مدينة بيت لحم، سجل القدس 99، ح1، 21 ربيع الأول 1026/29 آذار 1617، ص224، الدباغ، بلادنا، ج8، ص496.
13. بيت نتيف: تقع شمال غرب الخليل، سجل القدس 146، ح1، 17 شوال 1061هـ/5 آب 1651م، ص62؛ الموسوعة الفلسطينية، م1، ص466؛ أبو حمود، معجم أسماء، ص36.
14. دير بني عبيد: تقع جنوب شرق مدينة القدس، سجل القدس 80، ح6، ربيع الأول 1008هـ/26 أيلول 1599م، ص198؛ الدباغ، بلادنا، ج8، ص509.
15. سجل القدس 167، ح3، 16 جماد ثاني 1077هـ/14 كانون أول 1666م، ص23.

16. الباشا: هي كلمة من أصول تركية استعملت كلقب عسكري بمعنى حاكم عسكري أو كبير العسكر وموجههم، سجل القدس 152، ح2، 13 ربيع ثاني 1067هـ/ ص84؛ مصطفى بركات، الألقاب والوظائف العثمانية، دار غريب، القاهرة، 2000م، ص80.
17. سجل القدس 166، 18 شعبان 1076هـ/ 23 شباط 1666م، ص197.
18. حاكم العرف: أن يتم عمل الحاكم وفق النظام المعمول به في الدولة المستند إلى الشريعة والقوانين والأوامر السلطانية، وقد نشأ القانون العرفي على مدى زمن طويل من تراكم الأحكام والمراسيم التي يصدرها الحكام، وقد عرف بحاكم العرف تمييزاً له عن القاضي الشرعي، سجل القدس 151، ح2، 12 شوال 1066هـ/ 3 آب 1656م، ص358؛ أكمل الدين احسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج2، نقله إلى العربية، صالح سعداوى، استانبول، 1999م، ج1، ص533.
19. سجل القدس 79، ح1، 13 رمضان 1006هـ/ 19 نيسان 1598م، ص71.
20. سجل القدس 84، ح1، 6 ذي الحجة 1012هـ/ 6 أيار 1604م، ص296.
21. اليعقوب، ناحية القدس، ج1، ص206.
22. المتسلم: هو نائب الأمير الذي يُنصب لتسلم اللواء من الحاكم السابق، ينظر: سجل القدس 165، 29 ربيع ثاني 1075هـ/ 21 تشرين أول 1665م، ص205.
23. أغا: هو لقب تركي بمعنى الرئيس أو القائد، أطلق على كبار رجال العسكر في الدولة العثمانية من الفرق المختلفة، بركات، الألقاب، ص173.
24. محمد باشا الكوبري (ت1072هـ/ 1662م) الوزير الأعظم في عهد السلطان محمد بن إبراهيم العثماني، تولى في بداية أمره ولاية الشام ومن ثم القدس وطرابلس في حدود سنة 1058هـ/ 1648م، وبعدها وصل إلى مرتبة الصدارة العظمى، المحبي، خلاصة، ج4، ص308؛ سجل القدس 140، ح1، 18 محرم 1058هـ/ 13 شباط 1648م، ص187.
25. فرخ بن عبد الله باشا، أحد مماليك الأمير بهرام شقيق الأمير رضوان باشا حاكم غزة، تدرج في المناصب إلى أن وصل حكم لواء نابلس واستمر حاكماً فيها وأميراً للحج الشامي حتى توفي في الحج عام 1030هـ/ 1621م، المحبي، خلاصة، ج3، ص271، الخالدي الصفدي، تاريخ الأمير فخر الدين المعني، تعليق أسد رستم وفؤاد البستاني، المكتبة البوليسية، د.ت.، ص133-137؛ الموسوعة الفلسطينية، م2، ق2، ص704؛ Amnon Cohen, Palestine in 18th Century, Jerusalem, 1973, P. 41-42.
26. السكبانية: كلمة فارسية تتكون من مقطعين، الأول سك ومعناها الكلب وبيان ومعناه حامي، فتكون حامي الكلب أو ماسك الكلب، وهي طائفة كانت مهمتها أولاً تسيير الكلاب أمام القادة والأمراء، ومن ثم أصبحت أحد الفرق العسكرية المرتزقة في الدولة العثمانية والتي كان أوج فاعليتها في القرن 10هـ/ 16م حتى بداية القرن 11هـ/ 17م، فقامت بأعمال فتن وسلب ونهب بأماكن مختلفة من الدولة بعد أن سرّح عدد كبير من أفرادها من الخدمة العسكرية، ينظر في: محمد أمين الدين المحبي

- (ت1111هـ/1699م)، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د،ت)، ج2، ص324؛ جيب وبوين، المجتمع الإسلامي والغرب وأثر الحضارة الغربية على الفكر الإسلامي في الشرق الأدنى، ترجمة عبد المجيد القيسي، دمشق، 1997م، ج1، ص87؛ نوفان رجا الحمود، العسكر في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، دار الأفاق الجديد، بيروت، 1981م، ص147؛ Naima, Annals of the Turkish Empire, from The 1591-1659 of Christian Era. 1Vol, 1973, P. 337 دائرة المعارف الإسلامية، ج18، دار المعرفة، بيروت، ص13-14؛ أحمد جواد، تاريخ عسكر عثمانى، الأستانة 1897م، ج1، ص146؛ يوسف جميل نعيسه، مجتمع مدينة دمشق 1186-1256هـ/1772-1840م، دمشق، ط2، 1994م، ص244-246.
27. سجل القدس 87، ح1، 17 رمضان 1016هـ/26 كانون أول 1607م، ص419.
28. من أكبر الثورات التي وقعت داخل المدينة خلال القرن السابع عشر، وقد تزعمها مشايخ عائلة اللطفي(على وشرف الدين وأبو اللطف اللطفي) الذين كان لهم حضور قوي في ميدان الوظائف الدينية داخل مدينة القدس خلال الحكم العثماني، وقد حكم على الشيخ علي بالإعدام في غزة وشرف الدين بالنفي إلى دمياط، أما أبو اللطف فيمنع من الإفتاء. سجل القدس 156، ح1، ختام ذي القعدة 1069هـ/ 18 آب 1659م، ص444؛ سجل القدس، ح1، 25 محرم 1070هـ/11 تشرين أول 1659م، ص495؛ سجل القدس 156، ح1، غرة صفر 1070هـ/17 تشرين أول 1659م، ص496؛ سجلات محكمة نابلس الشرعية، مصورة على CD، نسخة جامعة القدس المفتوحة، منطقة طولكرم التعليمية، سجل نابلس رقم1، 11 ربيع ثاني 1068هـ/16 كانون ثاني 1658م، ص269؛ المحبي، خلاصة، ج3، ص151.
29. عرب الزيود: هي قبائل بدوية كانت منتشرة جنوب شرق القدس، كانت تابعة لعشيرة التعامرة. ذكرت حجة شرعية عرب الزيود مع عرب الرتمات والكعابنة عندما قامت هذه العربان بمهاجمة قافلة التجار القادمين من السلط وعجلون، ينظر: سجل القدس 107، 11 اذي الحجة 1032هـ/6 تشرين أول 1623، ص20.
30. الرمايا: مبلغ من المال يدفعه أهل القرى مقابل تقديم الحماية والمساعدة ودرء الأخطار، سجل القدس 117، ح1، 13 جمادى الأولى 1040هـ/13 كانون أول 1630م، ص260.
31. سجل القدس 147، ح2، 20 ربيع ثاني 1063هـ/20 آذار 1653م، ص182.
32. قلعة بيت جبرين: تقع جنوب غرب بيت المقدس بين القدس والخليل وغزة، عمّر العثمانيون فيها قلعة وخان من أجل توفير الحماية على طريق الشام مصر، كان فيها أواخر القرن السادس عشر 8 خانات؛ دفتر طابو 70، ضمن سجلات محكمة القدس الشرعية وتاريخه 997هـ/1588م، ص172-173، وقد وصفها الخياري في رحلته، فقال: "فإنها هي قرية بها قلعة وخان خرب". ينظر: الموسوعة الفلسطينية، مجلد 2، ق2، ص752؛ الحمود، العسكر، ص47.

33. سجل القدس 147، ح 1، 12 صفر 1063هـ/12 كانون أول 1653م، ص 78.
34. تل الفول: يقع شمال قرية العيسوية شمال بين المقدس بالقرب من بلدة شعفاط، الدباغ، بلادنا، ج 8، ص 87، ج 8، ص 101.
35. سجل القدس 174، ح 1، 12 ذي الحجة 1082هـ/10 نيسان 1672م، ص 30.
36. الشريعة: هو نهر الأردن، معناه المورد العذب للشاربين، أو الجدول أو النهر الذي تشرب منه الحيوانات دون رافعة، سجل القدس 149، ح 1، 8 جمادى الثانية 1065هـ/8 حزيران 1655م، ص 192؛ الدباغ، بلادنا، ج 8، ص 279.
37. ضريبة الخفر أو الخفزية: كتبت في السجلات خطأً الفخر والغفارة، وهي رسوم كانت تأخذ من التجار المارين مقابل عدم اعتداء اللصوص عليهم، إبراهيم بن عبد الرحمن الخياري المدني (ت 1083هـ/1672م)، تحفة الأدباء وسلوة الغرياء، ج 3، تحقيق رجا محمود السامرائي، بغداد 1980م، ج 2، ص 168-169؛ Amnon cohen and Bernard Lewis, Population and Revenue in the Towns of Palestine in the Sixteenth Century, Princeton University Press, Princeton, 1978. P 72.
38. بيت لقايا: تقع غرب بيت المقدس على الطريق بين القدس والرملة، الدباغ، بلادنا، ج 8، ص 278.
39. سجل القدس 95، ح 2، 13 ربيع الأول 1023هـ/23 نيسان 1614م، ص 132.
40. ساريس: تقع غربي بيت المقدس، الدباغ، بلادنا، ج 8، ص 123.
41. سجل القدس 151، ح 7، 13 جمادى الثاني 1066هـ/17 آذار 1656م، ص 227.
42. بيت سقايا: لا يوجد لها ذكر في المراجع الحديثة، يبدو أنها قرية مندرسة، وهي خربة أثرية، وحسب الحجج الشرعية فهي تقع غرب بيت المقدس، وقد بلغ عدد خاناتها في أواخر القرن السادس عشر إلى 51 خانة، دفتر طابو 70، ص 38؛ سجل القدس 189، ح 2، أواسط جمادى الثاني 1099هـ/25 أيار 1679م، ص 96.
43. التكاليف العرفية: هي ضرائب كان يفرضها الحكام عند الحاجة في الطريقة التي يرونها مناسبة، ذكر قانون لواء القدس ضريبة التكاليف العرفية عندما أشار القانون أن أرض الوقف معفاة من هذه الضرائب، ينظر: ترجمة كمال خوجة لقانون لواء القدس في الموقع التالي: <http://www.palestine-pmc.com/arabic/inside1>.
44. سجل القدس 149، ح 1، أواخر شوال 1064هـ/12 أيلول 1654م، ص 328؛ سجل القدس 157، ح 1، غرة رمضان 1070هـ/13 أيار 1660م، ص 160.
45. السباهية: هم العسكر أصحاب الإقطاعات العسكرية المقيمين في الأرياف، منحتهم الدولة هذه الإقطاعات مقابل خدمات عسكرية يقدموها للدولة عندما يستدعي الأمر إلى ذلك، هيك، (د،ت)، سباهي، دائرة المعارف الإسلامية، ج 15، دار صادر، بيروت، ج 11، ص 214-215، إبراهيم ربايعة،

- العسكر السباهية في ريف لواء القدس، مجلة جامعة النجاح الوطنية، مجلد 21 عدد 13، 2007م، (ص 838-864).
46. سجل القدس 189، ح 2، أواسط جمادى الثانية 1099هـ/17 أيار 1688م، ص 96.
47. المد: نوع من المكابيل يزن 77,875 كغم، فالترهنس، المكابيل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة، كامل العسلي، عمان، 1970م، ص 68.
48. سجل القدس 161، ح 23 ذي القعدة 1072هـ/11 تموز 1662م، ص 378.
49. العيسوية: تقع شمال شرق بيت المقدس، الدباغ، بلادنا، ج 8، ص 101.
50. سجل القدس 157، ح 2، غرة ربيع ثاني 1070هـ/16 تشرين ثاني 1659م، ص 60.
51. البراغثة: قبيلة كانت وما زالت تنتشر في منطقة شمال غرب القدس، وهي من العشائر المهمة في تلك المنطقة، ذكرهم دفتر مفصل لواء القدس رقم 515 ب (شقيرات البراغثة)، حيث كان مجموع خاناتها 119، ينظر في: دفتر مفصل لواء القدس رقم 515، يوجد نسخة منه في مؤسسة إحياء التراث، القدس؛ الموسوعة الفلسطينية، مجلد 1، ص 279؛ حنا عمّارى، قاموس العشائر في الأردن وفلسطين، عمان، 1999م، ص 102؛ الدباغ، بلادنا، ج 8، ق 2، ص 44-45، B. Lewis, Studies in the Ottoman Archives in BSOAS, 1952, P. 48-50.
52. سجل القدس 147، ح 11 محرم 1063هـ/12 كانون أول 1652م، ص 34؛ دفتر تحرير (TD427)، ص 17.
53. سجل القدس 156، ح 2، (د،ت)، ص 115.
54. حسين بن حسن بن محمد بن رضوان، استلم حكم غزة عن والده في سنة 1054-1073هـ/1644-1662م، وقد كان له دراية واسعة في أمور السياسة، استلم لواء القدس لأكثر من فترة وكذلك لواء نابلس ومعها إمارة الحج، المحبي، خلاصة، ج 2، ص 88.
55. متسلم مدينة القدس: وكيل أمير لواء القدس إبراهيم باشا بن حسين بن رضوان، سجل القدس 152، ح 1، 6 شوال 1067هـ/7 تموز 1657م، ص 416.
56. سجل القدس 156، ح 14 صفر 1069هـ/10 تشرين ثاني 1658م، ص 159.
57. المزريب: من القلاع التي تقع على طريق الحج الشامي تتبع منطقة حوران إلى الجنوب الغربي من دمشق، فيها يلتقي الحجاج من المناطق المختلفة، الحمود، العسكر، ص 47؛ الخليلي، الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن شرف الدين (1147هـ/1734م) تاريخ القدس والخليل، حققه وكتب مقدمته وحواشيه ووضع فهرسه: محمد عدنان البخيت ونوفان رجا الحمود السورية، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 1425هـ/2004م، ص 202، المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، مركز الدراسات العسكرية، 1990م، ج 4، ص 11.
58. سجل القدس 190، ح 17 شوال 1082هـ/16 شباط 1672م، السجل تركي لا يوجد ترقيم للصفحات.
59. ساحلي أوغلي، من تاريخ، ص 693.

60. سجل القدس 161، ح 1، 23 ذي القعدة 1072هـ/11 تموز 1662م، ص 374.
61. جمالا: تقع شمال غرب رام الله وهي من قرى بني زيد، دفتر تحرير (TD427)، ص 244؛ الدباغ، بلادنا، ج 8، ق 2، ص 311.
62. بيت اللو: تقع شمال غرب رام الله، الدباغ، بلادنا، ج 2، ق 2، ص 312.
63. المزرعة: تقع شمال غرب رام الله، الدباغ، بلادنا، ج 8، ق 2، ص 273، دفتر تحرير (TD427)، ص 226.
64. الغرش الأسدي: نوع من النقود الفضية الهولندية، كانت الأكثر انتشاراً في القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادي، فكان الغرش يساوي 40 قطعة مصرية، ومن القطعة الشامية 80، ومن القطع الذهبية قطعة ونصف، ينظر: سجل القدس 199، 6 جماد الأول 1110هـ/10 تشرين ثاني 1698م، ص 18؛ المحبي، خلاصة، ج 2، ص 185؛ شوكت ياموك، التاريخ المالي للدولة العثمانية، تعريب: عبد اللطيف الحارس، دار المدار الإسلامي، 2005م، ص 294-296.
65. وردت بيت اللو وجمالا ودير أبو مشعل وكفر مالك وتبنا وجفنا في الوثيقة التالية: سجل القدس 146، 25 شوال 1061هـ/11 تشرين أول 1651م، ص 59.
66. قنطار: وحدة قياس للأشياء كالزيت والقطن، لكل مدينة قنطار خاص بها، فكان القنطار القدسي والخليلي والنبلسي، أما القنطار القدس فكان يزن 100 رطل، هنتس، المكابيل والأوزان، ص 40.
67. دير أبو مشعل: تقع غرب رام الله إلى الشمال قرب قرية عابود، دفتر تحرير (TD427)، ص 290؛ اليعقوب، ناحية القدس، ج 1، ص 30.
68. كفر مالك: تقع شمال شرق رام الله، الدباغ، بلادنا، ج 8، ص 309.
69. تبنا: تقع شمال غرب رام الله، وهي من قرى بني زيد، اليعقوب، ناحية القدس، ج 1، ص 21.
70. جفنا: تقع شمال رام الله، الدباغ، بلادنا، ج 8، ص 324.
71. ترقوميا: تقع شمال غرب الخليل، دفتر تحرير (TD427)، ص 313؛ سجل القدس 146، ح 1، 17 شوال 1061هـ/3 تشرين أول 1651م، ص 62؛ الدباغ، بلادنا، ج 5، ق 2، ص 44.
72. سعير: تقع جنوب مدينة المقدس، ينظر: سجل القدس 146، ح 1، 17 شوال 1061هـ/3 تشرين أول 1651م، ص 62؛ الدباغ، بلادنا، ج 5، ص 182.
73. سلوان: تقع جوار سور القدس القبلي، جنوب شرق المدينة، دفتر تحرير TD427، ص 249؛ سجل القدس 150، ح 2، أواسط رجب 1065هـ/أيار 1655م، ص 291.
74. سجل القدس 161، ح 1، 23 ذي القعدة 1072هـ/10 تموز 1662م، ص 378.
75. أريحا: تقع شرق بيت المقدس، ذكر دفتر تحرير عثمانى 522 أنها وقف سيدنا موسى عليه السلام، ينظر في: سجل القدس 160، ح 1، 4 شعبان 1071هـ/6 نيسان 1661م، ص 54؛ دفتر تحرير عثمانى، رقم 522، أوقاف لواء القدس ونابلس وصفد وغزة وعجلون في القرن العاشر الهجري، تحقيق:

- محمد ايشرلى ومحمد داود التميمي، استانبول، 1402هـ/1982م، ص32، محمد عدنان البخيت، دراسات في تاريخ بلاد الشام فلسطين،، أمانة عمان، 1428هـ/2007م، ص243-285.
76. بيت نعمة: تقع إلى الشمال الغربي من رام الله وهي من قرى بني حارثة، سجل القدس 156، ح2، 15 ذى الحجة 1068هـ/13 أيلول 1658م، ص32. الدباغ، بلادنا، ج8، ص358.
77. القلي: هو محروق نبات الشيح والحمض، محمود عطا الله، وثائق الطوائف الحرفية في القرن السابع عشر الميلادي، ج2، مطبعة النصر، نابلس، فلسطين، 1991م، ج1، ص45.
78. سجل القدس 152، ح2، 11 محرم 1068هـ/18 تشرين أول 1657م، ص521.
79. رسوم الرمايا: كانت تقسم على النواحي فقد ذكر في احد الحجج الشرعية أن عدد النواحي في بيت المقدس التي كانت تدفع هذه الضريبة خمس نواحي، هي: ناحية عرب بني زيد، وناحية العرقوب وناحية بني سالم، وناحية الخليل، وناحية بني حارثة. سجل القدس 117، ح1، 13 جمادى الأولى 1040هـ/17 كانون أول 1630م، ص260.
80. العوارض السلطانية: ضريبة كانت تلجأ إليها الدولة عند الضيق كالحرب والكوارث الطبيعية، يعفى منها رجال الدين والفقراء ورجال الدولة، وتقدم إما عينياً أو نقدياً، ينظر: ترجمة كمال خوجة لقانون لواء القدس في الموقع التالي: <http://www.palestine-pmc.com/arabic/inside1>؛ سجل القدس 190، ح1، 6 ربيع أول 1100هـ/29 كانون أول 1688م، ص364؛ سجل القدس 199، ح1، 15 جمادى الأولى 1111هـ/8 تشرين ثاني 1699م، ص319.
81. سجل القدس 157، ح2، غرة ربيع ثاني 1070هـ/16 كانون أول 1669م، ص61.
82. بيرزيت: تقع شمال رام الله، يذكر دفتر تحرير (TD427) أنه كان بها في 11 خانة و3 مجرد، ينظر: دفتر تحرير (TD427)، ص214؛ الدباغ، بلادنا، ج8، ص316-320.
83. دير عمار: تقع غرب رام الله، الدباغ، بلادنا، ج8، ص328.
84. عين عريك: تقع شمال غرب رام الله، أبو حمود، معجم أسماء المواقع، ص151.
85. عين قنية: تقع شمال غرب رام الله، دفتر تحرير (TD427)، ص242، الدباغ، بلادنا، ج8، ص247.
86. حكام العرف أو أرباب العرف، يبدو من خلال المصادر التي ذكرت هذا المصطلح أن حكام العرف هم جماعة من الزعماء وكبار أهل المدينة من الوجهاء والأعيان ومنهم الصوباشي والأشراف، الخليفي، تاريخ، ص117.
- Uriel Heyd, Ottoman Documents on Palestine Clarendon Press, Oxford, 1960, P.56
Uriel Heyd, Studioses in old Ottoman Criminal Law, ed. By V.L. Menage, Oxford University Press, London, 1973, p. 168-171.
87. يذكر أن القرى التي وردت في الوثيقة جارية في خاص أمير اللواء، ينظر: سجل القدس 140، ح1، 12 صفر 1058هـ/8 آذار 1648م، ص220.

88. ومن العربان بني عطا وعطية، ينظر: البخيت، دراسات فلسطين، ص59؛ Uriel Heyd, Documents.p.67,91,89,97,92.
89. شجاع الدين أفندي: قاضي محكمة القدس الشرعية في حينه.
90. خسر باشا: تولى ولاية الشام ثلاث فترات(1593، 1596، 1599م)،
http://www.dimashkiat.com/celebrities/celebrities
91. هو محمد بن أحمد باشا بن رضوان، حكم آل رضوان لواء غزة فترة طويلة من القرن السابع عشر- سوف نعرف بأمرأء غزة كل في مكانه- وقد كان لواء غزة أقوى ألوية جنوب فلسطين " نابلس والقدس غزة" التي ألحقت لهم في بعض الفترات، وذلك بفضل الحكام الأقوياء من آل رضوان. وقد حكم أحمد باشا في الفترة من 979-1009هـ/1572-1600م، وهذه الوثيقة- التي وردت في النص- تثبت ما ذهبنا إليه، حيث أشارت إلى تولي محمد باشا بن أحمد حكم لواء القدس، نجم الدين الغزي، لطف السمر وقطف الثمر، تحقيق محمود الشيخ، دمشق، 1981م، ج1، ص304؛ المحبي، خلاصة، ج1، ص188-189؛ عصام ناجي سيسالم وزكريا إبراهيم السنوار، لواء غزة في العصر العثماني الأول 922-1101هـ/1517-1690م، دراسة في التاريخ السياسي والحضاري، غزة، 1425هـ/2004م، ص78 90-80. P. 31. Heyd, Documents Doc.
92. يوسف الكتخدا: كلمة تركية أصلها فارسي، معناها القيم أو الوكيل، فهو وكيل الأمير أحمد باشا، Redhouse, A Turkish and English Lexicon, P 1524
93. جعفر بك: أمير لواء القدس الشريف، يبدو أنه فشل في استتباب الأمن في لواء القدس مما دفع والي الشام بأن أرسل كتاب لأمير غزة أحمد باشا بن رضوان حتى ينصب نجله على لواء القدس.
94. محمد شيمش: هو وكيل حاكم اللواء الجديد محمد بك المكلف باستلام المدينة إلى حين وصل الحاكم محمد بك.
95. جرم: من العشائر البدوية الكبيرة في ناحية الغور من نواحي بيت المقدس، سجل القدس 103، ح1، 15محرم 1030هـ/10كانون أول 1620م، ص466؛ مصطفى مراد الدباغ، القبائل العربية وسلالتها في بلادنا فلسطين، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، 1986م، ص59؛ الموسوعة الفلسطينية، مجلد1، ق2، ص905؛ فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، بيروت، 2003م، ص138.
96. كفر عقب: تقع إلى الشمال الغربي من بيت المقدس، الدباغ، بلادنا، ج8، ص66.
97. سجل القدس 79، ح3، 8جمادى الآخرة 1005هـ/27كانون ثاني 1597م، ص20.
98. Uriel Hayed, Doc. 49, P. 78-86,91؛ الحسن البوريني، تراجم الأعيان، ص38.
99. الرملة مدينة فلسطينية تقع على الطريق بين يافا والقدس، حول الرملة ينظر: البخيت، دراسات فلسطين، ص169-212.

100. رأس العين: تقع شمال شرق يافا، وفيها أحد أهم منابع نهر العوجا، الموسوعة الفلسطينية، م2، ق2، ص447.
101. Uriel Hayed, Doc. 49, P. 96.
102. سجل القدس 80، ح1، 14 شعبان 1007هـ/12 آذار 1599م، ص28.
103. كيوان بن عبد الله، من كبار رجال العسكر في بلاد الشام، قتله فخر الدين المعني عام 1033هـ/1623م، المحبي، خلاصة، ج3، ص299-302.
104. سجل القدس 84، ح1، غرة محرم 1013هـ/29 أيار 1604م، ص327.
105. دير أبان: تقع غرب القدس وهي من قرى ناحية العرقوب، دفتر تحرير (TD427)، ص317؛ الدباغ، بلادنا، ج8، ق2، ص188-189.
106. الجورة: تقع غرب بيت المقدس، الدباغ، بلادنا، ج8، ص167.
107. كفر صوم: تقع شمال غرب القدس، الدباغ، بلادنا، ج8، ص304.
108. سجل القدس 92، ح1، 18 جمادى الأولى 1020هـ/30 تموز 1611م، ص80.
109. محمد بن فروخ استلم حكم لواء نابلس من والده، وكان له سيطرة على لواء القدس أكثر من مرة، كذلك تسلم قافلة الحج عدة سنوات، ذكر في حجة شرعية أنه استلم حكم القدس ثلاث فترات، ينظر في سجل القدس 147، 20 رجب 1060هـ/19 تموز، ص410؛ المحبي، خلاصة، ج4، ص108.
110. سجل القدس 103، ح1، 15 محرم 1030هـ/10 كانون أول 1620م، ص466.
111. سجل القدس 104، ج4، 4 صفر 1030هـ/29 كانون أول 1621م، ص9؛ سجل القدس 104، 12 صفر 1030هـ/6 كانون ثاني 1621م، ص32.
112. شعر لإسماعيل النابلسي والد الرحالة الشيخ عبد الغني. عبد الغني النابلسي (1143هـ/1731م)، الحقيقة والمجاز برحلتني إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، قسم2، تحقيق، رياض عبد الحميد مراد، دار المعرفة، 1998م، ق1، ص53.
113. المحبي، خلاصة، ج4، ص108.
114. سجل القدس 105، ح1، أواسط جمادى الأولى 1031هـ/1 نيسان 1622م، ص114؛ سجل القدس 113، ح3، غرة محرم 1036هـ/22 أيلول 1626م، ص104.
115. سجل القدس 105، ح1، أواسط جمادى الأولى 1031هـ/1 نيسان 1622م، ص115.
116. سجل القدس 105، ح2، غرة جمادى الثانية 1031هـ/17 نيسان 1622م، ص159.
117. كان في القدس سجن لحكام العرف في القلعة وسجن الشرع: هو السجن الذي يوضع فيه العصاة بناءً على أمر قاضي القدس، وهذا السجن وقف البيمارستان الصلاحي، سجل القدس 105، ح3، 7 شوال 1031هـ/14 آب 1622م، ص462.

118. دجانية: لا يوجد قرية بهذا الاسم بالمراجع الحديثة، والقرية التي تحمل نفس مواصفات الموقع هي قرية جانبية والتي تقع شمال غرب بيت المقدس، يبدو أنه مع مرور الزمن تم تحريف الاسم، الدباغ، بلادنا، ج8، ص346.
119. سجل القدس 105، ح1، غرة رجب 1031هـ/18 أيار 1622م، ص216.
120. سجل القدس 105، ح2، أواسط جمادى الثانية 1031هـ/2 أيار نيسان 1622م، ص221.
121. س105، ح1، أواسط جمادى الأولى 1031هـ/28 أذار 1622م، ص115.
122. سجل القدس 105، ح1، أواسط رجب 1031هـ/1 حزيران 1622م، ص270.
123. سجل القدس 105، ح1، 15 شوال 1031هـ/22 آب 1622م، ص408.
124. سجل القدس 105، ح1، 15 صفر 1032هـ/18 كانون أول 1623م، ص677؛ ح2، ص678؛ ح1، ص686؛ ح2، ص691؛ ح1، ص718؛ ح3، ص744.
125. الصوباشي: مصطلح تركي معناه المسؤول عن حفظ الأمن وإلقاء القبض على الخارجين على القانون في المدينة وتوابعها، سجل القدس 145، ح1، 17 صفر 1061هـ/9 شباط 1651م، ص140؛ ساحلي أغلي، من تاريخ، ص548.
126. سجل القدس 113، ح2، 14 ذي القعدة 1036هـ/27 تموز 1627م، ص2.
127. دفتر مفصل لواء القدس الشريف رقم 515، 1005هـ/1596م، ورقة 48 أ.
128. هو حسن باشا بن أحمد بن رضوان حاكم لواء غزة (1009-1054هـ/1600-1644م)، يذكر أن لواء القدس كان في النصف الأول يتبع إما لحاكم نابلس الأمير فروخ ومن ثم نجله محمد باشا، وأحياناً يتبع لواء غزة من آل رضوان في غزة، يبدو أنه كان يربط آل فروخ وآل رضوان علاقة حسنة جعلتهم يسوسون الألوية الجنوبية من فلسطين دون أن يحدث إي تصادم، من أسباب ذلك أن فروخ باشا كان من أعوان رضوان باشا، كما أنهم ارتبطوا بعلاقة مصاهرة، فقد تزوج محمد بن فروخ ابنة حسن باشا بن رضوان، حيث أشارت إلى ذلك الحجة الموجودة في سجلات محكمة نابلس الشرعية، التي تفيد أن قاضي نابلس قبل أن يكون حسين باشا بن حسن وصياً شرعياً على ابن أخته علي بن محمد بن فروخ، ينظر: سجل نابلس 1، 10 رجب 1066هـ/4 أيار 1656م، ص40؛ سجل القدس 112، 16 ربيع أول 1036هـ/5 كانون أول 1626م، ص55؛ المحبي، خلاصة، ج3، ص306.
129. ذكر في الحجة الشرعية 20 قرية هي: جمالا، كفر عين، وبيير زيت، وديير نظام، والخرب، جلجليه، بيت إيل، ترمسعيا، والرام ورأفات، والمصايا، وعجول وعبوين، وجليجليه، وعين عريك، وكفر نعمة، وديير نظام، وديير عمار، وبييرود وعين قنية، سجل القدس 112، ح1، 3 شعبان 1036هـ/17 نيسان 1627م، ص286.
130. لحول: تقع بين مدينة القدس والخليل، ذكر في دفتر طابو رقم 70 أن عدد خاناتها كان 75 و17 مجرداً (أعزب)، دفتر طابو 70 ضمن سجلات محكمة القدس الشرعية وتاريخه 997هـ/1588م، ص176-177؛ الدباغ، بلادنا، ج5، ص169.

131. فوقين: تقع شمال مدينة الخليل، وهي الآن خربة مهدمة، تتبع أرض بيت أمر قضاء الخليل، الدباغ، بلادنا، ج5، ص186.
132. ومن القرى التي نهبوها: دير أبان وبيت تعمر وبتير وشوكه، ينظر في: سجل القدس 115، ح1، 20 محرم 1039هـ/30 آب 1629م، ص596.
133. سجل القدس 115، ح1، 5 صفر 1039هـ/14 أيلول 1629م، ص627-628.
134. المالحة: تقع جنوب غرب القدس، تبعد عنها 5 كم، سجل القدس 120، ح2، 13 رمضان 1042هـ/24 آذار 1633م، ص375؛ الدباغ، بلادنا، ج8، ق2، ص166.
135. المجاورون: وهم مجموعة من الطوائف التي قدمت إلى بيت المقدس كالمغاربة والتكرانة وغيرهم، سكنوا قرب الحرم القدسي والحرم الإبراهيمي وقد عرفوا تاريخياً بهذا الاسم، ينظر: سجل القدس 230، 10 ربيع الثاني 1152هـ/17 تموز 1739م، ص5؛ الحمود، العسكر، ص64.
136. سجل القدس 140، ح2، أواخر رجب 1057هـ/1647م، ص66 + ح1، ص67.
137. سجل القدس 139، ح1، 29 جمادى الآخرة 1057هـ/19 تشرين أول 1647م، ص472.
138. صوبا: تقع غرب مدينة القدس، محمد سعيد رمان، صوبا قرية مقدسية في الذاكرة، القدس، 2000م.
139. العنب(أبو غوش): تقع غربي بيت المقدس، الدباغ، بلادنا، ج8، ص112.
140. دير عمرو: تقع إلى الغرب من بيت المقدس، الدباغ، بلادنا، ج8، ص136.
141. بيت سوريك: تقع شمال غرب بيت المقدس، الدباغ، بلادنا، ج8، ص106.
142. سجل القدس 145، ح2، 14 جمادى الأولى 1061هـ/20 تموز 1651م، ص423.
143. الأكراد: يذكر أن الأكراد قدموا مع صلاح الدين بعد فتحه لبيت المقدس، لتعزيز الدفاع عنها ولتعويض النقص الذي حصل بعدد المسلمين على إثر ما قام به الصليبيون، وقد سكن الأكراد في الخليل إلى الشمال الشرقي من حرم سيدنا إبراهيم عليه السلام؛ ينظر: دفتر تحرير (TD 427)، ص295؛ العلمي، الأنس، ج1، ص298-300، أمين أبو بكر، ملكية الأراضي في متصرفية القدس 1858-1918م، مؤسسة عبد الحميد شومان 1996م، ص365.
144. التميمية: هي العشيرة صاحبة المكانة الرفيعة والتاريخ المديد في خليل الرحمن، تنسب إلى الصحابي تميم الداري صاحب الاقطاع المشهور الذي منحه إياه الرسول عليه السلام، حيث أقطعه الخليل وتوابعها، ويذكر أن مقام تميم الداري كان موجود في مدينة دمشق، ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار، ج1، تحقيق أحمد زكي باشا(ت1353هـ/1934م)، دار الكتب المصرية القاهرة، 1352هـ، ص172-176؛ الغزي، محمد بن محمد(1061هـ/1650م)، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ج3، تحقيق، جبرائيل جبور، ط2، دار الأفاق الجديدة، بيروت، 1979م، ج2، ص233 ليفي ولافيديا، تميم الداري، دائرة المعارف الإسلامية، ج5، ص385-480.

145. سجل القدس 151، ح 1، 21 ذي القعدة 1067هـ/30 آب 1657م، ص 516-517.
146. قبلان باشا: هو حاكم لواء القدس الشريف
147. سجل القدس 152، ح 1، 1 ربيع ثاني 1067هـ/17 كانون ثاني 1657م، ص 77-78؛ المحبي، خلاصة، ج 2، ص 88؛ ليلي الصباغ، فلسطين في مذكرات الفارس دارفيو، دار صادر، بيروت، 1996م، ص 37-38.
148. سجل القدس 155، (د،ت)، ص 364.
149. سجل القدس 152، ح 1، 10 ربيع ثاني 1067هـ/26 آب 1657م، ص 87-88.
150. سجل القدس 152، ح 1، 11 رمضان 1067هـ/23 حزيران 1657م، ص 336.
151. سجل القدس 156، ح 1، غرة ذي الحجة 1068هـ/29 آب 1658م، ص 24.
152. سجل القدس 174، ح 1، أواسط ذي القعدة 1082هـ/14 آذار 1672م، ص 16.
153. الولجة: تقع في الجهة الجنوبية الغربية من القدس، الدباغ، بلادنا، ج 8، ص 178.
154. بيت صفافا: تقع جنوب غرب بيت المقدس: الدباغ، بلادنا، ج 8، ص 172.
155. صور باهر: تقع جنوب بيت المقدس: الدباغ، بلادنا، ج 8، ص 169.
156. سجل القدس 157، ح 2، 16 رمضان 1070هـ/28 أيار 1660م، ص 179.
157. المحبي، خلاصة، ج 1، ص 353.
158. سجل القدس 160، ح 4، 5 شوال 1071هـ/6 حزيران 1661م، ص 129.
159. العيزرية: تقع شرق القدس، الدباغ، بلادنا، ج 8، ص 142.
160. سجل القدس 185، ح 1، أواسط صفر 1094هـ/11 شباط 1683م، ص 314.
161. سجل القدس 189، ح 2، أواسط جمادى الثانية 1099هـ/17 نيسان 1688م، ص 96.
162. سجل القدس 189، ح 2، 7 رجب 1099هـ/8 أيار 1688م، ص 164.
163. سجل القدس 136، ح 1، 7 ربيع ثاني 1056هـ/23 أيار 1646م، ص 196.
164. النابلسي، الحقيقة والمجاز، ق 1، ص 303-305.
165. كامل جميل العسلي، بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين، عمان، 1992م، ص 223-250؛ عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، مكتبة الأندلس، القدس، 1961م، ص 268.
166. سجل القدس 139، ح 3، 9 شوال 1055هـ/28 تشرين ثاني 1645م، ص 46؛ سجل القدس 133، ح 1، ختام رمضان 1052هـ/21 كانون أول 1642م، ص 175.
167. المحبي، خلاصة، ج 3، ص 266-268؛ الموسوعة الفلسطينية، مجلد 2، ق 2، ص 704-705.

168. المحبي، خلاصة، ج1، ص386.
169. بيت اكسا: تقع شمال غرب بيت المقدس، الدباغ، بلادنا، ج8، ص104.
170. سجل القدس 136، ح3، 11 جمادى الآخرة 1056هـ/21 أيلول 1646م، ص274.
171. ذكرت وثيقة شرعية أن الشيخ سالم شيخ عرب الرتمات من معامل غزة، كان قد جاء إلى القدس، وما أن دخل القدس حتى قبض عليه أمير اللواء، وبقي في السجن حتى عرض أمره على الحاكم الشرعي الذي قرر الإفراج عنه، ينظر: سجل القدس 135، ح2، 14 صفر 1055هـ/11 نيسان 1645م، ص387.
172. سجل القدس 147، ح2، 18 ربيع أول 1063هـ/18 شباط 1653م، ص178.
173. بني صخر كان لها انتشار على طول نهر الشريعة(الأردن) ما بين عجلون شمالاً حتى الخليل جنوباً، دفتر مفصل لواء عجلون، T.D185، أنقرة لسنة 1005هـ/1596م)، دراسة وتحقيق محمد عدنان البخيت ونوفان رجا الحمود، الجامعة الأردنية، 1991م، ص260-270؛ الخليلي، تاريخ، ص188.
174. سجل القدس 121، ح2، 18 اشوال 1042هـ/28 نيسان 1633م، ص58.
175. حول الكعابنه: مفلح نمر الفايز، عشائر بني صخر تاريخ ومواقف حتى 1950م، عمان، 1995م، البخيت، دراسات فلسطين، ص274.
176. سجل القدس 107، ح1، 11 ذي الحجة 1032هـ/6 تشرين أول 1623م، ص20.
177. سجل القدس 117، ح1، 13 جمادى الأولى 1040هـ/22 كانون أول 1630م، ص260.
178. سجل القدس 98، ح3، 1025هـ/1616م، ص411؛ اليعقوب، ناحية القدس، ج1، ص47.
179. سجل القدس 103، ح1، 15 محرم 1030هـ/10 كانون أول 1620م، ص466.
180. سجل القدس 117، ح2، ختام صفر 1040هـ/7 تشرين أول 1630م، ص104.
181. الخليلي، تاريخ، ص177؛ البخيت، دراسات فلسطين، ص271-277.
182. سجل القدس 106، ح1، 11 ذي الحجة 1032هـ/6 تشرين أول 1623م، ص20؛ سجل القدس 174، ح1، 12 ذي الحجة 1082هـ/10 شباط 1672م، ص30.
183. سجل القدس 184، ح1، أوائل صفر 1093هـ/8 شباط 1682م، ص398.
184. الصرة: هي مبلغ من الذهب تقدمه الدولة للبدو على طريق الحج حتى لا يعتدون على قوافل الحجاج، الخياري، تحفة، ج1، ص81.
185. سجل القدس 183، ح1، ختام ذي القعدة 1091هـ/21 كانون أول 1680م، ص340.
186. سجل القدس 183، ح1، أوائل محرم 1092هـ/20 كانون ثاني 1681م، ص444.
187. سجل القدس 184، ح2، 10 محرم 1093هـ/22 شباط 1682م، ص457.

188. سجل القدس 183، ح1، ختام ذي القعدة 1091هـ/21كانون أول 1680م، ص359؛ سجل القدس 184، ح1، أوائل ذي الحجة 1092هـ/20كانون ثاني 1682م، ص343؛ سجل القدس 184، ح1، ختام ذي القعدة 1092هـ/19كانون ثاني 1682م، ص342.
189. حرب الدولة العثمانية مع الصفويين عندما سيطروا على بغداد سنة 1035هـ/1625م، ينظر في المحبي، خلاصة، ج1، ص282-284، ج2، ص267، ج4، ص336؛ وتوقيعها معاهدة كارلوفتش "كارلوفجا" في 24 رجب 1110هـ/26كانون أول 1699م مع النمسا وروسيا والبندقية، التي كانت تتناجها كارثية على السلطنة العثمانية، فقد حصلت الدول الغربية على امتيازات أوسع من السابق سمحت لمواطنيها بالتنقل بحرية في الدولة العثمانية، الموسوعة الفلسطينية، مجلد1، ق2، ص707؛ أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج2، نقله إلى العربية، صالح سعداوى، استانبول، 1999م، ج2، ص60.

المصادر والمراجع

المصادر المخطوطة:

- سجلات محكمة القدس الشرعية، نسخة مايكروفلم بحوزة أسرة المرحوم الدكتور محمود عطا الله - نابلس.
- سجل القدس 79، (1006-1077هـ/1597-1598م)
- سجل القدس 80، (أواخر شعبان 1007-29 ذي الحجة 1008هـ/27 أذار 1599-11 تموز 1600م)
- سجل القدس 84، (27 ذي القعدة 1011-7 رجب 1013هـ/8 أيار 1603-29 تشرين ثاني 1604م)
- سجل القدس 87، (27 رجب 1015-أواخر ذي الحجة 1016هـ/28 تشرين الثاني 1606-15 نيسان 1608م)
- سجل القدس 92، (9 ربيع الثاني 1020-9 رجب 1021هـ/21 حزيران 1611-5 أيلول 1612م)
- سجل القدس 95، (14 ذي القعدة 1022-16 شوال 1023هـ/26 كانون الأول 1613-29 تشرين الثاني 1614م)
- سجل القدس 98، (17 شعبان 1024-10 ذي القعدة 1024هـ/11 أيلول 1615-19 تشرين الثاني 1616م)
- سجل القدس 99، (5 ذي القعدة 1025-ختام شوال 1026هـ/14 تشرين الثاني 1616-30 تشرين الأول 1617م)
- سجل القدس 102، (21 جمادى الأولى 1028-29 ربيع الأول 1029هـ/6 أيار 1619-5 أذار 1620م)
- سجل القدس 103، (23 ربيع الأول 1029-26 محرم 1030هـ/27 شباط 1620-21 كانون الأول 1620م)

- سجل القدس 104، (23 محرم 1030-18 ربيع الأول 1031 هـ/18 كانون الأول 1620-31 كانون الثاني 1622 م)
- سجل القدس 105، (18 ربيع الأول 1031-8 ربيع الثاني 1032 هـ/31 كانون الثاني 1622-9 شباط 1623 م)
- سجل القدس 106، (28 ربيع الأول 1032-11 رجب 1032 هـ/30 كانون الثاني 1623-11 أيار 1623 م)
- سجل القدس 107، (غرة ذي القعدة 1032-21 جمادى الثانية 1033 هـ/26 أيلول 1623-10 نيسان 1624 م)
- سجل القدس 113، (7 ذي القعدة 1036-9 صفر 1038 هـ/8 تشرين الأول 1628 م)
- سجل القدس 115، (20 محرم 1038-19 ربيع الأول 1039 هـ/19 أيلول 1628-6 تشرين الثاني 1629 م)
- سجل القدس 117، (29 ذي الحجة 1039-14 رمضان 1040 هـ/9 آب 1630-16 نيسان 1631 م)
- سجل القدس 120، (2 ربيع الثاني 1042-23 رمضان 1042 هـ/17 تشرين الأول 1632-3 نيسان 1633 م)
- سجل القدس 121، (24 رمضان 1042-7 ربيع الثاني 1043 هـ/4 نيسان 1633-11 تشرين الأول 1633 م)
- سجل القدس 133، (18 جمادى الثانية 1052-12 جمادى الأولى 1053 هـ/13 أيلول 1642-29 تموز 1643 م)
- سجل القدس 136، (26 ذي الحجة 1055-27 شعبان 1056 هـ/12 شباط 1646-8 تشرين الأول 1646 م)
- سجل القدس 139، (18 شعبان 1056-11 شعبان 1057 هـ/29 أيلول 1646-11 أيلول 1647 م)
- سجل القدس 140، (17 شعبان 1057-18 رجب 1058 هـ/17 أيلول 1647-8 آب 1648 م)
- سجل القدس 141، (18 شعبان 1058-6 شعبان 1059 هـ/7 أيلول 1648-15 آب 1649 م)
- سجل القدس 145، (19 ذي القعدة 1060-24 شوال 1061 هـ/13 تشرين الثاني 1650-10 تشرين الأول 1651 م)
- سجل القدس 146، (27 شوال 1061-23 ذي الحجة 1062 هـ/12 تشرين الأول 1651-25 تشرين الثاني 1652 م)
- سجل القدس 147، (20 ذي الحجة 1062-غرة ربيع الأول 1064 هـ/22 تشرين الثاني 1652-20 كانون الثاني 1654 م)
- سجل القدس 149، (2 ربيع الأول 1064-25 محرم 1065 هـ/21 كانون الثاني 1654-5 كانون الأول 1655 م)

- سجل القدس 151، (6 ذي الحجة 1065-14 صفر 1067هـ/7 تشرين الأول 1655-2 كانون الأول 1656م)
- سجل القدس 156، (14 ذي القعدة 1068-20 ربيع الثاني 1070هـ/13 آب 1658-4 كانون الثاني 1660م)
- سجل القدس 157، (21 ربيع الثاني 1070-5 جمادى الأولى 1071هـ/5 كانون الثاني 1660-6 كانون الثاني 1661م)
- سجل القدس 160، (21 رجب 1071-6 ربيع الثاني 1072هـ/22 آذار 1661-29 تشرين الثاني 1661م)
- سجل القدس 161، (غرة ربيع الثاني 1072-2 محرم 1073هـ/24 تشرين الثاني 1661-17 آب 1662م)
- سجل القدس 165، (13 رمضان 1075-25 ربيع أول 1076هـ/30 أيار 1664-16 أيار 1665م)
- سجل القدس 166، (ختام ربيع الأول 1076-27 جمادى الأولى 1077هـ/10 تشرين الأول 1665-25 تشرين الثاني 1666م)
- سجل القدس 167، (3 جمادى الأولى 1077-أواخر ربيع الأول 1077هـ/1 تشرين الثاني 1666-19 أيلول 1667م)
- سجل القدس 174، (2 ذي الحجة 1082-23 ذي الحجة 1084هـ/31 آذار 1672-31 آذار 1674م)
- سجل القدس 183، (18 ذي الحجة 1090-أواخر محرم 1092هـ/20 كانون الثاني 1680-19 شباط 1681م)
- سجل القدس 184، (18 محرم 1092-15 ربيع الأول 1093هـ/7 شباط 1681-24 آذار 1682م)
- سجل القدس 185، (13 ربيع الأول 1093-غرة رجب 1094هـ/22 آذار 1682-26 حزيران 1683م)
- سجل القدس 189، (غرة ربيع الأول 1099-أواخر ربيع الثاني 1100هـ/5 كانون الثاني 1688-20 شباط 1689م)
- سجل القدس 190، (أوائل ربيع الأول 1079-أوائل ذي الحجة 1084هـ/9 آب 1668-9 آذار 1674م)
- سجل القدس 199، (أواسط ربيع الأول 1110-18 محرم 1112هـ/21 أيلول 1698-5 تموز 1700م)
- سجل القدس 230، (18 ذي القعدة 1151-1154هـ/27 شباط 1739-1741م)
- * سجلات محكمة نابلس الشرعية، مصورة على CD، يوجد نسخة في جامعة القدس المفتوحة- فرع طولكرم،
- سجل نابلس 1، (1244-1254هـ/1837-1847م)
- دفتر مفصل لواء القدس رقم 515، يوجد نسخة منه في مؤسسة إحياء التراث، القدس
- دفتر طابوا 70 ضمن سجلات محكمة القدس الشرعية وتاريخه 997هـ/1588م).

المصادر المطبوعة:

- الخليلي، الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن شرف الدين. (1147هـ/1734م). تاريخ القدس والخليل، حققه وكتب مقدمته وحواشيه ووضع فهرسه: محمد عدنان البخيت ونوفان رجا الحمود السورية، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 1425هـ/2004م.
- دفتر تحرير عثمانى، رقم 522، أوقاف لواء القدس ونابلس وصفد وغزة وعجلون في القرن العاشر الهجري، تحقيق: محمد ايشرلى ومحمد داود التميمي، استانبول، 1402هـ/1982م.
- دفتر مفصل لواء عجلون، T.D185، أنقرة لسنة 1005هـ/1596م)، دراسة وتحقيق محمد عدنان البخيت ونوفان رجا الحمود، الجامعة الأردنية، 1991م
- العمرى، ابن فضل الله. (1353هـ/1934م). مسالك الابصار، ج1، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية القاهرة، 1352هـ.
- الغزى، محمد بن محمد. (1061هـ/1650م)، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ج3، تحقيق، جبرائيل جبور، ط2، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1979م.
- الغزى، محمد بن محمد. (1981م). لطف السمر وقطف الثمر، تحقيق محمود الشيخ، دمشق.
- القلقشندي، أحمد بن علي. (821هـ/1418م). صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج15، القاهرة، 1963م.
- لواء القدس من دفتر مفصل لواء صفد وغزة والقدس الشريف، من دفتر تحرير (T.D.427)، دراسة تحليلية للنص العثماني وترجمته إلى العربية مع الشروحات الإيضاحية محمد عدنان البخيت ونوفان رجا السوارية، عمان، 1426هـ/2005م.
- المحبي، محمد أمين الدين. (1111هـ/1699م)، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د.ت).
- المدني، إبراهيم بن عبد الرحمن الخياري. (1083هـ/1672م). تحفة الأدباء وسلوة الغرياء، ج3، تحقيق رجا محمود السامرائي، بغداد 1980م.
- النايلسي، عبد الغني. (1143هـ/1731م)، الحقيقة والمجاز برحلتني إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، قسم2، تحقيق، رياض عبد الحميد مراد، دار المعرفة، 1998م.

المراجع:

- أبو بكر، أمين، ملكية الأراضي في متصرفية القدس 1858-1918م، مؤسسة عبد الحميد شومان 1996م.

- أبو حمود، قسطنطين نقولا، معجم أسماء المواقع الجغرافية في فلسطين، ط1، إصدار جمعية الدراسات العربية القدس 1984.
- أغلي، أكمل الدين احسان، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج2، نقله إلى العربية، صالح سعداوى، استانبول، 1999م.
- البخيت، محمد عدنان، دراسات في تاريخ بلاد الشام فلسطين، أمانة عمان، 1428هـ/2007م بركات، مصطفى، الألقاب والوظائف العثمانية، دار غريب، القاهرة، 2000م.
- بيات،فاضل، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، بيروت، 2003م.
- جواد، أحمد ، تاريخ عسكر عثماني، الأستانه 1897م.
- جيب وبوين، المجتمع الإسلامي والغرب وأثر الحضارة الغربية على الفكر الإسلامي في الشرق الادنى، ترجمة عبد المجيد القيسي، دمشق، 1997م.
- الحمود، نوفان رجا، العسكر في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، دار الأفاق الجديد، بيروت، 1981م.
- خليل محمد ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، اسطنبول، 2001م.
- الدباغ، مصطفى مراد، القبائل العربية وسلانها في بلادنا فلسطين، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، 1986م.
- الدباغ، مصطفى مراد، بلادنا فلسطين، ج10، مطبوعات رابطة الجامعيين بجامعة الخليل، 1974م.
- رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيون 1516 – 1916م، ط1، دمشق، 1984م.
- رمان، محمد سعيد، صوبا قرية مقدسية في الذاكرة، القدس، 2000م
- سيسالم، عصام ناجي وزكريا إبراهيم السنوار، لواء غزة في العصر العثماني الأول 922-1101هـ/1517-1690م، دراسة في التاريخ السياسي والحضاري، غزة، 1425هـ/2004م
- شراب، محمد حسن، معجم العشائر الفلسطينية، الأهلية للنشر والتوزيع، شراب، محمد حسن، معجم بلدانية فلسطين، الأهلية، (د.ت).
- الصباغ، ليلى، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، دمشق، 1973م.
- الصباغ، ليلى، فلسطين في مذكرات الفارس دارفيو، دار صادر، بيروت، 1996م.
- العارف، عارف، المفصل في تاريخ القدس، مكتبة الأندلس، القدس، 1961م.
- العسلي، كامل جميل، بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين، عمان، 1992م.

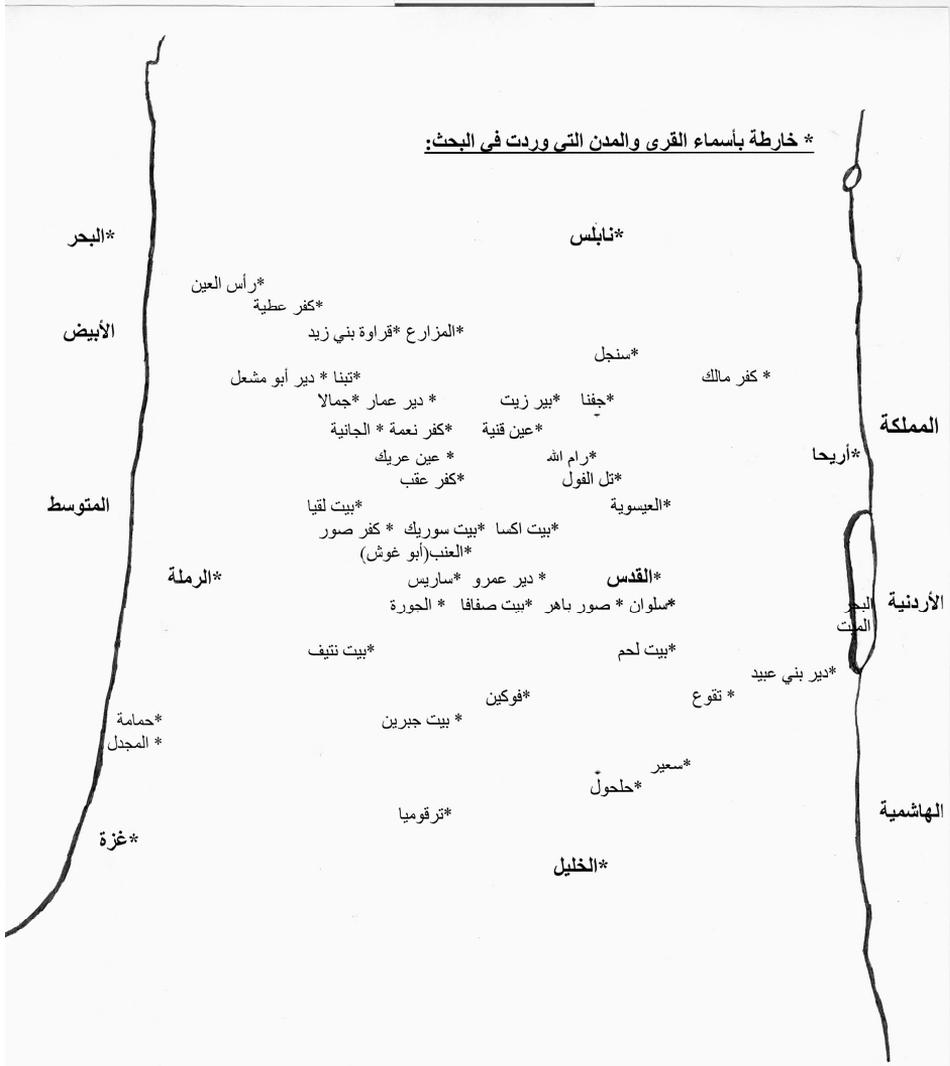
- عطاء الله، محمود علي، وثائق الطوائف الحرفية في القرن السابع عشر الميلادي، ج2، مطبعة النصر، نابلس، فلسطين، 1991م.
- عمارى، حنا ، قاموس العشائر في الأردن وفلسطين، عمان، 1999م.
- عمان، 2002.
- فالترنس، المكابيل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المترى، ترجمة، كامل العسلي، عمان، 1970م.
- الفايز، مفلح نمر، عشائر بني صخر تاريخ ومواقف حتى 1950م، عمان، 1995م.
- المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، مركز الدراسات العسكرية، ط1، 1990م.
- نعيسة، يوسف جميل، مجتمع مدينة دمشق 1186-1256هـ/1772-1840م، دمشق، ط2، 1994م.
- ياموك، شوكت، التاريخ المالي للدولة العثمانية، تعريب: عبد اللطيف الحارس، دار المدار الإسلامي، 2005م.
- اليقوب، محمد سليم، ناحية القدس الشريف في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، ج2، ط1 البنك الأهلي الأردني- عمان 1999م.
- B. Lewis, Studies in the Ottoman Archives in BSOAS, 1952.
- Cohen, Amnon and Bernard Lewis, Population and Revenue in the Towns of Palestine in the Sixteenth Century, Princeton University Press, Princeton, 1978.
- Cohen, Amnon, Palestine in 18th Century, Jerusalem, 1973.
- Heyd, Studioses in old Ottoman Criminal Law, ed. By V.L. Menage, Oxford University Press, London, 1973
- M. Hartmann, Die Ortschaftenliste des Liwa Jerusalem in dem Tukischien Staatskalender Fur Syrien auf Jahr 1288 der Flucht(1871). Z D P V, Band vi (1883), Reprint 1966, P. 106-17..
- Naima, Annals of the Turkish Empire, from The 1591-1659 of Christian Era. 1Vol, 1973,
- Redhouse, A Turkish and English Lexicon, P 1524-
- Uriel ,Heyd, Ottoman Documents on Palestine Clarendon Press, Oxford, 1960.,

الموسوعة:

- هيك، سباهي، دائرة المعارف الإسلامية، ج15، دار صادر، بيروت، ج11، ص214-215.
- ولافيدا ، ليفي ، تميم الداري، دائرة المعارف الإسلامية، ج5، ص385-480.
- إيوار، سكبان، دائرة المعارف الإسلامية، ج18، دار المعرفة، بيروت، ص13-14

- J. Deny، سنجد، دائرة المعارف الإسلامية، ج18، دار المعرفة، بيروت، ج18، 249-255.
 - ربايعة، إبراهيم، العسكر السبائية في ريف لواء القدس، مجلة جامعة النجاح الوطنية،
 مجلد 21 عدد 3، 2007م، (ص838-864).
 - "S.A. BONEBAKKER"AL- KUDS, *Encyclopedia of Islam*. E.J. Brill, leiden,
 1982, vol. 5, p. 335

<http://www.dimashkiat.com/celebrities/celebrities>



البنوية التكوينية وإشكالية المصطلح في القراءات النقدية المعاصرة

د. نورالدين صدار*

ملخص

ترمي هذه الدراسة إلى بيان المكانة الابستمولوجية لمصطلح "البنوية التكوينية" في القراءات النقدية العربية المعاصرة انطلاقاً من تحديد مفهوم ' التكوين ' في الخطاب النقدي الغربي المعاصر. ولما كان المصطلح دخيلاً على النقد العربي المعاصر، فقد اختلف الدارسون العرب في تحديد مفهومه الذي أخذوه عن النقد الغربي، فانعكس ذلك على قراءاتهم وممارساتهم النقدية. لأجل ذلك تناولت في هذه الدراسة محورين أساسيين يفضي أحدهما إلى الآخر. ففي المحور الأول ألقيت الضوء على مفهوم التكوين الأدبي كما تمت صياغته في الخطاب النقدي الغربي وبالأخص عند أحد أبرز أعلام المنهج البنوي التكويني ' لوسيان غولدمان '، لأتخذ منه، في المحور الثاني، منطلقاً ناقشت من خلاله المفهوم كما ورد في القراءات النقدية العربية، والذي تعددت مصطلحاته، لأخلص في الأخير إلى أن النقد العربي المعاصر لم يستقر عند مفهوم واحد الأمر الذي ترتب عنه بروز اتجاهين مختلفين في توظيف مصطلح البنوية التكوينية في الممارسات النقدية العربية.

إشكالية المصطلح:

قبل مناقشة إشكالية المصطلح "البنوية التكوينية"، نشير إلى أن وضع المصطلح العربي في العصر الحديث طرح إشكاليات كبيرة في المجال الألسني والمجال النقدي حيث شهدت الساحة الفكرية والثقافية العربية ظهور مصطلحات نقدية جديدة لم تكن مألوفة ومعروفة على الساحة النقدية العربية، مما أثار أزمة نقدية كبيرة استعصت على الحل. 'وقد شهدت الحياة الثقافية والأكاديمية والمعجمية حركة عربية ناشطة للتعامل مع هذا الانفجار المعجمي والاصطلاحي الجديد سواء ضبط المفاهيم أو على مستوى إيجاد مقابلات أو موازيات مترجمة لهذه المفاهيم. وقد واجهت اللسانيين والمترجمين والنقاد والمجامع اللغوية وهيئات التعريب في الوطن العربي مشكلات كبيرة ومستعصية وهي تعالج هذه الإشكالية.'⁽¹⁾

وبالرغم من الجهود التي بذلها الألسنيون والمعجميون والمترجمون، إلا أن الإشكالية ما زالت مطروحة، إذ لم يستقر المصطلح النقدي العربي على حال. فهناك مفاهيم متعددة للمصطلح

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2012.

* كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة معسكر، 29000، الجزائر.

الواحد، ولم تتفق الدراسات النقدية على كثير من المصطلحات والمفاهيم ذات الأصول العربية. وقد عبر الباحث 'فاضل ثامر' عن أسفه لوجود كثير من الاضطراب والتباين وعدم الوضوح في ترجمة المصطلح اللساني والنقدي، وقد أوعز سبب هذه الإشكالية إلى عدم التزام الكثير من المترجمين واللسانيين والمؤسسات الأكاديمية وغيرها بالجهود المشتركة المثمرة في هذا المجال، مما أدى إلى ظهور أكثر من مقابل ترجمي للمصطلح الواحد، وغياب ضوابط مشتركة..⁽²⁾

وإذا كان هذا الوضع يتعلق بالمصطلح بشكل عام، فإن المصطلح النقدي يواجه مجموعة من الإشكاليات التي يتعين التصدي لها. فإشكالية المصطلح النقدي العربي الحديث مرتبطة أساسا بأصوله التكوينية المعقدة بوصفه حصيلة لقوى جذب وطرر متباينة. وهي:

- 1 . المصطلح النقدي في موروثنا النقدي والبلاغي.
- 2 . المصطلح النقدي في أصوله الغربية المترجمة.
- 3 . صراع المناهج والمفاهيم والنظريات والعلوم اللسانية والسيكولوجية والاجتماعية والأنثروبولوجية وغيرها.
- 4 . محاولة تجاهل المصطلح النقدي بأنواعه أو السعي لتوليد مصطلحات جديدة بطريقة اعتباطية أو انطباعية.⁽³⁾ ويذهب الباحث "مولاي علي بوخاتم" مذهب "فاضل ثامر" حينما رأى أن إشكالية الخلط والاضطراب التي مست المصطلح النقدي، أضحت إشكالية من إشكاليات الثقافة الحديثة وهي مرتبطة في الأصل بأسباب أهمها:

1 . إشكالية الأصالة المتجلية في الممارسات الثقافية، وذلك حين نقل مصطلح أنتجته ثقافة معينة، ويستعمل في حقل معرفي آخر دون مراعاة خصائصه التي اكتسبتها ضمن حقل الأصل، الأمر الذي يوجد مصطلحات زوات مفاهيم تحيد عن المسافات الثقافية المخصصة لها.

2 . إشكالية المعاصرة المتجلية في الممارسات الثقافية الأكثر ترددا وتنوعا على نقل المصطلح من ثقافة غربية إلى الثقافة العربية من دون مراعاة الخصائص التي تتميز بها.⁽⁴⁾

و في هذا السياق تطرح إشكالية مصطلح النبوية التكوينية نفسها بإلحاح، فقد أبانت المتابعة الحثيثة للقراءات النقدية أن النقاد والباحثين العرب . الذين اشتغلوا في هذا الحقل المعرفي . لم يستقروا على توظيف مصطلح واحد مما يدل على تباين مواقفهم في تناول مفهوم المصطلح. وقد كشفت الدراسات النقدية العربية أن النقاد استعملوا أربعة مصطلحات، أكثرها

شيوفا مصطلح "البنوية التكوينية" ثم تليها على التوالي مصطلحات: "البنوية التوليدية" و"البنوية التركيبية" و"البنوية الدينامية".

إن الإشكالية التي يطرحها استعمال المصطلح لا تقف عند حدود الاختلاف الشكلي في التوظيف، بل ترجع في الأساس إلى تباين مواقف الباحثين في تمثيلهم وتصورهم للمنهج التكويني ولجهازه المفاهيمي، وما انجر عن ذلك من اختلاف في قراءة الأعمال الإبداعية. فمفهوم التكوين ليس رديفاً للتوليد أو التركيب.. ومن هذا الباب أدركنا أهمية هذه المسألة وخطورتها على تمثيل الخطاب الأدبي.

و حتى نتمكن من فهم حقيقة إشكالية مصطلح "البنوية التكوينية" في الممارسات النقدية العربية التي تبنت المقاربة التكوينية، رأينا من المفيد الوقوف عند مفهوم المصطلح "Structuralisme Génétique" كما حدد في الخطاب النقدي الغربي، وفي ضوء ذلك يتم تقويم القراءات العربية للمفهوم.

مفهوم التكوين في الخطاب النقدي الغربي

يكشف استقراء الأبحاث النقدية الغربية التي وظفت مصطلح Structuralisme Génétique أنها اتفقت على مدلول موحد، ولم أجد واحداً من الباحثين الغربيين من استعمل مصطلحاً آخر غير مصطلح "التكوين Génétique"، وهو يعني البحث عن العلاقة بين النص الأدبي ورؤية مبدعه والتاريخ. وبهذا تتحقق صفة التكوين للبنية. يقول " تيري إيجلتون" ((وما يبحث عنه "غولدمان" هو جماع من العلاقة البنوية بين النص الأدبي ورؤية العالم والتاريخ نفسه، ليظهر الكيفية التي يتحول بها الموقف التاريخي لمجموعة أو طبقة اجتماعية إلى بنية عمل أدبي، عن طريق رؤية العالم عند هذه المجموعة أو الطبقة. ولا يكفي البدء بالنص أو العمل لكي ننطلق منهما إلى التاريخ أو العكس كي نتحقق هذه الغاية، فما يلزمنا هو منهج جدلي يتحرك دوماً بين النص ورؤية العالم والتاريخ، بحيث يكيف المنهج كل واحد منها مع الآخر وينظر إلى كل واحد منها في ضوء الآخر.))⁽⁵⁾

إن مفهوم "التكوين" لا يتحقق إلا بتحريك عناصر الجدلية المتمثلة في الإبداع والرؤية والتاريخ، فالجدلية القائمة بين هذه العناصر هي التي تحقق صفة التكوين، أي أن العمل الإبداعي لا يفسر كعمل ذاتي إلا بالبحث عن عناصر تماثله في الواقع، وبالتنقيب عنها تنشأ صفة التكوين التي كانت العامل الذي يتماهى وراء الإبداع من حيث هو رؤية وشكل. ومن هذا المنظور فإن البنوية التكوينية ليست تركيباً أو مزجاً أو انعكاساً بين مضمون وواقع أو "داخل وخارج"، أو مكون بانٍ وسطح، إنما جدلية بين هذا وذاك. وانطلاقاً من هذا المبدأ ندرك رفض البنوية التكوينية مفهوم "الانعكاس" الألي الذي يتنافى وصفة التكوين.

جاءت البنيوية التكوينية فأحدثت تغييرا شاملا في علاقة الإبداع بالواقع، فأرست فرضياتها الأساسية، والتي حددها "ل. غولدمان" في ((أن كل سلوك إنساني هو محاولة إعطاء جواب دلالي على موقف خاص ينزع به إلى إيجاد توازن بين الفعل والموضوع الذي يتناوله، أي العالم المحيط به.))⁽⁶⁾ معنى هذا أن صفة التكوين لا تتحقق في البنيوية التكوينية إلا من خلال التوازن الذي أشار إليه "ل. غولدمان" بين بنيات عالم الإبداع وبين البنيات الذهنية لبعض الجماعات عن طريق "التمائل".

حددت البنيوية التكوينية - من خلال طروحات "غولدمان" وتلامذته - علاقة العمل الإبداعي بالمجموعة التي ينتمي إليها، إنها علاقة تبرز ببساطة من الحقيقة التاريخية والاجتماعية لأنها مرتبطة بها كما يقول "غولدمان" ((وأعني أن هذه الإبداعات يمكن أن تنال بسهولة أكثر كدراسة بنيوية من الحقيقة التاريخية التي تربط بينها، والتي تعد - أي الإبداعات - جزءا منها أعني أيضا أن تظهير علاقات هذه الإبداعات الثقافية مع بعض الحقائق الاجتماعية والتاريخية يشكل مؤشرات ثمينة تخص العناصر البنائية لهذه الحقائق.))⁽⁷⁾

يكشف هذا الطرح النظري عن حقيقة المنهج البنيوي التكويني. فالدراسة التكوينية لا تتحقق إلا بشروط، منها "التمائل" المفترض أن يتجسد بين الإبداع أو العمل الفكري والحقيقة التاريخية. فظهور هذه العلاقة شكل من أشكال تكونها. كانت هذه هي الخطوط العريضة لصياغة مفهوم البنيوية التكوينية كما حددت في أصولها ومرجعياتها النظرية، فهل تمثلت المقاربات النقدية العربية هذا المفهوم في ضوء هذا التصور النظري؟

مفهوم "البنيوية التكوينية" في القراءات النقدية العربية

بين استقراء الدراسات النقدية التي تم عرضها ومناقشتها عن بروز أربعة مصطلحات وظفها الباحثون والنقاد العرب الذين اعتمدوا البنيوية التكوينية منهجا نقديا لمقاربة الإبداع العربي وهي: البنيوية التكوينية "البنيوية التوليدية" "البنيوية التركيبية" "البنيوية الدينامية" وكلها ترجمات حرفية للمصطلح الفرنسي "Structuralisme Génétique".

لم يول الباحثون العرب شأنًا كبيرا لهذا المفهوم، فكانت ترجماتهم لشكل المصطلح لا للمفهوم الذي يحتويه، ومن هذا الباب اكتنف المصطلح الغموض وعمه الاضطراب، ومن هذا المنطلق كان تعثر النقاد في تصور دقيق وشامل لرؤية المنهج، ولجهازه المفاهيمي، ذلك أن التصور الخاطئ للمنظور التكويني ترتب عنه تصور خاطئ أيضا في مفاهيمه وأدواته الإجرائية، وفي توظيفها.

يعرف "ميجان الرويلي" و"سعد البازعي" "البنوية التكوينية" في قولهما: ((البنوية التكوينية أو التوليدية، فرع من فروع البنيوية، نشأ استجابة لسعي بعض المفكرين والنقاد الماركسيين للتوفيق بين طروحات البنيوية في صيغتها الشكلانية، وأسس الفكر الماركسي أو الجدلي، كما يسمى أحيانا، في تركيزه على التفسير المادي الواقعي للفكر والثقافة عموماً))⁽⁸⁾.

وواضح من هذا المفهوم الذي يكتنفه كثير من الغموض والإبهام، أن الباحثين لم يستقروا على مصطلح واحد في تسمية المنهج، ولم يحسبوا الموقف، بل تركوا الخيار للقارئ ليتتقى المصطلح الذي يريد، فهل مفهوم التكوين مرادف لمفهوم التوليد؟، ثم إن الباحثين اعتبروا البنيوية التكوينية فرعاً من فروع البنيوية، وهذا رأي ضعيف ينم عن عدم تمثيل الباحثين للمنظور الفكري والمنهجي للبنوية التكوينية، فهي لا تخرج في نظرهما على أن تكون نوعاً من التركيب أو المزج بين منهجين (البنوية الشكلانية والمنهج الاجتماعي الجدلي)، وهذا لا ينسجم مع روح النظرية البنيوية التكوينية كما أشرنا آنفاً.

وقد وجدنا هذا التصور عند "محمد بنيس"، فهو في مدخله المنهجي⁽⁹⁾ لم يحدد مفهومه "البنوية التكوينية"، إذ ركز كل جهوده على التعريف بالمنهجين "البنوي الشكلاني" والاجتماعي الجدلي ليصل إلى القول ((إن التيار الاجتماعي الجدلي يؤمن قطعاً بالتحليل الداخلي للعمل الأدبي لن يوصلنا إلى القبض على الدلالة المركزية للنص، أي الكشف عن الرؤية، ويعتقد صادقاً بأن الطرائق الشكلانية والبنوية تحول النقد الموضوعي إلى مجرد تحليل وصفي، ذي آفاق ضيقة لا تستوعب ما يتحرك خلف البنيات اللغوية))⁽¹⁰⁾.

وواضح من هذا النص أن الباحث أشار إلى منهجين متعارضين أحدهما يطمح في التحليل الخارجي للنص والآخر مصر (بضم الميم وكسر الصاد) على المحايثة الداخلية له، وكأن الجمع بينها حل للإشكالية القائمة بينهما. فلم يستعمل "م. بنيس" مصطلحاً دقيقاً للدلالة على البعد التكويني لمنظوره النقدي، واكتفى باستعمال مصطلح "البنوية التكوينية" في سياق حديثه عن المبادئ التي ارتكز عليهما "غولدمان"⁽¹¹⁾. ورغم الإشارة التي وردت في عنوان الدراسة (البنوية التكوينية)، إلا أن "م. بنيس" لم يلتزم بتطبيق المنهج الذي أعلن عنه، واكتفى بالتركيز على المنهج الاجتماعي الجدلي، وعلى المنهج البنوي الشكلاني. واتضح من هذه القراءة أن تصوره للمنهج "البنوية التكوينية" لم يخرج عن التركيب والجمع بين المنهجين الاجتماعي الجدلي والبنوي الشكلاني، وفي هذا تلفيق يدل على قصور في فهم المنهج "التكويني" وفق تصور "غولدمان"، ولم يشر الباحث في مقدمته المنهجية ما يؤكد على أنه وعى النهج باعتباره جدلية قائمة بين رؤية وأداة أو بين مكون باني وبنية سطحية تشكل تمظهراً من تمظهراته. والمتفحص

للمرجعيات الأساسية لدراسة محمد بنيس، يتبين له أن ما ذكره الباحث يجعلنا نطمئن إلى الرأي الذي ذهبنا إليه*.

أما الباحث السوري "محمد عزام" فقد كشف عن استعمال مصطلح "البنوية التكوينية"، ودل استخدامه له على تمثيل تصوره النظري كما حدد خطوطه العريضة "ل. غولدمان" فهو ((كمقاربة تربط بين داخل النص وخارجه مستفيدة من المناهج النقدية الجديدة ومتجاوزة إياها إلى تفسير البنيات الخارجية في المجتمع. ذلك أن اختراق البنية الثقافية والإيديولوجية والاجتماعية لفضاء النص الأدبي يعني وضعه في سياقه التاريخي وربطه بالبنيات الاجتماعية التي أسهمت في إبداعه.))⁽¹²⁾

وأجد الباحث في موقف آخر يستعمل مصطلح "التوليد" للدلالة على مفهوم "التكوين"، غير أن ما يؤخذ عليه، المراوحة في الاستعمال الذي يؤكد على تردد الباحث في قوله التالي: ((يطلق "غولدمان" على منهجه النقدي (اسم البنوية التكوينية أو التوليدية) (بنوية) لأن اهتمامه ببنية المقولات التي تكشف عن رؤية خاصة للعالم يفوق اهتمامه بمضمون هذه الرؤية نفسها، و(توليدية) لأنه يركز على الكيفية التي تتولد بها هذه الأبنية العقلية على المستوى التاريخي، أي يركز على العلاقة بين رؤية العالم والأوضاع التاريخية التي تولدها.))⁽¹³⁾

وبالرغم من وضوح تصور المفهوم في ذهن الباحث "محمد عزام"، وبغض النظر عن المصطلح المستعمل من قبل الباحث، إلا أنه لم يكن وفيًا لتصوره عند التطبيق فثمة فرق بين التصريح النظري والممارسة النصية للمنهج، مما يؤكد على تذبذب المفهوم والمنهج في ذهن الباحث. فلا وجود للتماثل بين الفهم والتفسير أو بين الرؤية والأداة. فتحليل البنية السطحية المتمثلة في عناصر (الشخصية الروائية، بنية المكان، وبنية الزمان)⁽¹⁴⁾ لم يقابلها تفسير للبنيات الذهنية والمكيفية التي تولدت بها هذه البنيات على المستوى التاريخي والمستوى الاجتماعي.

ومن الباحثين الذين وظفوا مصطلح "البنوية التكوينية" الباحث التونسي "الطاهر لبيب"، وقد أبان في المقدمة المنهجية⁽¹⁵⁾ عن مفهوم المصطلح، ويبدو أنه أدرك مدلوله، مما يؤكد تمثله للمنهج البنيوي التكويني كما بلوره "لوسيان غولدمان" وتجلى ذلك من ثراء المراجع وتنوعها التي اعتمد عليها في أصولها الغربية، وأخذ من المنهج الغولماني ما هو أساسي فيه بما ينسجم وطبيعة الجنس الأدبي (الشعر) الذي كان محل تجريب، غير أنه لم يوضح موقفه الصريح إزاء تعامله مع الجهاز المفاهيمي للمنهج لكنه أكد أن ((القارئ سيلقى... ما هو جوهر من خطوات لوسيان غولدمان البنوية التكوينية، سيكون قد عرف أن هذه الخطوات جرى تليينها، وذلك لأن الأهمية التي أوليناها للسان... أكبر من تلك التي نجدها عند غولدمان))⁽¹⁶⁾.

أخلص مما سبق إلى أن "الظاهر لبيب" قام بتلبيين وتطويع خطوات منهج "غولدمان" لجعلها أكثر وظيفية ومرونة تتسجم مع جنس الشعر، وهو من الأجناس الأدبية التي يصعب مقاربتها في ضوء هذا المنهج. والأهم من كل ذلك أننا نلاحظ عند الباحث انسجاما بين تصوره لمفهوم المنهج، وبين وظيفته، وهذا ما جسده الممارسة التطبيقية.

و إذا كان "الظاهر لبيب" تمثل المنهج الغولماني وطوعه لإنجاز قراءة شعرية لزمرة الشعراء العذريين، وبالتالي الوصول إلى نتائج كانت غير (متوقعة) في نظره. فإن الباحث المغربي "لحميداني حميد" يعد من النقاد الذين تمثلوا المنهج البنوي التكويني، بل حاول تجاوزه بما ينسجم والإبداع العربي.

فعلى مستوى المفهوم فإن طرح لحميداني يؤكد تمثله للتصورات النقدية كما صاغها "غولدمان" عن خطوات النقد السوسيوولوجي الذي يستند إلى أفكار "لوكاتش". يتجسد مفهوم التكوين كما بين الباحث على، جانب "الفهم La compréhension" وجانب "التفسير L'explication" للبنية العميقة الدالة "La structure significative"، والرؤية للعالم "La vision du monde". وقد وقف الباحث "لحميداني" عند مفهوم المصطلح قائلا: ((إن مفهوم البنية "Structure" و مفهوم التكوين "Genèse" هما الأساس الذي تقوم عليه البنوية التكوينية "Structuralisme Génétique"، من حيث إن المرحلة الأولى هي المتعلقة بدراسة البنية، وفهمها. وأن المرحلة الثانية المتعلقة بدراسة التكوين، أي ربط العمل بالبنى الفكرية الموجودة خارجه، أي تفسير هذا العمل))⁽¹⁷⁾.

يتضح مما سبق أن "لحميداني حميد" *، تمثل مسألة المفهوم (البنوية التكوينية) تمثلا ينسجم مع روح النظرية التي أرسى قواعدها "غولدمان"، فلم يتصور لحميداني المفهوم على أنه جمع بين المنهج البنوي الشكلي والمنهج الاجتماعي الجدلي كما رأينا عند "محمد بنيس، فهو ((لا ينحصر في ربط البنية الفنية ببنية أوسع، هي البنية الإيديولوجية والاجتماعية، ولكنه يقتضي أيضا رصد هذه العلاقة في حالة من الحركة المستمرة للتاريخ، ولا يتم تحقيق هذا العمل الأخير إلا في ضوء تعرف الناقد على العوامل السلبية والعوامل الإيجابية التي تشكل العلاقة الجدلية بينهما ديناميكية الحركة التاريخية نفسها))⁽¹⁸⁾.

مثل هذه الرؤية لمفهوم التكوين تكشف عن تصور شامل للمنهج في أصوله ومرجعياته الغربية فلا يقتنع "لحميداني حميد" بوجود "التمائل" بين الإبداع والواقع لتحقيق صفة التكوين التي لا ترصد إلا في الحركة المستمرة للتاريخ أي من خلال تفاعل وديناميكية الحركة التاريخية.

واستعمل باحثون آخرون مصطلح "البنوية التوليدية" و منهم "جابر عصفور" "سمير سعيد حجازي"، والباحثان اللبنانيان "رفيق رضا صيداوي" و "يمنى العيد"، ومن مصر "مدحت

الجيار". وقد أبان "رفيق رضا صيداوي" عن استعماله للمصطلح "البنويوي/التوليدي" حين قال: ((شكل النهج البنويوي التوليدي "Méthode Structurale Génétique" القاعدة الأساسية التي تحددت بموجبها منهجية البحث. و مثلت آراء "غولدمان" أحد أبرز ممثلي المنهج "التوليدي" وهو أحد المنظرين لسوسيولوجيا النص الروائي، نقطة الانطلاق الأساسية للبحث.))⁽¹⁹⁾

يستفاد من أدبيات الباحث أن مصطلح "التوليد" الذي استعمله يتضمن التصور المنهجي الذي حدد في مرجعيات "غولدمان" النظرية، وقد علل الباحث لاستخدامه لهذا المصطلح قائلاً: ((على الرغم من شيوع ترجمة المصطلح الأجنبي "Structuralisme Génétique" بـ "البنويوية التكوينية" نظراً لارتباط بالتكوين الجيني المتوارث، إلا أنني أثار أن استخدم مصطلح "البنويوية التوليدي" الذي سبق لعدد من كبار النقاد العرب أن استخدموه، مثل "صلاح فضل" و"جابر عصفور").⁽²⁰⁾

ومما يمكن الاطمئنان إليه أن "رفيق رضا صيداوي" تمثل الأصول النظرية للبنويوية التكوينية التي حددها "غولدمان" ((ففهم النص الأدبي "Compréhension" يغدو مرتبطاً بتناسقه وتماسكه، أي انطلاقاً من لغته الخاصة التي تسمح بالبحث عن البنية الإجمالية للنص الأدبي بوصفها بنية دالة. أما التفسير "Explication" فيغدو بحثاً عن ذات فردية أو جماعية تنهض البنية عليها...))⁽²¹⁾

وإذا كان الباحث "رفيق صيداوي" قد كشف بوضوح عن مفهومه للمصطلح "التوليدي"، وهو مفهوم كما رأيناه ينسجم مع التوجهات المنهجية الغولدمانية، فإن "صلاح فضل" وظف مصطلح "البنويوية التوليدي" دون أن يوضح مفهومه، وجاء ذلك في سياق حديثه عن المناهج النقدية حيث قال: ((أشير.. إلى بعض الدراسات التطبيقية في الثقافة العربية التي استخدمت منهج التوليدي في تحليل ظواهر الأدب العربي.))⁽²²⁾

أما الناقد 'جابر عصفور' فقد استخدم مصطلح "التوليد" لوصف منهجه "البنويوية التوليدي"، وقد ضمنه مفهوماً يقوم على جدلية المراوحة بين 'الداخل' و'الخارج'، فلا يستقل فهم الداخل إلا بالعودة إلى الخارج باعتباره بنية أشمل وأوسع، أي البنية التي أنتجت العمل الأدبي، والذي لا يمكن فهمه إلا في ضوء البحث عن مكونه الباني. فالعمل الأدبي من منظور 'جابر عصفور' بنية لها مكنها الباني، بل هو مجموعة من الأبنية تنتظم في بنية من العناصر المتلاحمة.⁽²³⁾

إن مفهوم البنويوية التوليدي كما تمثله 'جابر عصفور' لا يخرج عن إقامة حوار بين الذات والموضوع، فلا تتمظهر الذات عند إلغاء الموضوع، ولا يتحقق الموضوع في إلغاء الذات.

فمفهوم التوليد الذي قال به 'جابر عصفور' هو إدراك كلي في دراسة البنية، في إدراك الذات والموضوع، ولكي توجد البنية نفسها على المستوى المدروس. ويرى الناقد 'جابر عصفور' ضرورة "ربط الأعمال بكتابتها، كما تعني ربط كتابة الأعمال بتأدية وظيفة ذات علاقة عمومية اجتماعية، أو طبقة تواجه مشكلا تاريخيا." (24)

إن مفهوم "البنوية التوليدية" الذي حدده 'جابر عصفور' يلتقي مع التصور المنهجي للمفهوم الذي اقترحه 'غولدمان'، ذلك أن تصوره للمنهج يستبعد كل رؤية تجزئية للبنية كما يرفض تصوره للمنهج كل رؤية (إمبريقية) سوسولوجية. فمثل هذا التصور لا يحقق البعد التكويني للبنية. "ومعنى هذا أن 'البنوية التوليدية' منهج يتحرك في بعدين من حيث الظاهر، ولكنه بعد واحد معقد في حقيقة الأمر. أعني أنه منهج يقدم مدخلا داخليا وخارجيا لدراسة العمل الأدبي، وأنه يقوم على مراوحة مستمرة بين داخل العمل وخارجه، إنه منهج لا يفهم العمل الأدبي إلا باعتباره نسقا من العلاقات المتلاحمة داخليا، ولكنه لا يفهم هذا النسق كتجريد مطلق، أو نظام مستقل عما عداه مكتف بنفسه، بل يفهمه من حيث هو وظيفة دالة على مستوى التلاحم الداخلي نفسه. ولكن المنهج... يضطر للعودة إلى الخارج، حيث الطبقة أو المجموعة الاجتماعية للأديب المنتج، فلا يتوقف عندها إلا لكي يفهم رؤيتها، باعتبارها بنية أشمل ولدت بنية العمل الأدبي." (25)

وعلى هذا الأساس فإن تصور 'جابر عصفور' لمفهوم (التوليد) يجعلنا نطمئن إلى مثل هذا التصور لمفهوم المنهج التكويني، لكون الناقد صاغ رؤيته على فرضية من منطلق أن بنية العمل الأدبي متولدة عن بنية أشمل هي رؤية العالم باعتبارها البنية الخفية المكونة (المولدة) للبنية الجمالية الدالة، والتي لا يمكن أن تتوحد قيمتها إلا بربطها بما تولدت عنها.

واستخدم "سمير سعيد حجازي" نفس مصطلح "البنوية التوليدية" دون أن يسهب في تحليل مفهومه. واكتفى بالقول بأن ترجمة المصطلح غامضة لا تؤدي المعنى المقصود في اللغة الأصل، دون أن يوضح سبب ذلك، ولم يتجاوز حدود هذه الملاحظة البسيطة التي جاء فيها أن ((البنوية التوليدية، وهي ترجمة حرفية وغامضة ولا تؤدي المعنى المقصود به في اللغة الفرنسية أو في النظرية النقدية)). (26) ومثل هذا الطرح لا يجعلنا نطمئن إلى تصور دقيق لما أراده الباحث، وكان من المفروض أن يقترح مفهوما للمصطلح مادام أن الترجمة التي وقع عليها لا تؤدي المعنى المقصود.

ويبرز استعمال آخر للمفهوم عند "مدحت الجيار"، حيث يحصره في الإطار المنهجي لجدلوية الفهم والتفسير دون أن يبين طبيعة العلاقة التي تربط "الداخل بالخارج"، ثم إن الباحث يطرح إشكالا آخر وهو اعتبار "البنوية التوليدية" نظرية ومنهجا دون أن يوضح الفرق بينهما، وهذا ما

يستوحى من القول الآتي: إن ((دراسة البنيوية التوليدية كنظرية تعطي لنا منهجا لدراسة النص الأدبي من خلال وجهتين: الأولى داخلية تراعي العلاقات والأنظمة والعلاقات في النص الأدبي. والثانية خارجية تدرس علاقة هذه البنية كلها بالأطر الاجتماعية والنفسية التي تولد عنها النص الأدبي، وبذلك تمثل البنيوية التوليدية عيوب التركيز على مفهوم الانعكاس الآلي كما تتلافى عيوب النظريات الشكلية التي تفصل النص عن سياقاته الاجتماعية والنفسية)).⁽²⁷⁾

أما المصطلح الثالث "البنيوية التركيبية" فقد استعمله الناقد السوري "جمال شحيد" وقد خصص دراسة كاملة لهذا المنهج. ويلاحظ في هذه الدراسة أن الناقد ناوب بين المصطلحين (التكوينية) و(التركيبية)، فلم يلتزم باستعمال مصطلح واحد، فمن جهة عنوان دراسته "البنيوية التركيبية" غير أنه في ثنايا التحليل نجده يستعمل مصطلح (("البنيوية التكوينية" التي تبلورت بشكل أساسي على يد 'لوسيان غولدمان'، تحاول أن تحلل البنية الداخلية لنص من النصوص رابطة إياه بحركة التاريخ الاجتماعي الذي ظهر فيه.))⁽²⁸⁾ وأطلق على الفصل السادس من الكتاب عنوان "البنيوية التكوينية". والشاهد هنا أن "جمال شحيد" وظف مصطلحين يدلان على مفهوم واحد، وهو مفهوم يلتقي في منظوره مع المفهوم الذي حدده "غولدمان"، لكن الناقد بقي مترددا في قضية استعمال المصطلح.

وعلى كل فإننا يمكن أن نتخطى هذه الإشكالية ما دام الباحث قد وعى الطرح النظري الغولدماني وأدرك أبعاده المنهجية بوصف المنهج التكويني رؤية نقدية شاملة وليس مجرد تركيب أو تلفيق. فالبنيوية (("تكوينية" أو "توليدية" لا بد قبل كل شيء من التنويه بأن التكوين أو التوليد هذا لا يتضمن أي بعد زمني يعيد الشيء المدروس إلى تاريخ ولادته ونشأته. فالبعد الزمني في هذا الشأن ثانوي جدا... ويهدف هذا المصطلح، إن أخذ من منظور "غولدمان"، إلى إقامة توازن بين العالم الخارجي (...) والعالم الداخلي (...) إن هذا التوازن يتبدل من مجتمع إلى آخر ومن حقبة زمنية إلى أخرى.))⁽²⁹⁾

في هذا السياق أشار "جمال شحيد*" إلى أن "غولدمان" نفسه لم يكن راضيا على استعماله لمصطلح البنية لما يوحي به من جمود وثبات وهو يريد من منهجه أن يكون 'ديناميكيا' متجددا وهذا ما لم يؤده مصطلح البنية. فقد ((كان يخشى (أي غولدمان) السكون والثبات والجمود الذي يمكن أن تعنيه هذه الكلمة، ولذا فإن "غولدمان" يفكر في بنية دينامية متجددة دوما تلغي المعنى السلبى الذي كان يخشاه في البنية.)) (30) ويستند الباحث، هنا، إلى نص ل"غولدمان" يرتكز على أحد الضوابط الأساسية في المنهج البنيوي التكويني يقول فيه إن ((دراسة مجموعة من الأفعال البشرية وفهمها يفترض أن ندرسها دائما من زاويتين متكاملتين، تركيب البنية الذي يهدف إلى إيجاد بنية جديدة وتفكيك البنى القديمة التي تحققت في الماضي

والتي كانت تصبو إليها المجموعة الاجتماعية نفسها قبل ذلك بقليل.⁽³¹⁾ وهناك استعمال رابع للمصطلح ورد تحت اسم "البنوية الدينامية" وهو استعمال محدود جدا لم يعرف انتشارا في الأوساط النقدية العربية. ويبدو أن "سمير حجازي" قد استوحى هذا المصطلح من دراسة "جمال شحيد" وهو المصطلح الذي ترجمه عن "غولدلمان"⁽³²⁾، ويقول عن هذا الاستعمال ((إن الترجمة لمصطلح "Structuralisme Génétique" هو "البنوية الدينامية" وليس "البنوية التوليدية" كما هو شائع في نصوص النقد العربي، ذلك أن بعض الحواجز اللغوية التي تحول بين القارئ وبين الوصول إلى الدلالة العامة للنص الذي يحتاج إلى البحث في دقة مفاهيمه المعرفية كيلا يقع القارئ في دائرة التخبط والتشتت.))⁽³⁴⁾ إلا أن الباحث لم يكشف عن هذه الحواجز التي حالت بين القارئ والدلالة، كما أنه لم يبين المراجع التي استوحى منها المفهوم والمصطلح ولا عن دلالاته الحقيقية وعلاقتها بالرؤية العامة للفلسفة التكوينية. ومن المؤكد أن الناقد قد استفاد استفادة مباشرة من دراسة "جمال شحيد" وغير مباشرة من دراسات وأبحاث "لوسيان غولدلمان" دون أن يشير إلى ذلك.

نخلص من هذا التحليل إلى أن الدراسات النقدية العربية التي اعتمدت البنوية التكوينية بوصفها مقاربات نقدية حديثة لم تستقر عند مفهوم واحد لمصطلح "Structuralisme Génétique" ، وبينت أن النقاد والباحثين العرب وظفوا أربعة مصطلحات، منها ما هو شائع في المقاربات النقدية كمصطلحي "التكوين" و"التوليد" ومنها من لم يعرف استعمالا شائعا مثل مصطلحي "التركيب" و"الدينامية". ويبدو أن سبب هذه المفارقة يرجع في الأساس إلى التفاوت النسبي الذي عرفته قراءات النقاد والباحثين لأصول الفلسفة الكبرى، ولأدبيات البنوية التكوينية كما نظر (بتضعيف الظاء) لها أعلامها وفي مقدمتهم 'لوسيان غولدلمان'. قد بدا أثر هذا التفاوت جليا في تصور النقاد والباحثين لمفهوم 'التكوين'، الأمر الذي لم يمكن بعضهم من القبض على فكرة البذرة المكونة للأعمال الأدبية. ومن هنا يمكن اختزال مواقف النقاد إزاء استعمالهم للمصطلح التكويني في موقفين:

موقف: لم يراع في تصويره الخلفية الخفية المكونة للإبداع وبالتالي لم يتصور المنهج على أنه: (تكوين + بنية)، إذ لم يحاول البحث عن بنيته وبذرته المكونة لأصول المنهج التكويني وتمثل الإبداع الأدبي على أنه نوع من الجمع والتركيب بين البنوية الشكلية وبين المنهج الاجتماعي الجدلي، وإن كانت هذه قراءة من القراءات التكوينية العربية، إلا أنها تبقى بعيدة عن التصور النظري لأصول البنوية التكوينية التي ترجع في أصولها الكبرى إلى فلسفتين: مثالية ووضعية، ومنهما تفرعت المناهج.

وقد نتج عن هذا الفهم انحراف في قراءة وتطبيق المصطلحات، مما أدى إلى قراءة "مزوجة" للعمل الإبداعي (شكالية واجتماعية)، لا قراءة وفق منهج ذي رؤية شمولية. ومن نتائج هذه القراءة تمثل البنيات العميقة الدالة على أنها انعكاس آلي للواقع. هذه رؤية نقدية لا تقبل بها البنيوية التكوينية التي تقول بتماثل البنيات. فالفصل بين الفهم والتفسير، أو بين المكون الباني وبنيته السطحية أدى إلى التلفيق المنهجي الذي قد لا يساعد على إقامة مبدأ "الانعكاس" أو "التمائل" البنائي كما يرتضي ذلك أعلام المنهج البنيوي التكويني. وما يلاحظ أن الباحثين الذين يمثلون هذا الاتجاه لم يتمكنوا من تعميق قراءاتهم في المنهج، وفي أصوله ومرجعياته النظرية والتطبيقية.

أما الفريق الثاني: يمثله الباحثون الذين تمثلوا المصطلح "البنيوية التكوينية" في أصوله ومرجعياته الفكرية والنقدية بغض النظر عن المصطلح المستعمل. وقد تمثل هذا الفريق مدلول المصطلح على أنه يتصل بجانبين، جانب الفهم وفيه تتم قراءة البنية العميقة الدالة والتعرف على مكوناتها الدلالية على أن تعبر عن رؤية المبدع للعالم، وهي رؤية الزمرة أو الجماعة التي ينتمي إليها المبدع. أما الجانب الثاني فيخص تفسير البنية، وهي المرحلة التي يتم فيها البحث عن "الجينات" الأصلية للإبداع أي البحث عن مكوناته في الواقع الاجتماعي والتاريخي والثقافي... ومثل هذا التصور للمصطلح ومضمونه هو الذي دعا إلى قراءة البنيات عن طريق التماثل والتناظر لتحديد رؤية المبدع.

نخلص مما تقدم أن المصطلح النقدي "البنيوية التكوينية" في الخطاب النقدي الحديث، لم يتخلص بعد من إشكالياته التي حصرناها في التذبذب والتلفيق والتداخل. ولن يستطيع النقد أن يتخلص من أزمته إلا إذا عمل بمبدأ التوحيد، أي توحيد جهود النقاد والباحثين والمترجمين بوضع معجم اصطلاحي خاص بالنقد الأدبي، ومرجعية كل المصطلحات المتداولة التي استخدمت بطرق غير دقيقة، والسعي لتأسيس هيئة نقدية تقوم بوظيفة الصياغة والتوحيد، ومراجعة المصطلح النقدي واللساني والبلاغي الموروث لتأسيس الصلة بين المصطلح الموروث والمصطلح الغربي.

The Genetic Structuralism and the Term Issues in Modern Arabic Critical Approaches

Dr.Nour-Eddine Seddar, *Faculty of literature, languages, social sciences and humanities, University of Mascara, Algeria.*

Abstract

The aim of this study is to prove the epistemological value of the term: 'genetic structuralism' taking as a starting-point the concept of 'genetic' in the view of western modern critical discourse. This term is considered as a strange concept in the modern Arabic criticism leading to a controversy in providing an accurate definition among Arab researchers. As a result, their approaches and studies were quite different.

From this perspective, my study is divided into two main parts. The first one is devoted to literary genetic concept as formulated in the western critical discourse especially according to one of the famous scholar in the field 'Lucien Goldman'. The second one deals with the concept as used in Arabic critical approaches in which different terms were given.

As a conclusion, the contemporary Arabic criticism does not possess a precise definition of the concept giving rise to two different trends in the use of the genetic structuralism concept in the Arabic critical studies.

وقبل في 2009/1/26

قدم البحث للنشر في 2008/5/4

الهوامش:

- 1 - فاضل ثامر، اللغة الثانية، في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء، الطبعة الأولى، عام 1994،: 169
- 2 - م. س.: 170 : 13
- 3 - فاضل ثامر، إشكالية المصطلح النقدي في الخطاب النقدي العربي، المجلة الثقافية، ع: 46، سنة ديسمبر 1998 - مارس 1999، الجامعة الأردنية،: 97
- 4 - مولاي علي بوخاتم (د)، مصلحات النقد العربي السيماءوي، الإشكالية والأصول 2003 / 2004،: 28
- 5- Lucien Goldmann ; Marxisme et sciences humaines ;: 85

- 6 - تيري إيجلتون، الماركسية والنقد الأدبي،: 39
- 7 - لوسيان غولدمان، مقدمات في سوسولوجية الرواية، ترجمة بدرالدين عرودي،: 229
- 8 - ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي،: 41
- 9 - . محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، مقارنة بنيوية تكوينية، (راجع المدخل المنهجي)
- 10 - . م. س،: 22
- 11 - انظر، م. س،: 23
- * - م. س، راجع قائمة المصادر والمراجع
- 12 - محمد عزام، فضاء النص الروائي، مقارنة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان، 6
- 13 - م. س،: 44
- 14 - الطاهر لبيب، سوسولوجيا الغزل العربي، (راجع المقدمة).
- 15 - م. س، راجع الفصول الثالث والرابع والخامس من الكتاب)
- 16 - الطاهر لبيب، سوسولوجيا الغزل العربي (الشعر العذري نموذجاً)، ترجمة مصطفى السنوي،: 7
- 17 - لحميداني حميد، النقد الروائي والأيديولوجيا،: 68
- * - راجع، لحميداني حميد، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، دراسة بنيوية تكوينية، (المدخل)
- 18 - م. س،: 18 / 19
- 19 - رفيق رضا صيداوي، النظرة الروائية إلى الحرب اللبنانية، 1975 - 1995،: 38
- 20 - م. س،: 38
- 21 - م. س،: 40
- 22 - صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر،: 59
- 23 - جابر عصفور (د) عن البنيوية التوليدية، مجلة فصول، المجلد الأول، ع 2، يناير 1981،: 86
- 24 - م. س،: 87
- 25 - م. س،: 88
- 26 - سمير سعيد حجازي، النظرية الأدبية ومصطلحاتها الحديثة،: 51

- 27 - مدحت الجيار، النص الأدبي من منظور اجتماعي،: 55
- 28 - جمال شحيد، البنيوية التركيبية، دراسة في منهج لوسيان غولدمان،: 9
- 29 - م. س.: 77 / 78

* - في دراسة له الموسومة: في البنيوية التركيبية، دراسة في منهج لوسيان غولدمان " وقد تناول فيها دراسة تحليلية للبنوية التركيبية من خلال المؤلفات النظرية ل "غولدمان" وقد قسمه قسمين، أطلق على الأول منه عنوان " من الجزئيات إلى النظرة الشمولية " تناول فيه ستة فصول مست الأصول النظرية للمنهج. أم القسم الثاني فعنونه " نصوص مختارة من أعماله " وكان دراسة تطبيقية لنصوص غولدمان النقدية ولمنهجه من خلال كتابه " الإله الخفي ". وأهم ما في كتاب " جمال شحيد " قائمة مفصلة وشاملة لمصادر الدراسة في اللغة الفرنسية، وفي اللغة العربية.

30 م.س.: 85

31_ Lucien Goldmann, Structuralisme Génétique en sociologie de la littérature , dans , Le structuralisme Génétique , l'œuvre et l'influence de Lucien Goldmann,:27 ((...Si la structure se définit par opposition au désordre , la structuration se définit moins par opposition que par complémentarité à la destructuration , ce qui nous donne une image plus exacte mais particulièrement difficile à développer.En effet , étudier et comprendre un ensemble de fais humains suppose toujours qu'on les étudie sous deux ongles complémentaire , en tant que processus de structuration orientés vers une structure nouvelle , et en tant que processus de destructuration des anciennes structures déjà réalisées ou vers lesquelles tendait le même groupe social peu de temps auparavant.)):27

32_ Voir, Lucien Goldmann, Structuralisme Génétique en Sociologie de la littérature , dans , le structuralisme Génétique , l'œuvre et l'influence de Lucien Goldmann,: 26-27

واقع العلاقات التركية الدولية: المحددات والتوجهات (2002-2010)

محمد المقداد*

ملخص

تهدف الدراسة إلى تشخيص واقع العلاقات التركية الدولية منذ عام 2002 وحتى نهاية 2010 في ظل توجهات سلطة حزب "العدالة والتنمية"، وذلك بناءً على مناقشة أبرز المحددات التي تحكم سياسة تركيا الدولية ممثلة بكل من المحدد الاستراتيجي والمحدد الاقتصادي. كما تبين الدراسة طبيعة حرص السلطة التنفيذية على تنمية المصالح التركية وقدرتها على تدشين مرحلة جديدة في التعامل مع الوحدات السياسية الدولية المؤثرة في تطلعات الدولة التركية المستقبلية، بعد أن غابت تركيا عن لعب الدور المركزي الإقليمي منذ تأسيسها كدولة حديثة عام 1923.

تقوم الدراسة على فرضية رئيسية مفادها: أن هناك علاقة ارتباطية بين المحددات الرئيسية التي تستند عليها العلاقات التركية الدولية وبين الحراك السياسي الدولي الذي تنتهجه تركيا في ظل سلطة حزب "العدالة والتنمية" الذي تسلم السلطة عام 2002. ولتوضيح ذلك تم توظيف كل من المنهج الإقليمي والمنهج الوظيفي.

وأخيراً، توصلت الدراسة لعدة استنتاجات أبرزها، وجود مساعٍ دولية جديدة لتركيا تعبر عن توجهات لإظهار دور محوري إقليمي وذلك نتيجة لامتلاك المقومات المتعددة لديها، والقدرة على التفاعل مع دول الجوار الشرقي استناداً إلى ميزات القواسم المشتركة مع العالم العربي والحاجة إلى تلبية متطلبات مفهوم "الاعتماد المتبادل" في العلاقات الدولية، وأن تركيا لن تتخلى عن مساعيها للانضمام للاتحاد الأوروبي، وفي المحافظة على علاقاتها المعهودة مع المعسكر الغربي، لأن الغاية تكمن في تنمية المصالح والإبقاء على سير التوازن مع كافة الوحدات السياسية الدولية وليس الدخول في حالة صراع مباشر.

المقدمة

ترتبط السياسة الدولية للجمهورية التركية وكغيرها من الوحدات السياسية بطبيعة المتغيرات التي يشهدها العالم، خاصة تلك المتعلقة بنزوع النظام الدولي نحو التعددية والخلاص من إملاءات القطبية الواحدة التي ارتكزت على تفعيل الأزمات وخلق ما يبرر الحروب الاستباقية، وذلك انسجاماً مع متطلبات فكرية قامت عليها المدرسة الليبرالية الجديدة التي سيطرت على عقلية العديد من صنّاع القرار في الدول الغربية، وكان نتاج ذلك كله بروز حالة عدم الاستقرار الدولي، نتج عنها أزمات اقتصادية والتمويل نحو التكتلات الإقليمية والدولية التي ترتكز على تطوير

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2012.

* معهد بيت الحكمة، جامعة آل البيت، المفرق، الأردن.

المصالح المشتركة التي بدورها تتقدم على المصالح الاقتصادية على القوة العسكرية، وتسهم بتشكيل أطر وملامح علاقات دولية مختلفة إلى حد كبير عما كانت عليه الظروف الدولية وطبيعة التجاذب بين الوحدات السياسية خلال الحرب الباردة.

لقد شهدت السياسة الدولية منذ وصول حزب "العدالة والتنمية" للسلطة عام 2002 - العديد من التوجهات غير المألوفة منذ قيام دولة تركيا الحديثة عام 1923، إذ باتت تعتمد العلاقات على عدم حصرها في محور واحد، الأمر الذي حول تركيا إلى مركز هام في السياسة الإقليمية والدولية، بعدما كانت تتعايش مع توجهات القوى المركزية التي شكلت حلف شمال الأطلسي بعد الحرب العالمية الثانية. ومما يساعدها على ذلك موقعها الجيوبولتي الذي تطل تركيا به على جغرافيا إقليمية إستراتيجية هامة: أوروبا والبلقان والبحر المتوسط والعالم العربي وروسيا وآسيا الوسطى ومنطقة القوقاز. كما وفرت السياسة التركية الجديدة، القدرة على كسر حدة التطرف سواء من جانب ذوي النزعة الطورانية أو من جانب بعض الجماعات الإسلامية السياسية. كما عملت باتجاه معالجة مشاكل الأقليات القومية في تركيا بمنهجية تطوير أوضاعها لتحقيق الانسجام المجتمعي الذي يكفل وحدوية الموقف في التوجهات الخارجية، أما دوليا فتسعى السلطة الحاكمة -حزب العدالة والتنمية- إلى تأكيد قدرة تركيا على رسم التطورات المستقبلية للمنطقة، مما يدفع بالدول الغربية إلى تفهم الحقيقة الجغرافية والحضارية لتركيا ودورها في السياسات الأوروبية المستقبلية، وهذا يساعدها، من جانب آخر، في جعل الاتحاد الأوروبي ينظر لتركيا على أنها ليست مجرد دولة هامشية أو أنها تعيش بعزلة بسبب هويتها الإسلامية⁽¹⁾.

كما أن اللافت للنظر من توجهات تركيا نحو المشرق، أنها تحاول أن تتجاوز كافة العوائق التي أثرت بشكل سلبي على الانفتاح الدبلوماسي وتفعيل متطلبات التعاون مع المنطقة العربية، في الوقت الذي تسعى تركيا وباستمرار إلى تدشين علاقات سليمة بين مختلف الوحدات الدولية والإقليمية، مستخدمة كافة أشكال الدبلوماسية وأدواتها وفي مقدمة ذلك طرح مشروعات شاملة للمنطقة بأسرها، ومبادرات تشكيل مجالات من المصالح المشتركة التي تعزز كافة قنوات الحوار والتفاهم، مع الحرص على الحيلولة دون تشكل تكتلات قومية مضادة تمثل أخطاراً جيوسياسية وجيوثقافية ضد الاستقرار في المنطقة، وإسناد ذلك على نهج سياسي جدي يقوم على تكثيف الاتصالات والعلاقات التي تعزز من مكانة تركيا دولياً، في الوقت الذي تسيير فيه عقلية صانع القرار التركي ضمن منهجية قوامها إدراك أهمية موقع تركيا وعمقها الاستراتيجيين، وما تتطلبه المرحلة الحالية من مرونة سياسية وتكتيكية في التعامل مع كاف أطراف المعادلة الدولية، والاحتفاظ بمغزى الانسجام والتوافق الداخلي الذي يضمن بقاء السلطة في الحكم للوصول إلى نتائج إيجابية للأهداف الموضوعية.

وبشكل عام يمكن إيجاز الأسس النظرية التي تقوم عليها استراتيجية تركيا في سياستها الدولية منذ تولي حزب "العدالة والتنمية" السلطة استناداً إلى تشخيص واقع الحراك السياسي التركي دولياً بما يلي (2):

1. عقلانية التعامل مع القضايا الداخلية كون ذلك يمثل مرتكزات ذات علاقة ارتباطيه مع قوة الدولة اتجاه المسائل المتعلقة بتطلعات تركيا خارجياً. حيث أخذت تركيا بمسار التوفيق بين الأمن والحرية، وأصبحت بهذا من البلدان القليلة التي تقدمت في العديد من المجالات خاصة في مجال الإصلاح السياسي والتوزيع الأمثل للموارد دون أن يكون ذلك على حساب المتطلبات الأمنية، في الوقت الذي ما زالت أبرز القوى الدولية وخاصة الولايات المتحدة تقدم الاعتبارات الأمنية على كافة أوجه الاستقرار والإصلاح مما ترتب عليه تباطؤ واضح في المسارات التنموية المنشودة.

2. اتباع سياسة "تصفير المشكلات" بين تركيا وجيرانها، والعمل على إخراج تركيا من بلد محاط بمشكلات، إلى بلد يدخل في علاقات متزنة مع كافة الدول، مما يمنح السياسة التركية الدولية نوعاً جديداً من تنوع المصالح.

3. اتباع سياسة خارجية متعددة الأبعاد والمسالك، حيث لم تعد السياسة التي تستخدم قنوات ومجالات محدودة ذات إيجابيات ومكاسب كبيرة، بل إن الظروف الدولية باتت توصف بالمتحركة، وهذا يتطلب تفهّم مستلزمات الانفتاح على كافة القوى والاستفادة مما تملكه من مكاسب التعاون عند توظيف متطلبات "الاعتماد المتبادل". بمعنى آخر، إن تركيا لا بد أن تخرج عن مسار التبعية التقليدية، وأن لا تبقى تركيا فقط- مركزاً عنده تبدأ وتنتهي في أن واحد مشاكل الغرب والشرق، والغرب والإسلام، وآسيا وأوروبا، بل الأمثل من ذلك، أن تكون تركيا محورا لحل المشاكل، ومصدراً أساسياً في إرساء السلام العالمي والإقليمي، وهذا بمجمله يتيح الفرصة لتركيا لأن تنتقل من سياسة الجمود والسكون الدبلوماسي، إلى سياسة الحركة الدائمة عند التواصل مع كافة بلدان العالم المهمة لتركيا، مما يعني الحاجة إلى إرساء استراتيجية المرحلة تقوم على نهج ذي كفاءة دبلوماسية، وذي قدرة على طرح تعريف وتثقيف جديدة لدور تركيا في الساحة العالمية، وأن تركيا هي دولة ذات إمكانيات مهمة في شتى المفاهيم، لذا فإنها لا بد أن تكون بلداً مركزياً، وفاعلاً إقليمياً ودولياً.

بناءً على ما تقدم، تأتي هذه الدراسة البحثية لتوضيح واقع سياسة تركيا الدولية، على ضوء محدداتها الاستراتيجية والاقتصادية، وكيف تتعامل مع ذلك على ضوء علاقاتها مع كل من الولايات المتحدة، الاتحاد الأوروبي، إسرائيل، والدول العربية وذلك ضمن توجهات حزب "العدالة والتنمية" الحاكم في تركيا منذ عام 2002.

الإطار العام للدراسة

أهداف الدراسة:

تسعى الدراسة إلى فهم واقع السياسة التركية على الساحة الدولية منذ عام 2002 الذي يمثل بداية تسلّم حزب "العدالة والتنمية" السلطة، إضافة إلى الوقوف على طبيعة المحددات الرئيسية التي تركز عليها سياسة الحزب في تعامله مع القضايا ذات العلاقة بتوجهات تركيا الدولية. بشكل عام يمكن إبراز أهم الأهداف الأساسية التي تسعى الدراسة البحثية إلى الوصول إليها بما يلي:

- 1- توضيح أهم المحددات الرئيسية التي تستند عليها سياسة تركيا في توجهاتها الدولية.
- 2- تبيان واقع العلاقات التركية الخارجية في ظل التداعيات الإقليمية والدولية، وذلك بتسليط الضوء على مساعي تركيا في الانضمام للاتحاد الأوروبي، والتحديات التي ما زالت تواجهها في هذا الشأن، إضافة إلى مناقشة علاقة تركيا مع كل من الولايات المتحدة وإسرائيل.
- 3- إبراز الأسباب والعوامل التي تدفع بالسياسة التركية لتدشين مرحلة جديدة من العلاقات مع العالم العربي خاصة مع دول المشرق العربي.

أهمية الدراسة:

تأتي أهمية الدراسة في ظل التداعيات السياسية الدولية التي تشهدها تركيا منذ عام 2002، حيث يمثل ذلك بداية لمرحلة جديدة في تحول النهج السياسي مقارنة مع ما كان معهوداً منذ تأسيس دولة تركيا الحديثة عام 1923، وبهذا تسعى تركيا من خلال سلطة الحزب الحاكم "العدالة والتنمية" إلى إبراز الدور المحوري والدولي في مجمل القضايا خاصة الإقليمية.

مشكلة الدراسة:

تمر العلاقات التركية الدولية بمرحلة جديدة تختلف عما كانت عليه منذ تأسيس دولة تركيا الحديثة عام 1923، فبعد أن كانت توصف طبيعة النهج الذي اتسمت به سياسة تركيا الدولية في مرحلة استمرت لعقود بالتبعية للمحور الغربي، وإغفال التعاون مع الشرق، أصبح الواقع يختلف نتيجة التداعيات الدولية واختفاء القطبية الثنائية، إضافة إلى التغيرات التي أصابت قوة الدول ذات النفوذ الدولي، والتوجه لاستحقاقات استراتيجية تنسجم مع المتطلبات الاقتصادية وتوظيف متطلبات "الاعتماد المتبادل"، إضافة إلى تغيير طبيعة النظام السياسي في تركيا الذي بات تحكمه قوى ذات توجهات تسعى إلى ممارسة الدور اللازم الذي يستوجب إظهار إمكانيات الدولة، واحترام خصوصيتها، مستندة في ذلك على عدة أسباب رئيسية، مثل استمرارية الاتحاد الأوروبي في

مراوغة قبول عضوية تركيا، وعدم قيام الولايات المتحدة باستخدام آلية ضاغطة على دول الاتحاد الرئيسية لقبول عضوية تركيا كونها شريكاً استراتيجياً تاريخياً للولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية.

كما وتستند المشكلة البحثية على تشخيص المحددات الأساسية التي تقوم عليها علاقات تركيا الدولية ممثلة بالمحددات الإستراتيجية والاقتصادية، والحاجة إلى تنمية الإمكانيات على ضوء تعزيز التعاون مع الدول وفتح قنوات الاستثمار اللازمة، والحفاظ على سياسة متزنة مع كافة القوى الإقليمية، مما يعني أن تركيا في مرحلة جديدة في علاقاتها الدولية، تحرص في مسيرتها على إظهار دورها المركزي في منطقة الشرق الأوسط دون أن تخلق أية عراقيل دولية تؤثر على تقدمها.

أما إشكالية الدراسة ذات العلاقة بتوجهات تركيا الدولية الحالية، فتكمن في صعوبة حصر التعرف على قدرة تقييم سياسة تركيا لعدة أسباب تتمثل في:

1. ملامح المتغيرات الدولية والإقليمية التي ما زالت تحكمها العديد من القوى الدولية التقليدية، مما يعني أن التوجهات التركية الدولية تبقى ضمن دائرة السيطرة من قبل الوحدات السياسية التي تتحكم إلى حد عالٍ وواسع بالمحيط الدولي لتركيا.
2. مدى استمرارية سلطة الحزب الحاكم لتركيا - "حزب العدالة والتنمية". فأية تغيرات في نهج تركيا تبقى مرهونة بالسلطة الحاكمة كونها تمثل الاتجاه المتزن، مقارنة بغالبية القوى الحزبية المعارضة التي طالما تريد لتركيا أن تبقى ضمن منظومة التوجهات الغربية دون إيجاد أي حراك جديد.
3. كما تكمن الإشكالية الأساسية للدراسة، بأن الحزب الحاكم لتركيا يستخدم سياسة تعتمد على الشراكة مع كافة الأطراف، مما يستوجب فتح قنوات تعاون مكثفة مع العديد من الدول العالمية الفاعلة استراتيجياً واقتصادياً مثل الصين واليابان وروسيا، والانفتاح مع الدول الرئيسية في القارة الأفريقية وأمريكا اللاتينية وشبه القارة الهندية ودول جنوب شرق آسيا.

تساؤلات الدراسة:

هناك العديد من التساؤلات الرئيسية التي تسعى الدراسة من خلال التشخيص والتحليل إلى الإجابة عليها، وتتمثل أبرزها بما يلي:

1. ما هي طبيعة المحددات الأساسية التي تقوم عليها سياسة تركيا في نهجها الدولي؟
2. ما هي طبيعة الترابطات القائمة بين تركيا وكل من الولايات المتحدة، والاتحاد الأوروبي، وإسرائيل، والعالم العربي؟

فرضيات الدراسة:

بناءً على الأهداف الرئيسية التي تقوم عليها الدراسة، وما انبثق عن المشكلة البحثية من تساؤلات سألها الذكر، تستند الدراسة على فرضية اختباريه أساسية مفادها " أن هناك علاقة ارتباطيه بين المحددات الرئيسية التي تقوم عليها العلاقات التركية الدولية وبين الحراك السياسي الخارجي الذي تنتهجه سلطة الحزب الحاكم (العدالة والتنمية) منذ عام 2002" وحتى نهاية حدود الدراسة الزمنية عام 2010. كما وينبثق عن هذه الفرضية عدة فرضيات فرعية يتمثل أبرزها بما يلي:

1. هناك علاقة ارتباطيه بين مساعي تركيا نحو الانضمام للاتحاد الأوروبي وبين توجهات تركيا نحو تدشين علاقات مع دول المشرق من جهة، وإعلان مواقف مضادة اتجاه سياسة إسرائيل في المنطقة من جهة أخرى.
2. يوجد علاقة ارتباطيه بين إدراك قيادات حزب "العدالة والتنمية" لأهمية موقع تركيا الجيوبولتيكي وبين احتياجات دول حلف شمال الأطلسي (الناتو) بشكل عام والولايات المتحدة بشكل خاص في الحفاظ على علاقات متزنة مع تركيا.
3. هناك علاقة إيجابية بين توجهات تركيا الجديدة في المنطقة العربية وبين النمو الاقتصادي الذي يتحقق لصالح تركيا.

متغيرات الدراسة:

المتغير المستقل: حزب "العدالة والتنمية": المحددات والتوجهات.

المتغير التابع: واقع العلاقات التركية الدولية (2002-2010).

منهجية الدراسة:

بناءً على مشكلة الدراسة وتساؤلاتها، وما يتمخض نتيجة ذلك من عناوين رئيسية يخدم الأهداف والوصول إلى استنتاجات تختبر الفرضيات سألها الذكر، سوف تستخدم الدراسة كلاً من المنهج الإقليمي "The Regional Approach" والمنهج الوظيفي "The Functional Approach".

بالرجوع إلى أدبيات المنهج الإقليمي، الذي ترجع بداية استخدامه، إلى عالم الجغرافيا السياسية بومان "Bowman" في كتابه "The New world" واستخدمه كذلك العديد من المهتمين في علم الجيوبولتكس والعلاقات الدولية⁽³⁾، فإن هذا المنهج يستخدم بشكل عام بغية دراسة العوامل الاقتصادية والاستراتيجية للدولة ومناقشة حراكها على ضوء متطلباتها إقليمياً

وعالمياً، كما يركز على دراسة الطابع السياسي للدولة بما يرتبط بتاريخها السياسي وعلاقاتها مع العالم الخارجي. وبناءً على ذلك سوف يتم توظيف المنهج الإقليمي في هذه الدراسة عند مناقشة المحددات الرئيسية للدولة (المحدد الاستراتيجي والمحدد الاقتصادي) وكذلك عند استعراض العلاقات التركية مع العالم الخارجي وخاصة دول الجوار الإقليمي، وأبرز التكتلات الاستراتيجية والاقتصادية التي تنخرط بها تركيا من جانب وتسعى نحو الانخراط بها من جانب آخر.

كما وسيتم توظيف المنهج الوظيفي في المجالات ذات العلاقة بدراسة العلاقات الخارجية للدولة التركية والتكتلات الإقليمية، ودراسة العلاقات الاقتصادية والاستراتيجية، ويسعى المنهج إلى مناقشة الإطار الذي تعتمده الدول في إظهار قوتها على ضوء محدداتها، من حيث دراسة العوامل الجغرافية والاقتصادية والسياسية، ودراسة العلاقات الاستراتيجية ذات العلاقة بتحليل الارتباطات العسكرية التي عقدتها الدولة مع الدول الأخرى. لذلك سوف تستخدم الدراسة هذا المنهج كون كافة مقولاته واردة الذكر تدخل ضمن محتوى نقاش الدراسة.

مفردات الدراسة:

- الاعتماد المتبادل: Interdependence

من المفاهيم النظرية التي استخدمها العديد من المنظرين في حقل العلاقات والسياسات الدولية، خاصة أنصار المدرسة الليبرالية الجديدة ومن أبرزهم "ميلتون فيردمان"، و"فريدريك هايك"، والفكرة المركزية التي يقوم عليها مفهوم الاعتماد المتبادل، تخلص إلى التعاون بما يخدم مستوى الدرجة العالية من الترابط بين الوحدات السياسية الدولية، وبشكل يؤدي إلى تعاون أكبر بين الدول ويحقق مكاسب للأطراف بطريقة فاعلة ومنتزعة، وهذا من شأنه أن يدعم استقرار النظام الدولي⁽⁴⁾. بينما يرى أنصار الواقعية الجديدة مثل "والترز" أن الاعتماد المتبادل قد يؤدي إلى ترابطات زائدة تكون لمصلحة طرف على حساب طرف آخر، وهذا بدوره قد يؤدي إلى صراع وعدم استقرار⁽⁵⁾.

أما إجرائياً، يستخدم هذا المصطلح في الدراسة البحثية بهدف تبيان أن سياسة تركيا الحالية تستخدم نهج "الاعتماد المتبادل" بين كافة الأطراف المعنية في مقدمة علاقاتها الدولية، سواء المتعلقة بانفتاحها على دول المشرق العربي، أو الاتحاد الأوروبي، أو إسرائيل، والولايات المتحدة، وذلك بهدف تحقيق مكاسب متعددة وفي مقدمتها المكاسب الاقتصادية.

- حزب "العدالة والتنمية":

هو من الأحزاب التركية الحديثة، تم تشكيله في آب عام 2001 من النواب المنشقين عن حزب "الفضيلة الإسلامي" الذي تم حله بقرار صدر عن المحكمة الدستورية التركية في حزيران عام 2001، كما كان أعضاؤه يمثلون جناح المعتدلين في حزب الفضيلة. ويشكل حزب "العدالة والتنمية" - الذي يقود تركيا منذ عام 2002 - الجناح الإسلامي المعتدل، ويحرص على أن لا تستخدم الشعارات الدينية في الخطابات السياسية، ويؤكد الحزب على احترام الحريات الدينية والفكرية ويبنى سياساته على التسامح والحوار والانفتاح على العالم، وعدم معارضته للعلمانية التي قامت عليها الجمهورية التركية عند تأسيسها عام 1923، كما ويؤيد الحزب انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي، ويبلغ عدد أعضاء النواب في البرلمان من حزب العدالة والتنمية (342) من أصل (550) وذلك بناء على نتائج الانتخابات التشريعية التي جرت عام 2007.⁽⁶⁾

أما إجرائياً، سيركز على استخدام مسمى حزب "العدالة والتنمية" بالحزب الحاكم كون الدراسة تقتصر مناقشتها على واقع العلاقات التركية الدولية منذ تسلّم الحزب للسلطة عام 2002 وحتى نهاية عام 2010.

الدراسات السابقة:

توجد العديد من الدراسات التي ناقشت علاقات تركيا الدولية وذلك في مراحل تاريخية مختلفة، والتي قدمها مختصون ومهتمون في الشأن التركي، ولقد تزايدت آراء ووجهات نظر الباحثين المهتمين في واقع ومستقبل تركيا في العقد الأخير خاصة بعد ظهور واضح لدور تركيا في حراكها الإقليمي والدولي، وجاءت هذه الدراسات في كتب وأخرى كدراسات بحثية متخصصة منشورة في دوريات محكمة. لذلك لا بُد من استعراض عدد من الدراسات المنشورة ذات العلاقة المباشرة بالدراسة وتبيان مدى ما يسعى إليه الباحث من إضافة علمية جديدة مقارنة بما تم نشره حتى نهاية حدود الدراسة الزمنية عام 2010.

في كتابه "الجمهورية التركية الجديدة: تركيا كدولة محورية في العالم الإسلامي"، بين المؤلف (جراهام فولر)⁽⁷⁾ أن السياسة الخارجية التركية تسعى في الوقت الراهن لسد الفراغ في السياسة الشرق أوسطية أو عدم ترك الفرص لأي فاعل دولي آخر، وأن هذا التوجه نحو التوسع جاء نتيجة حالة عدم الاستقرار التي مازالت تشهدها منطقة الشرق الأوسط خاصة بعد أحداث سبتمبر عام 2001 وما نتج من حروب دولية على الإرهاب، إضافة إلى صعود "حزب العدالة والتنمية" إلى السلطة عام 2002. كما ويوضح المؤلف (فولر) أن تفاعلات تركيا مع الشرق الأوسط والعالم الإسلامي في السنوات المقبلة ستتشكل انطلاقاً من نية تركيا تفعيل العمل لبناء

علاقات جديدة مع دول الجوار بما في ذلك الدول الإسلامية، إضافة إلى رؤية تركيا لنفسها كمن يقف في المركز بين الغرب والشرق، وأن تركيا أصبحت تدرك أن مصالحها الخاصة تكمن في استقرار منطقة الشرق الأوسط، لذا عليها أن تنهض للمشاركة والتفاعل لإيجاد حلول للمعضلات الرئيسية كالصراع العربي الإسرائيلي، والملف النووي الإيراني، وعدم الاستقرار في العراق... إلخ.

أما فيما يتعلق بالعلاقات التركية مع الولايات المتحدة وإسرائيل، بين المؤلف (هاينتس كرامر) في كتابه "تركيا المتغيرة"⁽⁸⁾ أن أهمية تركيا بالنسبة لأميركا كانت قد تراجعت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي عام 1991 وحتى أحداث سبتمبر عام 2001، لكنها قد تغيرت منذ الاحتلال الأمريكي للعراق عام 2003 باتجاه مغاير، كون الولايات المتحدة ترى في سياسة تركيا أنها باتت تأخذ منحى جديداً لأن الأخيرة لم تؤسس دوراً مساعداً للولايات المتحدة في احتواء الوضع في العراق. وفي المبحث المتعلق بدراسة واقع العلاقة الجديدة بين تركيا وإسرائيل بين (كرامر) أن تركيا تسعى لتحقيق التوازن في العلاقة بين متطلبات تنمية العلاقة مع الدول العربية وإسرائيل، خاصة وأن السلطة التنفيذية الحاكمة في تركيا بقيادة حزب "العدالة والتنمية" أكثر تفهماً وقبولاً عند شعوب الدول العربية والإسلامية، وأن العلاقة مع إسرائيل يجب أن تخدم مصالح تركيا وأن لا تكون حملاً عليها. وأخيراً يؤكد المؤلف (كرامر) أن الغرب باتوا من جديد يهتمون بالدراسات عن تركيا، من خلال السعي المتواصل للتعرف على قدرة تفاعلات تركيا الإقليمية والمحورية، وفي ظل رغبة أطراف النفوذ الدولية في رصد حراك دول النفوذ الصاعدة في منطقة الشرق الأوسط ودول آسيا الوسطى.

وفي دراسة بعنوان "العلاقات التركية الإسرائيلية وتأثيرها على المنطقة العربية (1996-2009) بينت المؤلفة (رنا الخماش)⁽⁹⁾ أن المتغيرات الداخلية والإقليمية والدولية هي التي تحكم طبيعة العلاقة بين تركيا وإسرائيل، وذلك كون التوجهات الفكرية والسياسية التي يحملها قادة تركيا وإسرائيل، وأن ما ترتب عن إحداث سبتمبر عام 2001، كاحتلال العراق عام 2003، جاء ليخدم تلاقي المصالح التركية العربية لأن ذلك ترتب عليه الحاجة إلى تدشين وتقوية مصالح أمنية واقتصادية جديدة تؤثر بمصالح تركيا والعرب بشكل مباشر، وأن ما يؤكد ذلك التدخل الإسرائيلي العسكري والاستخباراتي في كردستان العراق، ما ينجم عنه تهديد فعلي للأمن القومي التركي. كما وناقشت (الخماش) العلاقات التركية الإيرانية، على اعتبار أن إيران تعتبر لاعباً مهماً ورئيسياً في مختلف قضايا المنطقة المتعلقة بإسرائيل وأمنها، بالإضافة لكونها إحدى دول الجوار الجغرافي لتركيا، وإحدى الدول المنافسة للدور التركي بقيادة المنطقة، كما أن إيران تعتبر الدولة المغايرة لمخططات الغرب في المنطقة، في الوقت الذي ترى الدول الغربية أن تركيا إحدى أهم حلفائها لتنفيذ مخططاتها في المناطق المجاورة لتركيا على وجه العموم.

وفي دراسة متخصصة لـ (Ozlem Terzi) بعنوان "قدرات جديدة وعلاقات قديمة: تركيا والاتحاد الأوروبي"⁽¹⁰⁾ بين الباحث أن توجهات تركيا الأمنية والاقتصادية باتت متغيرة بعد انتهاء الحرب الباردة، وأن مواقف تركيا الجديدة تستند على محدها الجيو استراتيجي، وهذا بدوره سينعكس على أهمية مراجعة هيكلية الأمن الأوروبي، وأن على الاتحاد الأوروبي الأخذ بالشراكة الفعلية مع الدول المحيطة خاصة مع تركيا لضمان الاستقرار بمختلف جوانبه، كونها شريكاً تقليدياً وعضواً فاعلاً في حلف (الناتو) وتشكل حاجزاً هاماً في وجه النفوذ الروسي. كما بين الباحث التحديات التي ما زالت تواجه قبول عضوية تركيا في الاتحاد الأوروبي، مثل المشكلة القبرصية وحقوق الأقليات التركية، وإعادة النظر في بعض القواعد الدستورية التي تؤثر على سير الديمقراطية وحقوق الإنسان.

وبعد استعراض الدراسات سالفة الذكر، مع قناعة الباحث بأهميتها لما تناولته من موضوعات ذات علاقة مباشرة عن العلاقات التركية الدولية، إلا أن الدراسة هذه سوف تركز بمجملها على الجوانب الرئيسية المتصلة بواقع العلاقات التركية الدولية في ظل سلطة حزب "العدالة والتنمية" الذي تسلم زمام الحكم عام 2002، بعد نجاحه في الانتخابات التشريعية آنذاك. كما وتعنى الدراسة بالمحددات التي تحكم التوجهات السياسية التركية الدولية كالمحدد الاستراتيجي والمحدد الاقتصادي، ومناقشة العلاقات التركية مع دول المصالح التي تشكل مرحلة جديدة من علاقات التعاون الإيجابية قوامها الاعتماد المتبادل، حيث تناقش الدراسة العلاقات التركية مع كل من الولايات المتحدة، والاتحاد الأوروبي، وإسرائيل، والدول العربية.

حزب "العدالة والتنمية" وسياسة تركيا الدولية:

تمهيد:-

شهدت السياسة الدولية للجمهورية التركية، منذ وصول حزب "العدالة والتنمية" إلى السلطة في البلاد عام 2002، العديد من التوجهات غيرالمألوفة منذ قيام دولة تركيا الحديثة عام 1923. إذ باتت تعتمد على تعدد العلاقات وعدم حصرها في محور واحد، الأمر الذي حول تركيا إلى مركز هام في السياسة الإقليمية والدولية، بعدما كانت تتعايش مع توجهات القوى المركزية التي شكلت حلف شمال الأطلسي بعد الحرب العالمية الثانية. ومما يساعدها على ذلك موقعها الجيوبولتيكي الذي تطل تركيا به على جغرافيا إقليمية إستراتيجية هامة: أوروبا والبلقان والبحر المتوسط والعالم العربي من جهة، وروسيا وآسيا الوسطى ومنطقة القوقاز من جهة أخرى. كما وفرت السياسة التركية مرتكزات داخلية مهمة في سعيها الإقليمي المحوري، من خلال المضي في مسيرة الديمقراطية عبر نظام انتخابي تمثيلي، وكسر حدة التطرف سواء من جانب ذوي النزعة الطورانية، أو من جانب جماعات الإسلام السياسي المتعصبة، كما عملت باتجاه إيجاد أسس

لمعالجة مشاكل الأقليات القومية وتطوير أوضاعها لتحقيق الانسجام المجتمعي الذي يكفل وحدوية الموقف في التوجهات الخارجية، والتأكيد على قدرة تركيا في رسم التطورات المستقبلية للمنطقة، مما يدفع بالدول الغربية إلى تفهم الحقيقة الجغرافية والحضارية لموقع تركيا ودورها في السياسات الأوروبية المستقبلية، وهذا يساعدها من جانب آخر في جعل الاتحاد الأوروبي ينظر لها (تركيا) بأنها ليست مجرد دولة هامشية تحس بعزلة أوروبية بسبب هويتها الإسلامية⁽¹¹⁾.

لذا يأتي المبحث الأول من الدراسة، لمناقشة محددات سياسة تركيا الدولية، أما المبحث الثاني فسوف يناقش علاقات تركيا الدولية وتحديداً مع كل من (الاتحاد الأوروبي، والولايات المتحدة، وإسرائيل، والعلاقات مع الدول العربية).

المبحث الأول: محددات سياسة تركيا الدولية:-

يعتبر كل من المحدد الاستراتيجي والمحدد الاقتصادي المحددين اللذين تركز عليهما السياسة التركية في علاقاتها الدولية. حيث تتضح معالم ذلك عند مناقشة علاقات تركيا مع العديد من الوحدات السياسية الدولية ذات العلاقة المباشرة في توجهات تركيا الجديدة، وترايباتها مع هذه الوحدات وتحديداً مع كل من الاتحاد الأوروبي الذي ما زالت تركيا تسعى للدخول في عضويته، ومع الولايات المتحدة الشريك الاستراتيجي المعهود خاصة، خلال الحرب الباردة، وإسرائيل التي طالما ارتبطت بعلاقة معها منذ الاعتراف بها المبكر من قبل تركيا عام 1949، وأخيراً عند دراسة واقع العلاقات التركية العربية بعد أن دخلت مرحلة جديدة في عهد حزب "العدالة والتنمية".

أولاً) المحدد الاستراتيجي:

من خلال المرحلة التي أعقبت قيام دولة تركيا الحديثة عام 1923، مروراً بالحرب الباردة بين النظام الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة، والنظام الاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفيتي، نجد أن وظيفة تركيا في السياسة الدولية لم تكن تتعدى دور الدعامة لحلف الناتو في مواجهة حلف وارسو. وبعد غياب نظام القطبية الثنائية بانتهاء الاتحاد السوفيتي عام 1991، وانفراد النظام الرأسمالي بالنفوذ والتأثير الدولي، ظهرت العديد من المتغيرات التي أثرت بمجملها على المنظومة الدولية والإقليمية. يتمثل أهمها بتلك المتغيرات ذات العلاقة بتحول آليات الصراع الدولي، وظهور تكتلات إقليمية ودولية أوجدت شكل صراع جديد في الأهداف، ممثلاً في السعي نحو الاستفادة بأكبر قدر من منافع الانفتاح وحرية السوق وحوافزه، إلا أن المنافسة الشديدة أصبحت تشكل ظاهرة من الصراع المباشر والكامن، ومن مبررات تدفع نحو تغيير في المواقف عند معظم الوحدات السياسية الدولية، مما يترتب عليه، أن العلاقات التاريخية بين الدول باتت في لحظة

وجيزة عرضة للانحلال بسبب التداعيات والمصالح الجديدة، وقد تجد دول التوجه الجديد مرحلياً نفسها غريبة عن فكر ثقافة تشابك المصالح، وهذا ما ينطبق على حاضر الدولة التركية التي وجدت مصيرها يحكم عليه بالعزلة بسبب هويتها الإسلامية وارتباطها بتاريخ حضاري مبني على ثقافة مغايرة في مبادئها وأسسها مقارنة مع ثقافة الغرب، ولعل ما يؤكد هذا ما ذهب إليه "صموئيل هنتغتون" الباحث الأمريكي - صاحب أطروحة صدام الحضارات- بأن على تركيا عدم الوقوف على أبواب أوروبا، لأن أوروبا تنتظر إلى تركيا رغم المحتوى العلماني والديمقراطي لنظامها السياسي- على أنها إسلامية من حيث المجتمع والثقافة والتاريخ وأنها مغايرة لأوروبا حاضراً ومستقبلاً⁽¹²⁾.

وهناك ثمة متغير آخر يرتبط بالتحويلات الدولية الإقليمية المجاورة لتركيا، حيث أدى ظهور جمهوريات آسيا الوسطى والقوقاز الإسلامية وفراغ القوى الإقليمية في المشرق العربي إلى أن تجد تركيا نفسها أنها أمام تحدي مطالب الدور المحوري، والحاجة إلى استثمار الظروف الدولية الراهنة للعب الدور الجديد في السياسة الإقليمية وأن يبني ذلك على منهجية التفاعل مع الوحدات السياسية المجاورة، وعن طريق "الاعتماد المتبادل" خاصة أن اللاعب الرئيسي أمريكا أخذت منحى التراجع في مسارها نتيجة إخفاقاتها العسكرية في منطقة الشرق الأوسط، وتفاقم تحديات الأزمة الاقتصادية المالية، وهذا يعني أن الكثير من الملفات لا بد من إحالتها لقوى إقليمية قوية ومقبولة من الأطراف المعنية لتقوم بإدارتها عنها بالوكالة، لأن الولايات المتحدة تريد تغيير منهج السيطرة المباشرة إلى سيطرة من قبل أحلاف يؤديون أدواراً تخدم زمنيّاً ترتيب الوضع الاستراتيجي الأمريكي الذي تشرذم عسكرياً واقتصادياً خاصة بعد أحداث سبتمبر عام 2001.

أما المتغير الثالث يرتبط بالمقومات الجيوسياسية لتركيا، التي ركز عليها العديد من المنظرين في علم "الجيوبولتكس"، فموقع تركيا الجغرافي الذي يقع في المنطقة الوسطية المتحكمة في منطقة قلب العالم - وكما ذكر "ماكيندر" صاحب نظرية (Heart land)- يؤهلها لكي تصبح دولة محورية وذات تأثير مباشر في المجال الجيوبولتكسي، خاصة وأن تعداد تركيا السكاني يتجاوز (75) مليون نسمة وفقاً لتقدير دائرة الإحصاءات العامة التركية نهاية عام 2009⁽¹³⁾. وهذا يؤهلها للعب دور هام في المجالات العسكرية والاقتصادية والاستراتيجية بشكل عام، كون العنصر البشري والموقع الجغرافي يشكلان عناصر أساسية في تجسيد "نظرية التوازن" مع المحيط الإقليمي (الإيراني والعربي والأوروبي) خاصة وأن تركيا تمتلك كذلك موارد طبيعية هامة مثل المياه والاكتفاء الذاتي بمنتجات الغذاء.

أما المتغير الرابع والأخير، يرتبط بالتطورات ذات العلاقة بالمكون الداخلي لتركيا. فمبادئ الجمهورية التركية الأولى والتي قامت عليها الدولة التي أسسها (أتاتورك) عبارة عن أيديولوجية

علمانية تتصف بالجمود، جعلها فيما بعد بمكانة نقد لأنها لم تفسر الكثير من متطلبات العصر والتماشي مع المتغيرات الداخلية والخارجية في جعلها غير قادرة على دعم مستقبل تركيا المطلوب. وهذا ما دفع مؤسس الجمهورية الثانية (تورغت أوزال) إلى وصف الاستمرار بالعلمانية بالإفلاس الفكري والمادي لتركيا، مما مهد بذلك الطريق لظهور أفكار مايسمى "العثمانيون الجدد" وظهور الجمهورية الثالثة بقيادة "أوردوغان" وتكون بمستوى حاجة المجتمع لنظام سياسي قادر على قيادة الدولة التركية وبكل مقوماتها ومكوناتها وبما يسهم مباشرة في إيجاد حلول للتحديات الداخلية⁽¹⁴⁾، وأن تكون أكثر تفهماً مع متطلبات العلاقات الإقليمية والدولية الراهنة وبما يحقق لتركيا واقعاً استراتيجياً، ودوراً أكثر فاعلية على مستوى النظام السياسي الدولي، وإن يبنى على أسس تحسين القدرة التفاوضية مع الغرب بشكل عام والاتحاد الأوروبي بشكل خاص. وكذلك عن طريق الاستفادة من المشاركة الفاعلة في مناطق مجال الجوار الحيوي الإقليمي باستثمار دبلوماسية وضوح المواقف اتجاه القضايا المتعلقة بتركيا ودول الجوار، خاصة بعد ظهور "سياسة المماثلة" من قبل دول أوروبا الفاعلة لقبول عضوية تركيا في الاتحاد الأوروبي، وتأثر تركيا بتحالفها المعهود مع إسرائيل على حساب علاقات تعود عليها بالمنفعة مع العالم العربي.

إن مجمل العوامل سالفة الذكر، جعلت المحدد الاستراتيجي ذا أولوية أساسية من أولويات الحزب الحاكم في تركيا في تبنيه مواقف ظاهرة توصف بأنها مغايرة لنهج السياسة التركية المتراكم حتى بداية وصول قادة حزب "العدالة والتنمية" إلى السلطة، وهذا بدوره أسهم في ملاحظة تحركات السياسة التركية الخارجية مما يحتم على الدول الكبرى اتباع أساليب قادرة على احتواء التوجهات التركية، شريطة أن تتوافق مع مصالح تركيا الجديدة ودون الأخذ بمبدأ قطبية تركيا، كون سياسة "أوردوغان" مؤيدة مجتمعياً من قبل شريحة واسعة من الأتراك.

ثانياً) المحدد الاقتصادي:

يعتبر العامل الاقتصادي محدداً رئيسياً واستراتيجياً في السياسات الدولية، وأخذ هذا المحدد بازدياد في التوجهات السياسية عند قيادات الدول بشكل عام خاصة بعد بروز ظاهرة العولمة الاقتصادية الدولية بعد الحرب الباردة، وأصبحت الحاكمية الرشيدة تدرك بأن الدولة مهما كانت إمكاناتها الاقتصادية، لا تستطيع أن تعيش بمعزل عن محيطها الدولي كونها بحاجة إلى سد حاجاتها من التبادل التجاري وفتح المجال أمام منتجاتها في الأسواق الاستهلاكية الخارجية، كما أن استمرارية النظام أو تأييده يحدده عامل القدرة على التفاعل الدولي وتوظيف الإمكانات اللازمة بما يخدم فلسفة "الاعتماد المتبادل" وذلك لزيادة المكاسب القادرة على تحسين مؤشرات النمو الاقتصادي. وفيما يتعلق بالجمهورية التركية في ظل سياسة حزب "العدالة والتنمية" نلاحظ أن الحراك السياسي التركي له مغزى اقتصادي، خاصة عند ملاحظة تزايد الناتج القومي الإجمالي

بهدف ليس المحافظة عما هو عليه فحسب، بل بتوظيف كل الوسائل القادرة على استمرارية تنامي مؤشرات نموه. وما يؤكد ذلك وضوح المؤشرات الاقتصادية المتنامية التي تحققت في عهد سلطة حزب "العدالة والتنمية" والتي من الواجب عليها المحافظة على زيادة نمو نسب مؤشراتها سنوياً.

بالرجوع إلى الواقع الاقتصادي الحالي لتركيا، نلاحظ أن الناتج القومي الإجمالي بلغ نحو (900) مليار دولار ونصيب دخل الفرد تجاوز (10000) عشرة آلاف دولار ضمن التقديرات الواردة نهاية عام 2010. وأن تركيا في الناتج الجمالي أصبحت تحتل المرتبة رقم (16) عالمياً، وتبلغ نسبة نمو الناتج المحلي الإجمالي ما متوسطه (7.4%) ما بين الأعوام (2002-2007) وتعتبر بذلك من أسرع الاقتصاديات نمواً في العالم خلال هذه الفترة، ومع ذلك تباطأ نمو الناتج المحلي إلى (4.5%) في عامي (2008-2009) بسبب تأثر الاقتصاد التركي بالأزمة المالية العالمية⁽¹⁵⁾.

يعتمد الاقتصاد التركي على كل من قطاع الصناعة بنسبة (30.8%)، وقطاع الخدمات بنسبة (59.3%)، والزراعة بنسبة (8.9%)، علماً بأن متوسط العمالة في الزراعة حوالي (27.3%)، كما ويشهد قطاع الصناعة نمواً سريعاً في العقد الأخير، ويشكل جزءاً هاماً من الاقتصاد، فعلى سبيل المثال ساهم هذا القطاع بدخل (21.9) مليار دولار في إيرادات تركيا الإجمالية نهاية عام 2009⁽¹⁶⁾. كما وتعتمد تركيا في اقتصادها على العديد من القطاعات الإنتاجية الأخرى، يتمثل أبرزها بإنشاءات البناء، الأجهزة المنزلية، الالكترونيات، المنسوجات، تكرير النفط والمنتجات البتروكيمياوية، الأغذية، والتعدين، الحديد والصلب. وصناعة الآلات والسيارات، وتعتبر سادس أكبر منتج للسيارات في أوروبا، وبمرتبة (15) في الإنتاج بهذا المجال عالمياً. وفي عام 2009 كان ترتيب تركيا في المرتبة رقم (4) عالمياً في مجال بناء السفن بعد كل من (الصين، كوريا الجنوبية، اليابان)⁽¹⁷⁾.

في نهاية عام 2009، انخفض حجم التضخم الاقتصادي إلى (8.2%) والبطالة إلى (10.3%)⁽¹⁸⁾، وذلك نتيجة الإصلاحات الاقتصادية التي قام بها الحزب الحاكم، مما شجعت كذلك على زيادة الاستثمارات الأجنبية. وتستند غالبية الآراء والتقارير بأن الأسباب الرئيسية وراء النمو الاقتصادي في تركيا نتيجة انضمامها كذلك إلى العديد من المنظمات العالمية والإقليمية، حيث حصلت تركيا على عضوية منظمة التجارة العالمية (WTO) عام 1995، وكذلك بسبب التزامها بدمج معايير التجارة الإقليمية والعالمية في مشاركتها عدة منظمات والحصول على عضويتها، كمنظمة التعاون الاقتصادي (ECO) ومؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية (UNTCTAD)، ومنظمة التعاون الاقتصادي لمنطقة البحر الأسود، ومنظمة الرسوم الجمركية العالمية، وغرفة

التجارة العالمية، ومجموعة الدول النامية الثمانية، وغيرها من المنظمات. كما استفادت تركيا من انضمامها الجمركي للاتحاد الأوروبي منذ عام 1995، وتوقيعها للعديد من اتفاقيات التجارة الحرة (FTA) مع كل من المنظمة الأوروبية للتجارة الحرة (EFTA) وجورجيا، إسرائيل، مقدونيا، كرواتيا، البوسنة والهرسك، تونس المغرب، السلطة الفلسطينية، سوريا، مصر، وألبانيا.⁽¹⁹⁾

أما فيما يتعلق بشكل عام في مجال الصادرات والواردات، فقد بلغت الصادات في عام 2009 نحو (132) مليار، كان حصة الدول الأعضاء بالاتحاد الأوروبي من إجمالي الصادات التركية حوالي (50%)، وشهدت الفترة ما بين الأعوام (2010-2002) زيادة ملحوظة من الصادات التركية إلى الدول الأعضاء في التعاون الاقتصادي لمنطقة البحر الأسود (BSEC) ودول منظمة المؤتمر الإسلامي (OIC) ودول الكومنولث (CIS)، ووصل إجمالي قيمة الصادات إلى (67) مليار دولار أمريكي خلال السنوات المذكورة⁽²⁰⁾. أما الدول الأعضاء في منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD) تعتبر من أضخم أسواق الصادات من المنتجات التركية.

خلال السنوات الأخيرة، حققت الصادات التركية ارتفاعاً في دول الشرق الأوسط، فمنذ عام 2003 استفادت تركيا من التجارة مع العراق نسبياً بعد أن رفع الحظر الذي كانت فرضته الأمم المتحدة على الجمهورية العراقية عام 1991، وحققت تركيا من ذلك معدل (4) مليارات دولار سنوياً وبنسبة (3%) من إجمالي الصادات⁽²¹⁾. لذلك جاءت العراق في المرتبة التاسعة لأهم شركاء التصدير إلى تركيا، أنظر الجدول [1-1].

جدول [1-1]: يبين نسبة الدول الأهم كشركاء تصدير للمنتجات التركية عام 2009.*

الدولة	النسبة من حجم الصادات التركية
ألمانيا	9.8%
المملكة المتحدة	6.2%
الإمارات العربية المتحدة	6.0%
إيطاليا	5.9%
فرنسا	5.0%
الاتحاد الروسي	4.9%
الولايات المتحدة	3.3%
إسبانيا	3.1%
العراق	3.0%

* المصدر: معهد الإحصاء التركي (Turk sat)، 2010.

أما الواردات، فقد ارتفعت إلى حوالي (202) مليار دولار وذلك بسبب نظام الاستيراد التركي المبني على الحرية التي تتمتع بها الواردات بموجب التزامها بإكمال الاتحاد الجمركي مع الاتحاد الأوروبي، إلى جانب علاقاتها مع المنظمة الأوروبية للتجارة الحرة وتعهداتها تجاه منظمة التجارة العالمية. ولقد ركزت تركيا بشكل خاص على التزامها بتقليل الرسوم الجمركية لكي تتماشى مع التعرفة الجمركية الموحدة، مما جعلها تقلل من الإجراءات الحكومية الروتينية بهدف تأمين المواد الخام والسلع الوسيطة. وتعتمد تركيا في استيراد احتياجاتها من السلع على كل من روسيا وبنسبة (13,8%)، وألمانيا (10,3%)، والصين (7,8%)، وإيطاليا (6%)، وإيران (3,9%) والنسب المتبقية من الولايات المتحدة وعدد من الدول الآسيوية والأوروبية والإفريقية، وتتراوح بين (0,3%) و(2,7%)⁽²²⁾.

أما بالنسبة للدول العربية فيشكل حجم التبادل التجاري الإجمالي مع تركيا حوالي (22.4) مليار دولار، يقدر حجم واردات الدول العربية منها (14,5) مليار دولار، بينما حجم الصادرات الدول العربية إلى تركيا نحو (7,9) مليار دولار، مما يجعل الميزان التجاري في مصلحة تركيا. ومن الجدير بالذكر أن معظم الدول العربية تستورد من تركيا أكثر مما تصدر من السلع باستثناء كل من البحرين والجزائر والسعودية⁽²³⁾.

أما فيما يتعلق بحصة الديون الحكومية العامة للجمهورية التركية، فقد انخفضت بنسب واضحة خلال السنوات الثمانية الأخيرة (2002-2010)، انظر الجدول [2-1].

جدول [2-1]: يبين حصة الديون الحكومية العامة لتركيا (بالنسبة المئوية من إجمالي الناتج المحلي للسنوات 2002-2010)*.

السنة	النسبة المئوية من إجمالي الناتج الإجمالي
2002	73,7
2003	67,3
2004	59,2
2005	52,3
2006	46,1
2007	39,4
2008	39,5
2009	45,5
2010	42,2

* المصدر: البنك المركزي التركي، 2010

نلاحظ من الجدول أعلاه [2-1] أن السياسة المالية العامة للجمهورية التركية تشير بخطى ناجحة منذ تولي حزب "العدالة والتنمية" سلطاته التشريعية والتنفيذية عام 2002. حيث كانت نسبة حصة الديون الحكومية العامة لتركيا عام 2001 تشكل (77,6%) من إجمالي الناتج المحلي، وتراجعت النسبة إلى حوالي النصف خاصة في عامي 2007 و2008 ونسبة (39,4%) و(39,5%) على التوالي، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب تتعلق بشحن القطاع الاقتصادي وذات العلاقة بالإصلاحات الهيكلية المنفذة، مما أسهم في زيادة مساهمة القطاع الخاص في الاقتصاد التركي، وتحسين كفاءة القطاع المالي وقدرته على التكيف مع المتطلبات الداخلية والظروف الاقتصادية والعالمية، وترسيخ نظام التأمينات الاجتماعية ليقوم على أساس قوي. وهذا بمجمله جعل الاقتصاد التركي أحد أفضل الأنظمة الاقتصادية الأوروبية في التقليل من نسبة الدين الحكومي، انظر الجدول [3-1]، مما يؤكد أهمية المحدد الاقتصادي في توجهات تركيا وعلاقتها الدولية.

الجدول [3-1] يبين نسبة الدين الحكومي لتركيا من الناتج المحلي الإجمالي مقارنة بعدد من دول الاتحاد الأوروبي لعام 2010.*

الدولة	النسبة المئوية للدين من إجمالي الناتج المحلي
تركيا	42,2
اسبانيا	53,2
ايرلندا	64,1
المملكة المتحدة	68,1
البرتغال	76,8
فرنسا	77,5
المجر	78,3
اليونان	115,1
إيطاليا	115,8

* المصدر: مؤسسة الإحصاءات الرسمية للاتحاد الأوروبي [Euro sate]، 2010.

نلاحظ من النسب المئوية الواردة في الجدول [3-1] بأن الجمهورية التركية تتقدم على كافة الدول الأوروبية في القدرة على خفض الدين الحكومي، وأن النسب مرتفعة عند عدد من دول الاتحاد الأوروبي، لدرجة باتت تفوق ديونها الحكومية إجمالي الناتج المحلي، لاحظ كل من اليونان وإيطاليا تشكل النسبة (115,1%) و(115,8%) على التوالي، وأن النسبة عند المملكة المتحدة (68,1%) و(77,5%) عند فرنسا. وهذا سيدفع بمكانة تركيا خاصة عند مراجعة دراسة انضمامها للاتحاد الأوروبي في غضون السنوات المقبلة.

المبحث الثاني: الحزب الحاكم "العدالة والتنمية" والعلاقات التركية الدولية.

(I) تركيا والاتحاد الأوروبي:

لقد مضى أكثر من نصف قرن على تقديم تركيا أول طلب للانضمام إلى المجموعة الاقتصادية الأوروبية عام 1959، وخلال هذه الفترة الطويلة نسبياً مرت أوروبا بتحويلات كبيرة أدت إلى إقامة الاتحاد الأوروبي كتنظيم إداري يجمع بين دولها سياسياً واقتصادياً وجغرافياً وحضارياً وثقافياً، واتسع حتى أصبح يضم (27) دولة، تشكل معاً قوة مؤثرة في الأحداث الدولية والإقليمية، لقد سعت تركيا للدخول في عضوية الاتحاد الأوروبي ووقعت اتفاقية ارتباط تقبل ضمناً ترشح تركيا وذلك عام 1963، وأصبحت تركيا طرفاً في الاتحاد الجمركي الأوروبي عام 1995، وفي عام 1999 وافق الاتحاد الأوروبي على طلب تركيا للترشح لعضويته، وفي عام 2005 انطلقت مفاوضات العضوية قبل أن تتعرض للتوقف عام 2007 استناداً إلى مقولة أن هناك تباطؤاً من تركيا في مسيرة الإصلاحات السياسية وعدم الوصول إلى حلول جذرية لمشكلة قبرص، وبعدها حدد الاتحاد (34) بنداً لتركيا هي بمثابة شروط للانضمام إلى عضويته، علماً أن هناك العديد من الدول التي حصلت على العضوية الكاملة للاتحاد الأوروبي دون أن يوضع أمامها أية صعوبات مثل (بلغاريا، استونيا، لاتفيا) إضافة إلى أن بعض هذه الدول لم تكن موجودة على الخريطة السياسية عندما تقدمت تركيا بأول طلب للعضوية⁽²⁴⁾.

إن هناك العديد من العقبات التي تدركها الحكومة التركية الحالية التي يديرها حزب "العدالة والتنمية" منذ عام 2002، والتي تبقى تحدياً أمام مساعيها نحو الانضمام للاتحاد الأوروبي، منها ما يتعلق ببعدها الحضاري العقائدي، بمعنى أن مسار انضمام تركيا إلى عضوية الاتحاد يتطلب المزيد من الإصلاحات الثقافية والقانونية وبنهج سياسي يعتمد على معايير القدرة على تدويب خصوصية تركيا العقائدية كدولة مسلمة مع باقي دول الاتحاد، وهذا يعني أن على مسألة الهوية التركية المنبثقة عن محدداتها الحضارية أن تنحى الحكومة بتوجهاتها وخياراتها نحو تدويب شخصية مكونات الدولة التركية بما ينسجم مع ثقافة مكونات دول الاتحاد. ومن هنا أدركت الحكومة التركية بأنه من المستحيل بالنسبة لتركيا إثبات انتمائها إلى أوروبا حضارياً وثقافياً، كون الإسلام السياسي منهجه الانفتاح وليس الانخراط الكلي، وما يؤكد ذلك ما قاله الرئيس الفرنسي السابق (فاليري ديستان) "بأن دخول تركيا الاتحاد سيكون نهاية الاتحاد"، مما دعا رئيس الوزراء التركي (رجب اردوغان) إلى القول "بأنه في كل الأحوال لن تغير تركيا دينها من أجل الدخول في الاتحاد الأوروبي"⁽²⁵⁾.

وقبل استعراض أبرز الأسباب الأخرى التي ما زالت تعيق عضوية تركيا في الاتحاد الأوروبي، هناك ثمة تحديات عامة باتت تواجه سياسة دول الاتحاد الأوروبي في الوقت الراهن وهي بمثابة قلق وبحث مستمر عن وسائل قادرة تدفع نحو التخفيف من أدوارها وأثارها المتزايدة، تتعلق بمواضيع دولية وأخرى داخل مكونات النظام للوحدات السياسية عند دول الاتحاد، تنعكس بشكل أو بآخر على تلبية احتياجات الأفراد والمؤسسات الوطنية الأوروبية، وتستأثر من صناعات القرار والسياسة العامة باستخلاص النهج اللازم لمعالجة مدخلات بوسائل عملية تحقق مخرجات الغاية المرادة، ومن أبرز هذه التحديات التي تواجه دول الاتحاد الأوروبي والتي تؤثر على توجهات الاتحاد في رسم علاقاته الدولية بما في ذلك علاقته مع الدولة التركية:-

1. تصاعد المنافسة التجارية العالمية، خاصة القادمة من آسيا كالصين، وماليزيا، وتايوان، وكوريا..إلخ.
2. القصور المحتمل في تأمين موارد الطاقة التي أصبحت تدخل في شتى القطاعات الإنتاجية والخدماتية.
3. تصاعد موجة التطرف تجاه بعض الأقليات في أوروبا، مما نتج عنها توسيع الفجوة بين الأوروبيين بثقافتهم ودياناتهم المختلفة وبين المسلمين داخل أوروبا وفي العالم⁽²⁶⁾.
4. المشكلات المستعصية والملتهبة في منطقة الشرق الأوسط. حيث أن تحدي المشكلات الشرق أوسطية، وفي مقدمتها الصراع العربي الإسرائيلي، وما نتج عن احتلال كل من العراق وأفغانستان - بالإضافة إلى التخوف من مستقبل إيران- كلها مسائل أساسية دفعت بتفكير الأوروبيين إلى أن مصالحهم معرضة للخطر والتهديد، وأن المساعدة في إيجاد وتقوية دولة إسرائيل لتقوم بمهمة تأمين المصالح الأوروبية والغربية في المنطقة، جميعها أخرجت معطيات أدت إلى عكس ذلك، فالتأثر والتوتر وحالة عدم الاستقرار لا تخدم الوصول للموارد وتسويقها.
5. كما أن عامل الإدراك بأن القوة العسكرية لم تعد قادرة على تحقيق المصالح والوصول إلى الغايات المرادة، مما يعني أن حلف الناتو في أفغانستان والاحتلال الأمريكي للعراق واستخدام القوة (الخشنة) لم تحقق نتائج إيجابية، وهذا يستلزم من السياسة الأوروبية وضع خطط جديدة ووسائل مرنة للتعامل مع واقع الأمور أو أية إحداثيات مستقبلية بغض النظر عن حجم الدول وانسجام أنظمتها السياسية مع الغرب⁽²⁷⁾.

إن الأسباب سالفة الذكر، وعلى الرغم من أولوياتها وأهميتها، إلا أن هناك العديد من الأسباب التي يعلل بها العديد من قادة دول الاتحاد الأوروبي موقفهم غير الإيجابي من مسألة انضمام تركيا للاتحاد، منها ما هو مرتبط بالذهنية التي رسمت نتيجة الخلفية التاريخية لتركيا،

وبهويتها الإسلامية وإرثها العثماني، ومنها متعلق بمسألة حق الأقلية الكردية في تركيا وحقوق الإنسان وهامش الحريات العامة والمسألة القبرصية. إلا أن ثمة أسباباً أخرى وأبعاداً خفية وراء تعثر المفاوضات التركية مع الاتحاد، يسهم في إثارتها نفوذ اللوبي اليهودي المتغلغل في أجهزة صناعة القرار في أوروبا، حيث يعمل اللوبي اليهودي بكل طاقاته على عرقلة جهود التفاوض أحياناً وفي الوصول إلى الاعتذار عن قبول عضوية تركيا، لأن اليهود والقيادات السياسية الإسرائيلية يعتبرون بأن أي تقارب بين تركيا ودول الاتحاد سيكون على حساب المصالح الإسرائيلية. وفيما يلي أهم الأسباب الرئيسية الكامنة التي تجعل من دول أوروبا مترددة في التعامل مع مسألة انضمام تركيا للاتحاد الأوروبي⁽²⁸⁾:-

1. الإسلاموفوبيا أو العثمانوفوبيا الموجودة عند الأوروبيين. لدرجة أن الأوروبيين يعتبرون تركيا على الرغم من علمانيتها ما هي إلا امتداد جديد لدولة الخلافة الإسلامية، وهذا يجعلهم متخوفين بذلك على مستقبل الاتحاد الأوروبي، وحيث إن الهوية الإسلامية للشعب التركي قد يكون لها تأثير على سكان الدول الأوروبية، لاسيما وأن دراسات كثيرة - خاصة بعد أحداث سبتمبر/2001- أشارت إلى أن هناك تزايداً كبيراً ومضطرباً من قبل المعتقدن للدين الإسلامي والمطلعين عليه في معظم الدول الأوروبية خاصة في ألمانيا، وفرنسا، وبلجيكا، وهولندا، وبريطانيا وهي الدول التي تعتبر رئيسية ومحورية في الاتحاد الأوروبي. وهذا من شأنه أن يخلق الخوف من أن تتبوأ تركيا مركزاً قيادياً داخل الاتحاد بصفتها الإسلامية، وربما تصبح مرجعية لجميع المسلمين في الاتحاد الأوروبي وتتبنى بهذا مطالبهم ويصبون بالتالي جهودهم لصالحها.
2. العنصر الديمغرافي لتركيا المتمثل بما يزيد عن (75) مليون نسمة وهو ما يعطي تركيا ثقلاً كبيراً على الصعيد البشري ويؤدي في حال انضمامها إلى الاتحاد الأوروبي إلى السيطرة على سوق العمالة من جانب، والتغلغل في الدول الأوروبية التي تعاني من نقص في السكان أصلاً مما يؤدي كذلك إلى تغيير في المعادلات الداخلية للدول الأوروبية من جانب آخر.
3. النمو التركي المتسارع في كافة النواحي الاقتصادية والإنتاجية، مما يمكن جعلها- وبفضل موقعها الجغرافي الذي يصل الشرق بالغرب - مركزاً لاستقطاب الاستثمارات الأوروبية على حساب دول شرق أوروبا المنضمة بطبيعة الحال إلى الاتحاد الأوروبي، والتي تعاني من سوء أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، وهذا يؤدي إلى إيجاد خلل في تنمية أوروبية متوازنة.
4. قدرة تركيا على التنافسية في الصناعات الخفيفة، فتركيا لا تملك مصانع ضخمة وثقيلة كصناعة الدبابات والطائرات، إلا أنها قادرة على التنافسية مع الصناعات الأوروبية- وبدرجة عالية - خاصة فيما يتعلق بصناعات النسيج والملابس والألعاب والمشروبات وغيرها، وهذا

يدفع بالدول الأوروبية نحو عرقلة دخول تركيا الاتحاد للإبقاء على تركيا سوقاً لها وليس منتجاً لسوقها.

مع أن هذه الأسباب سالفة الذكر، مبنية على معطيات موضوعية إلا أن رفض ضم تركيا للاتحاد الأوروبي لن يعلن بطريقة مباشرة عبر المسؤولين الرسميين، لأن ذلك من شأنه أن يؤدي إلى مضاعفات سلبية خطيرة خاصة وأن تركيا تملك الكثير من الأوراق التي تستطيع أن تستخدمها فيما بعد في حال رفضها وبدون تقديم مبررات مقنعة، أبرزها الموقع الاستراتيجي لتركيا ودورها الإقليمي وهويتها الإسلامية، لذلك قد يلجأ الاتحاد الأوروبي إلى طريقة بديلة منها:

1- إعطاء منصب فخري لتركيا في الاتحاد الأوروبي دون اعتبارها شريكاً كاملاً وهو ما لن ترضى تركيا به خاصة بعد الجهود الكبيرة التي بذلتها في سبيل نيل العضوية الكاملة.

2- إجراء استفتاء شعبي لدى بعض بلدان الاتحاد الأوروبي لتحديد رأيهم في قبول أو رفض تركيا، مع علمهم المسبق بأن الاستفتاء سيؤدي إلى رفض دخول تركيا الاتحاد لأسباب نفسية وتاريخية راسخة في ذهنية الشعوب الأوروبية، وبذلك ترفع المسؤولية عن الحكومات بحجة أن الشعوب لا ترغب بدخول تركيا الاتحاد. وهذا ما أكدته عدد من التقارير الأولية بأن غالبية الفرنسيين مثلاً يرفضون انضمام تركيا للاتحاد الأوروبي، إذ يعارض (56%) من الفرنسيين فكرة انضمام تركيا مقابل ما نسبته (31%) ممن يوافقون على الانضمام⁽²⁹⁾.

وبالرجوع إلى دور الحزب الحاكم في تركيا اتجاه الموقف الأوروبي من انضمام تركيا لعضوية الاتحاد بأنه يتعامل مع مسارين متلازمين في آن واحد، وهما:

أولاً: الاستمرار في السعي نحو الوصول لعضوية الاتحاد الأوروبي مهما كانت التحديات، والتماشي سلوكياً مع متطلبات العضوية، لأن إسقاط الخيار يعني التخلي عن عقود من الجهد السياسي، وأنه يمكن توظيف وسائل جديدة وبجهود أكثر مما هو عليه، خاصة من قبل الضغط الأمريكي على أوروبا لقبول عضوية تركيا في الاتحاد، لأن ذلك قد يسهم في إضعاف توجهات بعض الدول المحورية في شرق أوروبا وشرق آسيا كروسيا وإيران.

ثانياً: التأسيس لدولة إقليمية مركزية في الدائرة الحضارية الإسلامية، من خلال تقوية علاقات تركيا مع الدول العربية وإيران ودول آسيا الوسطى، وهو ما يعني التخلص تدريجياً من تجايزه العقلية التركية للعضوية الأوروبية. أن هذا المسار الذي تأخذ به قيادة "حزب العدالة والتنمية" يؤمن بنظرية تحويل تركيا من دولة "الأطراف" إلى دولة مركزية، وشهدت بذلك تركيا تغييرات كبيرة في الداخل على شكل تحولات تدريجية في "أسلمه" الدولة والمجتمع، وعلى المستوى الإقليمي كذلك هناك ثمة انفتاح كبير على الدول العربية والإسلامية مقابل التراجع في وتيرة العلاقات التحالفية مع الولايات المتحدة، إضافة إلى توتر في العلاقة مع

إسرائيل خاصة بعد احتلال الولايات المتحدة للعراق والحرب الإسرائيلية على كل من لبنان عام 2006 وعلى قطاع غزة عام 2008. إلا أن هذا بمجمله ليس بالضرورة أن يؤثر على مستقبل نيل عضوية تركيا للاتحاد الأوروبي خاصة عندما يتولد إحساس لدى الدول الأوروبية في النتائج المترتبة من إخراج تركيا من دائرة أهداف الاتحاد وتوجهاته، وعند تولد حاجة الأخذ بسياسة المصالح العامة لدول الاتحاد عن طريق "الاعتماد المتبادل" من جانب، وضرورة الشراكة مع تركيا في تحقيق الأمن والاستقرار في منطقة البلقان والشرق الأوسط والقوقاز من جانب آخر.

(II) العلاقات التركية الأمريكية:

في ظل سلطة "حزب العدالة والتنمية" منذ عام 2002، شهدت العلاقات بين تركيا والولايات المتحدة حالة غير معهودة مقارنة مع عقود سابقة من العلاقات الاستراتيجية والتعاون الوثيق خاصة في فترة الحرب الباردة، التي لعبت تركيا من خلال عضويتها في "حلف الناتو" الدور الحاجز لأهداف النظام السوفيتي في امتداد نفوذه الشيوعي خاصة تجاه المشرق العربي ودول أوروبا الوسطى وشرق آسيا. وبالرجوع إلى الأحداث البارزة التالية والتي أسهمت في تأكيد جوانب اختلاف المواقف بين تركيا والولايات المتحدة، يمكن على ضوءها معرفة واقع سير العلاقة التي حددتها الحكومة التركية بزعامة كل من رئيس الجمهورية التركي (غول) ورئيس الوزراء (أوردغان):-

- موقف الولايات المتحدة من إقامة دولة كردية في شمال العراق وهو ما تعارضه تركيا. فم منذ اندلاع أزمة الخليج الثانية عام 1990، قام الرئيس الأمريكي (جورج بوش) آنذاك بتشجيع الأكراد على الثورة ضد نظام الرئيس العراقي الراحل (صدام حسين)، وبدأت بذلك فكرة إقامة دولة كردية شمال العراق بتأييد أمريكي، مما جعل الأكراد يستغلون فترة الحظر الجوي الأمريكي - البريطاني على شمال العراق والتي استمرت لأكثر من عقد، حيث نشط الحراك السياسي الكردي واستطاعوا- الأكراد- كذلك امتلاك أسلحة قتالية عززت إمكانية قدرتهم على التمرد والمطالبة في الانفصال. كما ونتيجة للحظر الجوي خسرت تركيا الكثير من المنافع بسبب إغلاق خطوط الأنابيب العراقية الممتدة عبر تركيا وتأثرت كذلك التجارة التركية مع العراق، كما وأصبح الأكراد في تلك الفترة يحصلون على نسبة (13%) من قيمة صادرات النفط العراقية وفقاً لاتفاقية النفط مقابل الغذاء، مما دفعهم فيما بعد إلى المطالبة بمزيد من حقوق النفط في شمال العراق والسيطرة عليها⁽³⁰⁾.

- إجماع تركيا عن الموافقة على نشر (62) ألف جندي أمريكي في الأراضي التركية لفتح جبهة من الشمال في الحرب على العراق عام 2003، مما غير الاستراتيجية العسكرية الأمريكية

الأولى التي خطط على ضوءها العسكريون الأمريكيون لدخول بغداد من شمال العراق وعبر الحدود التركية. علماً أن تركيا أعطت موافقتها لنشر قوة عسكرية أمريكية تتراوح بين (10-20) ألف جندي أمريكي، وإلى (150) خبيراً أمريكياً لتفقد الموانئ والقواعد الجوية للعمل على تقديم تقارير لما تحتاجه عند نشوب الحرب وبعدها⁽³¹⁾.

- فشل الولايات المتحدة في مواجهة ما يسمى الإرهاب، وتصدير الإرهاب للحدود الجنوبية لتركيا نتيجة توفير ملاذ أمن لحزب العمال الكردستاني، واعتقاد تركيا بأن الأكراد باتوا يقاتلون الجيش التركي بأسلحة أمريكية.

- عدم وجود ضغط ملموس من قبل الولايات المتحدة على الدول الأوروبية الفاعلة لقبول عضوية تركيا في الاتحاد الأوروبي، مع اعتقاد السلطة السياسية التركية الحاكمة بأن أمريكا قادرة في التأثير على العديد من الدول الأوروبية ذات العلاقة لما تتمتع به من علاقة تعاونية جيدة معها، وأن على أمريكا أن تقدر مواقف تركيا التاريخية خلال الحرب الباردة ليكون ضغطها على دول الاتحاد الأوروبي بمثابة تعبير عن مصداقية أبعاد التحالف مع تركيا.

- كما تأثرت العلاقة التركية - الأمريكية في عهد سلطة "حزب العدالة والتنمية" نتيجة قرار لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب الأمريكي الذي تبناه (22) نائباً من أصل (23) عضواً في اللجنة عام 2009 بخصوص "إبادة الأرمن" في عهد الخلافة العثمانية خلال الفترة 1915 - 1923، مما شكل توتراً بين تركيا والولايات المتحدة استدعت تركيا جراء ذلك سفيرها للتشاور واعتبرت ذلك تدخلاً مغرضاً في شؤون تركيا الداخلية⁽³²⁾.

- سياسة الولايات المتحدة غير المعتدلة في منطقة الشرق الأوسط، حيث تعتبر تركيا الولايات المتحدة حليفاً لإسرائيل على حساب الاستقرار في المنطقة، لذا ترى تركيا بأنه يتعين على أمريكا أن تراجع علاقاتها الاستراتيجية وتستخدم كافة الوسائل للضغط على إسرائيل لتسوية الصراع العربي الإسرائيلي، كما وأن موقف الولايات المتحدة تجاه أنشطة إيران النووية لا بد كذلك أن يتساوى مع مطالبة إسرائيل بالتخلي عن أسلحتها النووية.

- تفهم قادة "حزب العدالة والتنمية" لاحتياجات الولايات المتحدة استراتيجياً من الدور التركي، حيث ما زالت الولايات المتحدة تحتاج أكثر مما مضى، لكي تلعب تركيا دوراً جديداً مشتركاً جيوسياسياً في كل من أوروبا والشرق الأوسط وأفغانستان، مثل الدور في جمهوريات وسط آسيا المتمثل في خط النقل النفطي من منابع النفط في أذربيجان في بحر قزوين عبر جورجيا إلى ميناء "جيهان" التركي بطول (1750) كلم وبدعم أمريكي مباشر، لحرمان روسيا وإيران من المرور عبر أراضيها⁽³³⁾. فضلا عن ارتباط تركيا بحلف "الناطو"

ورغبة أمريكا في الدعم التركي لاستمرار التصدي للتحديات في أفغانستان وباكستان والعراق والشرق الأوسط بشكل عام، لأن هذه المنطقة بالإضافة إلى منطقة القوقاز تعتبر مناطق حيوية لمصالح الولايات المتحدة، كما وأن تركيا تسهم في تهدئة النزاع مع إيران سواء في مسألة البرنامج النووي الإيراني، أو بمساهمة إيران في ترتيب الأوضاع الأمنية والمستقبلية في كل من أفغانستان والعراق.

- وفيما يتعلق بالعلاقات مع جمهورية روسيا الاتحادية، عملت تركيا على تحسين روابطها الاقتصادية مع روسيا المنافس القديم والجديد - للولايات المتحدة الأمريكية والتي تلعب دوراً حيوياً في المنطقة الإقليمية لتعزز مكانتها وتعيد شبح الحرب الباردة إلى العلاقات الدولية. وهذا ما يترك قلقاً عميقاً لدى الإدارة الأمريكية من عودة النفوذ الروسي إلى المنطقة خاصة بعد أن كانت ملامح الحرب الباردة وما زالت تلوح في الأفق. لذا فإن حاجة الولايات المتحدة إلى تركيا لها علاقة مباشرة للإبقاء على الشراكة التعاونية لمواجهة التوجهات الروسية في المنطقة وخاصة منطقة القوقاز، وهذا يعني أن السلطة التركية الحاكمة تدرك احتياجات الولايات المتحدة لتركيا في مواجهة روسيا المنافسة لأمريكا وأن تركيا تشكل أفضل حليف استراتيجي في الشرق الأوسط لمقاومة هذا التحدي.

(III) العلاقات التركية - الإسرائيلية:

تأسست العلاقات بين تركيا وإسرائيل منذ عام 1949، عندما أصبحت آنذاك -تركيا- ثاني بلد ذات أغلبية مسلمة بعد إيران تعترف بدولة إسرائيل. ومنذ ذلك الوقت، باتت إسرائيل هي المورد الرئيسي للسلاح لتركيا، وحققت حكومة كل من البلدين تعاوناً هاماً في المجالات المختلفة [العسكرية، والدبلوماسية، والاستراتيجية، والاقتصادية]، فمع نهاية الخمسينيات من القرن المنصرم وقعت المؤسسة العسكرية التركية مع نظيرتها الإسرائيلية اتفاقاً سرياً لتبادل المعلومات الاستخباراتية سمّاه الجانبان اتفاق مواجهة (الإرهاب والحركات التخريبية). كما وسمحت تركيا وبشكل يكرس لأجهزة الأمن الإسرائيلية بالعمل في الأراضي التركية. وفي السبعينات اتفق الجانبان على تعزيز التعاون لمراقبة الوضع في لبنان، وبعدها ازدادت زيارات القادة العسكريين والأمنيين الإسرائيليين لتركيا، كما أبدت تركيا في فترة الثمانينات جاهزيتها لزيادة أوجه التعاون مع إسرائيل. وفي منتصف التسعينيات وتحديداً في عام 1995، كانت هناك العديد من الزيارات المتبادلة من قبل المسؤولين من كلا البلدين، وتوجت فيما بعد بزيارة الرئيس التركي آنذاك (سليمان ديميريل) إلى إسرائيل، فكانت أول زيارة يقوم بها رئيس تركي إلى إسرائيل، وتم خلالها التوقيع على اتفاقيات اقتصادية مهمة كاتفاقية التجارة الحرة، إضافة إلى اعتماد اتفاق استراتيجي أممي وقعه مسئولون عسكريون إسرائيليون وأتراك يحتوي على أبرز المسائل التعاونية التالية⁽³⁴⁾:

1. السماح لإسرائيل باستخدام الأجواء والأراضي والمطارات التركية في عمليات تدريبية.
 2. التنسيق الاستخباري بين الجانبين في جمع المعلومات وخاصة عن سوريا وإيران.
 3. الاستفادة التركية من خبرة إسرائيل وخبرائها في مكافحة حزب العمال الكردستاني وخاصة عملياته في المدن.
 4. تقدم إسرائيل إلى تركيا خبراتها في مجال الصناعة العسكرية والتكنولوجية المتطورة لتحديث الطائرات التركية المقاتلة.
- وفيما يتعلق باتفاقية التجارة الحرة التي وقعت بين الجانبين عام 1995، فقد احتوت على أوجه التعاون الاقتصادي ضمن ما ورد في البنود التالية⁽³⁵⁾:

1. إزالة الحواجز الجمركية بين البلدين.
2. العمل على تنمية حجم التبادل التجاري بين الجانبين ليتجاوز ملياري دولار بدلا من (363) مليون دولار متوسط قيمة ما وصل إليه التبادل التجاري آنذاك.
3. تمنح إسرائيل تركيا جزءا من حصتها في أسواق الولايات المتحدة في مجال صناعة النسيج وهي نسبة (35%) بعد أن تعتمد الشركات الإسرائيلية إلى تصنيع الأنسجة في تركيا من أجل تصديرها إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

أما في عهد حزب "العدالة والتنمية" الحاكم لتركيا منذ عام 2002، توصف العلاقات بين تركيا وإسرائيل بالتأرجح وذلك لعدة أسباب:-

1. رفضت الحكومة التركية في أيلول عام 2003 طلب رئيس الحكومة الإسرائيلية آنذاك زيارة أنقرة، مما دفع شارون إلى مطالبة يهود تركيا بالمغادرة خاصة بعد أستهداف معبد يهوديين في التفجيرات التي حصلت في اسطنبول في تشرين ثاني/2003⁽³⁶⁾.
2. موقف تركيا الرفض للحرب الإسرائيلية على لبنان عام 2006.
3. استنكار الحكومة التركية لكافة الأعمال الاغتيالية لقيادات حركة حماس.
4. موقف تركيا الرفض كذلك بشدة للحرب الإسرائيلية على قطاع غزة في نهاية عام 2008 وبداية عام 2009 وما ترتب عليه من وصف إسرائيل بأنها دولة عدوانية وإرهابية من قبل رئيس الوزراء التركي (أردوغان)، وانسحابه من متابعة المشاركة في منتدى (دافوس) بسويسرا.

5. اعتداء إسرائيل على أسطول الحرية في 31-أيار-2010، والذي يتكون من ست سفن منها ثلاث تتبع مؤسسة الإغاثة الإنسانية التركية، وتحمل جميعا مواد إغاثة ومساعدات إنسانية، إضافة إلى نحو (750) ناشطا حقوقيا وسياسيا وإعلاميا ومعارضين للحصار الإسرائيلي

المفروض على قطاع غزة منذ عام 2007، حيث قامت القوات الإسرائيلية بالهجوم على الأسطول في المياه الدولية مما أدى إلى مقتل (19) فردا وإصابة (26)، واعتبرت تركيا ذلك الهجوم بداية لعلاقات متعثرة مع إسرائيل.

6. التقارب التركي - السوري، والذي تعتبره إسرائيل خطوة خطيرة نحو تشكيل تحالف خطير قد يضر بسياساتها المستقبلية، وخاصة بعد الخطوة الأخيرة التي فتحت الحدود بين الدولتين (تركيا-سوريا) عام 2009⁽³⁷⁾.

7. الرفض التركي القاطع لإمكانية استخدام إسرائيل أو الولايات المتحدة لضرب إيران من خلال استخدام أراضيها، وقد تطور الموقف لاحقا لتعلن (تركيا) أنها ستتصدى عسكريا لأيّة طائرة قد تخترق أجواءها لضرب إيران.

8. طلب تركيا من إسرائيل عدم المشاركة في المناورات التي تجري بين دول حلف شمال الأطلسي بمشاركة جيوش دولية صديقة للحلف، مما أدى إلى إلغائها لاحقا بسبب امتناع الولايات المتحدة وإيطاليا عن المشاركة.

ومع أهمية الإشكالات التي تعترض علاقة تركيا مع إسرائيل خلال حكم حزب "العدالة والتنمية"، إلا أن هناك العديد من المؤشرات التي تؤكد جانبا من الحرص على إبقاء علاقات متزنة من قبل تركيا تجاه إسرائيل، يتمثل أهمها بما يلي:-

- ما زال التبادل التجاري والتعاون الاقتصادي بين البلدين في حالة متزايدة، حيث وصل في نهاية عام 2009، إلى (3) مليارات دولار لكل منهما، وأن إسرائيل استثمرت في العامين الماضيين نحو (500) مليون دولار في تركيا⁽³⁸⁾.
- وجود لجان فنية مشتركة بين تركيا وإسرائيل، حيث تبحث موضوع المياه الفائضة في تركيا والشحيرة في إسرائيل، ويرأس الفريق الإسرائيلي في اللجنة مدير مكتب رئيس الوزراء الإسرائيلي ووزير الطاقة عن الجانب التركي.
- زيادة عدد السياح الإسرائيليين لتركيا، حيث زادت نسبتهم عام 2008 عن (41%) مقارنة مع عام 2006، حيث قدر عددهم النصف مليون خلال عام 2008⁽³⁹⁾.
- على الرغم من أثر التعديلات الدستورية التي حدثت من صلاحيات المؤسسة العسكرية التركية في الحياة السياسية، والتي كان الجيش التركي أهم عناصر اللعبة التي اعتمد عليها الإسرائيليون وأتباعهم في الداخل يراهنون عليها ضد أي حكومة لا تتعاون معهم، إلا أن البعض يعتبر أن التوسط التركي بين سوريا وإسرائيل عن طريق المفاوضات غير المباشرة والتي جرت عامي 2007 و2008، يهدف إلى جعل سوريا ضمن دول الاعتدال العربي

للتعامل مع إسرائيل، ويأتي هذا بمجمله نتيجة لأدوار العسكريين السرية في المؤسسة العليا التركية.

- قبول عضوية إسرائيل في منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي الذي عرض على الدول الأعضاء في شهر أيار عام 2010، على الرغم من كل الجهود التي بذلتها منظمات حقوق الإنسان والمنظمات الفلسطينية من أجل الحيلولة دون حصول إسرائيل على عضوية المنظمة. علما بأن تركيا كانت كفيلا برفض عضوية إسرائيل بناء على الميثاق التأسيسي لمنظمة التنمية والتعاون الاقتصادي الذي يمنح للدول الأعضاء المؤسسين حق النقض "الفيتو" في قبول عضوية الدول الجدد⁽⁴⁰⁾، والجدير بالذكر هنا أن الشراكة في هذه المنظمة يترتب عليها عدم مقاطعة أي من الدول الأعضاء لبضائع أي عضو في المنظمة.

وأخيراً، يمكن القول بأن العلاقات التركية الإسرائيلية تنطلق من حقيقة لا يمكن دحضها، بأن الحرص يبقى موجوداً عند الجانبين لإبقاء التوتر في العلاقات ضمن حدود معينة حتى لا يتسع ويترك أثراً يضر بالعلاقات التاريخية التي ارتبطت بها مصالح كل منهما.

(IV) العلاقات التركية العربية:

اتسمت العلاقات التركية -العربية منذ عقود بالسلبية وبرز العديد من الخلافات بين توجهات وسياسة الجانبين. كما وساد التوتر العلاقات في كافة المراحل التاريخية في القرن العشرين، ويرجع ذلك إلى العديد من العوامل الأيديولوجية التاريخية والسياسية، حيث ترى شريحة واسعة من العرب؛ بأن هناك نزعة استعلائية تعتبر سمة في السياسة التركية في أغلب سلوكياتها، مما ترتب عليه فجوة في التوافق والانسجام على الرغم من القواسم الحضارية المشتركة بين الأتراك والعرب. بالإضافة إلى أن الإمبراطورية العثمانية وسيطرتها على العالم العربي لأربعة قرون - من وجهة نظر الكثير من العرب- كان نتاجها التخلف الحضاري والتقني للأمة العربية، وهذا ما دفعهم للتحالف مع الغرب للتخلص من الاضطهاد والاستبداد العثماني في ظل إمكانيات معدومة وقدرات غير متكافئة، مما أدى إلى استعمار أوروبي وغربي جديد أدى بهم إلى التجزئة. وبعد قيام دولة تركيا الحديثة بقيادة "أتاتورك" وحتى نهاية القرن العشرين، بقيت حالة عدم الانسجام العربي مع تركيا واضحة وذلك لعدة أسباب مادية أهمها:-

- المساومة التركية مع الدول الغربية تجاه دول المشرق العربي في قضية انتزاع لواء الاسكندرونه عن سوريا عام 1938، والمحاولة في ضم مدينة الموصل العراقية- آنذاك- إلى تركيا⁽⁴¹⁾.

- تجلي التوتر بين تركيا والعرب في اعتراف تركيا بإسرائيل عام 1949، وتبادل العلاقات الدبلوماسية معها على مستوى السفراء، والقيام بالعديد من توقيع الاتفاقيات العسكرية

والتجارية والمالية مع دولة إسرائيل، في الوقت الذي كانت فيه القضية الفلسطينية الأحوج لوقفه الدول الإسلامية معها.

- انضمام تركيا المبكر إلى حلف شمال الأطلسي (الناتو) عام 1951، مما دفع بتركيا إلى تأسيس مشاريع غربية وأحلاف غربية في المنطقة مثل حلف بغداد، والسنتو، وممارسة سياسة قوامها الضغط والاستفزاز مما أسهم في حالة عدم استقرار الدول العربية.

- حشود القوات العسكرية التركية على الحدود السورية كما حصل أثناء العدوان الثلاثي على مصر عام 1956، وكذلك عام 1957 عندما أعلنت الوحدة بين سوريا ومصر، وتكررت الحشود أثناء إنزال القوات الأمريكية في لبنان، لنقل القوات الأمريكية من قاعدة "أنجريك" التركية مباشرة.

- توقيع العديد من التحالفات الاستراتيجية والعسكرية الجديدة بين تركيا وإسرائيل، مثل اتفاقية التحالف الأمني عام 1994، والتحالف الاستراتيجي عام 1996⁽⁴²⁾، إضافة إلى التعاون في المناورات البحرية والجوية المشتركة التي امتدت حتى عام 2008.

- بروز علاقات خلافية ذات علاقة بمشكلة المياه مع سوريا، وقضية الأكراد شمال العراق.

على الرغم من أهمية الأسباب الواردة، وما نتج عنها من قلق وحذر عربي اتجاه تركيا، إلا أن الحرص على عدم الاصطدام مع تركيا على خلفية هذه القضايا ظل مستمراً، وبقيت ثقافة العلاقة العربية تفرض مسيرتها، مرتكزة على النهج، وعلى أن تبقى علاقة مع دولة إسلامية ومع دولة جوار إقليمي هامة، وأن عصر التكتلات والتكاملات يفرض بناءً فضاءً إقليمياً، خاصة إذا تعزز بالانسجام السياسي وتوفير الموارد والطاقات الهائلة في إقليم أخذت تتضافر الجهود لاحترام معنى الاستقرار والعمل المشترك، خاصة بعد أن أخذت السياسة التركية منحى جديداً في تحسين العلاقات التركية العربية منذ مجيء قيادة حزب "العدالة والتنمية" لتركيا وذلك نتيجة العديد من التداعيات الدولية والإقليمية، وأصبحت تركيا تنظر بجدية إلى مسألة إقامة علاقات متوازنة مع الدول العربية وذلك بسبب رفض الاتحاد الأوروبي لعدة مرات انضمام تركيا له، وما ترتب من أحداث دولية في منطقة الشرق الأوسط أثرت على واقع ومستقبل تركيا مع الدول الكبرى في المنطقة، مما جعل السلطة الحاكمة في تركيا تكثف زياراتها الرسمية إلى العديد من الدول العربية لبناء الثقة وإقامة علاقات إيجابية بين الطرفين، مما ساهم في بناء الثقة والتوافق في الحاجة إلى التقارب والتعاون من جهة، وخلفية حزب "العدالة والتنمية" الإسلامية من جهة أخرى. وبشكل عام يمكن تلخيص أهم العوامل الأساسية التي أسهمت في بناء جسور التعاون بين تركيا والعرب في ظل سلطة "حزب العدالة والتنمية" بما يلي:

- 1- موقف البرلمان التركي الذي رفض وضع الأراضي التركية تحت تصرف القوات الأمريكية لشن الحرب على العراق عام 2003، والذي تزامن مع فتور في العلاقات التركية مع كل من الولايات المتحدة وإسرائيل.
 - 2- انسجام الرؤى التركية مع الدول العربية في التمسك بوحدة العراق والحفاظ على مستقبله، وهو ما لا يتفق مع تطلعات كل من أمريكا، وإسرائيل، وبريطانيا، على اعتبار وجود وعي مشترك بأهمية إفسال المخططات والمشاريع الاستعمارية الجديدة في المنطقة.
 - 3- بناء الثقة الأيديولوجية مجدداً من قبل الشعوب العربية والشعب التركي، وذلك بسبب وجود المتغير الداخلي التركي نتيجة توجه سلوك الشعب التركي للإسلام على اعتبار أن دوره بات بارزاً في الحياة السياسية وعلاقاته بالدولة، فضلاً عن أن تركيا أعطت نموذجاً تطبيقياً في حل إشكالية التوافق الفكري الديني بين التقليدية والحداثة، وبين الدين والعلمانية.
- وبالرجوع إلى العوامل المتعلقة بتركيا في نهجها الجديد في التوجه إلى تحسين علاقاتها مع العرب منذ تولي حزب "العدالة والتنمية" السلطة عام 2002، نجد أنها ترجع إلى ما يلي:
- 1- أن النخبة التركية المؤيدة للغرب، والتي أشرفت على السياسة الخارجية التركية وأدارتها خلال فترة الحرب الباردة، قد انحسرت تدريجاً وحلت بدلاً منها نخبة محافظة توصف بأنها أكثر تديناً وأقل قومية، ينتابها التشكيك في سياسة الدول الغربية، وتعتز بحضارتها والرغبة لديها في إحياء موروث "تركيا العثمانية"⁽⁴³⁾.
 - 2- الإشكاليات التي ما زالت تعاني منها الجمهورية التركية الإسلامية من عدم انضمامها للاتحاد الأوروبي. حيث إن خيبة الأمل في عدم قبول عضوية تركيا جعل الإدارة التركية الجديدة تتوجه إلى خيار التعاون مع دول المشرق بدلاً من الإبقاء على عزلتها، وأن لا تكون رهينة الانتظار ومن ثم الاعتذار.
 - 3- تراجع تأييد الأتراك لحلف شمال الأطلسي. فقد اظهر استطلاع للرأي موله "صندوق مارشال" أن تأييد الأتراك لحلف "الناتو" قد تراجع من (53%) في عام 2004 إلى (44%) في عام 2006⁽⁴⁴⁾.
 - 4- إن التطورات التي تشهدها منطقة الشرق الأوسط جعل تركيا تزيد اهتمامها المباشر في المنطقة، وذلك فيما يتعلق بالحرب على العراق 2003، والملف النووي الإيراني، والحرب الإسرائيلية على لبنان عام 2006، والحرب الإسرائيلية على قطاع غزة 2008/2009، وهذه التطورات جميعها لها أثر مباشر على تركيا، وأن ترسيخ الاستقرار وإقامة سلام دائم في المنطقة بات يعد من أولويات سياسة تركيا الخارجية في الوقت الراهن، مما يدفعها للعب

الدور الإيجابي عن طريق الوساطة لتسوية النزاعات القائمة وتقييمها لسياسات دول المنطقة المعنية في تحقيق الاستقرار.

5- التوجه لزيادة المكاسب الاقتصادية من دول المنطقة العربية ودول العالم الإسلامي بشكل عام على أساس الشراكة والتعاون المتبادل. فقد شهدت العلاقات الاقتصادية والتجارية بين تركيا ودول العالم الإسلامي تطوراً ملحوظاً حيث بلغ حجم التبادل التجاري (37) مليار دولار عام 2008، وشكلت هذه الزيادة ما نسبته خمسة أضعاف حجم التبادل التجاري مقارنة مع عام 2002، إلا أن هذا الرقم تراجع إلى (34) مليار دولار نهاية عام 2010 بسبب تداعيات الأزمة الاقتصادية العالمية⁽⁴⁵⁾. كما وتتضح اهتمامات السياسة التركية مع العالم العربي اقتصادياً - بشكل خاص- على ضوء تنامي مساهمة شركات المقاولات التركية التي تقوم بها، حيث تجاوزت قيمة المشاريع التي مولتها الشركات التركية ما قيمته (10) مليارات دولار عام 2010، ووجود ائتلاف خليجي مكون من ثلاث مؤسسات مالية قامت بتوقيع اتفاقية مع الحكومة التركية لاستثمار (6) مليارات دولار في قطاعي الزراعة والبنية التحتية التركية، والمؤسسات المالية الخليجية هي [بنك أثمار (BSC)، وصندوق أبو ظبي للاستثمار، وصندوق التمويل الخليجي] وذلك عام 2009⁽⁴⁶⁾.

6- الاستفادة من التعاون مع الدول العربية في مجالي التصنيع العسكري والطاقة. فضمن التعاون في المجال العسكري تنظر تركيا إلى تعاون مع العديد من الدول العربية خاصة دول الخليج في قطاع الصناعات الدفاعية، والدخول في إنتاج مشترك لطائرات التدريب العسكرية التي تقوم بصناعتها شركة (TAI) التركية، وكذلك في إنتاج صواريخ متوسطة المدى التي تنتجها شركة (Roketsan). وتركيا بهذا التعاون تريد أن تخفض من ميزان مشترياتها العسكرية الخارجية مقارنة مع إنتاجها الدفاعي الذاتي، كون أن المبيعات الكلية الداخلية والخارجية لشركات الدفاع التركية بلغت عام 2008 نحو (2) مليار دولار، وبنسبة (25%) فقط لصادرات الدفاع الخارجية وفقاً لتقرير (SSM) الصادر في نفس العام⁽⁴⁷⁾، علماً أن تركيا تنفق معدل خمسة إلى ستة مليارات دولار سنوياً على مشتريات الدفاع، لذا فإن تعزيز العلاقات والتعاون في هذا المجال مع الدول العربية يسهم من توجه العديد منها لشراء بعض احتياجاتها العسكرية من تركيا.

أما بالنسبة لمجال الطاقة، لا زال التعاون بين الجانبين (التركي- العربي) متخلفاً مقارنة مع المجالات الأخرى بشكل عام. فاحتياطيات تركيا من النفط أساسية، كون إنتاجها اليومي يبلغ نحو (45) ألف برميل يومياً، في المقابل يبلغ استهلاكها اليومي نحو (680) ألف برميل أي أن نسبة الاحتياجات الاستيرادية تشكل (85%)، كما ويبلغ إنتاجها من الغاز نحو (895) مليون متر

مكعب سنوياً، واستهلاكها نحو (37) مليار متر مكعب، لذا تبقى احتياجاتها الخارجية نحو (97%) وذلك حسب مؤشرات احتياجات تركيا من الطاقة نهاية عام 2007. وتعتمد تركيا على تسديد احتياجاتها بشكل كبير على كل من روسيا وإيران وبنسبة (64%) و(17%) على التوالي، لذلك تتجه سياسة تركيا الحالية نحو تعاون مع دول الخليج في هذا المجال ويعزز هذا وجود شركات تركية كبيرة عاملة في قطاع الصناعة النفطية، مع إمكانية مد أنبوب غاز يصل قطر بتركيا حيث تستثمر الشركات التركية في هذا القطاع نحو خمسة مليارات دولار⁽⁴⁸⁾. ونظراً لاحتياجات دول الخليج العربية من المياه التركية، فإن تركيا بالمقابل تدرس إمكانية تزويد دول الخليج بالمياه عبر خطوط أنابيب، مما يخدم تجسيد فكرة "الاعتماد المتبادل" بين الطرفين، أي مبادلة الماء بالنفط والغاز من أجل تغطية تكاليف الطاقة المتزايدة في تركيا.

مع أهمية ما بينته الدراسة البحثية من عوامل وأسباب تدفع بسياسة قادة "حزب العدالة والتنمية" في تركيا للتوجه نحو توثيق أواصر التعاون مع الدول العربية، ينبثق تساؤل هام في هذا الشأن مفاده، هل فعلاً تريد تركيا أن تراجع علاقاتها مع حلف (الناتو) في حال تحسن علاقاتها مع الدول العربية؟

تؤكد الدلائل بأن سياسة التوازن التي تتبعها تركيا حالياً هي منهجية تحرص عليها السلطة الحاكمة لزيادة مكاسبها، تسعى من خلالها لفتح مجالات تعاون جديدة دون التأثير على ما هو معهود في ترابطاتها الخارجية. فعلى سبيل المثال، وعطفاً على ما تم ذكره بتراجع تأييد الأتراك لحلف (الناتو)، وعدم اهتمام الولايات المتحدة اللازم لاحتياجات تركيا، يتضح من مذكرة التفاهم الاستراتيجي التي انبثقت عن مبادرة اسطنبول للتعاون (ICI) والتي أطلقها (الناتو) في قمته التي عقدت في تركيا منتصف عام 2004، أن هناك دوراً تركياً في إطار (الناتو) في المنطقة، خاصة في دول الخليج العربي، وعلى أن تركيا تعتبر إحدى النوافذ الأساسية التي تطل من خلالها على المنطقة، وهي بهذا تعتبر تركيا الوسيط الأمثل بين توجهات الحلف الجديدة ودول المنطقة المعنية، خاصة وأن "مبادرة اسطنبول" قد وجهت بصفة أساسية لدول مجلس التعاون الخليجي، وقد انضمت إليها كل من دولة الكويت، وقطر، والبحرين، والإمارات العربية المتحدة. وتتخلص أجندة المبادرة وأهدافها بأنها اختيارية وذات فوائد متبادلة ومشاركة. وتهدف إلى تعزيز الأمن الإقليمي واستقرار منطقة الشرق الأوسط عامة ومنطقة الخليج العربي على وجه الخصوص. وذلك من خلال تفعيل مختلف أوجه التعاون التي يقدمها الحلف للدول المهتمة في مجالات عدة منها الأمن والتدريب وشؤون الدفاع والتنسيق والتعاون العسكري، وذلك بقصد تحسين إمكانيات الدول لمواجهة مختلف أنواع التهديدات، وإجراء المزيد من الحوار السياسي المشترك حول مختلف القضايا ذات الاهتمام المشترك، مثل محاربة الإرهاب، ومنع انتشار أسلحة الدمار الشامل وعمليات تهريب السلاح غير المشروع⁽⁴⁹⁾.

وأخيراً، ومع أهمية نتائج توثيق التعاون بين تركيا مع العالم العربي إلا أن هناك ثمة تحديات عربية لا بد من أخذها بعين الاعتبار كونها متعلقة بمستقبل نمو علاقات التعاون والشراكة بين الجانبين (التركي - العربي) يتمثل أبرزها في:

1. أن بعض الدول العربية الفاعلة رغم علاقاتها الجيدة مع تركيا تتعارض أجندتها السياسية - خاصة في أبعادها وترابطاتها الخارجية- مع إمكانية تنسيق المواقف اللازمة لدعم العلاقات في شتى المجالات.
2. أن الدور التركي فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية وتحديداً في دعم حركة حماس سبب نوعاً من الإحراج لعدد من الأنظمة السياسية العربية.
3. غياب الإرادة العربية الموحدة في وضع استراتيجية متكاملة في كافة المجالات لما يحقق مصالح الطرفين، ويرجع السبب في التخوف من بروز دور تاريخي جديد لتركيا على حساب المصالح السياسية العربية.
4. رغبة معظم الأنظمة السياسية العربية في تحجيم دور إيران المستقبلي في المنطقة والتعاون إلى حد واضح مع المجتمع الدولي في مواجهة تطورات إيران، وهذا يتعارض مع عدم رغبة واضحة من قبل تركيا في عزل إيران.
5. أن عضوية تركيا في حلف شمال الأطلسي يجعل إمكانية التراجع أو جمود الموقف من إسرائيل والولايات المتحدة محتملاً، كون العلاقة التاريخية معها منذ عقود، وأن المكاسب الاقتصادية والعسكرية بطبيعة الحال موجودة من جراء هذه العلاقة بين الأطراف المذكورة.
6. غياب تأثير مؤسسات المجتمع المدني العربي على المؤسسات الرسمية للأنظمة السياسية في العالم العربي، مما يعني أن تقدم مسيرة التعاون العربي- التركي تبقى رهان القيادات السياسية الرسمية العربية، كما أن قنوات التواصل بين المنظمات غير الحكومية التي ترغب في انسجام العلاقة مع تركيا - كذلك - مرهونة بالتوجهات العربية الرسمية.

الخاتمة:

بعد استعراض المباحث والمطالب ذات العلاقة بمناقشة موضوع الدراسة، والتي ارتبطت بمجملها بأهداف المشكلة البحثية، وما استند عليه من فرضيات وتساؤلات تم استعراضها ضمن الإطار العام، يخلص الباحث إلى العديد من الاستنتاجات الرئيسية المتعلقة بدراسة سياسة تركيا الدولية منذ عام 2002-2010.

أولاً) نجد أن المحدد الاستراتيجي والمحدد الاقتصادي هما ركيزتان أساسيتان في منهجية ومعطيات السياسة التركية الحالية. بمعنى أن الحزب الحاكم "العدالة والتنمية" يدرك أهمية

موقع تركيا الجيوسياسي ومدى ارتباطات مصالح الدول الإقليمية والغربية المتراكمة مع تركيا سواء خلال الحرب الباردة أو بعدها، وأهمية المحافظة على علاقة متزنة لجعل تركيا ضمن منظومة القوى الفاعلة إقليمياً، وفي مواجهة السياسات المضادة لنهج الغرب في شرق آسيا وأوروبا. في المقابل، تحاول السلطة الحاكمة في تركيا استثمار هذه العلاقة لخدمة جانبيين: الأول: إظهار الدور المحوري التركي في منطقة الشرق الأوسط، وتعزيز هذه الرؤيا عن طريق مساعدة تركيا في إعطائها دور الوسيط الفاعل والمشارك في حل القضايا في المنطقة، كونها الأكثر قبولاً في تقريب وجهات النظر الخلافية بين الأطراف المعنية. إما الجانب الثاني: يتعلق بتعزيز تنمية القطاع الاقتصادي، عن طريق السعي المستمر لانضمام تركيا للاتحاد الأوروبي، والاستفادة من منافذ الانفتاح مع دول الشرق لزيادة الاستثمارات وتوقيع الاتفاقيات المشتركة التي تؤدي إلى زيادة معدل التبادل التجاري وتحسين مستوى النمو الاقتصادي بشكل عام.

ثانياً) بعد استقرار السياسة التركية الدولية الجديدة، نجد أن هناك ثلاث دوائر رئيسية يتعامل على ضوئها حزب "العدالة والتنمية" الحاكم في تركيا، ويسعى إلى المحافظة على التوازن الاستراتيجي معها وبما يضمن إدراك الجميع لخصوصية تركيا ذات الأيديولوجية الإسلامية التي تؤمن بالتعاطي المنفتح والمعتدل. فالدائرة الأولى تشمل حفظ التوازن ما بين عضوية تركيا كحلف شمال الأطلسي وانتمائها الإقليمي (الجغرافي والحضاري) لمنطقة الشرق الأوسط. الدائرة الثانية تتعلق بحفظ التوازن ما بين العلاقة مع إسرائيل وتأييد تركيا لحل القضايا العربية ضمن مرجعيات الشرعية الدولية. أما الدائرة الأخيرة فهي ذات علاقة بحفظ التوازن الداخلي والخارجي في الحفاظ على إسلامية مجتمع الدولة وعلمانية الدستور وبما يضمن عدم تدخل المؤسسة العسكرية التقليدي والانتقاد الخارجي. ومع هذا يبقى القاسم المشترك في التعامل مع هذه الدوائر بمضمونها وأبعادها هو ما يتعلق بحسابات التقدم والتراجع، والربح والخسارة، وحسابات التأييد المجتمعي الذي يضمن استمرارية الحزب في الحكم للوصول إلى الأهداف، وبين زيادة التأييد للمعارضة مما يؤدي إلى خسارة الحزب في الانتخابات وخروجه من السلطة وإرجاع تركيا إلى ما كانت عليه قبل عام 2002.

ثالثاً) إن الحراك الاستراتيجي الدولي لتركيا الذي يقوده حزب العدالة والتنمية يهدف إلى إظهار قدرة تركيا في القيادة المحورية والمركزية إقليمياً، جاء ذلك نتاج الرفض أو التباطؤ في عدم ضم تركيا للاتحاد الأوروبي من جانب، ومن جانب آخر يتعلق بالاستفادة من عدم قدرة المشاريع الاستراتيجية المعلنة في منطقة الشرق الأوسط، كونها تتصادم مع بعضها أحياناً، وتعثر البعض منها جراء النتائج السلبية للحرب الأمريكية على العراق وأفغانستان، وعدم الوصول إلى تسوية شاملة للصراع العربي الإسرائيلي، ووجود مشروع إيراني غير مقبول من

دول المنطقة وخارجها، وغياب المشروع العربي، كل هذا يؤهل تركيا للعب الدور المركزي في المنطقة كونها ترى نفسها الأكثر قبولاً في التعامل مع كافة الأطراف، والأقدر على ملء فراغ قيادة المنطقة.

رابعاً على الرغم من استخدام الحزب الحاكم في تركيا لنهج السياسة القسوى الممكنة في تعاملها مع القضايا الإقليمية، إلا أنها لم تخرج عن السياسة الأمريكية المرسومة في المنطقة، وهي سياسة السلم والحل السلمي. حيث يلاحظ أنه لم يصدر عن واشنطن أو عن حلف الناتو وأوروبا بشكل عام أية انتقادات للسياسة التركية التي أخذت منحى التصادم مع السياسة الإسرائيلية، وذلك كون الموقف التركي لم يصل إلى درجة قطع العلاقات أو إلغاء الاتفاقيات والمشاريع المشتركة بين الطرفين، وبهذا فتركيا في نظر هذه الأطراف لم تتجاوز الخطوط المحددة، ولم تتعارض مع قواعد القانون الدولي وموثيقه المعهودة.

وأخيراً يمكن القول إن لعب تركيا لدورها في المنطقة، ليس بالضرورة محاولة استعادة مكانة للعثمانية القديمة، بل قد يكون بمثابة تعبير عن نجاح قدرتها في التعامل مع المتغيرات والمعطيات الإقليمية والدولية الجديدة، كما أنه قد يكون بداية الإعلان الرسمي والمجتمعي أمام العالم لتمسكها بخصوصيتها، وقدرتها على توظيف معادلة التوازن بين الشرق والغرب، وبين الإسلام والعلمانية.

وبالرجوع إلى الفرضيات التي تم استعراضها في مقدمة الدراسة يمكن اختبار مدى صحتها- حيث يتضح من خلال ما تم استعراضه ما يلي:

1. إن هناك علاقة ايجابية بين النهج السياسي لحزب "العدالة والتنمية" وبين تحقيق مصالح تركيا الخارجية.
 2. صحة الفرضية التي مفادها وجود علاقة ارتباطية بين توجهات تركيا الجديدة في بناء جسور من التعاون مع العالم العربي وبين عرقلة انضمام تركيا للاتحاد الأوروبي.
- وبالرجوع إلى الأسباب التي ما زالت تعترض توطيد العلاقة العربية التركية فإنها تؤكد ارتباطها بمقولة الفرضية ذات الشأن بأهمية الحاجة إلى وضوح المواقف التركية تجاه القضايا الإقليمية التي تحدد مدى زيادة نجاح مستقبل السياسة التركية الدولية في المنطقة.

Reality of International Turkish Relations: The Determinatives and Trends (2002-2010)

Mohammed Al-Mogdad, *Wisdom House Institute, Al Albayt University, Mafrq, Jordan.*

Abstract

The study aims to diagnose the reality of Turkey's International relations since 2002 and until the end of 2010 under the guidance of the authority of "Justice and Development party", based on the discussion of the basic limitations governing Turkey's international policy represented by each of the selected strategic and economic determinatives. The study also shows the nature of the keenness of the executive authority in the development of Turkish interests and its ability to launch a new phase in dealing with political international units influential in the aspirations of the Turkish state in the future, having been absent for Turkey to play the regional central role since its inception as a modern state in 1923.

The study is based on the hypothesis: that there is a correlation between the key determinants that Turkish international relations are based on and the international political movement that pursued by Turkey under the authority of the Justice and Development Party, which took power in 2002. To illustrate such facts the regional and functional approaches were used.

Finally, the study reached several conclusions, notably, the presence of Turkey's new international efforts reflect the trends to show Turkey's pivotal regional role due to its possession of various elements , and the ability to interact with the East neighboring countries based on features in common with the Arab world and the need to meet the requirements of the concept of "interdependence in international relations, and that Turkey would not abandon its efforts to join the European Union, and in maintaining the usual relations with the Western camp, because the end is in the development of interests and to maintain the balance with all international political units and not to engage in the case of direct conflict.

وقبل في 2011/10/6

قدم البحث للنشر في 2011/3/27

الهوامش:

1. Kosebalaban ,Hasan. "Turkey-EU Relations: A clash of Civilization Identities". International Studies Association, Town of Country Resort and Convention Center, California, USA, 2006.p25.
2. أوغلو، احمد داوود. "العمق الاستراتيجي: موقع تركيا ودورها في الساحة الدولية". مركز الجزيرة للدراسات، الدوحة، 2010. ص44-47.
3. إلهيتي، صبري فارس. "الجغرافيا السياسية مع تطبيقات جيوبولتيكية". دار الكتاب الجديد، بيروت، 2001. ص 18.
4. عودة، جهاد. "فكرة ومفهوم الاعتماد المتبادل". مجلة الموجز الاقتصادي، شركة الموجز للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة جمهورية مصر العربية السنة الثامنة، العدد (24)، 2010. ص9.
5. Waltz, Kenneth N. "Globalization and Governance". American Political Science Association, Columbia University, New York, 1999. p37.
6. Caparty, Soner and Inver, Akin H. "Turkish Elections: Winners and Fault lines". The Washington Institute for Near East Policy, Washington D. C. USA. July, 2007.pp8-10.
7. Fuller, Graham E. "The New Turkish Republic: Turkey as A pivotal State in the Muslim World". United States Institute of Peace Press, Washington, DC, 2008.
8. Kramer, Heinz. "A changing Turkey: The Challenge to Europe and the United States". The Brooking Institution, Washington, D.C, 2005 .
9. الخماش، رنا. "العلاقات التركية - الإسرائيلية وتأثيرها على المنطقة العربية (1996-2009)". مركز دراسات الشرق الأوسط، عمان، 2010.
10. Terzi, Ozlem. "New Capabilities, Old Relationships: Emergent ESDP and EU-Relations". Southeast European Politics, UK, vol. 3, No.1, June 2002. P43
11. دلي، خورشيد. "تركيا والاتحاد الأوروبي: جدل العضوية وتعدد العقبات والخيارات". مجلة الوحدة الإسلامية، السنة الثامنة، العدد الخامس والتسعون، لبنان، تشرين ثاني، 2009. ص31.
12. نوفل، ميشال. "عودة تركيا إلى الشرق: الاتجاهات الجديدة للسياسة التركية". الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2010. ص 43.
13. انظر: نشرة دائرة الإحصاءات العامة التركية لعام 2009.

14. Kramer, Heinz. Ibid. pp 111-112.
15. انظر: البنك الدولي: قاعدة بيانات المؤشرات الاقتصادية في العالم. الناتج المحلي الإجمالي (الاسمي) لتركيا لعام 2009.
16. Asirim, Oguz. "Output Inflation Trade of Evidence form Turkey". The Central Bank of the Republic of Turkey, Discussion Paper No: 19506, April, 2010.p13.
17. Bilgin, Mert. "Energy and Turkey's and Turkey's Foreign Policy: State Strategy Regional Cooperation and Private Sector Involvement". Lynne Publishers, London, 2001. p42.
18. Tunali, Halil. "The Analysis of Unemployment in Turkey: Sam Empirical Evidence Using C-Integration Test". European Journal of Social Sciences, Volume 18, No (1), 2010. pp21, 27.
19. Woodcock, Stephen. "European Union Policy Towards Free Trade Agreements". The LSE International Trade Policy Unit (ITPU), London School of Economics, 2007.p12.
20. Soybilgnen, Banis. Glu, Zumurut. "Turkey's Exports Fall: Trade Defect Widens". Turk Stat, Bantam, Turkey, 2010.p18 .
21. باركي، هنري. "تركيا والعراق: أخطار وإمكانيات الحوار". معهد السلام الأمريكي، واشنطن، تقرير رقم (141)، تموز 2005. ص5.
22. Binate, Ayla. Sohrabti, Niloufer. "Elastic ties of Turkish Exports and Imports". Izmir University of Economic, Turkey, 2009. pp33-34.
- كذلك أنظر: معهد الإحصاء التركي (Turk Stat). 2010.
23. عودة، جهاد. مرجع سابق، ص8.
24. دلي، خورشيد. مرجع سابق، ص35.
25. حجاج، عارف (ترجمة). "أوروبا وقبول تركيا في الاتحاد الأوروبي". المركز الاتحادي للتعليم السياسي، ألمانيا، 2009. ص6.
26. دلي، خورشيد، مرجع سابق، ص31.
27. مقلد، حسين طلال "تركيا والاتحاد الأوروبي: بين العضوية والشراكة". مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، العدد الأول، المجلد (26)، 2010. ص44.
28. النعيمي، لقمان. "تركيا والاتحاد الأوروبي: دراسة لمسيرة الانضمام". مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، الإمارات العربية المتحدة، 2007. ص22.

29. Muftuler, Meltem. "Is There a Europeanization of Turkish Foreign Policy?". Turkish Studies, Volume, 11, No3, Sep 2010.p 409.
30. باركي هنري. مرجع سابق، ص6.
31. العناني، خليل. "تركيا والولايات المتحدة: مصالح استراتيجية متبادلة". مركز الجزيرة للدراسات، قطر، 2009. ص13.
32. النعيمي، لقمان "تركيا في الاستراتيجية الأمريكية المعاصرة". مركز الدراسات الإقليمية. جامعة الموصل، العراق، 2009. ص139.
33. Goble, Paul. "Turkey Returns to a Transformed Transcaucasia". Azerbaijan Diplomatic Academy's Biweekly, Azerbaijan, 2008. p14.
34. الخماش، رنا. مرجع سابق، ص 38، 39.
35. Middy, Bruce.Susser ,Asher. "Turkish-Israeli: Relations in a Trans – Atlantic Context". Dayan Center for Middle Eastern and African Studies, Tel Aviv University, 2009.pp106-107.
36. Middy, Bruce. Susser, Asher. Ibid. p 109.
37. الخماش، رنا. مرجع سابق، ص41.
38. Martin, Lenore G. "Assessing the Impact of US-Israel Relation on the Arab World". US Foreign Policy, vol, 13. No.1,2010.pp 7-18.
39. Oktem, Kerem. "Turkey and Israel: Ends and Beginnings". Open Democracy Ltd, London, 2010.P13.
40. Gruen. George E. "Recent Developments in Turkish-Israel Relations". Jerusalem Center for Public Affairs, Jurualem, 2010.P15.
41. رضوان، وليد "العلاقات العربية التركية". شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، لبنان، 2006. ص77.
42. Muftuler, Metem. "Turkey And Israel: An Evolving partnership". Ariel Center for Policy Research (ACPR), Bilkent University, Turkey, 1998.p17.
43. Larrabee, Stephen. "Turkey Rediscovered the Middle East". Foreign Affairs. July, 2007.p117.
44. Dempsey, Judy. "Turkey Turning Cool to NATO". The International Healed Tribune, The Global Edition of New York Times, New York, 2006.p86 .
45. Benli, Melina. "Turkey's Changing Middle East Policy". University of Completeness, Madrid, 2010, p158.
46. المرهون، عبد الجليل. "مستقبل الدور التركي في الخليج". مركز الجزيرة للدراسات، قطر، 2009. ص2

47. المرهون، عبد الجليل. مرجع سابق، ص57.

كذلك انظر:

Turkey: The Defense Industry. Equilibri.http:11UK. Equilibri: Net Larticiel
9401, Turkey.Net.April,2008.

48. مبروك، شريف. "نحو ترسيخ العلاقات الخليجية التركية"، مجلة كلية الملك خالد العسكرية،
الرياض، عدد (95)، كانون أول 2008. ص17.

49. باكير، علي أروزتوركز. "تركيا بين تحديات الداخل ورهانات الخارج". الدار العربية للعلوم،
بيروت، 2009. ص80.

المظاهر البراغماتية والعقدية في سياسات الإخوان المسلمين في الأردن

خالد الدباس*

ملخص

تستهدف هذه الدراسة معرفة وتحليل المظاهر البراغماتية والعقدية في سياسات الإخوان المسلمين في الأردن على المستويين الفكري والعملي، حيث سيتم الإجابة عن مجموعة من التساؤلات المتعلقة بمعرفة مدى ممارسة الإخوان المسلمون في الأردن نهجا براغماتياً أو عقدياً تجاه القضايا الداخلية والخارجية، وماهية المظاهر البراغماتية والعقدية في فكرهم وممارستهم، بالإضافة إلى تحديد أهم العوامل التي تدفع الإخوان المسلمين باتجاه تبني سياسات براغماتية أو عقدية. وللوصول إلى أهداف الدراسة فقد تم استخدام المنهج التاريخي، والمنهج المقارن، ومنهج تحليل المضمون. وقد توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج أبرزها: أن جماعة الإخوان المسلمين في الأردن تستند في سلوكها السياسي إلى نهج براغماتي ساهم في شرعنة وجوده، وتحسين علاقتها مع النظام الأردني. كما أن هناك تطوراً براغماتياً مهماً على الصعيد الفكري تمثل في مبادرة الإخوان الإصلاحية عام 2005 تحت عنوان "رؤية الحركة الإسلامية للإصلاح" حيث تعد نقطة مفصلية مهمة للجماعة أعلنت بموجبها القبول بالقيم الديمقراطية والتعددية السياسية ومبدأ تداول السلطة، وقد توصلت الدراسة أيضاً إلى أن هناك تأثيراً واضحاً للبيئة المحلية والدولية والإقليمية على علاقة النظام الأردني بجماعة الإخوان ودفع كلا الطرفين إلى تبني سياسات براغماتية أو سياسات ذات طابع عقدي.

مقدمة

نشأت جماعة الإخوان المسلمين الأردنية عام 1945 باعتبارها جزءاً من التنظيم العام لجماعة الإخوان المسلمين في مصر التي أنشئت عام 1928 على يد حسن البنا. وقد لعبت جماعة الإخوان المسلمين الأردنية دوراً مهماً على الساحة الأردنية في كافة المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. فقد استطاعت التكيف مع الواقع السياسي الأردني وتحالفت في فترات تاريخية مختلفة مع النظام الأردني في مواجهة التيارات السياسية الأخرى حتى وصفت بأنها ربيبة النظام، وتحولت إلى المعارضة في فترات تاريخية مختلفة حتى صُنفت بأنها جماعة معارضة.

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2012.

* قسم العلوم السياسية، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

وبالرغم من أن جماعة الإخوان المسلمين محظورة في العديد من الدول العربية وتعرضت لأشكال العنف الرسمي، فقد استطاعت جماعة الإخوان المسلمين الأردنية أن تحصل على ترخيص رسمي من الحكومة الأردنية وبمباركة النظام السياسي. فقد استثنيت من الحظر الذي طال الأحزاب والحركات السياسية منذ عام 1957 ولغاية عام 1992، إذ تم التعامل معها على أساس أنها جمعية إسلامية وليس حزبا سياسيا، على أساس الوظيفة الإيجابية التي تؤديها في سياق عملية التوازن التي طبعت الممارسة الأدائية للنظام السياسي في علاقته مع القوى الاجتماعية والسياسية.

وفي هذا السياق يحاول هذا البحث دراسة مواقف جماعة الإخوان المسلمين تجاه عدد من القضايا السياسية في الأردن من منظور براغماتي ومنظور عقدي.

أهمية الدراسة

تنبثق أهمية هذه الدراسة أولاً من أهمية الموضوع ذاته الذي يعد من القضايا ذات الأهمية في المنطقة العربية. كما أنها من الدراسات القليلة والنادرة التي حاولت الربط بين النظرية السياسية بشقيها البراغماتي والعقدي من جانب، وواقع السلوك السياسي لتنظيم سياسي من جانب آخر. فضلاً عن أن هذه الدراسة تسعى إلى تقديم مدخلات ضرورية ومهمة لتحليل الواقع السياسي الذي بدأت الأبعاد البراغماتية تسيطر فيه على سلوك وممارسات الفواعل السياسية.

مشكلة الدراسة وأسئلتها

هناك غموض وتضارب في تشخيص طبيعة المواقف السياسية للإخوان المسلمين على الصعيدين الفكري والعملي. فهناك تيار يرى بأن الإخوان يمارسون نهجا براغماتيا في حين يرى تيار آخر بأنهم يمارسون نهجا عقدياً. لذلك فقد جاءت هذه الدراسة لمناقشة هذا الموضوع وللإجابة عن التساؤلات التالية:

- 1- هل يمارس الإخوان المسلمون نهجا براغماتياً أو عقدياً على المستويين الفكري والعملي- تجاه قضايا السياسة الداخلية المتمثلة في موقفهم من الديمقراطية، والنظام السياسي، والمشاركة في الحكومة، والمشاركة في الانتخابات النيابية؟
- 2- هل يمارس الإخوان المسلمون نهجا براغماتياً أو عقدياً على المستويين الفكري والعملي- تجاه قضايا السياسة الخارجية المتمثلة في موقفهم من عملية السلام، والولايات المتحدة الأمريكية، والوحدة العربية والإسلامية؟
- 3- ما هي مظاهر البراغماتية السياسية أو العقدية في فكر وممارسة الإخوان المسلمين؟
- 4- ما هي أهم العوامل التي تؤثر على الإخوان المسلمين في دفعهم لتبني سياسات براغماتية أو عقدية؟

منهج الدراسة

تعتمد هذه الدراسة على استخدام المنهج التاريخي لرصد المواقف التاريخية لحركة الإخوان المسلمين تجاه العديد من القضايا على الساحة الأردنية. وسيتم استخدام المنهج المقارن للفصل ما بين المظاهر البراغماتية والمظاهر العقدية. بالإضافة إلى منهج تحليل المضمون الذي يركز على دراسة أفكار ومواقف جماعة الإخوان المسلمين من خلال موثيقهم الأساسية.

فترة الدراسة

تمتد هذه الدراسة زمنياً في الفترة ما بين 1945 (حيث تم تأسيس جماعة الإخوان المسلمين في الأردن) ولغاية 2010 وهو تاريخ عقد الانتخابات النيابية للمجلس النيابي السادس عشر حيث قاطع الإخوان هذه الانتخابات.

محددات الدراسة:

موضوع هذه الدراسة يركز على الربط بين النظرية البراغماتية والعقدية وبين فكر وممارسة جماعة الإخوان المسلمين في الأردن. وستقتصر الدراسة على استخدام مجموعة من المؤشرات السياسية على المستوى الداخلي والخارجي لرصد اتجاهات البرجماتية أو العقدية في فكر وممارسة الإخوان المسلمين.

الدراسات السابقة

هناك عدد كبير من الدراسات التي تناولت موضوع جماعة الإخوان المسلمين في الأردن من حيث النشأة والتطور التاريخي وأدوارها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، إلا أن محاولة الربط بين النظرية السياسية وسلوك جماعة الإخوان المسلمين في الأردن اقتصر على عدد محدود من الدراسات، وهي:

1- دراسة الباحث صباح السعيد (1995) المنشورة باللغة الانجليزية والمعنونة بـ "بين البراغماتية والايديولوجيا: جماعة الإخوان المسلمين 1989-1994"، وتعد أولى الدراسات التي حاولت الربط بين الأفكار البراغماتية وجماعة الإخوان المسلمين في الأردن. حاولت هذه الدراسة الإشارة إلى المواقف الاخوانية تجاه خمسة قضايا رئيسية وهي: (السياسة المحلية- السياسة الخارجية- السياسة الاقتصادية- قضايا المرأة -مسألة الأقليات). وقد توصلت الدراسة إلى أن مواقف الإخوان كانت مزيجاً من المواقف البراغماتية والأيديولوجية تجاه مختلف القضايا المطروحة، وعلى أهمية هذه الدراسة إلا أنها لم توفق في معالجة الموضوع بطريقة علمية وموضوعية، فقد كان هناك انحياز واضح ضد الإسلام والحركة

الإسلامية، وكانت تمثل وجهة نظر معهد دراسات الشرق الأدنى في الولايات المتحدة الأمريكية.

2- أما الدراسة الأخرى التي أشارت إشارة بعيدة ومقتضبة لموضوع البراغماتية السياسية عند الإخوان المسلمين في الأردن، فهي دراسة (محمد أبو رمان: 2007) تحت عنوان "الإخوان المسلمون في الانتخابات النيابية الأردنية 2007: "نكسة سياسية" عابرة أم تآكل في الجماهيرية". فقد تناولت الدراسة الدور الذي يلعبه الإسلام السياسي في الأردن، وكيف تغيرت العلاقة بين الدولة وجماعة الإخوان المسلمين، وما هي الأسباب التي أدت إلى الخسارة الانتخابية التي تعرضت لها الحركة الإسلامية في الانتخابات النيابية لعام 2007. وقد توصلت الدراسة إلى مجموعة من السيناريوهات المستقبلية التي ستحد مستقبل الإسلام السياسي في الأردن، منها: سيناريو الاستئصال والتجسيم، وسيناريو الحظر والمواجهة، وسيناريو الاحتواء والإشغال.

3- دراسة Shmuel Bar والمنشورة باللغة الانجليزية عام 1998 بعنوان "الإخوان المسلمون في الأردن: بيانات وتحليل" تناولت هذه الدراسة بالبحث والتحليل واقع العلاقة التي سادت بين النظام الأردني وتنظيم جماعة الإخوان المسلمين منذ عام 1945 ولغاية 1997. وقد توصلت الدراسة إلى أن جماعة الإخوان المسلمين كانت على وجه الدوام داعمة للنظام السياسي الأردني في ظل وجود قوى يسارية وبعثية مهددة لهم وللنظام الأردني، إلا أن زوال خطر هذه القوى جعل منهم مصدر قلق للنظام خاصة في ظل تحولهم من قيادة تنظيم إلى قيادة الجماهير.

4- دراسة قاسم الثبيات (2009) بعنوان "الإخوان المسلمون في الاردن 1945-1997". تناولت الدراسة تحليل سياسات الإخوان المسلمين في الأردن اعتمادا على نموذج صموئيل هنتغتون الذي يستند إلى مجموعة من المؤشرات، وهي: التكيف العقائدي والوظيفي والقيادي والاستقلال المؤسسي والتعدد التنظيمي والتجانس الداخلي، لقياس الخصائص المؤسسية للجماعة من خلال قدرة جماعة الإخوان المسلمين على التطور المؤسسي، والعمل لفترة طويلة دون التأثير عليها. وقد توصلت الدراسة إلى أن لدى جماعة الإخوان المسلمين قدرة عالية على فهم الواقع السياسي والتجاوب معه دون أن يؤثر ذلك على هدفها وهو الدعوة الإسلامية وإقامة الحكومة الإسلامية.

5- دراسة: Banu Trezioglu المنشورة باللغة الانجليزية عام 2010 بعنوان "تحليل تطور العلاقات بين النظام الهاشمي وجماعة الإخوان المسلمين"، حيث توصلت الدراسة إلى أن العلاقة ما بين النظام الأردني وجماعة الإخوان المسلمين قد تشكلت وتغيرت عبر الزمن

استجابة للتطورات السياسية والإقليمية، لكن التحالف القديم في مواجهة القوى اليسارية لن يعود وستنشأ حالة من التوتر المستمر بينهما ما لم يطرأ تغيير جذري في توجهات النظام السياسي الأردني.

إلا أن ما يميز هذه الدراسة عن غيرها، أنها من أوائل الدراسات العلمية التي حاولت تحليل المواقف السياسية لجماعة الإخوان المسلمين في الأردن من منظورين براغماتي وعقدي. كما أنها عالجت الموضوع من خلال عقد مقارنة بين السلوك السياسي لجماعة الإخوان المسلمين على أرض الواقع وبين خطابهم السياسي الذي يستند إلى بياناتهم ومواقفهم الأساسية. وقد تم التوصل في سياق هذا البحث أيضا إلى مجموعة من المؤشرات البراغماتية والعقدية لتصنيف فكر وسلوك الإخوان فيما إذا كان براغماتيا أو عقديا، وهي تصلح لإجراء دراسات في ميادين أخرى.

الإطار النظري للدراسة:

يشتمل هذا الإطار على توضيح مفهوم البراغماتية السياسية وأهم روادها وصولا إلى مرتكزاتها الرئيسية، كما سيتم تحديد مفهوم العقيدة السياسية وأهم مرتكزاتها.

مفهوم البراغماتية

يعتقد البعض أن البراغماتية ما هي إلا أحد أشكال الإمبريقية، التي جاءت كرد فعل من قبل المفكرين الأمريكيين تجاه الفكر الأوروبي، خاصة الفكر الألماني المغرق في الميتافيزيقا. و تجد جذورها في أفكار ومذاهب متعددة مثل فكرة العقل العملي لكانط، وفكرة الإرادة لشوبنهاور، وفكرة داروين أن البقاء للأصلح (موسوعة العلوم السياسية: 387)، ولعل هذا التنوع في الأصول الفكرية للبراغماتية يجعل من الصعوبة بمكان وضع تعريف شامل لها ولذلك فهي ظاهرة وصفها أسهل من تعريفها.

وتوصف البراغماتية بأنها مذهب أو معتقد فلسفي يتميز بالتركيز على النتائج النفعية والعملية للأفكار. ويطلق على البراغماتية أحيانا "النفعية" أو "الذرائعية". وهي تؤمن بأن الشيء النافع أو المفيد بطريقة عملية هو فقط الشيء الحقيقي أو الذي يجب وضعه في الاعتبار. واشتقت كلمة البراغماتية من اللفظ اليوناني (براغما) وتعني "العمل". (James, 1955:43) وقد استعار الرومان المصطلح وقصدوا به "المتمرس" وخاصة في المسائل القانونية. (موسوعة العلوم السياسية: 387)

وتختلف البراغماتية عن الانتهازية المشتقة في معناها اللغوي من مادة (نهز) التي تعني اغتنام الفرصة، ولا تكون إلا لخدمة الذات، ولا تقوم على فكر استراتيجي يهدف إلى تحقيق أهداف بعيدة المدى. والانتهازية هي نوع من أنواع النفاق إلا أن الاختلاف في كون الانتهازي لا يضم من وراء

تظاهرة بالصلاح أو التملق إلا مصلحته الذاتية في النفع المادي للحفاظ على مكاسبه المشروعة وغير المشروعة بإتباعه اسالياً متنوعة ومتلوثة حسب سياق الموقف. بينما يخفي المناق في نفاقه ألوانا من التآمر والأفكار المنحرفة في منهجية مدروسة ويتغلغل بين صفوف طائفة ما بهدف القضاء على قيمهم لإنهاء كيانهم. (الشمري، 2000: 2)

أما البراغماتية فقد ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر القرن التاسع عشر، حيث ظهر هذا اللفظ للمرة الأولى في مقال لـ"تشارلز بيرس" عام 1878 بعنوان "كيف نجعل أفكارنا واضحة"، حيث ذكر فيه أنه لكي نبلغ الوضوح التام في أفكارنا من موضوع ما فإننا لا نحتاج إلا إلى اعتبار ما قد يترتب عليها من آثار يمكن تصورها ذات طابع عملي، قد يتضمنها الشيء أو الموضوع. (Peirce, 1878)

وقد حدد بيرس للبراغماتية وظيفتين اثنتين وهما:

الأولى- التخلص من جميع الأفكار التي تكون غير واضحة والتي تثير جدلا لا ينتهي ولا تحقق فائدة علمية.

الثانية- دعم الأفكار الواضحة وتأييدها، وصياغة المفاهيم العلمية، والابتعاد عن القضايا الغيبية.

وأراد تشارلس بيرس من البراغماتية أن تكون أداة منطقية. كما في قوله المشهور "تدبر الآثار، التي لا يجوز أن يكون لها نتائج فعلية على الموضوع الذي نفكر فيه، عندئذ تكون فكرتنا عن هذه الآثار هي فكرتنا عن الموضوع" وأشار أيضا إلى "أن فكرتنا عن هذه الآثار المباشرة وغير المباشرة هي الفكرة التي نتحصل لنا نتيجة ما تستشعره حواسنا عن الموضوع، أي هي فكرتنا عن آثاره المحسوسة، بمعنى أن الفكرة هي التي تعطي لسلوكنا معنا" وقد توصل إلى أن "أولئك الذين يتخبطون في وحل التصورات فسوف يحصدون العدم" (Peirce, 1878).

ولكن وليام جيمس، ويعد من الرواد البراغماتيين الأوائل الذين ساهموا بشكل كبير في إثراء الفكر الفلسفي الأمريكي في ذلك الوقت، قد قلب هذه القاعدة في المعنى عند بيرس إلى قاعدة الصدق، فطالما أن الفكرة هي مضمون سلوكنا، فإنها تصدق بما يكون لها من نتاج طبيعية أو بمقدار ما تساعدنا في الوصول إلى علاقات مرضية مع أجزاء الخبرة الماضية والمستقبلية. (James, 1955: 53-62)

وذهب وليام جيمس إلى أن المنفعة العملية هي المقياس لصحة الأفكار، وأنها ضد الموثوقية التعسفية واليقينية الجازمة والاصطناعية وادعاء النهائية في الحقيقة بإغلاق باب البحث والاجتهاد. وهي في نفس الوقت لا تدعي أو تناحر أو تمثل أو تنوب عن أية نتائج خاصة، إنها مجرد طريقة فحسب، مجرد منهج فقط". (James, 1955:42)

ويرى جيمس أن الأساس الوحيد الذي بمقتضاه نميز صدق الأفكار أو صحة المعاني يكون في الفارق الذي يترتب عليها في مجال العمل أو التطبيق. فليس معيار الحقيقة هو مطابقة الواقع، بل قيمة الفكرة، وما يترتب على التسليم بها من نتائج عملية. (إبراهيم، 1968، 33) فلا يعنيها في كثير أو قليل أن نعلم ما هي الكهرباء في ذاتها ما دمنا نستطيع أن نستخدمها، فحسبنا من معناها آثارها. (أمين، 1983: 409)

وأصبحت نظرية الصدق التي انتهت إليها البراغماتية عند وليام جيمس هي جوهر هذه الفلسفة العلمية. ف هو يؤكد " يجب أن يُسخر العقل في تيسير حياة الإنسان وإشباع رغباته، وألا يشغل نفسه بالبحث في حقائق الأشياء وطبائع الموجودات إلا متى حقق البحث نفعاً... ومن هنا كان معيار الصواب هو المنفعة أو العمل المنتج وليس حكم العقل النظري، إن الفكرة الصادقة هي التي تعمل بنجاح في تجاربنا في الحياة إذ ليس الحق إلا مجرد حادث يعرض لفكرة فتصبح صحيحة بما تحقق من عمل" (James, 1907, VI).

تأثر الفيلسوف الأمريكي جون ديوي (1859-1952م) بكتابات جيمس، وبدلاً من أن يحض على البحث على النتيجة الصادقة، رأى بأن الصادق هو المفيد. لذلك طالب ديوي أن تنزل الفلسفة من برجها العاجي لتعالج مشكلات المجتمع، فالفيلسوف ابن المجتمع، وقد يعبر عن مصالح شرعية أو طبقية، وقد يعبر عن مصالح البشرية بكاملها. فقد وصف "ديوي" البراغماتية بأنها فلسفة معاكسة للفلسفة المثالية القديمة المستندة إلى علم صوري بعيد عن الواقع، وبقدر صدق هذه التصورات تكون النتائج، أما البراغماتية فإنها تدع الواقع يفرض على البشر معنى الحقيقة، وليس هناك حق أو حقيقة ابتدائية تفرض نفسها على الواقع وذهب ديوي إلى أن العقل ليس أداة للمعرفة وإنما هو أداة لتطور الحياة، فليس من وظيفة العقل أن يعرف، وإنما عمل العقل هو خدمة الحياة، وأصبح صواب الفكرة أو المبدأ معناه تكيفه مع حياة الآخرين ومعتقداتهم لا مع حياة صاحب العملية وحدها. فالأفكار الصادقة هي وسائل أو ذرائع تؤدي إلى تحقيق الانسجام والتوافق بين الإنسان والبيئة الاجتماعية والطبيعية التي يعيش فيها، وإلى حل ما يواجه فيها من مشكلات تعوق تكيفه مع بيئته. (طه، 2003: 357)

وترى البراغماتية أن التفكير لا يبدأ إلا حيث توجد مشكلة يراود حلها. فالتفكير ليس مجرد عملية تلقائية، ومقياس نجاحه هو في مقدار قدرته في التغلب على المشكلة أو قدرته على أن تبديد الشك والحيرة. والوظيفة الأولى للتفكير هي حل المشكلة التي نواجهها، فإن الأفكار هي أدوات ننجز بواسطتها بعض النتائج المرغوب فيها. فالأفكار تساعدنا على أن نعمل شيئاً أقرب إلى النجاح أفضل مما لو كنا نعلم على الغريزة أو الاندفاع العاطفي وحدهما. مما يعني أن الأفكار لا تكون أفكاراً حقيقية إلا إذا كانت أدوات نستعين بها في حل المشكلات. وقد وضع ديوي خمسة مراحل لحل المشكلة وهي:

- الشعور بأن هناك مشكلة.
- تعريف المشكلة وتحديدها.
- وضع الفرضيات واقتراح الحلول.
- اختبار الفرضيات.
- الوصول آلي النظرية والتعميم. (Dewey, 2010: 6-13)

وقد هاجم ديوي التجريدات الغيبية والتركيبات اللفظية الملفقة وتمسك بالنزعة التجريبية والعينية. فالأفكار والتصورات والنظريات ليست سوى "أدوات" تنحصر كل قيمتها ووظيفتها في فيما لها من قدرة على قيادتنا نحو المستقبل بنتائج مثمرة. (إبراهيم، 1968: 65-68)

ولا تعتقد البراغماتية بوجود حقيقة مستقلة، فالحقيقة هي مجرد منهج للتفكير فحقيقة اليوم قد تصبح خطأ الغد كما أن المنطق والثوابت التي ظلت حقائق لقرون ماضية ليست حقائق مطلقة، بل ربما أمكننا أن نقول: إنها أصبحت خاطئة. يعني ذلك، أن البراغماتية لا تقوم على معانٍ عقلية راسخة أو تصورات مسبقة. فهي لا تدعي وجود معتقدات ثابتة تزعم أنها وحدها هي الصحيحة دون غيرها، وإنما ترتبط بالواقع التجريبي، وتتنظر بعين الاعتبار إلى ما هو جزئي بدلاً الاقتصار على النظر إلى الكليات. فالفلسفة البراغماتية لا تهتم بالانتهاء إلى نتائج فلسفية معينة، بقدر ما تهتم بطريقة البحث الفلسفي نفسه. إنها ليست فلسفة ذات معتقدات ثابتة أو مبادئ محددة لا تحيد عنها.

وبشكل عام، فقد اتجهت البراغماتية بتأثير بيرس، وجيمس، وديوي، وآخرين إلى أن تكون النظرية التي تقول بأن كل ألوان الخبرة بما فيها الفكر الفلسفي والنظريات العالمية والعقائد، لا بد أن تفهم في ضوء الغرض الإنساني، فالأفكار أدوات لتحقيق ما يصبو له الإنسان من غايات والحكم عليها بمقدار كفايتها في خدمة هذه الغايات. ولذلك، فقد أعلنت البراغماتية، منذ البداية برنامجاً طالبت فيه بإعادة بناء الفلسفة على أسس واقعية، فالمعرفة الحقيقية وليدة الواقع. فالبراغماتية على حد تعبير وليم جيمس ليست إلا اسماً جديداً لبعض الطرق القديمة في التفكير، وهو عنوان احد كتب وليم جيمس. (James, 1907)

ومن خلال القراءة المتعمقة للبراغماتية، نجد أن هناك نقاطاً أساسية يشترك فيها كل الفلاسفة البراغماتيون، وهي على النحو التالي:

- الحقائق نسبية ولا وجود لحقائق مطلقة.
- الواقع أو التجربة هو المقياس العملي لأي نظرية أو فكرة.
- الفكر الذي يحقق نفعاً هو الفكر الصحيح والذي يجب تبنيه.

- قيمة الفكرة ليست في ذاتها وإنما في نتائجها العملية.

وقد أصبح شعار بيرس "وجود الشيء كونه نافعاً" هو عنوان البراغماتية ومضمون فلسفتها الحقيقية. والبراغماتية في إطارها الاجتماعي تعبر عن الطريقة الأمريكية لمواجهة ظروف الحياة، حيث يرى الأمريكيون أن ازديادهم للأيدولوجي واهتمامهم بالتسوية والحلول الوسط ذات الصفة البراغماتية قد حافظ على وجودهم كأمة وحقق لهم الأمن في مجتمع حر. فقد شعر الشعب الأمريكي بحاجته إلى فلسفة خاصة تعبر عن آمال وطموحات الشعب الأمريكي حتى لا يبقى أسيراً لفكرة أنهم نسخة مكررة من القارة الأوروبية الأم. (إبراهيم، 1999: 68-69)

ونستطيع الخلاص إلى أن هناك جملة من المؤشرات التي يمكن بواسطتها الحكم على فكر أو شخص أو مؤسسة بأنه براغماتي، وهي على النحو التالي:

- 1- إن نجاح العمل هو المعيار الوحيد للحقيقة. فالسياسي البراغماتي يدعي دائماً أنه يتصرف ويعمل من خلال النظر إلى النتائج العملية المثمرة التي قد يؤدي إليها قراره، وهو لا يتخذ قراره بوحى من فكرة مسبقة أو أيديولوجية سياسية محددة، بل من خلال أخذه بعين الاعتبار للنتيجة العملية المنشودة. فكل فكرة بالنسبة للبراغماتيين هي مجرد فرضية طالما أنها لم تدخل بعد حيز التطبيق.
- 2- النفعية في مواجهة القيمية: فهل يتم تبني السياسات بموجب حسابات الربح والخسارة أم أن القيم هي المقياس الفعلي الذي يتم تبنيه بغض النظر عن حسابات الربح والخسارة؟
- 3- التجريبية في مواجهة المثالية: فهم يعتقدون أن النهج التجريبي هو النموذج الذي يجب أن تسير عليه كل ممارسة ديمقراطية. فالبراغماتيون لا يعترفون بوجود ديمقراطية مثالية صالحة للحكم. فالديمقراطية من وجهة نظرهم هي قبل كل شيء نمط من أنماط الحياة المشتركة وتجربة اجتماعية. من هنا فإن البراغماتية ترفض كل الأيديولوجيات الكلية التي يحركها هدف أعلى ومحدد سلفاً، حيث لا وجود لحقائق مطلقة، فالحقائق نسبية تتبدل بتبدل التجارب، فالفكر الذي يحقق نفعاً هو الفكر الصحيح وقيمة الفكرة تكون في قيمة نتائجها.
- 4- القدرة على التكيف في مواجهة التصلب. فهل يتم محاكمة الواقع السياسي في ضوء أفكار مسبقة أم أن الواقع هو الذي يملي الأفكار؟
- 5- الابتعاد عن الدوغماتية والاعتقاد الجازم بصحة الأفكار، فالبراغماتي هو إنسان حر، متفتح الذهن أمام كل إمكانات الطبيعة.
- 6- النظر إلى المستقبل ورفض الرجوع إلى الماضي والأفكار السابقة.

مفهوم العقيدة السياسية

تعرّف العقيدة في إطارها العام على أنها مجموعة من المعتقدات التي تؤمن بها جماعة معينة وهذه المعتقدات نزلت بإرادة إلهية وبوحي الهي في كتب مقدسة. ولذلك فإن الديانات السماوية كالإسلام والمسيحية يمثلان عقائد دينية. وظاهرة الاختلاف في تفسير تعاليم العقائد ومواقفها من مسائل الدين والحياة هي ظاهرة أزلية ذات مضامين عقّدية حيناً واقتصادية وسياسية أحياناً أخرى. ويشكل التطرف والغلو في التفسير مع الافتقار إلى المرونة احد الأسباب الرئيسية لهذه المشكلة. وتدل الخبرة الإنسانية على أن الصراع يكون أكثر ضراوة بين أبناء الدين أو الإيديولوجية الواحدة، عنه بين أبناء الأديان والإيديولوجيات المتعددة. (موسوعة العلوم السياسية: 272)

من جانب آخر، تُعرّف الإيديولوجيا بأنها عقيدة سياسية لحزب أو حكومة، وتتميز بطابعها العلماني وبكونها من إنتاج منظري الحزب أو الحكومة، على عكس العقيدة الدينية ذات الطبيعة الثابتة وذات المصدر الإلهي. (بركات وآخرون، 1987: 318) وينظر إلى أهمية الإيديولوجيا ليس فقط من خلال ما تقرره من حقائق ومعارف، ولكن من خلال قدرتها على تحريك الأفراد والجماعات حول مبادئها. وقد تتواجد الإيديولوجيا على المستوى المحلي الجزئي، كأيديولوجيات الأحزاب الوطنية أو على المستوى القومي مثل إيديولوجيات الأحزاب العربية القومية، أو على المستوى العالمي والإنساني مثل الأيديولوجية الرأسمالية والشيوعية. (بركات، 2005: 3)

وتساهم العقيدة الدينية في إنتاج عقيدة سياسية موجهة لدى المتدينين كنتاج لعقيدتهم وتصوراتهم الدينية، بحيث يتم إسقاط ماهو ديني على ماهو سياسي، ويتم محاكمة الواقع السياسي من منظور ديني، فلا يتم تجاوز الكتب المقدسة أو الوحي الإلهي.

ومفهوم العقيدة السياسية على النقيض تماما من مفهوم البراغماتية، إذ يشكل نظاماً فكرياً شاملاً يعبر عن وجود مواقف دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية محددة سلفاً يتم معالجة الواقع في ضوءها.

و يكون الحكم على شخص أو فكر أو مؤسسة بأنه عقائدي في ضوء مؤشرات مناقضة تماماً لما جاءت به البراغماتية، انظر الجدول رقم (1).

جدول رقم (1): مؤشرات مقارنة بين العقديّة والبراغماتية

مؤشرات العقديّة	مؤشرات البراغماتية
1- القيمة في مواجهة النفعية، حيث يتم تغليب الاعتبارات القيمة على الاعتبارات النفعية.	1- النفعية في مواجهة القيمة.
2- قداسة الأفكار بعض النظر عن خصوصيات الواقع العملي.	2- الواقع هو المقياس العملي لأي نظرية.
3- التصلب وعدم القدرة على التكيف.	3- القدرة على التكيف في مواجهة التصلب.
4- أي خلل في تطبيق الأفكار وفشل التجربة يتم إرجاعه إلى خلل في الواقع وليس إلى خلل في الأفكار، مما يعني انعدام القدرة على التراجع عن الخطأ.	4- التجريبية في مواجهة المثالية. فالحكم على صحة الفكرة يكون بعد التجربة، مما يعطي فرصة للتراجع عن الخطأ.
5- تغليب الاعتبارات الماضية على المستقبلية.	5- تغليب الاعتبارات المستقبلية على الماضية.

الجدول من إعداد الباحث.

المنطلقات الفكرية لجماعة الإخوان المسلمين.

تشكل طروحات ورسائل حسن البنا الإطار المرجعي للإخوان المسلمين والمصدر التأسيسي لفكرهم في العالمين العربي والإسلامي. فقد اهتم حسن البنا في تحليل الأسباب التي أدت إلى انحدار وتدهور الإسلام في كل من مصر والعالمين العربي والإسلامي بهدف الوصول إلى آلية ورؤية لعلاج هذا التدهور. وقد استندت دعوة البنا إلى المذهب الحنبلي، واعتمد بشكل كبير على كتابات ابن تيمية في القرن الرابع عشر. وقد تأثر البنا أيضا بالسلفية وبالذات بطروحات محمد عبده، وجمال الدين الأفغاني ورشيد رضا. (Bar, 1998: 8)

ويعرّف البنا جماعة الإخوان المسلمين بأنها: "دعوة سلفية وطريقة سنية وحقيقة صوفية ومنظمة سياسية وجماعة رياضية ورابطة علمية ثقافية وشركة اقتصادية وفكرة اجتماعية". (البنا، 1988: 174-175)

وقد أعلن البنا في بداية نشأة جماعته أن دورة التاريخ قد بلغت من جديد المرحلة التي سيقوم فيها المسلمون بقيادة العالم، وأن القرآن يقيم المسلمين أوصياء على البشرية العاجزة للوقوف في وجه الموجة الطاغية من مدنية المادة وحضارة المتع والشهوات. (البنا، 1988: 114).

وكان يهدف حسن البنا في طروحاته إلى خلق نظام إسلامي تجديدي عن طريق فتح باب الاجتهاد. وقد أوضح البنا في مجموعة رسائل الإمام الشهيد المرتكزات الفكرية للإخوان المسلمين ضمن إطارين، إطار عام وإطار خاص، انظر الجدول رقم (2).

جدول رقم (2): المرتكزات الفكرية للإخوان المسلمين كما تصورها البنا.

الإطار العام	الإطار الخاص بالعمل السياسي والحزبي
1- القرآن الكريم والسنة النبوية هما المصدران الأساسيان للإسلام.	1- أن الحزبية مصدر فساد الناس، فقد أتلفت أخلاقهم ودمرت روابطهم، لأن الأحزاب تقوم على مبدأ التنافر والتناحر بهدف الوصول إلى الجاه والمال وهو مخالف لمبدأ الإخوة الإسلامية.
2- تحرير الوطن الإسلامي بكل أجزائه من كل سلطان غير إسلامي، ومساعدة الأقليات الإسلامية في كل مكان، والسعي نحو توحيد المسلمين.	2- نظام الحكم الدستوري القائم على المحافظة على الحرية الشخصية ومبدأ الشورى والبعيد عن الحزبية، ومسؤولية الحكام أمام شعوبهم، يعتبر أقرب أنظمة الحكم إلى الإسلام.
3- شمولية الإسلام لكل مظاهر الحياة الدنيوية والأخروية، فالإسلام هو عقيدة وعبادة ووطن ودين ودولة وروحانية وعمل وسيف. وشمولية الإسلام تجعل منه نظاما صالحا لكل زمان ومكان.	3- الأمة الإسلامية مصدر السلطة.
4- إن التعاليم الإسلامية وفهم الإسلام كما فعل السلف الصالح كافية لإخراج الناس من الجهل والظلم وخروج الأمة من مأزقها.	4- احترام الأمة وضرورة تمثيلها بواسطة أهل الحل والعقد (شريطة تحديد من هم أهل الحل والعقد) وعدم جواز السماح لغيرهم من التنافس للوصول إلى النيابة.
5- قيام الدولة الإسلامية التي تنفذ أحكام الإسلام وتعاليمه في الداخل والخارج. (البنا، 1988:109-122)	5- الإخوان المسلمون لا يطلبون الحكم لأنفسهم، فإن وجدوا من الأمة من يستعد لحمل هذا العبء وأداء هذه الأمانة ووالحكم بمنهاج إسلامي قرآني فهم جنوده وأعدائه، وإن لم يجدوا فالحكم من مناهجهم وسيعملون لاستخلائه من أيدي كل حكومة لا تنفذ أوامر الله. (البنا، 1988: 191-197)

الجدول من إعداد الباحث.

في النصف الثاني من الستينات بدأت تظهر مدارس فكرية جديدة ومتشعبة داخل الجماعة متأثرة بالطروحات المتشعبة لسيد قطب. فقد ساهم سيد قطب في إثراء الفكر الإخواني في الميل نحو التشدد، وتركزت طروحاته حول المواضيع التالية:

1- العدا المطلق للغرب وإسرائيل، وضرورة تطوير أيديولوجية إسلامية بهدف التغيير الثوري العميق والشامل الذي يزيل كافة أشكال النفوذ الأجنبي في المجتمعات الإسلامية، وصولاً إلى تحكيم شرع الله في الأرض. فقد رأى أن "المجتمع الجاهلي هو كل مجتمع غير المجتمع المسلم" (قطب، 1983: 42) ليصل في نهاية الأمر إلى تقرير أنه "حين تكون الحاكمية العليا في مجتمع لله وحده -متمثلة في سيادة الشريعة الإلهية- تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحرراً كاملاً من العبودية للبشر" (قطب، 1983: 53) ويعتبر قطب أن "دين الله هو الذي يقدم التفسير الشامل الكامل للوجود وعلاقته بخالقه العظيم". (قطب، 1983: 17)

2- إن استنساخ المؤسسات والتقاليد الغربية سيفاقم مشكلات الأمة الإسلامية وسيساهم في تفكيك المجتمع الإسلامي. فقد رأى سيد قطب "أن العالم يعيش اليوم كله في جاهلية... جاهلية لا تخفف منها شيئاً هذه التيسيرات المادية الهائلة، وهذا الإبداع المادي الفائق" (قطب، 1983: 8).

وقد كان لطروحات سيد قطب أثر كبير في حدوث انشقاقات على الساحة العربية والإسلامية في داخل صفوف الحركة الإسلامية بين مؤيد ومعارض لطروحاته المتشعبة. ومع بداية السبعينات بدأت الكثير من الكتابات داخل الجماعة بانتقاد طروحات سيد قطب وتعمق هذا الاتجاه بكتاب حسن الهضيبي المرشد العام السابق لجماعة الإخوان تحت عنوان "دعاة لا قضاة" حيث فرق بين عمل القاضي وعمل الداعية. (الهضيبي، 1978: 116-124)

جماعة الإخوان المسلمين في الأردن

انعكس الاستقطاب بين المدرسة المتشعبة والمعتدلة في حركة الإخوان المسلمين في مصر على حركة الإخوان المسلمين في الأردن. فقد انقسمت جماعة الإخوان المسلمين الأردنية إلى مدرستين الأولى أقرب إلى الأيدولوجيا مسترشدة بطروحات سيد قطب وهم ما يطلق عليهم الصقور، حيث تعتبر هذه المدرسة أن الحكومات العربية حكومات جاهلية ولا تمثل الإسلام ولا تقبل بالديمقراطية بوصفها نظاماً غربياً يمنح الحكم والتشريع للشعب من دون الله، أما المدرسة الأخرى فهي ذات طبيعة واقعية وبراغماتية ويطلق على أنصارها اسم الحمام. وقد تأثرت هذه المدرسة بطروحات راشد الغنوشي وحسن الترابي ويوسف القرضاوي حيث تنادوا إلى نقد أفكار

سيد قطب والعمل على ترسيخ القبول بالقيم الديمقراطية واللعبة السياسية. (أبو رمان، 2007: 27)

ولما كانت جماعة الإخوان المسلمين في الأردن، قد استرشدت تنظيماً ومرجعياً بجماعة الإخوان المسلمين بمصر وأعلنت منذ عام 1954 أنها جزء منها، فإنه تشترك مع الجماعة في مصر بمرجعيتها الفكرية والمبدئية مع وجود هامش من الحرية نص عليه النظام العام للتنظيم العالمي لجماعة الإخوان المسلمين يتيح لكل جماعة أن تضع لنفسها لائحة تنظم أوجه نشاطها وتتفق مع الظروف المحيطة بها. فقد أشارت المادة 44 من النظام العام "لكل قطر أن يضع لنفسه لائحة تنظم أوجه النشاط وتتفق مع ظروفه مع مراعاة عدم تعارض أحكامها مع هذه اللائحة ووجوب اعتمادها من مكتب الإرشاد العام قبل تنفيذه" (النظام العام للإخوان المسلمين، 1982). وقد جاء أقرار هذا النظام استجابة لاتساع ميادين الجماعة وفي ضوء التجارب التي مرت بها، ومراعاة للظروف التي تحيط بها ومتطلبات المرحلة، كما نصت عليها الديباجة. وهو نهج براغماتي يؤكد أهمية التكيف مع متطلبات العصر وطبيعة الظروف السائدة.

وقد استمد أول نظام أساسي لجماعة الإخوان المسلمين في الأردن -الذي وضع من قبل محمد عبد الرحمن خليفة عام 1953- من النظام الأساسي لجماعة الإخوان المسلمين في مصر الذي أقر عام 1948. وقد قدم النظام الأساسي لجماعة الإخوان المسلمين في الأردن للجمهور لأول مرة عام 1976. (غرايبة، 1997:33)

وقد أصدرت حركة الإخوان المسلمين في الأردن بتاريخ 3 نيسان 1954 بياناً يوضح أهدافها وسياساتها:

- 1- الأردن جزء لا يتجزأ من العالم الإسلامي.
- 2- الإخوان المسلمون يرفضون أي نظام لا يقوم على أساس الإسلام.
- 3- الإخوان المسلمون لن يؤيدوا أي حاكم حتى يقيم شرع الله في الأرض.
- 4- الإخوان المسلمون في الأردن جزء من الحركة الإسلامية في مصر.
- 5- الإخوان المسلمون ينظرون إلى قضية فلسطين على أنها قضية إسلامية وهم يحشدون كل إمكاناتهم المادية والمعنوية لتحرير فلسطين من اليهودية العالمية والصليبية الدولية. (أبو فارس، 2000:11)

وقد نص القانون الأساسي لجماعة الإخوان المسلمين الذي أقره مجلس الشورى العاشر بتاريخ 15/شباط/1974 على:

- 1- الإخوان المسلمون هيئة إسلامية جامعة تعمل على إقامة حكم الله في الأرض...وتعمل على إحياء روح الجهاد الإسلامي باعتباره سبيل الخلاص للبشرية جمعاء.
- 2- التعاون مع الحركات الإسلامية الأصيلة في الوطن الإسلامي والعالم اجمع...ومواجهة التحدي الحضاري الحديث، الفكري والاجتماعي والسياسي والخلقي والعسكري...الخ.
- 3- مساعدة الأقليات الإسلامية في شتى بقاع المعمورة...ومساعدتها على التحرر من الطواغيت الحاكمة التي تحارب الإسلام.

وحدد القانون الأساسي مجموعة من الوسائل في سبيل تحقيق أغراضهم منها:

- التربية الفردية والجماعية لأعضاء الجماعة.
- الدعوة بطرق الاتصال المباشر بالناس، وذلك عن طريق الخطب والمحاضرات والندوات وبطرق النشر المختلفة من رسائل ونشرات وصحف وكتب ومجلات وتجهيز الوفود والبعوث.
- العمل على إنشاء مؤسسات إسلامية اقتصادية واجتماعية وعلمية، وتأسيس المساجد والمدارس والمستوصفات والملاجئ...الخ. (القانون الاساسي للجماعة، 1974)

وتحت عنوان: الإخوان المسلمون ماذا يريدون؟ أصدرت الجماعة بياناً بتاريخ 1985/6/15 أكدوا فيه: أن الإخوان المسلمين حركة إسلامية جامعة، قامت بعد سقوط الخلافة الإسلامية، للعمل على استئناف الحياة الإسلامية بجميع جوانبها، فكان لها السبق بين الحركات الإسلامية، وشرف التصدي للمخططات الكافرة والدعوات الهدامة التي أوشكت أن تطمس معالم المنطقة، وكان من مطالبهم:

1. تحكيم شريعة الإسلام.
2. الجهاد طريق لتحرير فلسطين.
3. إطلاق الحريات العامة، وتطهير وسائل الإعلام من كل ما يتعارض مع الإسلام، وتطهير أجهزة الدولة من الرشوة والمحسوبية، ومحاربة الفساد وأوكاره، وتعيين الأكفاء والأمناء.
4. عدم مطاردة الدعاة في أرزاقهم.
5. صياغة مناهج التربية صياغة تخدم أهداف الأمة الإسلامية من أجل بناء جيل مسلم يعمل على تحرير البلاد والعباد.

أما الوسائل التي يعتمد عليها الإخوان المسلمون في تحقيق أهدافهم فهي:

- أ. الدعوة عن طريق النشر والإذاعة وبوسائل مختلفة من نشرات وصحف ومجلات وكتب وغيره من الوسائل المتاحة.

ب . تربية أعضاء الجماعة تربية صالحة عقائديا وفق الكتاب والسنة وعقليا بالعلم وروحيا بالعبادة، وخلقيا بالفضيلة وبدنيا بالرياضة، والتركيز على الإخوة الصادقة والتكافل التام والتعاون الحقيقي بينهم حتى يتكون رأي عام إسلامي موحد، وينشأ جيل جديد يفهم الإسلام فهما صحيحا ويعمل بأحكامه.

ج . وضع المناهج الصالحة في التربية والتعليم، والتشريع والقضاء، والإدارة، والاقتصاد، والصحة، والحكم.

د. العمل بجد على تنقية وسائل الإعلام مما فيها من شرور وسيئات والاسترشاد بالتوجه الإسلامي في ذلك كله.

هـ . إنشاء مؤسسات تربوية واجتماعية واقتصادية وعلمية، وتأسيس المساجد والمدارس والمستوصفات والملاجئ والنوادي، وتأليف اللجان لتنظيم الزكاة والصدقات وأعمال البر والإصلاح بين الأفراد والأسر، ومقاومة الآفات الاجتماعية والعادات الضارة، والمخدرات والمسكرات، والمقامرة، وإرشاد الشباب إلى طريق الاستقامة وشغل الوقت بما يفيد، ويستعان، على ذلك بأقسام مستقلة طبقا للوائح خاصة.

و . إعداد الأمة إعدادا جهاديا لتقف جبهة واحدة في مواجهة الغزاة. (ابو فارس، 2000، ص:12)

وعند إجراء مقارنة بين بيان 1954 والقانون الأساسي لعام 1974 وبيان عام، 1985 فأنا نتوصل إلى أن هناك ثوابت مشتركة وقيم عقدية راسخة، كما يوضحها الجدول رقم (3)، بالإضافة إلى وجود نقاط خلاف تشير إلى تطور ملحوظ في منهجية التغيير في فكر وممارسة الإخوان المسلمين الأردنية، وهي موضحة في الجدول رقم (4).

جدول رقم (3): مقارنة بين بيانات 1954 و1974 و1985

النقاط المشتركة في البيانات

- 1- رفض أي نظام لا يقوم على أساس الإسلام.
- 2- اعتبار فلسطين قضية إسلامية. (لم يتم ذكر فلسطين صراحة في القانون الأساسي لعام 1974)
- 3- الجهاد هو طريق تحرير فلسطين.

الجدول من إعداد الباحث.

جدول رقم (4): نقاط الاختلاف في البيانات

بيان عام 1954	القانون الأساسي 1974	بيان عام 1985
1- النص صراحة على أن الإخوان المسلمين لن يؤيدوا أي حاكماً حتى يقيم شرع الله في الأرض.	وجود نص عام يطالب بنصرة المظلومين حيثما وجدوا ورفع الظلم عنهم.	مطالبة الدولة بإطلاق الحريات العامة، وتطهير وسائل الإعلام، وتطهير أجهزة الدولة من الرشوة والمحسوبية، ومحاربة الفساد، دون الإشارة الصريحة للحاكم.
2- لم يحدد البيان الوسائل التي يعتمد عليها الإخوان المسلمين في تحقيق أهدافهم.	حدد مجموعة من الوسائل في سبيل تحقيق أغراضهم.	حدد مجموعة من الوسائل التي يعتمد عليها الإخوان المسلمين في تحقيق أهدافهم، بالإضافة إلى النص على أية وسيلة من الوسائل المتاحة.
3- النص الصريح إلى أن الإخوان المسلمين في الأردن جزء من الحركة الإسلامية في مصر، وأن الأردن جزء لا يتجزأ من العالم الإسلامي.	نصت المادة الأولى على أن جماعة الإخوان المسلمين تأسست في مصر عام 1928، وفي الأردن عام 1945.	عدم وجود نص صريح يشير إلى أن الإخوان المسلمين في الأردن جزء من الحركة الإسلامية في مصر، وأن الأردن جزء لا يتجزأ من العالم الإسلامي.

الجدول من إعداد الباحث.

ومن خلال هذه المقارنة نستطيع الوصول إلى النتائج التالية:

أولاً- احتفظت جماعة الإخوان المسلمين الأردنية في بياناتها بموقف ثابت تجاه القضية الفلسطينية وآلية تحريرها عن طريق الجهاد. ويعبر هذا الموقف عن رؤية عقدية على صعيد الفكر-الموقف من القضية الفلسطينية-وعلى صعيد الممارسة-الموقف من الجهاد- على الرغم من وجود فارق زمني مقداره 31 عاماً بين البيانين، ولم يتم ذكر فلسطين صراحة في القانون الأساسي لعام 1974، باعتبار أن القانون الأساسي يهدف إلى تنظيم عمل الجماعة وتحديد غاياتها ووسائلها بشكل عام دون الدخول بالتفاصيل كما هو الحال في البيانات.

ثانياً- احتفظت جماعة الإخوان المسلمين الأردنية بموقف عقائدي ثابت على صعيد الفكر بحيث ترفض أي نظام لا يقوم على أساس الإسلام.

ثالثاً- هناك تطور براغماتي ملحوظ على صعيد الممارسة- وهو ما يعكسه القانون الأساسي للجماعة وبيان عام 1985، من عدة أوجه:

- تجنب الصراع مع النظام الحاكم عبر تجنب النص الصريح بأنهم لن يؤيدوا أي حاكم حتى يقيم شرع الله في الأرض (كما ورد في بيان 1954) واستبداله بنص براغماتي يطالب

بإجراء إصلاحات شاملة في داخل الدولة (بيان، 1985)، أو إشارة عامة تطالب بنصرة المظلومين أينما وجدوا (القانون الأساسي، 1974).

- عدم وجود نص صريح في القانون الأساسي لعام 1974 وبيان 1985 - كما ورد في بيان 1954 - إلى أن جماعة الإخوان المسلمين في الأردن جزء من الحركة الإسلامية في مصر، حتى تتجنب الجماعة الاتهامات بوجود أجندة خارجية لها، وهو تطور براغماتي مهم لتأكيد انتمائها الوطني.

المظاهر البراغماتية والعقدية في فكر وممارسة جماعة الإخوان المسلمين الأردنية على الصعيد الداخلي:

سيتناول هذا الجزء من الدراسة المظاهر البراغماتية والعقدية لجماعة الإخوان المسلمين الأردنية تجاه المسائل الداخلية على مستويين اثنين، المستوى الفكري، ومستوى الممارسة. وقد تم الاستناد إلى مواقفهم السياسية وتصريحاتهم ومركزاتهم الفكرية والبيانات الصادرة عنهم، ومحاکمتها في ضوء المؤشرات البراغماتية والعقدية:

مظاهر البراغماتية السياسية على المستوى الفكري، وهي على النحو التالي:

I - القدرة على التكيف:

فقد أثبتت جماعة الإخوان المسلمين في الأردن أن لها قدرة على التكيف في إطار البراغماتية السياسية على المستوى الفكري، ومن مظاهرها:

1- قبول التعددية السياسية ومحاولة خلق تأصيل إسلامي لموضوع التعددية-وهو ما يناقض ما طرحه حسن البنا الذي عدّ أن الحزبية مصدر فساد الناس باعتبارها تقوم على مبدأ التنافر والتناحر- عبر الاستشهاد بالعديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تؤكد أن لكل إنسان خصائص وطاقات وأن المواطنين متفاوتون في القدرات العقلية والمهارات المختلفة. "وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"، "قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون". فالتعدد حسب الفكر الإخواني أمر يتناسب مع طبيعة الخلق والإسلام أكد على أهمية الاختلاف في الرأي والاجتهاد. وقد كان الرسول يشاور أصحابه في قضايا كثيرة وحساسة ومنها أنه شاور سلمان الفارسي في قضية حفر الخندق.

وقد طور الإخوان مفهوم التعددية السياسية من خلال التأكيد على أن التعددية مظهر حديث من مظاهر الديمقراطية باعتبار أن الأحزاب مؤسسات وطنية تتنافس في خدمة الوطن. حيث يؤكد اسحق الفرحان، أمين عام جبهة العمل الإسلامي، "نحن نؤمن بأن الله سبحانه وتعالى خلق الناس

مختلفين متفاوتين، وجعلهم شعوباً وقبائل، رجالاً ونساءً، ولم يقصد بهذه الاختلافات التنافر والتقاتل، بل التعارف والتعاون، ومن هنا، فنحن نرى في تعدد الأديان والأيدولوجيات والمذاهب الفلسفية أمراً يتناسب وطبيعة الخلق، وعلى ذلك فكل شخص حر في اعتقاده وتفكيره... وفي ضوء هذه المبادئ فمفهوم التعددية عندنا يتبلور في المظاهر التالية: التعددية السياسية سمة أساسية لممارسة الديمقراطية، والتعددية الحزبية مظهر من مظاهر الديمقراطية الحديثة، كما أن حرية التعبير مظهر ثانٍ من مظاهر الديمقراطية". (فرحان، إسحق، 2002: 45-46)

وأكد الفرحان، أنه لا ضير من "الاشتراك الإيجابي في التعددية الحزبية عن طريق" جبهة العمل الإسلامي "وعدم الممانعة في إنشاء أي حزب سياسي يتقيد بثوابت الأمة والدعوة إلى التعاون بين الأحزاب السياسية في جميع الأمور التي تقع في دائرة الاتفاق في البرامج التي تخدم المصالح العليا للوطن". (فرحان، إسحق، 2002: 46)

وبذلك نستطيع القول، أن موقف جماعة الإخوان في الأردن من موضوع التعددية يعد موقفاً متطوراً على الصعيد الفكري من حيث قبول الآخر، وكانوا السباقين من بين الحركات الإسلامية التي تقر التعددية. ويؤكد الفرحان في هذا السياق "في الديمقراطية السلمية، ينبغي أن لا تثير الإشكالية بين التعددية ووحدة الأمة، فالتعددية السياسية، هي التي تفضي إلى أحزاب تعتبر مؤسسات وطنية تتنافس في خدمة المصالح العليا للوطن ولا تقود إلى مزيد من التجزئة والتفرقة والعصية والفتوية" (فرحان، إسحق، 2002: 46) وهو موقف يخالف ما ذهب إليه حسن البنا في كتاباته، وهو تطور براغماتي مهم على الصعيد الفكري.

ويؤكد الدكتور ارحيل غرايبة أحد القيادات البارزة في جماعة الإخوان المسلمين، وصاحب مبادرة الملكية الدستورية كما سنأتي على ذكرها لاحقاً، بقوله "أن الأحزاب السياسية أصبحت في الوقت الحاضر تشكل عماد العمل السياسي المنظم والحياة السياسية المستقرة، ولا يتصور قيام حراك سياسي فاعل في أي مجتمع دون وجود دور مؤثر للأحزاب السياسية" (غرايبة، رحيل، 2002: 51) باعتبارها مدارس للشعوب، بما تمارسه من دور التثقيف والتوعية عبر الخوض في مشاكل المجتمع، وبسط أسبابها للبحث والدراسة. وقد أكد ارحيل غرايبة* للباحث في مقابلة خاصة بهذا الشأن على أن جماعة الإخوان وجبهة العمل الإسلامي ليست أحزاباً دينية وإنما مؤسسات مدنية ذات طابع ديني، وهو تطور هام على صعيد مواكبة تطور الحياة المدنية التي ترفض وجود مؤسسات دينية تقوم على رفض الآخر. ويندرج هذا التطور ضمن مؤشرات البراغماتية في قدرة جماعة الإخوان المسلمين على التكيف.

* تمت مقابلة الدكتور ارحيل غرايبة من قبل الباحث بتاريخ 26/8/2009

2- براغماتية القبول بالقيم الديمقراطية: تعرّف الديمقراطية على أنها حكم الشعب للشعب وأنها ذلك النظام السياسي - الاجتماعي الذي يقيم العلاقة بين أفراد المجتمع والدولة وفق مبدأي المساواة بين المواطنين ومشاركتهم الحرة في صنع التشريعات التي تنظم الحياة العامة.

وانقسمت جماعة الإخوان المسلمين في الأردن بين مؤيد ومعارض تجاه الديمقراطية. فهناك عدد من قيادات الإخوان تعارض الديمقراطية، وتعتبرها وافدا غير إسلامي وأسلوبا علمانيا للحكم قادم من الغرب، وترى أن البديل الإسلامي هو الشورى، فالمرجعية في الديمقراطية الغربية للشعب، أما في الإسلام فالمرجعية للشرع. ويبدو التشدد واضحا في خطاب الدكتور محمد أبو فارس وهو من أبرز القيادات المتشددة في جماعة الإخوان المسلمين الأردنية، حيث يسوغ موقفه من تحريم المشاركة في الحكومة بعدد من الآيات القرآنية ويرى أن المجتمعات القائمة هي أنظمة جاهلية ولا تحكم بما أنزل الله ولا تعتبر الإسلام مصدرا وحيدا للتشريع. (أبوفارس، 2000: 14).

و هناك تيار آخر وجد في الديمقراطية استجابة للفتنة البشرية، فعلى حد تعبير أحمد الأزايدى احد القيادات الإخوانية البارزة في الأردن "وكان حريا بأممتنا أن تعلم الديمقراطية للدنيا كلها.. إن الاستجابة للديمقراطية هي استجابة لمعطيات الواقع البشري". (منصور، عزمي، 1994: 86)

أما التيار التوفيقى فقد عمل على مصطلح توفيقى هو "الشورقراطية". فالشورى والديمقراطية متفقتان إذا اجتمعا ومختلفان إذا افترقا حيث إن الفرق بين الديمقراطية في الغرب وما جاء به الإسلام من مبادئ وأصول سياسييه مثل الشورى والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالشورى مبدأ عام والديمقراطية وسيلة أو آلية لتنزيل هذا المبدأ، لا تناقض بين الاثنين. العبرة ليست في التسمية ولكن في المضمون. ويؤكد أسحق الفرحان بأن " العمل السياسي جزء لا يتجزأ من العمل الإسلامي العام، والجماعات والجمعيات الإسلامية حيث تقتصر عملها على ناحية معينة، إنما يكون من باب الواقعية والتركيز على هذا الجانب وليس من عدم الإيمان بشمولية العمل الإسلامي. فالشورى هي المفهوم الإسلامي الأساسي، والديمقراطية مفهوم غربي مستورد، ولذلك، عند استعمالنا لمصطلح الديمقراطية، نؤكد على منظومة القيم التي تؤكد على حرية الإنسان وكرامته، وعلى العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص، ومشاركة الشعب في اتخاذ القرارات التي تؤثر على حياته، وهي قيم إسلامية في جوهرها، ولذلك لا مشاحة في الاصطلاح، أو استعمال مصطلح الشورى والديمقراطية أو الشورقراطية". (فرحان، اسحق، 2002: 43)

ويؤكد عبد اللطيف عربيات رئيس مجلس النواب السابق والرئيس الحالي لمجلس شورى الإخوان في الأردن، في معرض رده على الذين يتهمون الديمقراطية بالكفر، وبأنها ضد الشورى،

بقوله "لا تعارض بين المفهومين ولا تماثل بينهما في الوقت نفسه ن فالشورى أوسع وهي نظام حياة شامل، والديمقراطية هي جانب منه، والمصيبة هي أن الذين يكتوون بنار الاستبداد يقولون بأن الديمقراطية كفر، ونقول أن الديمقراطية هي آلية نصل من خلالها إلى الاحتكام إلى شرع الله وبالتالي تضع الديمقراطية في مكانها الخاص، والشورى في مكانها الخاص العلي، ونحن نستخدم الآلية للوصول إلى الأصل". (نقلا عن منصور، عزمي، 1994: 87)

والواقع يشير إلى سعي الجماعة ومنذ مطلع الخمسينات إلى الإفادة من الديمقراطية والوصول إلى المجلس النيابي، وفي هذا إقرار بالممارسة الديمقراطية وقبولها، حتى وإن عارضها بعضهم. وعلى سبيل المثال فأن حزب جبهة العمل الإسلامي الذي يعتبر بمثابة الذراع السياسي لحركة الإخوان، قد نص في نظامه الأساسي صراحة على الالتزام بالديمقراطية، وكان من أوائل الأحزاب التي تقدمت للممارسة الديمقراطية منذ أن صدر قانون الأحزاب، في الوقت ذاته الذي أعلنوا تحفظهم على هذا القانون. وفي هذا السياق يؤكد النائب السابق يوسف العظم هذا التوجه بقوله: "إن الديمقراطية كانت مرفوضة من قبل الإسلاميين سابقا، ولكنها الآن مقبولة، ولكن أي ديمقراطية هي المقبولة؟ إنها الديمقراطية التي ترفض الإلحاد، ونقبل بالأمور التي نتفق عليها.... نأخذ من الديمقراطية حسناتها ونرفض سيئاتها، والديمقراطية مرحلة آنية في مجتمعنا المعاصر، نظورها وتطور بها إلى الشورى، التي لا نرضى عنها بديلا، وهنا التطوير بلغة الفكر والحوار وليس بالعصا والحجارة". (منصور، عزمي، 1994: 88-89)

وقد شكلت مبادرة الإخوان الإصلاحية عام 2005 تحت عنوان "رؤية الحركة الإسلامية للإصلاح" نقطة مفصلية ومهمة على صعيد التطور الفكري للجماعة. فقد نشرت هذه المبادرة على شكل كتيبات وعلى موقع جماعة الإخوان المسلمين الرسمي استجابة للعديد من الاعتبارات أبرزها:

- جاءت بالتزامن مع المبادرات الإخوانية في كل من مصر وسوريا عام 2004، وهو ما يؤكد التنسيق المشترك والتلاحم بين جماعة الإخوان المسلمين في المنطقة.
- تعد هذه المبادرة بمثابة رسالة إلى الأطراف الأخرى وبالذات الدول الغربية بأن الإسلاميين يقبلون بالقيم الديمقراطية الحديثة والتعددية وتداول السلطة. (ابو رمان، 2007: 33)

وقد نصت الوثيقة على التعددية السياسية والفكرية والحرية الدينية منهج مستقر وبارز في فكر وممارسة الحركة الإسلامية، كما تؤمن بالحوار الفكري والسياسي والتفاعل الإيجابي مع مكونات المجتمع كلها. وتحت عنوان "المصالح الوطنية العليا للأردن" أكدت الوثيقة على "اعتماد مبادئ الديمقراطية والشورى وأدواتها بما فيها الاحتكام إلى صناديق الاقتراع وفق قانون عادل وإجراءات سليمة، والتداول السلمي للسلطة التنفيذية نهجاً ثابتاً للحياة السياسية" وبذلك

استطاعت الجماعة في الأردن تجاوز الإطار الجدلي المتعلق بالمزاوجة بين مفاهيم الديمقراطية الحديثة ومفهوم الشورى ببعده الديني. وهو تطور براغماتي مهم على الصعيد الفكري.

وقد استطاعت جماعة الإخوان المسلمين تجاوز الكثير من القضايا الإشكالية على المستوى الفكري عبر تطويرها لبراغماتية الصمت، مثل: هل سيقبل الإسلاميون في حال وصولهم للسلطة بنشاطات الشيوعيين والليبراليين؟ وهل سيعمل الإسلاميون على منح الحريات العامة حتى لو تعارضت مع أحكام الشريعة الإسلامية؟، وهو ما أشار إليه الباحث أبو رمان.*

3- استطاعت الجماعة أن تبيح باب التجديد مفتوحاً عبر تشجيع الاجتهاد لمواكبة مستجدات العصر وعدم الانغلاق على الذات. ولا يكون باب الاجتهاد مفتوحاً على إطلاقه وإنما ضمن أطر محددة منها:

- عدم التعارض مع النص القرآني أو الحديث النبوي أو الثوابت العقدية.
- وجود شروط تتعلق بمصدر الاجتهاد من حيث الدرجة العلمية والتفقه في الأحكام الإسلامية، بالإضافة إلى الدرجة التنظيمية للمجتهد. فكل اجتهاد ينبغي أن يعرض على مؤسسات الجماعة تبعاً من المكتب التنفيذي إلى مجلس الشورى حيث يتم التصويت عليه في ضوء المعايير التالية:

- مدى الملائمة مع المستجدات والظروف السائدة.

- الفائدة المرجوة.

- عدم تضارب الاجتهاد مع ثوابت الجماعة. (الثبوتات، 48: 2009-49)

وقد اتاح النظام العام للتنظيم العالمي لجماعة الإخوان (المادة 44) وجود هامش من الحرية يتيح لكل جماعة أن تضع لنفسها لائحة تنظم أوجه نشاطها وتتفق مع الظروف المحيطة بها، وهو ما تم الإشارة إليه سابقاً.

وشكلت قدرة الجماعة على الاجتهاد وهامش الحرية الذي منحها إياه النظام العام للتنظيم العالمي، ميكانزمات براغماتية للتعامل مع خصوصيات الواقع، وعدم الاكتفاء بالقوالب الفكرية الجاهزة.

* اجريت المقابلة بتاريخ 2010/5/10

مظاهر البراغماتية السياسية على مستوى الممارسة:

I- **النفعية في مواجهة القيمية:** فقد أثبتت جماعة الإخوان المسلمين في الأردن القدرة على ممارسة البراغماتية السياسية على مستوى الممارسة من خلال تغليب الاعتبارات النفعية على حساب الاعتبارات القيمية، على النحو التالي:

1- **براغماتية التحالف مع النظام الحاكم:** على الرغم من الفلسفة الفكرية التي تقوم عليها الجماعة باستنادها إلى القرآن والسنة النبوية وضرورة تحكيم شرع الله في الأرض كما طرحت من قبل البنا، فإن جماعة الإخوان المسلمين ومنذ نشأتها قد هادنت الأنظمة الحاكمة في الدول العربية، ولم تكن العلاقة مع تلك الأنظمة تنافرية بالرغم من أن تلك الأنظمة لم تحكم شريعة الله وسنة نبيه. وتعتبر هذه المسألة تطورا كبيرا على مستوى الممارسة لدى الإخوان المسلمين في الأردن. فمسألة أن الإخوان المسلمين لن يؤيدوا حاكما حتى يقيم شرع الله في الأرض وأنهم يرفضون أي نظام لا يقوم على شرع الله، قد حصل عليها تطورا براغماتيا مهما في الوقت الحاضر من زاويتين اثنتين: الأولى، فهم يقولون بأن الحكم بشريعة الله هو مطلب الإخوان في الدنيا، الثانية، ان الحكم بشريعة الله هو هدف عام يمكن الوصول إليه بالتدرج وعن طريق الإصلاح، وبذلك يتجنبوا الدخول في صراع مع الأنظمة الحاكمة. (الثبিতات، 2009: 52)

فقد تأسست جماعة الإخوان المسلمين في الأردن في 11/9 / 1945 تحت قيادة الحاج عبد اللطيف ابو قورة، باعتبارها فرعا للجماعة الأم في مصر والتي كانت قد تأسست في مصر عام 1928 على يد الإمام حسن البنا. وقد وافقت الحكومة الأردنية على تأسيسها، وفقا لقانون الجمعيات، وقد رأسها واستمر على إدارتها أبو قورة بعد انتخابات الهيئة الإدارية "المكتب العام" في عام 1947، وهي أول انتخابات لها في الأردن. (عبد الكاظم، علي، 1997: 17)

ومنذ تأسيسها فقد استطاعت الجماعة أن تعمق قواعدها الشعبية عبر تركيزها على المنهج التربوي الذي يركز على إصلاح الفرد والأسرة ومن ثم المجتمع (Leiken, 2007: 108). وهو نهج براغماتي على صعيد الممارسة.

وقد تبدل اسم "جمعية" الإخوان المسلمين في الأردن والتي كانت فيها العضوية مفتوحة للجميع، إلى "جماعة" الإخوان المسلمين بعد أن أصبحت تنظيما له قيوده فيما يخص العضوية والتي تقوم على التزكية. وجماعة الإخوان في الأردن جزء من التنظيم الدولي للإخوان المسلمين حيث يتشكل هذا التنظيم من ممثلي الجماعات في مختلف الدول وفق نسبة يحددها عدد أعضاء الإخوان في كل دولة. (غرايبة: 16)

وقد تم افتتاح مقر جمعية الإخوان المسلمين تحت رعاية الملك عبدالله الأول، وهي إشارة إلى الرغبة في توطيد العلاقة مع الجماعة من قبل النظام الأردني على أساس تبادل المنافع. وقد كان هناك جملة من الأسباب التي جعلت النظام الأردني يحتضن الجماعة منها:

1- استطاع النظام الحاكم في الأردن أن يستوعب جماعة الإخوان المسلمين وأن يمد جسور الثقة معها. فقد سعى النظام الأردني في مراحله الأولى إلى استمداد قدر وافر من مشروعيته بتأكيد انتمائه إلى بيت النبوة ومحافظته على رسالة الإسلام واستثمر وجود الجماعة ووظيفتها للتأكيد على شرعيته الدينية في وجه الدعوات اليسارية والقومية التي رأى فيها تهديداً لبقائه.

3- الحصول على الدعم المالي، خاصة وان مؤسسي الجماعة (أبو قورة والبليسي والأمعري) كانوا من تجار الشام الأغنياء الذين اعتمد عليهم الملك عبدالله الأول في الحصول على القروض واستضافة ضيوف الملك. بالإضافة إلى الرغبة في الاستفادة من الخبراء السوريين واللبنانيين وأهل الشام بهدف مساندة النظام في نهضة المجتمع الأردني. (عموش، 2008: 10)

في المقابل وعلى صعيد الجماعة فقد ساندت النظام الأردني لجملة من الأسباب:

1- العلاقة غير الودية بين أخوان مصر والملك فاروق الذي تحالف مع النظام السعودي ضد النظام الأردني.

2- دفعت المواجهة بين "إخوان" مصر وعبد الناصر "إخوان" الأردن إلى الرهان على العلاقة مع الحكم خوفاً من مصير شبيهه إذا تمكن الناصريون من السيطرة على السلطة في الأردن. فقد حصلت مواجهات دموية بين النظام الناصري وجماعة الإخوان في الفترة الممتدة بين 1954 و1970، حيث تم إعدام عدد من قيادات الإخوان المسلمين. (عشماوي، 2006: 3)

3- اعتبار النظام السياسي الأردني ممثلاً بالملك عبدالله الأول بمثابة اقرب النظم السياسية العربية إلى الإسلام بسبب جذوره الهاشمية. (عموش، 2008: 10-20)

4- لا يمكن أن يشكل الأردن القاعدة الرئيسة للحكومة الإسلامية المنشودة، إما لصغر حجمه أو لأن الجماعة لم تنشأ أصلاً في الأردن وإنما في مصر، لذلك فقد تنقل الإخوان المسلمين في الأردن بين المعارضة السياسية والمشاركة في الحكم.

ولذلك فقد عمل الملك المؤسس عبدالله الأول على توطيد علاقاته مع الجماعة واستقطب عدداً من الشخصيات الإخوانية حيث أصبحوا فيما بعد من مسؤولي الدولة الأردنية من أمثال أحمد الطراونه الذي أصبح رئيساً للديوان الملكي، وهزاع المجالي الذي تولى منصب رئيس الوزراء. وواجه الأردن ضغوطات كبيرة وبالذات في عهد الملك الراحل الحسين بن طلال لمنع

وحظر جماعة الإخوان من العمل على الساحة الأردنية، خاصة أن الأردن هو الدولة الوحيدة التي أعطت ترخيصاً لعمل الجماعة. وعقوبة الإعدام هو ثمن الانتساب لجماعة الإخوان في سوريا والعراق وليبيا، والسجن هو عقوبة الانتساب للجماعة في مصر. وعندما ضغطت القوى الغربية على الملك حسين مطالبة إياه بمنع جماعة الإخوان، خاطبهم قائلاً: "أنهم يبنون المدارس والجمعيات والمستشفيات ولم يُخلوا بالأمن فهم جزء أصيل من شعبي". (عموش، 2008: 22).

II- الواقعية السياسية: فقد مارست جماعة الإخوان سياسات واقعية تقوم على اعتبار أن الواقع هو المقياس العملي لأية سياسة، ومن مظاهرها:

1- براغماتية إدارة الأزمات الكبرى.

في مرحلة الفوضى وعدم الاستقرار السياسي التي حظرت خلالها الأحزاب السياسية عام 1957، لم يتأثر الإخوان بقرار الحظر، حيث تم استثنائهم، باعتبارهم جمعية إسلامية وليس حزبا سياسيا. وقد كان تأثيرهم في هذه الفترة ايجابيا لصالح النظام السياسي الأردني في مواجهة الأحزاب اليسارية المعارضة.

فقد ساندت الجماعة عام 1957 نظام الحكم في مواجهة محاولة الانقلابات التي قادتها القوى اليسارية والقومية. خاصة بعدما اخذوا العبرة من الواقع المأساوي الذي تحياه جماعة الإخوان المسلمين في الأقطار العربية الأخرى، لذلك فقد تنبهوا إلى أهمية وضرورة التعايش السلمي مع النظام السياسي الأردني، حتى لو تطلب الأمر الاصطدام مع الأحزاب والقوى السياسية الأخرى. وفي ضوء هذا الفهم السياسي للواقع ومباشرة وبعد قرار حظر الأحزاب، نظمت الجماعة مظاهرات جماهيرية حاشدة دعما للملك والنظام السياسي، مثنيين على موقفه لصالح الإسلام والمسلمين، وهاجموا موقف حكومة النابلسي ذات التوجهات اليسارية في خطبهم وندواتهم العامة (عبد الكاظم، علي، 1997: 21) ويؤكد عدد من الباحثين إن هذا الموقف الإخواني المعادي لحكومة النابلسي يعود إلى جملة من الأسباب منها:

- 1- التوجهات الناصرية للنابلسي.
- 2- الأسباب العقدية كون النابلسي هو أمين عام الحزب الوطني الاشتراكي الداعم للشيوعية والشيوعيين.
- 3- غياب مفهوم التعددية السياسية في الفكر الإخواني. فقد أبدى الإخوان تأييدا لقرار حظر الأحزاب السياسية، وهو ما يتنافى مع ابط قواعد الديمقراطية التي كان ينبغي لهم يعارضوا أي مساس بها، إلا أنهم مارسوا سياسات براغماتية بهدف إقصاء الخصوم من القوى السياسية الأخرى. (منصور، عزمي، 1994: 61-62)

وعندما اشتد الصراع بين الحكومة الأردنية وفصائل المقاومة الفلسطينية في أحداث أيلول 1970 وقفت جماعة الإخوان المسلمين على الحياد، ورفضت في الوقت نفسه محاولات هذه الفصائل الإجهاز على النظام، وأصدرت بيانا ينادي بضرورة وأد الفتنة وتحريم الاقتتال تحت عنوان "لمصلحة من هذه الفتنة العمياء؟"، وقد خاطب البيان طرفي الصراع "إن الفرضية التي لا تقبل النقاش أن عناصر الجيش بجميع أفرادهم المؤمنين الصادقين الشجعان، وعناصر الفدائيين الصادقين الشجعان يلتقون كلهم على هدف واحد هو تحرير الوطن المحتل وهزيمة العدو الصهيوني الأثيم... الخ". (ابو فارس، 2000: 48-49).

2- معارضة الحكومة وليس النظام:

عمد الإخوان المسلمون من حين إلى آخر إلى انتقاد سياسات الحكومات الأردنية المتعاقبة وبالذات فيما يعتبرونه انحرافا عن القيم الإسلامية. فبعد تجاوز أزمة الخمسينيات من القرن العشرين والتي أيدت جماعة الإخوان المسلمين فيها النظام السياسي الأردني ممثلا بالملك في مواجهة القوى اليسارية من أحزاب وحكومة، دأبت الجماعة إلى الفصل ما بين الحكومة الأردنية والنظام الحاكم ممثلا بالملك عبر انتقادها الحكومات وتجنب انتقاد النظام.

فقد صوت ممثلوا الإخوان في كانون الثاني 1963 لحجب الثقة عن حكومة وصفي التل متهمين إياها بالفشل في تطبيق الشريعة الإسلامية واحترام القيم الأخلاقية في المجتمع، وعدم القيام بأي شيء باتجاه الجهاد ضد إسرائيل. كما عارضوا أيضا في مجلس النواب بعد عدة أشهر أداء وسياسة رئيس الوزراء سمير الرفاعي وحاولوا في كل مناسبة إبداء موقف المعارضة ضد كل الحكومات.

وبالرغم من أن هذه المواقف كانت مواقف مشتركة لسائر الأحزاب السياسية الأردنية. فإن ما يميز موقف جماعة الإخوان المسلمين عدم الانخراط في المؤامرات التي تستهدف الملك والنظام الأردني من قبل القوى السياسية الأخرى وبالذات الشيوعيين والبعثيين. وهي براغماتية سياسية على صعيد الممارسة ضمنت بقاؤهم واكتسابهم الشرعية القانونية والسياسية. (عبد الكاظم، علي، 1997: 20-22)

وقد ساهمت العوامل الإقليمية بشكل واضح في تحديد نمط العلاقة بين الحكومة الأردنية وجماعة الإخوان المسلمين. فأحيانا تساهم في تعزيز العلاقة بين الطرفين وأحيانا أخرى تعمل على تأزيم الموقف بينهما. فقد أيدت جماعة الإخوان المسلمين في الأردن بدعم من الحكومة الأردنية- أثناء مرحلة تازم العلاقات الأردنية - السورية- حركة الإخوان المسلمين في سوريا في مواجهتها مع النظام السوري خلال الفترة 1979-1982، حيث أتاحت الفرصة للإخوان السوريين

للإقامة والإيواء في الأردن، وكان الإخوان في الأردن في هذه الفترة بمثابة أداة للسياسة الخارجية الأردنية ووصل تحالف الإخوان المسلمين مع النظام الأردني أوجه.

في منتصف الثمانينات، بدأت العلاقة بين الحكومة وجماعة الإخوان بالتوتر، نتيجة التحولات الإقليمية التي حصلت في المنطقة، فلم تعد القوى القومية واليسارية تمثل تهديدا للنظام الأردني، وبدأت القوى الإسلامية هي التحدي الأكبر. (Terzioglu, 2010, 6)

وعندما شكل زيد الرفاعي حكومته التي ابتدأت عهدها بالمصالحة مع سوريا في منتصف الثمانينات من القرن العشرين، تم التضييق على الإخوان المسلمين في الأردن، حيث تم فصل عدد من قياداتهم وعناصرهم ومؤيديهم من وظائفهم في المؤسسات العامة، ومنع توظيف كل من يشتهه بانتتمائه إليهم، فضلا عن اعتقال العديد منهم وحجز جوازات سفر البعض الآخر. وجاءت تلك الممارسات في ظل سريان الأحكام العرفية التي فرضت في عام 1957 واستمرت لغاية عام 1989.

وشكل الانفتاح السياسي في عام 1989 مرحلة هامة في تاريخ الجماعة وفي علاقتها مع الحكومة الأردنية، بعد أن أصبحت تملك حضورا قويا على الساحة الأردنية في ظل غياب أي منافس لها من القوى السياسية الأخرى، فقد أكد الباحث محمد أبو رمان¹ - المتخصص في شؤون الجماعات الإسلامية- أن غياب وضعف التيارات والأحزاب السياسية ذات التوجهات القومية قد ساهم في تأزيم واقع العلاقة بين الحكومة الأردنية والإخوان على اعتبار انه لم يبق في الساحة الأردنية سوى التيارات الإسلامية كتيار معارض والتي بدأت تحقق حضورا شعبيا و جماهيريا مقلق بالنسبة للحكومة الأردنية.

ومع إقرار قانون الصوت الواحد عام 1993 زادت حدة الاستقطاب السياسي بين الحكومة وجماعة الإخوان المسلمين، حيث تم اتهام الحكومة بأنها تستهدف من وراء إقرار هذا القانون تقليل حضور جماعة الإخوان في البرلمان الأردني. وجاء رد الإخوان بمقاطعة انتخابات عام 1997 في محاولة لتهديد شرعية الحياة السياسية والديمقراطية في الأردن، إلا أن قرار المقاطعة أدى إلى حدوث انقسامات في صفوف جماعة الإخوان المسلمين نتج عنها فصل عددا من قيادات الجماعة الذين اعترضوا على قرار المقاطعة مثل (عبد الرحيم العكور، وعبدالله عكايلة، وبسام عموش)، بالإضافة إلى تشكيل حزب الوسط الإسلامي من عدد من الإخوان المسلمين المنشقين والمفصولين كرد فعل ضد قرار المقاطعة. (ابو رمان، 2007: 30-31)

وقام الإخوان بتشكيل تحالفات سياسية معارضة للحكومة مع بقية القوى السياسية الأخرى المخالفة لهم عقانديا كالحزب الشيوعي والأحزاب اليسارية والقومية. فهم جزء من اللجنة التنفيذية العليا لأحزاب المعارضة الأردنية التي تشكلت عام 1996، ويتداولون الرئاسة الدورية عليها كل ثلاثة شهور ويكون الأمين العام للحزب صاحب ولاية الرئاسة هو الناطق الرسمي للجنة التنسيق العليا لأحزاب المعارضة، وقد أشار السيد محمد القاق* إلى أن اللجنة العليا لأحزاب المعارضة ابتدأت بثمانية أحزاب ثم اشتملت على أربعة عشر حزبا، وبعد إقرار قانون الأحزاب الجديد عادت لتشتمل على سبعة أحزاب سياسية.

وقد ظلت جماعة الإخوان المسلمين في الأردن منذ تأسيسها ولغاية كتابة هذا البحث تمارس سياسات ذات مضمون براغماتي عبر انتقادها السياسات الحكومية والحكومات الأردنية المتعاقبة متجنباً انتقاد النظام، وهو ما يعتبر أساس نجاحها.

III- التجريبية في مواجهة المثالية: اعتمدت المشاركة السياسية للإخوان المسلمين في الانتخابات النيابية والحكومة على حسابات الربح والخسارة من واقع التجربة، وهو منظور براغماتي بحت. فقد تم مقاطعة الانتخابات في اللحظة التي يشعر فيه الإخوان أنهم لن يحصلوا مكاسب حقيقية، واشتركوا في الأوقات التي تكون فيها مكاسبهم أكثر من مخاسرهم كمشاركتهم في الحكومة.

أ- المشاركة في الانتخابات النيابية ومقاطعتها.

يعد موقف جماعة الإخوان المسلمين من المشاركة في الانتخابات النيابية مسألة أثارت الجدل الداخلي بينهم. فقد استقال أول مراقب عام للجماعة (أبو قورة) بسبب موقفه الراض لدخول الانتخابات النيابية إلا بعد ضمان الأغلبية (غرايبة، 1997: 45). في حين أن التيار الآخر من الإخوان رأى أن خوض الانتخابات أفضل للجماعة باعتبار أن وجودها داخل البرلمان ولو بعد قليل من المقاعد أفضل من عدم وجودها. وعليه فقد خاضت الجماعة انتخابات عام 1951 وعام 1954 من خلال أفراد مستقلين وليس باسم الجماعة (غرايبة، 1997: 45-46). وخاضت الجماعة انتخابات عام 1956 باسمها وحصلت على أربعة مقاعد وحصلت على مقعدين في انتخابات عام 1963 ومقعدين في انتخابات عام 1967.

* وهو الأمين العام المساعد لحزب الحركة القومية الديمقراطية، والناطق الرسمي السابق للجنة التنسيق العليا لأحزاب المعارضة في الأردن، والتي تضم جبهة العمل الإسلامي الذراع السياسي لجماعة الإخوان المسلمين.

في عام 1984 جرت انتخابات تكميلية لملء ثمانية مقاعد شاغرة فاز الإخوان بمقعدين (أحمد الكوفحي، وعبد الله العكايلة)، كما فاز في الانتخابات التكميلية ذاتها نائب إسلامي مستقل (ليث شبيلات) (إبراهيم غرايبة، 1997: 46).

بعد أحداث نيسان في عام 1989 في جنوب الأردن وإقالة حكومة زيد الرفاعي دخل الأردن مرحلة الانفتاح الديمقراطي حيث جرت أول انتخابات نيابية عامة بعد مرور 22 عاما على سابقتها وإلغاء الأحكام العرفية (عبد الكاظم، 1997: 25). وشارك الإخوان في هذه الانتخابات وأحرزوا 22 مقعدا حيث شكلوا أكبر كتلة نيابية في المجلس النيابي وترأس عبد اللطيف عربيات أحد قيادات الإخوان المجلس النيابي لثلاث دورات متتالية.

أدى التحول الديمقراطي الذي شهده الأردن عام 1989 إلى حدوث تفاعلات داخلية مهمة داخل الجماعة، حيث برزت خلافات تنظيمية وفكرية ومبدئية ظهرت إلى العلن وفي المنابر العامة والصحف، كان أبرزها حول قضايا المشاركة في الوزارة، والتعامل مع قانون الأحزاب، والمواقع التنظيمية الداخلية لقيادة الجماعة في حزب جبهة العمل الإسلامي الذي تأسس لاحقا، والترشيح الموجه لمجلس النواب. وتسببت هذه الخلافات بانسحاب عدد من قياديي الجماعة، وانتخاب قيادة جديدة تختلف فكريا وعمريا عن نمط قيادة السبعينات والثمانينات، وانتخب عبد المجيد الذنيبات مراقبا عاما جديدا، بديلا عن محمد عبد الرحمن خليفة الذي شغل منصب المراقب العام خلا الفترة 1953 - 1994، باستثناء فترات زمنية قصيرة. (عبد الكاظم، علي، 1997: 26)

بعد إقرار قانون الأحزاب الجديد رقم 32 لسنة 1992 والذي يعد بمثابة إعلان لانطلاق الحياة السياسية الحزبية، سيطرت على النقاش الإخواني أسئلة رئيسة أبرزها "المرجعية القانونية" لعمل الجماعة في المرحلة التالية خاصة وان الجماعة مسجلة لدى وزارة التنمية الاجتماعية بوصفها جمعية خيرية، فإذا أرادت أن تتحول إلى حزب سياسي سيحرم عليها بموجب قانون الأحزاب الجديد العمل داخل المساجد والنقابات والاتحادات والعمل الدعوي، وإذا أرادت البقاء بوصفها جمعية فلا يحق لها ممارسة العمل السياسي. (ابورمان، 2007، 28)

وفي ضوء هذه المعادلة سعت الجماعة إلى إعادة صياغة دورها السياسي عبر التحالف مع عدد من المستقلين الإسلاميين حيث تم تأسيس حزب جبهة العمل الإسلامي عام 1992 الذي احتل الإخوان معظم المناصب القيادية فيه، مما تسبب لاحقا باستقالة أغلب الأعضاء المستقلين احتجاجا على تجاوز الإخوان للمقاعد المخصصة لهم في مجلس شورى الحزب، وغياب الحدود الواضحة بين الإخوان وحزب جبهة العمل الإسلامي. وتلا ذلك استقالة عدد آخر من الإخوان المسلمين من عضوية الحزب لخلافات تنظيمية داخلية. كان أبرزها معارضة الحزب لترشيح أعضاء راغبين في خوض انتخابات المجلس النيابي الثاني عشر عام 1993، والتي خاضها الإخوان باسم

حزب جبهة العمل الإسلامي، وحصلوا فيها على 16 مقعداً من أصل ثمانين مقعداً في مجلس النواب. (Horani, 1993: 26).

وعلى الرغم من أن الإخوان المسلمين ادّعوا بأن حزب جبهة العمل الإسلامي ليس امتداداً للحركة فإن واقع الحال كان بخلاف ذلك مع أن حزب جبهة العمل الإسلامي أعلن في آب 1994 انفصاله رسمياً عن جماعة الإخوان إلا أن القيادات الإخوانية بقيت تسيطر على المواقع القيادية في داخل الحزب.

وفي عام 1997 اتخذت جماعة الإخوان المسلمين قراراً بمقاطعة الانتخابات النيابية بدواعٍ عديدة، أهمها:

- 1- التراجع التشريعي حيث طالبوا بإلغاء قانون الصوت الواحد الذي تم إقراره في عام 1993.
 - 2- المطالبة بإصدار قانون المعلمين وقانون اتحاد الطلبة.
 - 3 - مطالبة الإخوان بإلغاء اتفاقية وادي عربة بين الأردن وإسرائيل، وعدم تقييد الحريات العامة في المملكة.
 - 4- الفساد المالي والإداري وتغول السلطة التنفيذية على القضائية. (عموش، 2008:205).
- في عام 2003 عاد الإخوان عن قرارهم السابق في مقاطعة الانتخابات النيابية وقرروا المشاركة على الرغم من أن شيئاً من مطالبهم لم يتحقق. وقد بذل قادة الإخوان جهداً كبيراً في إقناع قواعدهم الانتخابية بضرورة العودة عن المقاطعة ومحاولة إيجاد التبريرات المختلفة لتغيير موقفهم باعتباره خطأً سياسياً أخرجهم من تحت قبة البرلمان وهي الساحة السياسية المتوفرة التي تمكنهم من الحضور السياسي على صعيد الدولة.

ويقدم الإخوان العديد من المسوغات فيما يتعلق باهتمامهم بالعمل النيابي:

- 1- الحرية النسبية في العمل النيابي.
- 2- تمكين الأمة من المشاركة في السلطة.
- 3- مراقبة الحكومة ومحاسبتها.
- 4 - العمل النيابي يستند إلى قاعدة شعبية تمدّه بالقوى المعنوية وتأثير الرأي العام ويتيح معرفة اتجاهات الرأي العام.
- 5- العمل النيابي يتيح لهم تطوير برامجهم السياسية والاجتماعية وتكييفها.
- 6- يمثل العمل النيابي مدخلاً رئيسياً للإصلاح الدستوري والتشريعي.

7- العمل النيابي يسهم في نقل مشروعهم الفكري من الإطار النظري إلى الممارسة العملية.

8- إمكانية التحالف مع القوى السياسية والحزبية الأخرى (غرايبه، 1997: 46).

وقد برر الإخوان المسلمون وحزب جبهة العمل الإسلامي انخفاض حجم مكاسبهم في انتخابات 2003 (حيث حصلوا على سبعة عشر مقعداً)، بتدخل الحكومة في سيرها، وركزوا على أن الحكومة حاولت تحجيمهم من خلال إقرار مبدأ "الصوت الواحد للناخب الواحد". والواقع أن الموقف الرسمي لم يكن هو السبب الوحيد لتراجع مقاعد الحركة الإسلامية، فبالإضافة إلى ذلك تقدم إلى الترشح للانتخابات عدد كبير من مرشحي الحركة الإسلامية، وتنافس العديد منهم على ذات المقاعد. (عبد الكاظم، علي، 1997: 26)

وفي انتخابات عام 2007 لم يستطع الإخوان الوصول إلى البرلمان إلا عبر ستة مقاعد نيابية، حيث تم اتهام الحكومة الأردنية بتزوير الانتخابات النيابية عبر سماحها لأفراد القوات المسلحة الأردنية بالمشاركة الانتخابية وهو أمر لم تعهده الحياة السياسية الأردنية من قبل. وقاطعت جماعة الإخوان المسلمين أيضاً انتخابات المجلس النيابي السادس عشر 2010 والتي جرت في 9 تشرين الثاني. فقد أوصى مجلس شورى جماعة الإخوان وبأغلبية كبيرة (ثمانية وأربعين صوتاً من أصل واحد وخمسين صوتاً) بمقاطعة الانتخابات تحت دواعي عديدة منها:

- ضرورة استبدال قانون الانتخاب ساري المفعول بقانون آخر يأخذ بمبدأ القائمة النسبية.-

- ضرورة القيام بإصلاح سياسي شامل قبل إجراء الانتخابات النيابية. -

- اتهام الحكومة بعدم توفير ضمانات كافية تضمن عدم تكرار ما حدث في انتخابات 2007.

ولذلك نستطيع القول أن مشاركة الإخوان المسلمين في الانتخابات النيابية تعتمد على حجم المنافع المتحققة، وهو معيار براغماتي، ويلخص الجدول رقم (5) عدد المرات التي ترشحت فيها جماعة الإخوان المسلمين وعدد المقاعد التي فازت بها في جميع الانتخابات النيابية التي جرت في الأردن منذ عام 1951.

جدول رقم (5): مشاركة الإخوان المسلمين في الانتخابات النيابية

عدد أعضاء مجلس النواب	عدد المقاعد التي فازت بها	المشاركة / المقاطعة	الانتخابات النيابية
40 نائبا	-	المشاركة	انتخابات عام 1951
40 نائبا	-	المشاركة	انتخابات عام 1954
40 نائبا	أربعة مقاعد نيابية	المشاركة	انتخابات عام 1956
40 نائبا	مقعدين	المشاركة	انتخابات عام 1963
40 نائبا	مقعدين	المشاركة	انتخابات عام 1967
40 نائبا	مقعدين	المشاركة	انتخابات عام 1984
80 نائبا	اثنان وعشرون مقعدا	المشاركة	انتخابات عام 1989
80 نائبا	سنة عشر مقعدا	المشاركة	انتخابات عام 1993
80 نائبا	-	المقاطعة	انتخابات عام 1997
110 نائبا	سبعة عشر مقعدا	المشاركة	انتخابات عام 2003
110 نائبا	سنة مقعدا	المشاركة	انتخابات عام 2007
120 نائبا	-	المقاطعة	انتخابات عام 2010

الجدول من إعداد الباحث

ويشير التاريخ السياسي لجماعة الإخوان المسلمين إلى التزام نواب جماعة الإخوان المسلمين بنهج وفلسفة الجماعة القائم على انتقاد الحكومات الأردنية المتعاقبة وتجنب انتقاد النظام، عملا بسياسة الفصل ما بين الحكومة الأردنية والنظام الحاكم ممثلا بالملك، وحاولوا في كل مناسبة إبداء موقف المعارضة ضد كل الحكومات الأردنية، فلم يمنح نواب الإخوان المسلمين الثقة في كل تاريخهم البرلماني إلا لحكومتين الأولى في عهد حكومة سليمان النابلسي عام 1956 بوصفها حكومة الأغلبية البرلمانية، والثانية لحكومة مضر بدران عام 1989 حيث وضع نواب الإخوان المسلمين أربعة عشر شرطا لنيل ثقتهم منها: التوجه نحو تطبيق الشريعة الإسلامية، وإعادة المفصولين من الجامعات الحكومية والمؤسسات الرسمية، وعدم تدخل الأجهزة الأمنية في تعيين في وظائف الدولة، وقد تعهدت الحكومة بتنفيذ هذه المطالب (البدور، 2011: 78-80)

ب- المشاركة في الوزارة.

كان الإخوان المسلمين في كثير من الأحيان شركاء في السياسات الرسمية أو جزء منها، خاصة عندما شاركوا في وزارة مضر بدران. فقد منح نواب الإخوان المسلمين الثقة لحكومة مضر بدران 1989-1991، وشاركوا بعد سنة من تشكيل حكومته بخمسة حقائب وزارية كما هو موضح في الجدول رقم (5).

جدول رقم (6): الحقائق الوزارية التي حصل عليها الإخوان في حكومة مضر بدران.

الوزير	الحقيبة الوزارية
د.عبدالله العكايلة	وزارة التربية والتعليم
ابراهيم الكيلاني	وزارة الاوقاف
د.عدنان الجرجولي	وزارة الصحة
د.ماجد خليفة	وزارة العدل
يوسف العظم	وزارة التنمية الاجتماعية

وقد واجهت جماعة الإخوان المسلمين العديد من الانتقادات لتوليهم المناصب الوزارية من زوايا عدة:

- 1- إنها وزارات خدماتية وليست سيادية.
- 2- اشتراكهم في الحكومة يتناقض مع مبادئهم ومواثيقهم التي تهدف إلى إقامة شرع الله في الأرض. فالسياسة الثابتة عند الإخوان-حسب محمد ابو فارس- منذ نشأتهم هي عدم المشاركة في الوزارة، وان مشاركتهم تتنافى مع سياساتهم، فعندما شارك الدكتور اسحق الفرحان في الوزارة بعد أحداث أيلول 1970 اتخذ الإخوان المسلمون قرارا بتجميده، واستمر التجميد عشر سنوات. أما مشاركة الإخوان في حكومة مضر بدران فقد جاءت مخالفة لأنظمة وتعاليم الجماعة (أبوفارس، محمد، 2000: 95-97)، وتتناقض مع مبدأ الجراءة في الحق ويكون المشترك منافقا بحكم المسؤولية للمسؤولين ومادحا لهم بما ليس فيهم، خاصة وان الولاء أمر عقدي لا يكون لغير الله والرسول والذين آمنوا "إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون". (أبوفارس، محمد، 2000: 14)

ومع ذلك، فقد برر الإخوان المسلمين موقفهم في ضوء ما يلي:

- 1- أن قضية الامتناع أو قبول المشاركة في الحكومة على إطلاقه أمر لا يستند إلى دليل شرعي، ولذلك ينظر إلى موضوع المشاركة من باب المصلحة العامة في المكان والزمان المناسبين وهو منظور براغماتي بحت.
- 2- أتاحت التجربة للإخوان فرصة العمل المشترك مع الحكومة والأحزاب والقوى السياسية الوطنية.
- 3- أظهرت الجماعة مرونة وقدرة على الحوار وتمت إزالة الحاجز النفسي الذي كان يفصل الجماعة عن الحكومة والأحزاب والقوى السياسية الوطنية.

- 4- المشاركة في انجاز مجموعة من القوانين والتشريعات الهامة وتعديلها بما يتماشى مع المصلحة الشعبية والوطنية وبما لا يتعارض مع الشريعة الإسلامية مثل قانون الأحزاب، والدفاع، ومحكمة العدل العليا... الخ.
- 5- طرح آراء ومواقف الجماعة وفق مرجعيتها الفكرية في الأحداث والمناسبات، والضغط على الحكومة للالتزام بها أو احترامها أو الاستماع لها. (غرايبة، 1997: 47)

وقد رفض الإخوان المسلمون المشاركة في حكومة معروف البخيت التي تشكلت في شهر شباط لعام 2011 بعد الانتخابات النيابية بعدة شهور، لاعتبارات براغماتية، حيث يشير أبو رمان إلى أن الإخوان ليسوا ممثلين في البرلمان، وقاطعوا الانتخابات النيابية الأخيرة، وهناك أصوات برلمانية نافذة ومرتفعه معادية للجماعة، ومن المتوقع أن أي مشاركة لها في حكومة البخيت، حتى وإن كانت محدودة، ستضعها تحت قصف هذه الأصوات ولقمة سائغة في فمها، ما يجعل من المشاركة عبئاً على الجماعة والحكومة على السواء، وسبباً آخر للتوتر مع المجلس. (أبو رمان، 2011)

IV- تغليب الاعتبارات المستقبلية: وهي سياسة إستراتيجية تقوم على النظر في المصلحة الكلية للجماعة لتجاوز الإشكاليات المختلفة في حال الوصول إلى طريق مسدود مع السلطة، حيث تقوم الجماعة باتباع سياسة توزيع الأدوار والبحث عن مخرج حتى لا يصبح مصير الجماعة في خطر.

1- براغماتية توزيع الأدوار والبحث عن مخرج:

يؤكد الباحث حسن البراري أن جماعة الإخوان المسلمين في الأردن كانت دائماً منقسمة أيديولوجياً بين الصقور (التيار المتشدد) والحمائم (التيار المعتدل) وهو انقسام أفاد الجماعة وعزز من موقفها من الناحية التاريخية. فالحمائم - ومعظمهم من الضفة الشرقية - عملوا كقادة للحركة ووسادة عزلت النظام عن القاعدة الأكثر تطرفاً في الجماعة. (Barari, 2009: 1)

ويؤكد الباحث أبو رمان (2007، 28) إلى أن هناك جملة من الخصائص والسمات العامة - كما يوضح الجدول رقم (6) - التي تميز كل تيار عن الآخر من خلال رصد الواقع التعليمي والاجتماعي والعشائري.

جدول (7): التيارات السياسية داخل تنظيم الإخوان المسلمين

الصقور (العقديون)	الحمائم (البراغماتيون)
يغلب على أفراده دراسة الشريعة الإسلامية	يغلب على أفراده دراسة العلوم الإنسانية والدراسة في الغرب
اقرب إلى الخليط من أصول فلسطينية وأردنية	ذات طابع أردني بحت

أما نقاط الخلاف الرئيسية بين التيارين فتتمثل بما يلي:

- 1- يؤمن تيار الحمائم بأهمية المشاركة في الحياة السياسية وأهمية التعاون مع النظام السياسي، على الرغم من وجود قضايا خلافية بينهم وبين السياسات الحكومية، وهم يتصرفون كمعارضة موالية للنظام ضمن حدود النظام السياسي. أما الصقور، فأنهم يروا أن المشاركة السياسية هي أداة للوصول إلى السلطة وليست غاية في حد ذاتها. فقد تم اتهام الحمائم بأنهم قد تلاعبوا بقوائم المرشحين في الانتخابات النيابية لعام 2007 عن طريق عقد صفقة مع الحكومة لإبعاد الصقور.
- 2- ينادي الحمائم بالتغيير التدريجي والتطوري، أما الصقور فإنهم يؤكدوا على التطبيق الفوري للشريعة الإسلامية على كل مظاهر الحياة.
- 3- يرى الحمائم بأن جماعة الإخوان المسلمين الأردنية يجب أن يكون لها أجندتها الخاصة بعيداً عن حماس، في حين يصر الصقور على الدعم الكامل لأهداف حماس. (Terzioglu,) (2010, 21-22)

وتصاعدت حالة الاستقطاب الداخلي في تنظيم الجماعة على خلفية العلاقة مع حركة المقاومة الإسلامية "حماس" وهو ما يسمى "بازدواجية التنظيم". فغالبية أفراد الجماعة هم أردنيين من أصول فلسطينية، ويعنيهم بالدرجة الأولى الشأن الفلسطيني. وعلى سبيل المثال: يُعد إبراهيم غوشة عضو المكتب السياسي لحماس، أول الأعضاء المؤسسين في حزب جبهة العمل الإسلامي، وظل مقره العلني مكتب نواب الحركة الإسلامية في عمان، أما خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحماس فقد كان مقره في المركز العام لجماعة الإخوان المسلمين في الأردن قبل أن يتم استبعاده عام 1999.

وقد أدت قضية إخراج قادة حماس من الأردن إلى أزمة حادة داخل تنظيم الإخوان خاصة بعد اتهام حماس بان المكتب التنفيذي للجماعة قد تواطأ مع الحكومة وبالذات نائب المراقب العام السيد عماد أبو دية. وقد أدى اندلاع الانتفاضة الفلسطينية في العام 2000 وتفجر الصراع بين إسرائيل وحماس إلى إعطاء حماس مصداقية في الشارع العربي والأردني مما ساهم في ترجيح كفة التيار المقرب من حماس داخل تنظيم الإخوان، فقد تمكنوا في عام 2002 من السيطرة على المكتب التنفيذي للجماعة وحل همام سعيد -أحد الصقور المقربين من حماس- مكان عماد أبو دية، وشارك الإخوان في الانتخابات النيابية في عام 2003، وحصلوا على 17 نائباً أغلبهم مقربون من حركة حماس حيث انحصرت مطالبهم في ضرورة عودة قادة حماس إلى الأردن (أبو رمان، 2007: 31)

وقد أثرت بشكل سلبي تداعيات فوز حماس الكاسح في الانتخابات الفلسطينية 2006 على علاقة النظام السياسي الأردني بجماعة الإخوان المسلمين؛ إذ حركت القوى السياسية الأردنية المناهضة للجماعة داخل الأردن دعاية مضادة لها محذرين من نفوذها في الشارع الأردني، ومن خطورة أن يفتح انتصار حماس "شهية الجماعة إلى السلطة"، وقد ترافق ذلك مع اختيار زكي بني رشيد-الذي تعتبره دوائر رسمية مقرباً من حماس- أميناً عاماً لجهة العمل الإسلامي، وتصريح عزام هنيدي- رئيس كتلة الإخوان في المجلس النيابي الرابع عشر- الذي قال فيه إن الإخوان مستعدون لاستلام السلطة التنفيذية في الأردن. وفي نفس السنة، اتهمت السلطات الأردنية حماس بتهريب الأسلحة من سوريا وتخزينها في الأردن ما وصل بالأزمة إلى مرحلة حرجة.

وكان هناك توجس حكومي أردني من التيار المتشدد داخل تيار الإخوان الذي اخذ يعمل على تضخيم مؤسسات الإخوان الاجتماعية والمدنية والإقتصادية لتصبح في استقلال عن مؤسسات الدولة. وقد ركزت الحكومة الأردنية على إضعاف "البنية التحتية" لقوة الإخوان المسلمين؛ فقد تم مصادرة جمعية المركز الإسلامي، التي تتضمن ثروة مالية هائلة تصل إلى مئات الملايين² والتي توفر للجماعة روافد هائلة للتجنيد واكتساب الأنصار والمؤيدين وبناء مساحة شاسعة من النفوذ السياسي. وقامت الحكومة أيضاً باتخاذ سياسات صارمة لمحاربة نفوذ الإسلاميين في النقابات المهنية، وتمكنت بحكم قضائي من حل لجنة مقاومة التطبيع النقابية التي يقودها أحد قادة الجماعة واعتقالهم، وحل مجلس نقابة المهندسين أهم النقابات المهنية، وإصدار قانون الوعظ والإرشاد، ومحاصرة الإخوان في وزارة الأوقاف وفي المساجد، وإعادة هيكلة لجان الزكاة لإخراج من لهم علاقة بالإخوان منها.

وفي ذات الإطار، مثلت زيارة النواب الإسلاميين الأربعة إلى عزاء الزرقاوي، وتصريحات النائب الإخواني محمد أبو فارس حول وصفه الزرقاوي بالمجاهد ونزع صفة الشهادة عن ضحايا تفجيرات عمان، "فرصة ذهبية" لإطلاق "الكامشة" على الإخوان ومؤسساتهم، فتم اعتقال عدد من النواب الإسلاميين ومنهم محمد أبو فارس وأبو السكر واتهما بـ"النيل من الوحدة الوطنية بإثارة النعرات" و"الحض على النزاع بين عناصر الأمة"، وفيما بعد أطلق سراحهما بعفو ملكي وسقطت عضويتها النيابية. على إثر ذلك؛ أطلقت الحكومة حملة إعلامية ودعائية لتجيش وتعبئة شعبية ضد "الإخوان". مما دفع بقيادة الإخوان المسلمين إلى إتباع سياسات براغماتية عبر التوقيع على بيان أكدت فيه تمسكها بالولاء للعرش الهاشمي والدولة ونبذ التطرف والعنف

2- تأسست جمعية المركز الإسلامي الخيرية عام 1963 ويعمل بها 3500 شخص يشرفون على دور أيتام ومدارس ومراكز اجتماعية.

وأرسلت تطمينات واضحة وصريحة باتجاه ضبط حجم المشاركة الإسلامية في الانتخابات البلدية والتشريعية القادمة. (خضر، 2010: almoslim.net)

وقد انعكست الأزمة ببعديها الداخلي (الانشقاقات داخل تنظيم الإخوان)، والخارجي (العلاقة المتوترة مع الدولة) في خلق العديد من المشكلات التنظيمية في داخل تنظيم الإخوان المسلمين، ومنها:

- 1- التنافس للسيطرة على صناعة القرار داخل الجماعة بين التيار المعتدل والتيار المتشدد.
- 2- التداخل التنظيمي بين حزب جبهة العمل الإسلامي وبين جماعة الإخوان المسلمين، فمعظم القيادات في الحزب هم أعضاء في الجماعة.
- 3- محاولة حركة الإخوان في أحيان كثيرة فرض الأمين العام للحزب وهو أمر يخالف النظام الأساسي للحزب.

وفي خضم الصراع ما بين الحمايم والصقور، ظهر اتجاهان آخران في جماعة الإخوان المسلمين غيراً مؤخراً بشكل كبير من السياسات الداخلية لجماعة الإخوان المسلمين. التيار الأول، ويضم الناشطين الذين يربطون أنفسهم بحركة «حماس». ومن الناحية العملية، إن هذا التيار متحالف مع الصقور. أما التيار الآخر فيضم الإصلاحيين، الذين يسعون لإصلاح النظام السياسي في الأردن وإبعاد الإخوان المسلمين عن حماس لصالح أجندة أردنية أكثر وطنية. وأعضاء هذه الجماعة غير متعصبين عقدياً. فهم يؤيدون إقامة نظام قانوني مدني بدلاً من الشريعة الإسلامية. (2: Barari، 2009) ومن الأعضاء البارزين في هذه الحركة ارحيل غرابية، الذي اقترح من واشنطن في آذار (مارس) 2009 بأن ينتقل الأردن إلى ملكية دستورية، على غرار النظام الإنجليزي في محاولة للحد من سلطة الملك). وشكلت المبادرة مثالا واضحا في براغماتية توزيع الأدوار؛ فقد طالبت بتحويل الأردن إلى "ملكية دستورية" مقيدة وحكومة منتخبة. مما أثار زوبعة من ردود أفعال غاضبة وخاصة من قبل الحكومة الأردنية. والمفارقة أن القيادات المعتدلة في الحركة الإسلامية هي التي تبنت المبادرة، فيما رفضتها الشخصيات التي عرفت ب"المتشددة"، وعلى رأسهم الأمين العام السابق زكي بني ارشيد. فقد أكد الناطق الإعلامي السابق للجنة التنسيق العليا لأحزاب المعارضة السيد محمد القاق في المقابلة التي أجريت معه، أن التسميات التي تطلق على الإسلاميين في الأردن من حمايم وصقور، لا تعني شيئا، إذا علمنا أن ما يطلق عليهم اسم المتشددين أو الصقور يمارسون سلوك براغماتي في الواقع العملي على عكس طروحاتهم، في حين أن ما يطلق عليهم اسم الحمايم يمارسون سلوكا متشددا وذا طابع أيديولوجي بعكس خطاباتهم ذات المضمون البراغماتي، وهو ما أكدته مبادرة الملكية الدستورية.

وعلى الرغم من أن الكثير من المراقبين والمحليلين قد تحدثوا عن أزمة بنيوية داخل تنظيم الجماعة قد تعصف به، فإن الجماعة استطاعت أن تثبت أن لها القدرة على تجاوز كل هذه الإشكاليات. وهو ما أكده السيد القاق بقوله "لديهم المقدرة على إيجاد المخرج في مرحلة ما قبل الهاوية حيث يتخذوا القرار الذي يناسب الحالة وبما يخدم الجماعة بكليتها بغض النظر عن التيارات المتصارعة داخل التنظيم، فهم لا يصلون إلى مرحلة تكسير العظام في علاقتهم مع الدولة" وهو سر نجاحهم.

ومع ذلك، فقد أصبح ملف الإخوان وعلاقتهم بحماس يصنف بوصفه ملفاً أمنياً وليس ملفاً سياسياً - في عهد الملك عبدالله الثاني الذي تولى السلطة في 1999/2/7- وهو ما أكده الباحث أبو رمان في المقابلة التي أجريت معه. فقد جرت في عام 2008 مباحثات أمنية بين الجانبين الأردني ممثلة بمدير المخابرات العامة السابق محمد الذهبي وعدد من قيادات حماس الموجودة في سوريا برئاسة محمد نزال عضو المكتب السياسي لحركة حماس، ولاقت هذه المباحثات ترحيباً كبيراً من جماعة الإخوان في داخل الأردن، إلا أنها سرعان ما توقفت ولم تسفر عن شيء معلن.

وثيقة الإخوان المسلمين الإصلاحية لعام 2005 والموقف من السياسة الخارجية:

تميز موقف جماعة الإخوان المسلمين تجاه السياسة الخارجية الأردنية بانتهاج مزيج من المواقف العقدية والبراغماتية، وذلك استناداً إلى ميثاق الجماعة وبالذات وثيقتهم الإصلاحية الصادرة عام 2005، على الرغم من أن الأحزاب السياسية الأردنية ومنها جماعة الإخوان المسلمين مغيبة تماماً عن المشاركة في صناعة القرار الخارجي، إلا أن هناك ردود أفعال ومواقف إعلامية قوية من قبل الجماعة تعبر عن تأييدها أو رفضها للسياسة الخارجية المنتهجة من قبل الحكومة الأردنية، ويتلخص موقفهم على النحو التالي:

I- تغليب الاعتبارات القيميّة: ويندرج تحت هذا البند موقف جماعة الإخوان المسلمين من عملية السلام والصراع العربي الإسرائيلي.

1- الموقف من عملية السلام

لم تقف جماعة الإخوان المسلمين في الأردن موقفاً معادياً من بناء علاقات ودية مع شعوب العالم الأخرى، حيث جاء طرحها براغماتياً، وهو ما أكدته وثيقة الإخوان الإصلاحية الصادرة عام 2005، التي نصت على "أن العلاقات الدولية ضرورة إنسانية، ويجب أن تسعى السياسة الخارجية الأردنية لبناء علاقات الصداقة والتعاون مع مختلف شعوب العالم على قدم المساواة، وعلى أساس

من الاحترام وتحقيق المصالح المتبادلة والمعاملة بالمثل، وبما يحقق مقاصد الدين الإسلامي في الهداية والحرية والتعاون الإنساني. وتأخذ بعين الاعتبار في وضع أولوياتها تلك الدول التي لا تنتهج سياسات معادية أو مناهضة لمصالح الأمة، وتتخذ مواقف داعمة أو غير معادية للأمة العربية والإسلامية في مختلف المجالات" (وثيقة الإخوان الإصلاحية، 2005).

وأكدت الوثيقة أيضاً على ضرورة "ممارسة سياسة الانفتاح السياسي والاقتصادي على مستوى العالم، والمشاركة في عضوية مختلف المنظمات الدولية والإقليمية التي تحقق مصالح البشرية والمصالح العليا للأمة العربية والشعب الأردني". وقد أعطت الوثيقة العلاقات العربية والإسلامية الأولوية على حساب أية علاقات أخرى.

وبالرغم من هذا الطرح البراغماتي، فقد بدأت الخلافات بالتفاقم بين الحكومة الأردنية وجماعة الإخوان المسلمين مع دخول الأردن للعملية السلمية. فقد رفض الإخوان المسلمون مبدأ التفاوض مع الجانب الإسرائيلي وتوقيع اتفاقية وادي عربة عام 1994، أو أي مشروع سلمي باعتبار أن فلسطين كاملة بلادا للمسلمين وأن مشاريع السلام ما هي إلا تكريس واعتراف بالكيان الصهيوني وتصفية للقضية على حساب العرب والمسلمين ولذلك فقد دعا إلى طرد السفير الإسرائيلي من عمان ومقاومة كل أشكال التطبيع. وتحت بند القضايا الكبرى أكدت الوثيقة على جملة من الثوابت منها "فلسطين من البحر إلى النهر حق تاريخي وسياسي وقانوني لشعبها الذي هو جزء من الأمة العربية والإسلامية، وإن هذه الأرض ملك ووقف لهذه الأمة، وإن ذلك جزء من عقيدة الأمة ومقدساتها الكبرى، وإن قضيتها تعد القضية السياسية الأولى والمركزية للأمة العربية والإسلامية، وهذا يتطلب منها بذل قصارى جهدها لتحريرها، ودعم شعبها في جهاده من أجل التحرير والاستقلال والعودة". وأن "الصراع مع المشروع الصهيوني هو صراع حضاري بكل أبعاده السياسية والاقتصادية والعسكرية والعقدية، وإن الكيان الصهيوني مصدر الخطر الأكبر على أمننا وحضارتنا ومستقبلنا، وإن اتفاقيات السلام القائمة مع هذا الكيان إنما هي سبيل لتكريس اغتصابه لأرضنا وحرية شعبنا، وأن الجهاد في سبيل الله والمقاومة بكل أشكالها هما السبيل إلى التحرير".

ويبين الجدول رقم (7) مقارنة تاريخية لمواقف الإخوان المسلمين بخصوص القضية الفلسطينية كما جاءت في بيانات 1954 و1985 ووثيقة 2005.

جدول رقم (8): مقارنة بين بيانات الإخوان المسلمين

الموضوع	بيان 1954	بيان 1985	وثيقة 2005	طبيعة التغير
القضية الفلسطينية	أكد على أن الإخوان المسلمون ينظرون إلى قضية فلسطين على أنها قضية إسلامية وهم يحشدون كل إمكانياتهم المادية والمعنوية لتحرير فلسطين من اليهودية العالمية والصليبية الدولية.	اعتبار فلسطين قضية إسلامية. وان الجهاد المشروع طريق تحرير الصهيوني وتحرير فلسطين.	حشد كل الطاقات ثبات في من أجل مقاومة الموقف.	في

الجدول من إعداد الباحث: طالب القانون الأساسي لجماعة الإخوان لعام 1974 بتحرير الأمة الإسلامية ولم يتطرق مباشرة للقضية الفلسطينية، وهو ما اشرنا اليه سابقاً.

ويتضح من الجدول أن موقف جماعة الإخوان المسلمين من القضية الفلسطينية هو موقف عقدي وثابت لم يتغير منذ تأسيسها، ولم يجر أي تطور أو تغيير على هذا الصعيد. ولذلك فقد رفضت الجماعة الاعتراف باتفاقية وادي عربة والاعتراف بالكيان الإسرائيلي أو التطبيع معه وكل ما يترتب من نتائج لاحقة على اتفاقيات السلام مع إسرائيل. لذلك فقد شكل مؤتمر مدريد للسلام الذي عقد في إسبانيا في تشرين الثاني 1991 نقطة مفصلية وسلبية في علاقة النظام السياسي الأردني مع جماعة الإخوان المسلمين.

وعندما المقارنة ما بين البرامج الانتخابية لمرشحي الإخوان المسلمين في الانتخابات النيابية لأعوام 1989، و1993، و1997، و2003، و2007³، يتضح أن هناك موقف عقدي ثابت تجاه القضية الفلسطينية، ويتلخص في:

- 1- فلسطين عربية إسلامية، وتحريرها واجب جميع العرب والمسلمين.
- 2- ليس لأحد كائنا من كان الحق في التنازل عن أي جزء من أرض فلسطين.

3- تجدر الإشارة إلى أن البرامج الانتخابية لمرشحي الحزب في مختلف دوائر المملكة تصدر على شكل كتيبات يصدرها الحزب، وتوزع على كافة محافظات المملكة، وتتضمن شعار الحزب على صفحة الغلاف، وعدد من الآيات القرآنية في الصفحة الأولى، ثم مقدمة تبين الأهداف والمنطلقات للحزب، يليها موقف الحزب من كافة القضايا السياسية والأمنية والاجتماعية والثقافية والاقتصادي والإعلامية. إلا أن البرنامج الانتخابي لعام 2003 طور شعار "الإسلام هو الحل" بإضافة "نعم وإلى الأبد"، و"معا لتحقيق المنظومة الخماسية: تطبيق الشريعة الإسلامية، والعدالة الاجتماعية، والتنمية الاقتصادية، والحرية، والوحدة".

3- الصراع مع اليهود صراع عقائدي حضاري لا تنتهيه اتفاقيات سلام، فهو صراع وجود وليس صراع حدود.

4- جميع الاتفاقات التي تنتقص من حق الأمة في السيادة على كل فلسطين، اتفاقات باطلة.

نستخلص أن هناك اتساقا بين بيانات الإخوان المسلمين ومواقفهم الأساسية وبين سلوكهم السياسي بخصوص القضية الفلسطينية؛ إذ رفضوا كل اتفاقيات التسوية السلمية ابتداءً بمديرد، وأوسلو، ووادي عربة، وما يترتب على الاتفاقيات من نتائج.

II- تغليب الاعتبارات الواقعية: ويمثل موقفهم من التعامل مع الولايات المتحدة الأمريكية ومسألة الوحدة العربية والإسلامية، إحدى ضروب التعامل مع الواقع حتى وإن خالف النص.

1- الموقف من الولايات المتحدة الأمريكية:

تصنف وثيقة الإخوان الإصلاحية الولايات المتحدة الأمريكية من أكثر من زاوية:

الأولى- بوصفها داعمة لإسرائيل العدو اللدود للأمة العربية والإسلامية، فقد نصت الوثيقة على "خطورة ما يتعرض له الشعب الفلسطيني في مواجهة الآلة العسكرية الصهيونية المدعومة من الإدارة الأمريكية، فإن الأمة العربية الإسلامية وفي مقدمتها الشعب الأردني لخصوصية العلاقة، مطالبان بالوقوف إلى جانب الشعب الفلسطيني ودعمه"

الثانية- بوصفها دولة احتلال، فقد نصت الوثيقة على أن "الاحتلال العسكري الأميركي- البريطاني وحلفائهما للعراق اعتداء على حرمة الأرض العربية، وعلى حرمة شعوبها وثرواتها وكرامتها وسيادتها"

الثالثة- تؤكد الوثيقة على أن الهدف النهائي الذي تسعى الولايات المتحدة الأمريكية إلى تحقيقه هو "محاصرة المشروع العربي-الإسلامي النهضوي، وتمزيق الأمة، والتحكم في سياساتها، ونهب النفط والثروات العراقية، وحماية ودعم الكيان الصهيوني وتوسيع نفوذه، وتثبيت أقدامه على أرض الخليج العربي ومياهه، ومحاصرة المقاومة في فلسطين ولبنان، وضرب الممانعة لبعض الدول العربية، وإعادة تشكيل المنطقة سياسياً، وتغيير هويتها الثقافية، إلا أن المواقف الرسمية العربية لم تتمكن من تمثيل مواقف شعوبها ولا حتى على الصعيد الأخلاقي أمام التهيب والترغيب الأميركي المستمر، وإن المقاومة العراقية الباسلة هي المعبر عن مبادئ الأمة ومصالحها أصدق تعبير".

وتعتبر البيانات الانتخابية لمرشحي الإخوان المسلمين في الانتخابات النيابية منذ عام 1989 ولغاية 2007، عن موقف عقدي موحد تجاه الولايات المتحدة الأمريكية ويتلخص في:

- 1- رفض الهيمنة الأمريكية على البلاد العربية والإسلامية.
- 2- رفض الاحتلال الأمريكي للعراق، ودعم المقاومة العراقية لإخراج المحتل.
- 3- ضرورة معاملة الدول الأجنبية وفق مواقفها من القضايا الوطنية والمصيرية للعالم العربي والإسلامي، وبالذات القضية الفلسطينية.
- 4- التمسك بالثوابت الإسلامية في الحوار مع الدول والمنظمات الدولية.

ويعبر موقف جماعة الإخوان المسلمين في بياناتهم وموathيقهم، تجاه الولايات المتحدة عن موقف عقدي ثابت غير متغير، عززه الاحتلال الأمريكي للعراق في عام 2003. إلا أن السلوك السياسي لجماعة الإخوان المسلمين على أرض الواقع لا يتسق مع طرحهم العقدي. فهناك حوارات ولقاءات بين مسؤولين أمريكيين وعدد من قيادات الإخوان المسلمين، فقد التقى مسؤولو حزب جبهة العمل الإسلامي بالسفير الأمريكي في الأردن روجر هاريسون في أيار 1993، واعتذر نواب الحركة الإسلامية عن الاجتماع بوفد أمريكي نيابي زار الأردن في عام 1991 بسبب الموقف الأمريكي في حرب الخليج، وفي عام 2009 قام ارحيل غرايبة بزيارة الولايات المتحدة الأمريكية حيث التقى بعدد من المسؤولين الأمريكيين، وقام بطرح مبادرة الملكية الدستورية؛ لذلك يصنف السلوك الاخواني بأنه سلوك براغماتي يتكيف حسب سياق الموقف السياسي ولا يتفق مع موقفهم من الولايات المتحدة الأمريكية بوصفها داعمة لإسرائيل ودولة محتلة.

3- الموقف من الوحدة العربية والإسلامية:

تنظر جماعة الإخوان المسلمين بموجب وثيقة الإخوان الإصلاحية إلى وحدة الأمة العربية والإسلامية باعتبارها فريضة شرعية، وترى أن الحدود القائمة بين الأقطار العربية والإسلامية ما هي إلا "جراحا في قلوب العرب والمسلمين، وتعددها منكرات وآثار جريمة تأمرية عالمية يجب العمل على إزالتها، حيث تتحمل الأنظمة والحكومات المسؤولية الكبرى في بقاء حالة التشرذم والضعف نتيجة تفردها بالسلطة"، وقد افردت الوثيقة ثلاثة عشر وسيلة لتحقيق هذه الوحدة، منها: تعزيز الوحدة الثقافية، والقانونية، والاقتصادية، تطوير منظمة المؤتمر الإسلامي والجامعة العربية.

وبالرجوع إلى كافة موathيق الإخوان المسلمين منذ تأسيس الجماعة ومقارنتها بالوثيقة الإصلاحية، يلاحظ أنه لا يوجد أي تبدل أو تغيير على موقفهم من الوحدة العربية والإسلامية. فقد طالب حسن البنا بضرورة قيام الدولة الإسلامية التي تنفذ أحكام الإسلام وتعاليمه في الداخل والخارج. أما بيان 1954 فقد نص صراحة على أن الأردن جزء لا يتجزأ من العالم الإسلامي، وفي نفس السياق أكدت المادة الثانية/فرع (و) للتنظيم العالمي للإخوان المسلمين، على ضرورة

قيام الدولة الإسلامية التي تنفذ أحكام الإسلام وتعاليمه عملياً، ونص القانون الأساسي لجماعة الإخوان المسلمين في الأردن لعام 1976 في المادة الثانية على أن "التعاون مع الحركات الإسلامية الأصيلة والعاملين المخلصين للإسلام والعالم اجمع... من أجل تحقيق الأهداف المشتركة وإقامة حكم الله عز وجل وتحرير الوطن الإسلامي والسير به إلى الوحدة وحمل رسالة الإسلام في الدنيا".

أما البيانات الانتخابية لمرشي الإخوان المسلمين في الانتخابات النيابية منذ عام 1989 ولغاية 2007، فقد أكدت جميعها على جملة من الثوابت بخصوص الوحدة العربية والإسلامية، منها:

- 1- النظر إلى وحدة الأمة العربية والإسلامية باعتبارها فريضة شرعية، وإن الحدود القائمة بين الأقطار العربية والإسلامية جراحاً في قلوب المسلمين يجب إزالتها عبر تعزيز الوحدة الثقافية، ولاقتصادية، والقانونية، وتنقية أجواء الأمة، وإنهاء الخلافات الداخلية... الخ.
- 2- العمل على تعميم التجربة النيابية الشورية في الوطن العربي والعالم الإسلامي.

أما على صعيد الممارسة، فإن سلوك الإخوان المسلمين في الأردن يتناقض مع مبادئهم حول فكرة الوحدة العربية والإسلامية من زوايا عدة:

- 1- فهم يقبلون بفكرة الدولة الأردنية، فقد شاركوا في الانتخابات النيابية وفي الحكومة الأردنية، مما يعني أنهم سلموا بفكرة الدولة القطرية.
- 2- تحالفوا مع النظام الأردني في فترات تاريخية كثيرة-تم معالجتها-في مواجهة القوى البعثية والقومية التي كانت تتغنى بفكرة الوحدة العربية.

ويشكل تناقض ظروفاتهم مع سلوكهم السياسي، براغماتية سياسية تهدف إلى الحصول على الدعم الشعبي عبر المطالبة بالوحدة الإسلامية، والحفاظ على وجودهم داخل الدولة عن طريق دعم النظام الحاكم والتسليم بفكرة الدولة القطرية.

الخلاصة ونتائج الدراسة

حاولت هذه الدراسة الإجابة عن أربعة أسئلة مركزية، وقد توصلت الدراسة إلى النتائج التالية:

أولاً- على الصعيد الفكري: على الرغم من أن ظروفات حسن البناء وسيد قطب تشكل الأساس الوجودي لجماعة الإخوان المسلمين، فقد تم تجاوزها بشكل واضح وتم تكييف فكر الإخوان المسلمين في الأردن بما ينسجم مع الواقع المعيش وذلك على النحو التالي:

1- القبول بالقيم الديمقراطية الحديثة: فقد كان البنا يرى أن الحزبية مصدر فساد للناس، وأنها أتلفت أخلاقهم ودمرت روابطهم، وهو أمر لم يعد له وجود في فكر الإخوان سواء على الصعيد الفكري ام على صعيد الممارسة. فهناك قبول للتعددية السياسية وهناك محاولات لخلق تأصيل إسلامي لموضوع التعددية السياسية والحزبية عبر الاستشهاد بالعديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

2- شكلت مبادرة الإخوان الإصلاحية في الأردن عام 2005 تحت عنوان " رؤية الحركة الإسلامية للإصلاح" نقطة مفصلية مهمة على صعيد التطور الفكري للجماعة. فقد أعلنت الجماعة في المبادرة قبولها بالقيم الديمقراطية والتعددية السياسية ومبدأ تداول السلطة منهية الجدل الخاص بموضوع المحاولات التوفيقية بين المصطلحات الديمقراطية الحديثة والمصطلحات الإسلامية المتعلقة بالشورى.

ويشكل التكيف الفكري للجماعة إحدى ميكانزمات البراغماتية السياسية التي لا تتجاهل الواقع لحساب النص. وإذا كان بعضهم يتهم الجماعة بأن هذا التكيف ناتج عن عجزهم عن تغيير الواقع وأنه أمر تكتيكي وليس تطور استراتيجي في فكر الجماعة، فإن هذا الأمر لا يغير في النتيجة في شيء كونهم لديهم القدرة على التكيف مع الواقع على الصعيد الفكري حتى وإن خالفوا تعاليم المؤسسين الأوائل.

ثانيا- على الصعيد الممارسة: استطاع الإخوان تحقيق مكاسب سياسية حيوية في داخل الأردن ابتداء من شرعنه وجودهم بوصفهم جمعية خيرية، وهو أمر تعذر عليهم في الدول العربية الأخرى، مروراً بتشكيلهم لحزب جبهة العمل الإسلامي حيث سيطروا على المواقع القيادية فيه، وانتهاءً باتباع سياسات تضمن وجودهم. فقد تبنى الإخوان العديد من السياسات البراغماتية التي مكنتهم من تحقيق هذه الأهداف منها:

1- حصر خلافاتهم مع الحكومة وليس مع النظام. فجميع الانتقادات التي مارسها الإخوان كانت موجهة للحكومة وليست لمؤسسة العرش.أنا فهناك حصر للخلاف مع الحكومة وليس مع النظام.

2- تأكيدهم على أن أمن الأردن عبادة. فممنذ تأسيس الجماعة لم يُسجَل في تاريخها اللجوء إلى العنف أو الوسائل غير المشروعة على الساحة الأردنية.، وهو أمر أدركه النظام الأردني وكان سببا مهما في مقاومة الضغوط التي مارستها قوى إقليمية ودولية لضرب الحركة الإسلامية في داخل الأردن.

3- كان إنشاء جبهة العمل الإسلامي يخدم جماعة الإخوان المسلمين من منظور براغماتي من زاويتين اثنتين:

أ- ممارسة العمل السياسي عن طريق أحد الأذرع دون زج الجماعة بكليتها في العمل السياسي.

ب- إيهام الطرف الآخر سواء كانت الدولة أم الأحزاب الأخرى بأن الجماعة ذات صبغة غير سياسية من الناحية القانونية حتى لا تنتهم بأنها تجاوزت دورها الحقيقي بوصفها جمعية وليست حزبا.

4- القدرة في التراجع عن أي قرار قد يؤدي بها إلى التصادم مع الدولة. وقد ساهم وجود تيارات مختلفة داخل الجماعة والانقسامات الحادة بين المعتدلين والمتشددين في تسهيل القدرة في العودة عن القرارات بوصفها لم تكن محل إجماع أو كانت من قبل التيار المتشدد الذي لا يمثل الجماعة بكليتها، وقد انحصرت ألياتهم في التالي:

- استبدال القيادات المتشددة بقيادات معتدلة ومقربة من الدولة.
- إصدار بيان ينفي البيان أو البيانات السابقة التي لم تكن محل رضا الدولة. وقد شكلت مبادرة الملكية الدستورية مثالا واضحا في هذا المضمار.
- المناورة السياسية والقدرة في التراجع عن الخطأ. ومثال ذلك تراجع الإخوان عن قرارهم بمقاطعة الانتخابات النيابية في عام 1997.

وقد توصلت الدراسة أيضا إلى أن هناك تأثيراً واضحاً للبيئة المحلية والدولية والإقليمية على علاقة النظام الأردني بجماعة الإخوان ودفع كلا الطرفين إلى تبني سياسات براغماتية أو سياسات ذات طابع عقدي، على النحو التالي:

- محليا: وصلت العلاقة ما بين الطرفين إلى علاقة تحالف استراتيجي في مواجهة القوى الناصرية والقومية والماركسية المدعومة من دول الجوار. فقد دفعت المواجهة بين "إخوان" مصر وجمال عبد الناصر "إخوان" الأردن إلى الرهان على العلاقة مع النظام الأردني خوفاً من مصير شبيهه إذا تمكن القوميون والقوى اليسارية من السيطرة على السلطة في داخل الأردن. وفي هذا السياق سجلت الجماعة نقاطاً عديدة في إطار البرجماتية السياسية، فساندت عام 1957 نظام الحكم في مواجهة محاولة الانقلاب التي قادتها القوى اليسارية والقومية، ووقفت على الحياد في المواجهة بين النظام والقوى الفلسطينية في أحداث أيلول 1970. وبذلك استطاعت الجماعة أن تخلق شرعية سياسية في الأردن. وفي المقابل استطاع النظام الأردني أن يحقق العديد من الأهداف عبر التحالف مع حركة الإخوان منها إضفاء الطابع الإسلامي على النظام الأردني والقدرة على مواجهة القوى السياسية الأخرى، فقد استطاع النظام تقليص دور حركة فتح والفصائل الثورية في المجتمع الفلسطيني في الأردن واستبدالها بجماعة الإخوان المسلمين، وهي السياسة التي أدت لاحقاً إلى تقوية نفوذ وشعبية الإخوان في الأوساط الفلسطينية داخل الأردن.

وبمجرد زوال خطر القوى اليسارية على النظام، بدأت علاقة التحالف بين النظام والجماعة بالفتور وبدأت بالتحول من علاقة تحالفية إلى علاقة توترية، وأصبحت الجماعة تصنف ضمن المعارضة الأشد خطراً على النظام. وزاد التوتر بين الطرفين مع إقرار قانون الصوت الواحد عام 1993 وما تلاه من حزمة التشريعات (قانون الأوقاف، وقانون الوعظ والإرشاد، وقانون الإفتاء، وقانون الاجتماعات العامة، وقانون الجمعيات الخيرية) التي حجمت وجود الإخوان وتأثيرهم في الشارع حيث منع عدد من قيادات الإخوان ورموز الجماعة من الخطابة في المساجد ودور العبادة.

- إقليمياً: كان للعامل الإقليمي الدور الأبرز في تحديد نمط العلاقة بين الطرفين الإخوان المسلمين والنظام، كونه ذو تأثير فعال على الساحة الداخلية. فقد ساهم حظر جماعة الإخوان من قبل الأنظمة العربية وبالذات علاقاتهم الصدامية مع النظام المصري في دفعهم إلى التحالف مع النظام الأردني الذي لم يكن أيضاً على ونام مع النظام المصري على مبدأ من عادي عدوي فهو صديقي. وفي بداية الثمانينيات وأثناء مرحلة تأزم العلاقات الأردنية - السورية، أيدت جماعة الإخوان المسلمين في الأردن الحركة الإخوانية في سوريا في مواجهتها مع النظام السوري خلال الفترة 1979-1982. وأتيحت الفرصة للإخوان السوريين للإقامة والإيواء في الأردن، ووصل التحالف الإخواني مع النظام الأردني أوجه واستمر الحال كذلك حتى عام 1985، حيث بدأت العلاقة بين الحكومة والأخوان بالتوتر، عندما بدأت الحكومة الأردنية عهدها بالمصالحة مع سوريا مما انعكس سلباً على الإخوان في الأردن حيث بدأت مرحلة التصييق عليهم.

ومثلما ساهمت العوامل الإقليمية في تعزيز النزعة البراغماتية عند الإخوان في التقارب من النظام الأردني، فإنها أيضاً ساهمت في تعميق الأزمة بين الطرفين إذا تعلق الأمر بإتباع سياسات ذات مضمون عقدي من قبل الجماعة. فقد بدأت حدة الخلافات بالتفاقم بين الإخوان والنظام مع دخول الأردن للعملية السلمية ورفض الإخوان المسلمين مبدأ التفاوض مع الجانب الإسرائيلي وتوقيع اتفاقية وادي عربة عام 1994. وفي ذات السياق فقد أثرت تداعيات فوز حماس الكاسح في الانتخابات الفلسطينية بشكل سلبي 2006 على علاقة النظام السياسي الأردني بالجماعة، وقد ترافق ذلك مع اختيار قيادات عقدية متشددة في تنظيم الإخوان المسلمين، مما وصل بالأزمة إلى مرحلة حرجة، قبل أن تعود الأمور إلى الانفراج بعد توقيع الإخوان على بيان يتضمن قضايا توضيحية رئيسية في علاقتهم بالمؤسسة السياسية.

- دوليا: لم يكن للعامل الدولي الأثر البارز في تنميط طبيعة العلاقة ما بين الجماعة والنظام وقد يعود السبب في ذلك إلى أمرين اثنين:

الأول- غياب أي تأثير للجماعة على سياسة الأردن الخارجية. وبالتالي فإن موقف الجماعة من الحلفاء الرئيسيين للأردن وبالذات الولايات المتحدة الأمريكية لم يكن يحدد نمط طبيعة العلاقة مع النظام الأردني على الرغم من أن الجماعة كانت تدين باستمرار السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط باعتبارها سياسة متحيزة لإسرائيل

الثاني- إدراك الجماعة أن الأردن بلد صغير ومحدود بموارده وإمكاناته ولا يستطيع أن يكون لاعبا دوليا رئيسيا متجاوزا لإمكاناته وقدراته.

وفيما يتعلق بالصراع الإسرائيلي فإن جماعة الإخوان المسلمين قد اتبعت سياسات ذات مضمون عقدي، فقد غلبت الأبعاد القيمية على الأبعاد النفعية. أما فيما يتعلق بالولايات المتحدة الأمريكية، فقد كان خطاب جماعة الإخوان المسلمين ذا مضمون عقدي على مستوى البيانات والتصريحات، وذو مضمون براغماتي على صعيد الممارسة، فقد كان هناك اتصالات بين الجماعة وبعض المسؤولين الأمريكيين؛ إذ طرحت مبادرة الملكية الدستورية من داخل الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد اتبع الإخوان المسلمين مزيجا من السياسات ذات المضمون العقائدي أو البراغماتي، بحسب سياق الموقف، وهو نوع من البراغماتية السياسية بحد ذاته، فقد استطاع الإخوان أن يتكيفوا مع الواقع الأردني حيث دعموا النظام في اللحظات التاريخية الحرجة وعارضوه في اللحظة التاريخية التي لا تقصم ظهورهم ولا تقضي على وجودهم.

وتطبيقا لنموذج توينبي، أن طبيعة التحدي التي واجهتها جماعة الإخوان على الصعيد المحلي والإقليمي والدولي قد أنتجت وعيا حقيقيا بهذا التحدي مما ساهم في تحديد نمط الاستجابة البراغماتية أو العقدية التي تكفل بقاءهم وشرعنة وجودهم في ظل هواجس الخوف من هذا التنظيم.

Pragmatic and Doctrinal Aspects in Muslim Brotherhood's Policies in Jordan

Khalid M. Aldabas, *Department of Political Science, Yarmouk University, Irbid, Jordan.*

Abstract

The purpose of the study aims at identifying and analyzing the pragmatic and doctrinal aspects in Muslim Brotherhood's policies in Jordan at practical and intellectual levels. It will also answer the following questions: To what extent does Muslim Brotherhood in Jordan pursue a pragmatic and doctrinal line when dealing with internal and external issues? What aspects of their policy do indicate that they are pragmatic or doctrinal? And what are the major factors that drive Muslim Brotherhood to adopt pragmatic or doctrinal policies? To achieve its objectives, the study used the historical, comparative and content analysis approaches. The following findings are concluded: Muslim Brotherhood's political behavior depends on its pragmatism which made their presence legal in Jordan. The study also shows that the 2005 movement's vision for reform is a very significant intellectual pragmatic move as it is a turning point in the movement's position towards democratic values, political plurality and authority rotation. The study also shows that domestic, international regional circumstances have an impact on the relation of Jordanian Regime with the Muslim Brotherhood which prompted both sides to adopt pragmatic as well as doctrinal policies.

قدم البحث للنشر في 2011/3/22 وقبل في 2011/10/9

المراجع العربية

- إبراهيم، إبراهيم مصطفى، 1999. نقد المذاهب المعاصرة، ج1، الإسكندرية، دار الوفاء.
- إبراهيم، زكريا، 1968. دراسات في الفلسفة المعاصرة، ط1، القاهرة، مكتبة مصر.
- أمين، احمد، 1983. قصة الفلسفة الحديثة، ج1، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.
- أنتوني جيدنز، 2002، "مقدمة نقدية في علم الاجتماع"، ترجمة أحمد زايد وآخرون، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، جامعة القاهرة.
- اوتاوي، مارين وحمزوي، عمر، 2008. الإسلاميون في السياسة: ديناميكيات المشاركة، واشنطن: مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي، عدد 98.
- البدور، بكر، 2011، التجربة النيابية للحركة الإسلامية في الأردن 1989-2007، عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع.
- بركات، نظام، 2005، البحث العلمي والايديولوجيا في العلوم الاجتماعية، جامعة اليرموك، الأردن.
- بركات، نظام وآخرون، 1987. مبادئ علم السياسة. عمان: دار الكرمل.
- حسن البنا، 1988. مجموعة رسائل الإمام الشهيد، بيروت، دار العلم.
- خضر، عماد، 2010. جماعة الإخوان المسلمين في الأردن والعلاقة مع الحكم: <http://almoslim.net/node/96039>
- الشمري، عباس، 2000. الانتهازية .. اسلوب الضعفاء وسبيل الدخلاء، مجلة فكر وثقافة: <http://www.annabaa.org/nba47/entehazeya.htm>
- أبو فارس، محمد، 2000. صفحات من التاريخ السياسي للإخوان المسلمين في الأردن، عمان، دار الفرقان للنشر والتوزيع.
- الفتلاوي، علي، 1996. الاستقرار السياسي والاجتماعي في الأردن: دراسة تحليلية في ضوء مفهوم التوازن، عمان الجامعة الأردنية.
- فرحان، اسحق، 2002، الحركة الإسلامية والحقوق والحريات العامة، تحرير إبراهيم غرابية، عمان، مركز دراسات الأمة.
- قطب، سيد، 1983. معالم في الطريق، بيروت، دار الشروق.

- قطب، سيد، 1983. المستقبل لهذا الدين، ط6، بيروت، دار الشروق.
- عبد الكاظم، علي، 1997. الحركات والتنظيمات السياسية في الأردن، تحرير حسين أبو رمان، عمان، دار سندباد للنشر.
- عشماوي، علي، 2006. التاريخ السري لجماعة الإخوان المسلمين، القاهرة: مركز ابن خلدون.
- عموش، بسام، 2008. محطات في تاريخ جماعة الإخوان المسلمين في الأردن، عمان: الأكاديميون للنشر والتوزيع.
- غرايبة، إبراهيم، 1997. الأداء السياسي والتنظيمي للإخوان المسلمين، الحركات والتنظيمات السياسية في الأردن، تحرير حسين أبو رمان، عمان، دار سندباد للنشر.
- غرايبة، ارحيل، 2002. الحركة الإسلامية والحقوق والحريات العامة، تحرير إبراهيم غرايبة، عمان، مركز دراسات الأمة.
- غرايبة، إبراهيم، 1997. جماعة الإخوان المسلمين في الأردن (1946-1996)، عمان: مركز الأردن الجديد للدراسات.
- طه، عزمي، 2003. الفلسفة مدخل حديث، عمان، دار المناهج، ط1.
- أبو رمان، محمد، 2007. الإخوان المسلمون في الانتخابات النيابية الأردنية 2007: نكسة سياسية عابرة أم تآكل في الجماهيرية، عمان، مؤسسة فريدرش ايبرت.
- أبو رمان، محمد، 2011. لماذا رفض "الإخوان"؟، جريدة الغد، 9/شباط/2011.
- مسعد، نيفين، 1991. جدلية الاستبعاد والمشاركة (مقارنة بين جبهة العمل الإسلامية في الجزائر وجماعة الإخوان المسلمين في الأردن)، المستقبل العربي، بيروت، العدد 145.
- منصور، عزمي، 1994. مواقف بعض الجماعات والأحزاب الإسلامية في الأردن من الديمقراطية والتعددية السياسية، عمان، الجامعة الأردنية.
- نقرش، عبدالله، 1991. التجربة الحزبية في الأردن، عمان: وزارة الثقافة.
- الهضيبي، حسن، 1978. دعاة لا قضاة: أبحاث في العقيدة الإسلامية ومنهج الدعوة إلى الله، بيروت، دار السلام.

المراجع الأجنبية

- Barari, Hasan, 2009. *Muslim Brotherhood in Jordan: Hamas in Ascendance*. Washington: The Washington Institute for Near East policy.
- Bar, Shmuel, 1998. *The Muslim Brotherhood in Jordan: Data and Analysis*, the Moshe Dayan Center for Middle Eastern and African Studies.
- Dewey, John, 2010. *How We Think*. D.C.HEATH & CO., PUBLISHERS.
- Horani, Hani and others, 1993. *Islamic action Front Party*, Amman:Al-Urdun Al-Jadid Research Center.
- James, William, 1955. *Pragmatism and four essays from the meaning of the truth*. Cleveland, USA; The world Publishing Company.
- James, William, 1907. *Pragmatism: A new name for some old ways of thinking*, USA, Harvard.
- Leiken, Robert and Brooke, Steven, 2007. The Moderate Muslim Brotherhood. *Foreign Affairs*, Volume 86, No.2
- Peirce, Charles, 1878. How to make our ideas clear, *Popular Science Monthly*, Vol. 12.
- Sabah El-Said, (n.d.). *Between Pragmatism and Ideology: The Muslim Brotherhood in Jordan, 1989-1994* (Policy Papers (Washington Institute for Near East Policy), No. 39.)
- Shmuel, Bar. (n.d). *The Muslim brotherhood in Jordan*, Hebrew University.
- Terzioglu, Banu, 2010. *The analysis of the evolution of the relationship between the Hashemite regime and the Jordanian Muslim Brotherhood*. Middle East Technical University.

الوثائق والبيانات والموسوعات

1. البيانات الانتخابية لمرشحي الإخوان المسلمين لأعوام 1989, و1993, و1997 و2003 و2007.
2. القانون الأساسي لجماعة الإخوان المسلمين الذي اقره مجلس الشورى العاشر بتاريخ 15/شباط/1974.
3. موسوعة العلوم السياسية, 1993-1994, تحرير محمد ربيع و اسماعيل مقلد, جامعة الكويت.

4. النظام العام لجماعة الإخوان المسلمين, 1954.
5. النظام العام لجماعة الإخوان المسلمين (التنظيم العالمي, 1982)
6. وثيقة الإخوان المسلمين الإصلاحية الصادرة عام 2005.

مقابلات شخصية

1. مقابلة الدكتور ارجيل غرايبة من قبل الباحث بتاريخ 2009/8/26
2. مقابلة مع الدكتور محمد ابو رمان من قبل الباحث بتاريخ 2010/5/10
3. مقابلة مع السيد محمد القاق من قبل الباحث بتاريخ 2010/5/14

Table of Contents

Abstracts in English of Arabic Articles

*	Iraq and the Global Economic Crisis Years of 1929-1933 Study in the Reports of King Faisal I and Yassin Al-Hashemi Ismail Noori Mseer	251
*	Approximation Particle in Kufi Syntax Khalid Masa'feh	274
*	Geographical Analyses of Natural Conditions Limiting the Vegetation cover in Oheideh Basin – Southern Jordan Ali Hamdi Abu Saleem	315
*	Time in Asfahani Maqama Mohammad Ali Ibnian, Suhail m. Khasawneh and Ali Ben Tameem	332
*	Arab Renaissance: A study in the Arab Nationalism According to Al Qibla Newspaper (1334-1343AH) (1916-1924AD) Ahmad Al-Jawarneh and Jabr Al Khatib	351
*	Recognition of Family Consolidation in Educational Curriculum in Jordan Ahlam Matakah	374
*	The Countryside of Jerusalem and Its Governors during the 17 th Century Ibrahim Rabayah	394
*	The Genetic Structuralism and the Term Issues in Modern Arabic Critical Approaches Nour-Eddine Seddar	427
*	Reality of International Turkish Relations: The Determinatives and Trends (2002-2010) Mohammed Al-Mogdad	465
*	Pragmatic and Doctrinal Aspects in Muslim Brotherhood's Policies in Jordan Khalid M. Aldabas	518

- Manuscripts should be addressed to:

Secretary General
The Scientific Society of Arab Universities Faculties of Arts
Editor – in –Chief
Association of Arab Universities Journal for Arts
Yarmouk University , Irbid , Jordan.
Tel . 00962 2 7211111
Fax. 00962 2 7211137
E-mail:saufa@yu.edu.jo
Website :http://saufa.yu.edu.jo

Documentation

References in the text are serially numbered between brackets ^() .

References at the end of the article shall be as follows in case the source or reference work is a book:

The author's full name: source or reference work , part, number, publisher, place of publication , year, page(s).

e.g. Dayf, Shawqi : *The First Abbasid Period* ,Dar al- Maarif , Egypt,1966,.24.

In case where a periodical or a journal is consulted , referral thereto shall be as follows :

The author's full name, source or reference work, *name of periodical or journal*, volume number, year, page.

e.g. Sa'aydan , Ahmad Saleem : " On Arabicization of Sciences". *Jordanian Arabic Language Academy Journal*, Volume I .No 2 July 1978,p.101.

References should be listed in the bibliography at the end of the manuscript in alphabetical order of authors' surname, beginning with Arabic references, then foreign ones.

Subscription Information

Annual subscription rates in Jordan: individuals (JD 3.00), institutions (JD 5.00); outside Jordan: individuals (US \$ 7.00), institutions (US \$ 10.00) or equivalent.

Association of Arab Universities Journal for Arts *A Biannual Refereed Academic Journal*

Association of Arab Universities Journal for Arts (AARUJA) is a biannual refereed academic journal published by the Scientific Society of Arab Universities Faculties of Arts at Universities members of the Association of Arab Universities.

Notes to Contributors

Language

AARUJA's Articles are published in Arabic together with their abstracts in English. Manuscript, however, may be published in any other printable language.

Rules Regulating the Journal

- Manuscripts should be submitted in Arabic together with an English abstract. However, submission in either English, French, or any other printable foreign language, with an Arabic abstract, is subject to approval by the Editorial Board
- *AARUJA* publishes genuinely original articles characterized by clear academic methodology, comprehensiveness, and thorough investigation; where exact referencing is made to sources and reference works, and the article has not been previously published anywhere else. A specialized criticism or review of an academic work published in the Arab world or abroad as well as reports on specialized Arab or international symposiums and conferences may be published. Manuscripts accepted for publication in *AARUJA* are approved for academic promotion
- *AARUJA* publishes academic articles in the fields of arts, languages, social and human sciences, social service, journalism and mass communication
- Manuscripts should be computer-typed and double spaced. Four copies are to be submitted together with a floppy disk congruent with IBM (Ms Word)
- Manuscripts including figures, drawings, tables and appendixes shall not exceed thirty pages
- Manuscripts submitted for publication in *AARUJA* shall be sent, if initially accepted, to at least two specialist referees, who are chosen with absolute confidentiality by the Editor –in –Chief
- *AARUJA* reserves its right to ask the author to omit, reformulate, or reword his/her manuscript or any part thereof in a manner that conforms to the publication policy
- Copyright pertinent to the manuscript accepted for publication shall be transferred to *AARUJA*.
- *AARUJA* does not pay remuneration for the articles published therein
- One copy of the issue in which the manuscript is published will be sent free of charge to the sole or principal author of the published manuscript.

Editorial Board

Editor-in-Chief

Mohammad Al-Ajlouni, *Secretary General of The Scientific Society of Arab Universities Faculties of Arts, Dean of the Faculty of Arts, Yarmouk University, Irbid, Jordan.*

Editorial Secretary

Ameera Ali Al-Huwwari, *The Scientific Society of Arab Universities Faculties of Arts.*

Members

Abdallah N. Anbar, Dean of the Faculty of Arts, Jordan University, Amman, Jordan.

Mohammad Rabie, Dean of the Faculty of Arts, Jerash Private University, Jerash, Jordan.

Mohammad Al Anani, Dean of the Faculty of Arts, Petra Private University, Amman, Jordan.

Mohammad. Mahafdhah, Dean of the Faculty of Arts, Al-Hashemet University, Zarqa, Jordan.

Abdul-Hamid Ghuneim, Dean of the Faculty of Arts, Zarqa Private University, Zarqa, Jordan.

Mohammad Obaidallah, Dean of the Faculty of Arts, Philadilphia Private University, Amman, Jordan.

Muhammad M. Al- Droubi, Dean of the Faculty of Arts, Al-Albayt University, Mafrag, Jordan.

Advisory Committee

Mimounah Khalifa Al-Sabah, *Kuwait University, Kuwait.*

Rami Al-MohammadAllah, *An-Najah National University , Palestine.*

Abdullah Al-Nabhan, *albaath University Syria.*

Yusuf M. Abdullah, *San'a University, Yemen.*

Ali Fahmi, *President of the Arabic Language Academy, Libya.*

Khaleel Jahjah, *Lebanese University, Lebanon.*

Fuad Shehab, *Bahrain.*

Mohammad Al-Hudlouq, *KSA.*

Adel Al-Toueasy, *Jordan.*

Hasaneen Rabe'a, *Qatar.*

Ez AlDean AlAmeen Abdulrahman, *Sudan.*

Abeddelhameed Jakon, *Algeria.*

Sami Abeddelhameed Mahmoud, *Al- Sharjah.*

Mousa Jawad Al-Mousoui, *Baghdad Univerrrsity, Iraq.*

© Copyright 2011 by The Scientific Society of Arab Universities Faculties of Arts
All rights reserved.

No part of this publication may be reproduced without the prior written permission of the
Editor-in-Chief.

Opinions expressed in this journal are solely those of their authors and do not necessarily reflect the
opinions of the Editorial Board or the policy of The Scientific Society of Arab Universities Faculties of
Arts

Typesetting and Layout
Majdi Al-Shannaq

ISSN 1818-9849



Association of Arab Universities



*The Scientific Society of Arab
Universities Faculties of Arts*

Association of Arab Universities
Journal for Arts
A Biannual Refereed Academic Journal

**Published by The Scientific Society of Arab Universities Faculties
of Arts at Universities Members of AAU**

Vol. 9

No. 1 B

1433/2012